



بقلم

طه حسين

الأستاذ بالجامعة المصرية

حقوق الطبع محفوظة

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة التجارية الكبرى

حارة فاية رقم ٣ بشارع عابدين

*

الاهداء

الى الاستاذ الصديق احمد لطفى السيد بك
تحية تلميذ ، وتحية صديق

طه حسين

١٧ يناير سنة ١٩٢٥

*

مقدّمة

وانما أسمي هذه الاسطر مقدمة لأن الناس تعودوا تسمية مثلها مثل هذا الاسم فليست هي في حقيقة الأمر مقدمة وما كان مثل هذا السفر ليحتاج الى مقدمة وقد قرأ الناس فصوله كلها في «السياسة» فهم يعرفونها بأنفسهم ولا يحتاجون الى أن يقدمها اليهم أحد وما كان هذا السفر ليحتاج الى مقدمة وأنت لا تكاد تقرأ فصلا من فصوله الا وجدت فيه مقدمته الخاصة — ما كان هذا السفر ليحتاج الى مقــدمة فأنا أسميه سفراً لا لشيء الا لانه مجلد يجمع طائفة من الصحف قد ضم بعضها الى بعض فانت تستطيع أن تسميه سفرا وأنت تستطيع أن تسميه كتابا لان هــذه التسمية صحيحة صادقة من الوجهة اللغوية الخالصة وهي ان صحت وصدقت من هذه الوجهة فهي ليست صحيحة ولا صادقة بالقياس الى الصورة التي أتصورها لما اسميه بحق سفرا او كتابا . ليست هذه الصحف التي اقدمها اليك سفراً ولا كتابا كما اتصور السفر والكتاب. فانا لم اتصور فصوله جملة ولم ارسم لها خطة معينة ولا برنامجا واضحا قبل ان ابدأ في كتابتها وانما هي مباحث متفرقة كتبت في ظروف مختلفة وايام متقاربة حينا ومتباعدة حينا آخر فلست تجد فيها هذه الفكرة القوية الواضحة المتحدة التي يصدر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم وأسفارهم بل أنا اذهب الى بعد من هذا فاحدثك في غير تحفظ ولا احتياط أني مهما أكن قد تكلفت في هذه الفصول من جهد ومشقة فاني لم أعن بها العناية التي تليق بكتاب

يعده صاحبه ليكون كتاباً حقاً ؛ انما هي فصول كانت تنشر في صحيفة سيارة ليقرأها الناس جميعا فينتفع بقراءتها من ينتفع ويتفكه بقراءتها من يتفكه ، ولم يكن بد لكاتبها من أن يتجنب التعمق في البحث والإلحاح في التحقيق العلمي اذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا.
ولقد يكون من الحق عليّ لنفسي وللأدب ولقراء هذه الفصول ان اعترف بأني ما كتبت منه فصلا الا وأنا أعلم أنه شديد النقص « محتاج » الى استئناف العناية به والنظر فيه ، وانا أقدر ان سيتاح لي من الوقت وفراغ البال ما يمكنني من استئناف تلك العناية وهذا النظر حتى اذا فرغت منه ونشرته السياسة عرضت لغيره في مثل هذه الحال العقلية التي عرضت له فيها معتزما أن استأنف العناية به والنظر فيه مستحييا أن اقدمه الى الناس على ما فيه من نقص وحاجة الى الاصلاح . والايام تمضي والظروف تتعاقب مختلفة متباينة أشد الاختلاف واعظم التباين ولكنها متفقة في شيء واحد هو انها كانت تحول دائما بيني وبين ما كنت أريد من تجديد العناية واستئناف النظر . واي الكتاب واي الباحثين لا يشكو مثل هذا في مثل هذه الأيام التي نعيش فيها ؛ أليس كل الناس يحس في هذه الايام كأن شيئا قد طرأ على حركة الزمان فأفسد نظامها وغير اطرادها فهي مسرعة الى حد لم نعهده من قبل ولا نستطيع معه ان ندبر أمورنا ونقدر حياتنا وحاجاتنا كما نحب ونهوى ؛ حركة الأيام أسرع من حركة النفوس حتى لقد يخيل الي ان اليوم في هذا العصر لا يكاد يعدل ساعات من ايامنا تلك التي قضيناها قبل ان تطرأ على مصر هذه الطوارىء السياسية التي تغير فيها كل شيء .

لم أفرغ اذن لهذه الفصول كما يفرغ المؤلف لكتاب ولم أعن اذن بهذه الفصول كما يعني الباحث المحقق ببحث علمي وادبي قيم ، ومع هذا فقد لقيت من الناس رضى وصادفت من نفوسهم هوى فرغبوا الى في ان أضم بعضها الى بعض واجمعها في كتاب منفرد يمكن حفظه والتصرف به على غير ما تحفظ الصحف السيارة ويتصرف بها. ولقد أعرضت عن هذه الرغبة حينا لا لشيء إلا لانى كنت ارجو أن تتيح لى الايام شيئا من فراغ البال يمكنني من استئناف النظر في هذه الفصول وتهيئتها للجمع والنشر ولكن الايام لم تتح لى ما كنت ارجو وما احسب انها ستتيحه لى قبل أمد بعيد. واخذ الناس يلحون على وتجاوز بعضهم الالحاح الى اللوم فكتب الى ينكر على أنى أذنت بجمع القصص التمثيلية في كتاب وأبطأت في جمع احاديث الاربعاء ويسألني أكان مصدر هذا ازدراء للادب العربى واسرافا في حب الادب الاجنبي. كلا يا سيدى الاستاذ انما كان هذا ضنا بالادب العربي وإكبارا له أن تنشر فيه فصول ناقصة شديدة الحاجة الى « الاصلاح » واذ كنتم قد ألححتم من جهة وأبت الظروف على ما كنت أريد من جهة اخرى فدونكم هذه الفصول كما كتبت وكما نشرتها السياسة. لم أغير فيها حرفا ولم أضف اليها شيئا ولم اصلح مما فيها من الخطأ قليلا ولا كثيراً. قد نشرتها صحيفة سيارة فاصبحت حقا لكم فانا ارد اليكم هذا الحق ولست اسألكم الا شيئا واحداً: هو الا تنظروا اليها نظركم الى كتاب في الادب العربي قد فرغ له صاحبه وعني بتحقيقه وتمحيصه.

قالت ان هذه الفصول ليست متصلة ولا ملتئمة ولا خاضعة لهذه الفكرة المتحدة التي يصدر عنها المؤلفون في تأليف كتبهم ومع ذلك فقد

صدرت هذه الفصول عن كاتب واحد وذهب فيها هذا الكاتب مذهبا واحداً وقصد بها الى غرض واحد فهي متحدة مؤتلفة مهما تختلف ومهما تنقصيا هذه الفكرة الواضحة المنظمة ، متحدة فروح الكاتب فيها واضح بين ومذهب الكاتب فيها ظاهر جلي وغرض الكاتب فيها لا يحتاج الى ان يدل عليه. بل اشتركت فيه الدولتان العباسية والاموية وهي لا تكاد تتجاوز طائفة بعينها من هؤلاء الشعراء هي اصحاب المجون والدعابة وطلاب اللهو واللذة . وهي لا تكاد تتجاوز ناحية بعينها من نواحي هؤلاء الشعراء جميعا هي ناحية مجونهم واسرافهم وما كان لذلك من أثر في حياتهم العقلية وما كان بين ذلك وبين الحياة الاجتماعية والسياسية في تلك البيئة من صلة . ولعلك تذكر (وان كنت قد نسيت فستذكر) ان النتيجة الواضحة التي انتهت اليها هذه الفصول كلها هي ان هذا العصر الذي انحلت فيه الدولة الاموية وقامت فيه الدولة العباسية قد كان عصر شك وعبث ومجون او كان الشك والعبث والمجون اظهر مميزاته. وانا اعلم ان هذا لا يعجب الناس ولن يعجبهم وأنا أعلم انهم كرهوا وسيكرهون ان يعمد كاتب الى مثل هذه الناحية من نواحي الادب العربي فيدرسها درسا مفصلا ويظهر الناس على دقائقها وأسرارها ولكني مع ذلك عمدت اليها وسأعمد اليها متى أتيح لي ذلك لاني أعلم ان حياة القدماء كلها ملك التاريخ وان درس هذه الحياة كلها نافع للمؤرخ والاديب بل واجب عليهما وان من الاثم وتعمد الجهل ان نتكلف اخفاء ناحية من النواحي الادبية ربما كانت احق من غيرها ان تدرس ويعني بها الباحثون وما كان لي ولن يكون لاحد من الباحثين الذين يقدرون العلم وكرامته ان نغير التاريخ أو ان نظهر عصراً من

عصور الامة العربية على غير ما كان عليه . فنحن لم نخلق ابانواس واصحابه ونحن لم نلهمهم اللهو والمجون ونحن لم نبعثهم على العبث وطلب اللذة ولكننا وجدناه كذلك فكنا بين اثنين اما أن نجهلهم واما أن نعلمهم فآثرنا الثانية على الاولى واعتقدنا ان العلم خير من الجهل وان الصواب خير من الخطأ وان الشجاعة في التاريخ خير من الجبن فيه ونحن نعلم حق العلم ان ليس على عقول الناس ولا اخلاقهم خطر من مثل هذه المباحث الادبية فالناس لم ينتظروا لهو ابي نواس واصحابه ليعرفوا اللهو والناس لم ينتظروا هذه الفصول وامثالها ليعرفوا العبث ونحن لم نكتب هذه الفصول وامثالها لنحبب العبث الى الناس ونرغبهم فيه فان في ظروف هذه الحياة التي نحياها مرغبات في اللهو ومحرضات على العبث اقوى وابلغ من لهو ابي نواس وعبث مطيع وحماد . قل ما شئت في هذه الفصول فانك لن تستطيع ان تنكر ان لها نتيجتين قيمتين الاولى انها جلت ناحية من نواحي تاريخ الادب العربي لم تكن واضحة ولا بينة وليس هذا بالشيء القليل ، الثانية أن فيها ضربا من مناهج البحث احسب أن الادباء لو يفهمونه لاستطاعوا أن ان يستغلوا هذه الكنوز القيمة التي لا تزال مجهولة والتي نشأ من جهل الناس الناس اياها بغضهم من الادب العربي وانصرافهم عنه في أنفة وازدراء .

إن الذين يزدرون الادب العربي ويبغضون منه يجهلون هذا الادب جهلا منكرا ، وما كان لمن جهل شيئا أن يحكم عليه .

فكرت في هذا كله حين ألح على الملحون في نشر هذه الفصول فانتهيت الى أن اذنت بنشرها كما هي وأنا أرجو أن يكون لها ما أطمع فيه من أثر في فهم الادب العربي وكتابة تاريخه

طه حسين

*

القدماء والمحدثون [1]

الجهاد بين القديم والجديد — مصدره ونتائجه فى فروع الحياة المختلفة
مظهره فى الحياة الأدبية — آثاره العظيمة فى الأدب اليونانى
وآثاره الضئيلة فى الأدب العربى

لم يخل عصر أدبى فى حياة الأمم التى كان لها نصيب من الأدب وحظ فى إتقان القول وإجادته من هذه المسألة : مسألة القدماء والمحدثين. ولم تظهر هذه المسألة فى عصر من العصور أو عند أمة من الأمم إلا أحدثت خلافاً عظيماً وجدلاً عنيفاً ، وقسمت الأدباء على اختلاف فنونهم الأدبية أقساماً ثلاثة : قسم يؤيد القدماء تأييداً لا احتياط فيه ، وقسم يظاهر المحدثين مظاهرة لا تعرف اللين ، وقسم يتوسط بين أولئك وهؤلاء ويحاول أن يحفظ الصلة بين قديم السنة الأدبية وحديثها وأن يستفيد من خلاصة ما ترك القدماء ويضيف إليها ما ابتكرت عقول المحدثين من ثمرات أنتجها الرقى وأثمرها تغير الأحوال وتبدل الظروف .

كذلك كانت الحال قديماً ، وكذلك كانت الحال فى هذا العصر الذى نعيش فيه . وفى الحق أن الاختلاف بين القديم والحديث ليس مقصوراً على الأدب وحده ، وإنما هو يتناول كل شىء . يتناول الفن والعلم ، ويتناول الفلسفة ويتناول الحياة نفسها فى فروعها المختلفة المادية والسياسية والاجتماعية .

---

(١) نشرت بجريدة السياسة فى ١٧ ربيع الثانى سنة ١٣٤١هـ ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٢م

وذلك معقول، لأن الحياة الانسانية كما قلنا غير مرة تقوم على أساسين لا ثالث لهما ولا محيد عنهما، هما البقاء من ناحية، والاستحالة من ناحية أخرى، فنحن بحكم البقاء وحاجتنا اليه مضطرون الى أن نصل بين أمس واليوم والغد، مضطرون الى أن نصل بين القديم والجديد، مضطرون الى أن نشعر بأن حياتنا الآن هى إن لم تكن نفس حياتنا قبل الان فهى أثر قوى من آثارها ونتيجة لازمة من نتائجها.

ونحن بحكم الاستحالة والتطور مكرهون على أن نشعر بأن يومنا يغاير أمسنا، وبأن حياتنا الآن إن أشبهت حياتنا أمس من وجه أو وجهين فهى تغايرها من وجوه. واذن فنحن بين الشعور بالبقاء والحاجة اليه، وبين الشعور بالتطور والحاجة اليه مترددون فى ميولنا وأهوائنا وآرائنا. فمنا من يؤثر هذا الشعور بالبقاء فيغلبه على كل شىء فى نفسه حتى تصبح غايته الحقيقية ألا يكون إلا ابن أمسه وإلا حلقة من حلقات هذه السلسلة المتصلة التي لانعرف لها أولاً ولا آخرا وهى سلسلة الحياة. ومنا من يؤثر هذا الشعور بالتطور والاستحالة فيكلف بالجديد ويرغب فيه ويندفع فى هذه الرغبة وذلك الكلف فلا يفكر الا فى شىء واحد هو أن يعدو وأن يعدو ما استطاع الى الأمام دون أن يقف فيفكر فى حاضره أو أن يلتفت فينظر إلى ماضيه. ويشتد الخلاف ويعظم بين هذين الطرفين المتناقضين بين أنصار القديم المسرفين فى نصره وأشياع الجديد الغلاة فى التشيع له. يشتد هذا الخلاف ويعظم حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلفة التى تخضع للحياة وتحياها هادئة وادعة غير شاعرة بتطور ولا ببقاء

وانما هى محققة لهذين الأصلين تحقيقا طبيعيا غير متكلف ولا منتحل .

تشعر هذه الجماعات الوسطى بما بين هذين الطرفين المتناقضين من جدال عنيف وخلاف عظيم فتتوسط بينهما ، ويظهر منها هذا القسم الثالث الذى هو خلاصة الأمة والذى هو المحقق الوحيد لاعتدال الطبع وصفاء المزاج والذى هو المحقق الوحيد للصلة الصحيحة المنتجة بين القديم وبين الحديث .

نجد هذه النظرية فى كل ضرب من ضروب الحياة العامة عقلية كانت أو شعورية ، سياسية كانت أو اجتماعيـة . وهى منتجة نتائج تختلف قوة وضعفا باختلاف موضوعاتها . فأما نتائجها فى الحياة الأدبية فهينة سهلة محتملة ، لا تتجاوز الخصومات اللفظية إلا قليلا . وكذلك الحال فى الحياة العقلية الفلسفية . فأما فى العلم فانتصار الجديد يسير محقق لا خوف عليه ولا شك فيه . لأن العلم قد أصبح أقل الاشياء الانسانية استعدادا للخلاف والمناقضات .

ولكن هذه النظرية إذا ظهرت فى الحياة الاجتماعية والسياسية أنتجت فى أكثر الأحيان أقبح الآثار وأسوأها ، لان الحياة الاجتماعية والسياسية هما أشد ضروب الحياة مساسا بالمنافع على اختلافها والمصالح على تباينها . والانسان بطبيعته عبد لمنفعته . يبذل فيها حياته طيب النفس قرير العين . ومن هنا لم نعلم أن خلافا أدبيا فى أسلوب الشعر والنثر أو أن خلافا فى نظرية من نظريات الفلسفة أو أصل من أصول العلم أحدث ثورة سفكت فيها الدماء وأزهقت فيها النفوس واختل لها نظام الأمن ، حينما الاختلاف فى تقسيم

الثروة أو فى نظام الحكم كان — وسيظل دائما — مصدر هذه الثورات التى أشرنا اليها .

ومالنا نذهب بعيداً ونحن لا نعلم أن شاعرا قتل شاعرا آخر لانه يخالفه فى الوجهة الشعرية ، أو أن فيلسوفا قتل فيلسوفا آخر لانه يخالفه فى أصل من أصول الفلسفة . لا نعلم شيئا من هذا ، ولكنا نعلم أن الفرد قد يقتل الفرد . وأن الجماعة قد تعلن الحرب على الجماعة لخلاف مصدره السياسة أو مصدره المال . لا تذكر لى الخلافات الدينية التى أحدثت الثورات وضروب الاضطهاد . فما أحدثت هذه الثورات من حيث إنها اختلافات فى الحياة العقلية أو الادبية أو الفنية الخالصة . وانما أحدثتها من حيث إنها اختلافات فى ضروب الحياة الاجتماعية والسياسية نفسها

ستقول لى : ولكن الاختلافات فى السياسة والاقتصاد وما اليهما من نظم الحكم وتقسيم الثروة انما هو أثر من آثار هذه الحياة العقلية والادبية والفنية . وليس فى هذا شك فان سلسلة الحياة متصلة على اختلاف حلقاتها . ولسنا نزعم أن الحياة الادبية مصدر الخير الخالص . وانما نزعم أن هذه الحياة أشد ضروب الحياة الانسانية براءة من العنف والظلم والشر لانها تكاد تنحصر فى الكلام دون أن تمس الحكم ودون أن تمس المال

اذن فالخلاف بين القديم والحديث أصل من أصول الحياة ، وأن يشتد الجهاد بين أولئك وهؤلاء حتى يتم انتصار الجديد فيصبح هذا الجديد قديما ويظهر جديد آخر يحاربه

ولعل من ألذ أنواع الجهاد بين القديم والجديد وأحبها الى النفس هذا

الجهاد الذى يقع بين الشعراء والكتاب فى عصورهم المختلفة . هذا الجهاد لذيذ لأنه برىء ، ولذيذ لأنه يمثل الاختلاف بين لونين من ألوان الحياة العقلية والشعورية ، أحدهما قد أخذ يضمحل ويمحي ، والآخر قد أخذ يظهر ويقوى . ولقد قلنا فى أول هذا الفصل إن الأمم التى كان لها حظ من الحياة الأدبية قد عرفت كلها هذا الخلاف بين القدماء والمحدثين .
ولكنا مضطرون إلى أن نلاحظ أن نفس هذا الاختلاف بين القدماء والمحدثين يتفاوت تفاوتا عظيما باختلاف الأمم والأجيال . فهو منتج جداً فى أمة من الأمم ، عقيم جدا فى أمة أخرى ، معتدل الانتاج فى أمة ثالثة . ثم إن نوعه نفسه يختلف باختلاف هذه الأمم والأجيال . فقد يختلف القدماء والمحدثون فى الالفاظ ، وقد يختلفون فى المعاني ، وقد يختلفون في الألفاظ والمعنى ، وقد يختلفون فى الأنواع الفنية نفسها فتظهر الحياة الأدبية فى هذا العصر فى صور ومظاهر جديدة لم تألفها العصور الأولى ولم تعرف من أمرها شيئا .

أنظر إلى الأمة اليونانية مثلا وإلى الشعر تجد أن تطورها لم يستتبع تطور الشعر فى لفظه ومعناه فحسب وانما استتبع تطوره فى نوعه أيضاً ، فكان الشعر القصصي مظهر الشعور اليوناني أيام بداوة الأمة اليونانية وبدء تحضرها . فلما عظم حظها من الحضارة المادية وأخذ عقلها فى التفكير وذاقت لذة الترف والثروة كان الشعر الغنائي مظهر شعورها . فلما قوي نصيبها من الحضارة وتأسست فيها المدن المختلفة ذات النظم السياسية والاجتماعية المعقدة ، وأخذت الفلسفة تظهر وتبسط سلطانها كان الشعر

التمثيلى مظهر شعورها . فالخلاف بين القدماء والمحدثين عند الأمة اليونانية كان عظيما معقداً مختلف المناحى لأنه كان يتناول اللفظ والمعنى والأسلوب والصورة والنوع والموضوع حينما هو عند الأمة العربية ضيق محصور لا يكاد ينتج شيئاً ، لانه لايتناول إلا اللفظ ، وقد يتناول المعانى فى عصر من العصور هو أول العصر العباسى . ذلك أن الخلاف قد وقع بالفعل فى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للهجرة بين أنصار الجاهليين والاسلاميين . وكان أبو عمرو بن العلاء يروى كارها شعر جرير ، لأن هذا «المولد» كان مجيدا . ثم ظهر الخلاف فى منتصف القرن الثانى بين أنصار العرب جاهليين وإسلاميين وأنصار المحدثين ، أى ظهر الخلاف بين بشار وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من الادباء ، وبين امرىء القيس وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من أئمة اللغة ورواة الشعر . ثم ظهر الخلاف فى القرن الثالث بين الذين كانوا ينتصرون للبحترى وأبي تمام ، والذين كانوا ينتصرون لابي نواس ومسلم ، ثم ظهر الخلاف فى القرن الرابع بين الذين كانوا ينتصرون للمتنبي والذين كانوا ينتصرون لابى تمام . فأنت ترى أن كل هـذا العصر الادبي الذهبي عنـد العرب كان مملوءاً بالاختلاف بين القدماء والمحدثين . وليس عليك الا أن تنظر فى كتب الادب على اختلافها لترى هذا المقدار الموفور من الـكلام الـكثير الذى قيل وقيـل وقيل فى الانتصار للشعراء وتفضيل بعضهم على بعض سواء منهم أبناء الجيل الواحد والذين اختلفوا جيلا وعصرا . ولـكني أريد أن أعلم فيم كان الاختلاف عند العرب بين القدماء والمحدثين ؛ وما نتائجه الـكبرى ؟

الحق أنى أكاد أعلم ذلك ، فقد كان الخلاف قبل كل شيء في اللفظ ثم في المعنى ثم لم يتجاوز هذين الامرين . كان القدماء والمحدثون أيام بني أمية يختلفون في اللفظ اختلافا ظاهراً ، وكانوا يتخذون اللفظ مقياسا لجودة الشعر ، فكلما قرب هذا اللفظ من البداوة ، وكلما كان رصينا يملأ الفم ويهز السمع كان الشعر جيداً ، أي أن جزالة اللفظ وشدة القرب بينه وبين ألفاظ البادية في العصر الجاهلي كانت هي المزية الأولى للشاعر . ثم تأتي بعد ذلك جودة المعنى والتعمق فيه

ثم ظهر هذا الخلاف بعينه في أول العصر العباسي فاختلف الشعراء العباسيون واختلف معهم الأدباء واللغويون في أى الشعرين أجمل وأرق وأحسن : الشعر الذي يحتذي شعراء الجاهلية والاسلام في متانة اللفظ ورصانته وبداوته - أم الشعر الذي يتخير الالفاظ السهلة العذبة التي ألفها الناس عامة لا علماء اللغة خاصة ؛ وظهر إلى جانب هذا خلاف آخر في المعنى فاختلف الشعراء في معاني الشعر : أتبقى كما كانت بدوية أعرابية - أم تتحضر كما تحضر الناس ؛ أتصف الاطلال والخيام والصحراء والابل والخيل والسلاح ، أم تعدل عن هذا كله إلى القصور والانهار والرياض والمدن ؟ ثم أتتناول الشعور الانساني فتصفه لا كما يشعر به الناس في بغداد ودمشق والبصرة والكوفة ومصر بل كما كان يشعر به الأعراب في باديتهم وصحرائهم ، أم تتناول هذه المستحدثات الحضرية والمستطرفات التي لم يعهدها الاعراب ؟ وعلى الجملة أيعيش الشعراء عصرهم الذي هم فيه ، أم يعيشون عصور الآباء والاجداد ؟

ظهر هذا الخلاف وكان أشد أنواع الخلاف إنتاجا وأكثرها خصبا لان أنصار الجديد وعلى رأسهم أبو نواس أقدموا غير خائفين ولا وجلين فوصفوا لنا الحياة الجديدة دقيقها وجليلها ، مفصلها ومجملها، فجددوا الشعر من ناحية - ونفعوا التاريخ من ناحية أخرى . وكان هذا كل ماعرف العرب من اختلاف فى الشعر بين القدماء والمحدثين : اختلاف فى اللفظ نشأت عنه مدرسة مسلم بن الوليد التى أخرجت أبا تمام والمتنبى وأمثالهما من أصحاب البديع - واختلاف فى المعنى نشأت عنه مدرسة أبى نواس التى أخرجت البحترى وغيره من أولئك الشعراء الذين آثروا اللفظ القديم والمعنى الجديد - ولم يتكلفوا بديعا ولا استعارة ولا جناسا

هذا كل ما عرف أهل الشرق العربى من اختلاف بين القدماء والمحدثين - وهذا كل ما أنتجه الخلاف ، وهو على خطره ليس بالشىء الكثير ، فلم يتغير الشعر العربى فى موضوعه ولا فى صورته ولا فى نوعه. ولم يتغير فى لفظه ومعناه الا تغيرا قليلا جداً . بقيت القصيدة كما كانت معتمدة على وحدة القافية والوزن غير معنية بوحدة المعنى ، وبقى موضوع الشعر كما كان مدحا وهجاء ورثاء ووصفا وغزلا ، وإنما تجددت هذه الموضوعات دون أن تتغير . ولم يكن تجددها جوهريا ولا مطرداً ، وانما هو التجدد الذى يكفى ليشعرك بالفرق بين العصر القديم والعصر الجديد . وقد مضت القرون وتعاقبت والشعر العربى فى لفظه ومعناه وصورته وموضوعه كما كان قديما لم ينله من التغير والتطور إلا هذا المقدار الضئيل الذى أشرنا اليه .

ولقد يكون من الخير أن نعرف العلة وأن نتبين الاسباب القوية التي أكرهت الشعر العربي المحافظ على أن يتطور قليلا . ولعلنا نستطيع أن نحدثك عن ذلك في الاسبوع الآتي

*

القدماء والمحدثون (١)

رأينا فى الاسبوع الماضى أن الآداب العربية قد أخذت بحظها من هذه الظاهرة العامة التى تشترك فيها الآداب الحية جميعاً : ظاهرة الخلاف بين القدماء والمحدثين . ورأينا أن حظ الآداب العربية من هذا الخلاف على عظمه وكثرة الكلام فيه لم ينتج لهذه الآداب شيئاً كثيراً فى الشعر على أقل تقدير . وسنعرض للنثر فى غير هذا الفصل .

لم ينتج لها شيئاً كثيراً ، فظل موضوع الشعر كما كان لا يكاد يتجاوز المدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف وما يتصل بهذه الموضوعات وظل شكل الشعر كما كان لم يخترع فيه شكل جديد ولم تضف اليه صورة طريفة ، وانما بقيت القصيدة مظهرا للشعر محتفظة بأوزانها وقوافيها ، واذن فلم يحدث تطور الامة العربية ولا اشتداد الخلاف بين القدماء والمحدثين شيئاً ذا خطر فى موضوع الشعر أو شكله كما يقول أهل القانون ، وإنما أحدث شيئاً جديداً في لفظ الشعر ومعناه كما قلنا فى الفصل الماضى . وربما اضطررنا الى أن نقول اليوم أيضاً إن هذا الشىء الجديد كان أقل جدا مما كنا ننتظر ، فان الحياة العربية تطورت فى القرن الاول والثاني للهجرة تطورا يوشك أن يكون كاملا ، بل قد لا نخشى الغلو إن قلنا إن هذه الحياة العربية تبدلت فى هذين القرنين تبدلا تاما ، فكان من المعقول أن يتحقق التناسب الصحيح بين هذه الحياة الجديدة وبين الآداب ، فتتجدد هذه

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٣٤١ — ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٢

الآداب كما تجددت الحياة نفسها . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . فبينما كانت الحياة فى بغداد أبعد ما تكون عن الحياة فى صحراء جزيرة العرب من كل وجه كان الشعر الذى ينشد فى بغداد شديد القرب جداً من الشعر الذى كان ينشد فى تلك الصحراء . واذن فنحن بإزاء ظاهرتين لا بد من تفسيرهما : الاولى أن الحياة العربية قد تطورت تطوراً كاملا وأن الشعر العربي قد تطور معها تطوراً ما . الثانية أن تطور الشعر لم يكن مناسبا لتطور الحياة فى جميع فروعها . وربما لم يكن من العسير جدا تفسير هاتين الظاهرتين . ذلك أن الامة العربية قد خضعت خضوعا تاما لمؤثرين مختلفين اختلافا تاما ، فبينما كان أحدهما يدفعها دفعا قويا إلى الامام فتندفع ، كان الاخر يجذبها جذبا قويا إلى الوراء فتنجذب . كانت تندفع إلى الامام اندفاعا قويا فى الحضارة المادية ، يدل على قوته هذا الفرق الظاهر بين قصور بغداد وحدائقها ورياضها وما تشتمل عليه هذه القصور والحدائق والرياض من مظاهر الحضارة وأدواتها ، وبين خيام الصحراء وما كانت تحتوي من مظاهر العيش الخشن والحياة الساذجة . وكانت تنجذب الى الوراء بحكم الدين وبحكم اللغة التي لم تكن كغيرها من اللغات وإنما كانت لغة دينية . فالاحتفاظ بأصولها وقواعدها والاحتياط فى صيانتها من التطور وآثاره السيئة واجب ديني لا سبيل الى جحوده أو التقصير فيه .

اذن فقد كانت الحضارة المادية تدفع العرب الى الامام ، وكانت حياة الدين تجذبهم إلى الوراء ، وكان العقل العربي بطبيعة الحال موضوع الجهاد بين هذين المؤثرين المختلفين فكان يتقدم سريعاً إلى حيث لا يكون تقدمه

مصدر شر على الدين أو لغة الدين ، وكان يبطىء فى حركته حين يكون التقدم خطراً على هذه أو ذلك . ومن هنا كان التناقض ظاهرا بين حياة العرب المادية فى تفصيلها وبين حياتهم الأدبية فى إجمالها ، فكانوا أحراراً فى الحياة المادية ،محافظين فى الحياة الادبية . وكان الشعراء الذين يجرءون على أن ينكروا هذه المحافظة ويحاولون تحرير الشعر قليلا أو كثيراً موضع سخط شديد من طائفة من الناس ليست قليلة الخطر ولا ضئيلة الأثر فى الحياة العامة . كان هؤلاء الشعراء يتعرضون لسخط الائمة والعلماء من رجال الدين ،لان هؤلاء الائمة والعلماء بطبيعة منازلهم الدينية حراص على القديم أعداء لكل جديد . وكان هؤلاء الشعراء يتعرضون لسخط الائمة والعلماء لأنهم بحكم منزلتهم اللغوية مضطرون الى أن يحتفظوا لا بقواعد اللغة وأصولها فحسب بل بألفاظها وأساليبها أيضا، فكانوا يكرهون كل لفظ دخيل وينفرون من كل أسلوب مستطرف . وكانت طائفة غير قليلة من عامة الناس وسوادهم تخضع لأولئك وهؤلاء فيما لا يضرها ولا يؤذيها فتستمتع بالحياة المادية ما استطاعت غير سامعة لنهى الفقهاء والوعاظ، ولكنها تحرص على الاحتفاظ بالسنن الموروثة والعادات القديمة فيما لا يمس الاكل والشرب واللباس والزينة وما الى هذا من ضروب الحضارة . أضف الى هذا كله أن الامة العربية بفطرتها حريصة على سنتها القديمة محتفظة بما ورثت عن آبائها من مظاهر الحياة العقلية والشعورية، وأن الآداب العربية القديمة فى نفسها جذابة خلابة محببة إلى النفوس مستأثرة بالقلوب ، فكان من المعقول أن يتأثر الشعر بهذا كله ، وأن يكون موقف الشعراء المجددين كموقف

الفلاسفة المجددين ثقيلا شديد الحرج، وأن يتعرض أولئك وهؤلاء للحبس والضرب والنفى وغير ذلك من ضروب الاضطهاد وألوان العذاب.

ومن الغريب أن هؤلاء الشعراء والفلاسفة الذين كانوا يلقون فى العصر العباسى ضروبا من المحن تختلف قوة وضعفا باختلاف الخلفاء والوزراء كانوا محببين إلى هؤلاء الخلفاء والوزراء، فكثير من هؤلاء الخلفاء والوزراء كان يحب شعر بشار ويلذ لشعر أبى نواس، ومع ذلك فقد ضرب بشار حتى مات، وحبس أبو نواس فى عصر الرشيد كما حبس فى عصر الأمين، ولو أدركه المأمون لقتله ولو كان إعجاب المأمون بأبى نواس شديدا جدا.

ومصدر هذا التناقض فى سيرة الخلفاء والوزراء مع الشعراء والفلاسفة أن هؤلاء الخلفاء ومشيريهم كانوا يحيون حياتين مختلفتين: حياة الشعب يحتفظون فيها بجلال الدين ومجده وعظمة الخلافة وقوتها السياسية، فهم من هذه الناحية محافظون؛ وحياة لانفسهم وخلصائهم فى القصور ومن وراء الحجب يتركون فيها لانفسهم حريتها الفطرية فيلهون ويلعبون وينادمون ويشربون ويقترفون ضروبا من الآثام. أضف الى هذين المظهرين المتناقضين من حياة الخلفاء وكبار الدولة أن حياة الشعراء والمفكرين لم تكن حياة شعر وتفكير فحسب، وانما كانت تختلط بالمشاكل السياسية وما تستلزمه هذه المشاكل من الكيد والدسائس. فكان الشاعر أو المفكر لايفتن لانه شاعر أو مفكر فحسب، بل قد يفتن لانه يرى رأيا سياسيا لا يراه السلطان، لانه من أنصار البرامكة أو من أنصار الفضل بن سهل أو الفضل بن الربيع، لأنه يرى رأى العلويين، لانه يؤثر الفرس على العرب، الى آخر

هذه المسائل الكثيرة التي نشأت عنها ضروب من المحن أصابت الشعراء والفقهاء والفلاسفة والمفكرين.

كل هذه الاسباب جعلت تطور الأدب عامة والشعر خاصة بطيئا قليل الإنتاج. ولكن هناك سببا نعتقد أنه هو السبب الاساسي الذي حال بين الشعر العربي وبين ما كان ينتظر له من التجدد، هذا السبب هو أن الامة العربية لم تعرف من آداب الامم الاخرى شيئاً يذكر ولم تخالط هذه الامم الاجنبية من الوجهة الأدبية والعقلية إلا مخالطة ضيقة جدا، فلم تعرف من آثارها إلا شيئاً من العلم والفلسفة ونتفا من الحكم والامثال، فجهلت الامة العربية جهلا تاما أو جهلا يوشك أن يكون تاما آداب الامة اليونانية مع أنها قد أخذت من علم اليونان وفلسفتهم بالنصيب الموفور، ولم تكد تأخذ عن الفرس إلا الحضارة المادية وروايات مشوهة في الحكم والامثال وسياسة الملوك، ولم تكد تعلم من أمر الهند إلا شيئاً من النجوم وقليلا من المواعظ والوصايا. ومن هنا لم يكن أمام الشعراء مثال أدبي جديد يحتذونه ويسعون في تقليده ومحاكاته، فظلوا على ما كانوا عليه يرددون ما ألفوا من الشعر القديم بأوزانه وقوافيه وبألفاظه ومعانيه لا يجددون من هذا كله الا ما يضطرهم الى تجديده نوع الحياة الجديدة الذي هم فيه. وهم في هذا التجديد القليل نفسه مقيدون بما قدمنا من حكم المحافظة الدينية واللغوية والسياسية. وقد علمنا تاريخ الأدب في جميع العصور وعند جميع الأمم أن الحضارة المادية وحدها لا تكفي لترقية الشعر ودفعه في سبيل التطور المنتج وانما يجب أن تضاف الى هذه الحضارة المادية أشياء أخرى أهمها المخالطة

الأدبية للشعوب الاجنبية، فلولا أن الصلات اشتدت بين اليونان وبين غيرهم من الامم المعاصرة لما تطور شعرهم هذه الانواع المختلفة من التطور. وكذلك قل إن الرومان مدينون لليونان بتطور آدابهم، وقل إن الامم الاوربية مدينة بتطور آدابها لهـذه الحركة التى حدثت فى عصر النهضة فأظهرت الايطاليين وغير الايطاليين على آداب اليونان والرومان . ويطول القول اذا أردنا ان نذكر أثر الاختلاط بين الامم الاوربية نفسها فى الآداب الاوربية الحديثة . وقد حرم العرب هذا الاختلاط فحرم الادب العربى نتيجته وهى التجدد المنتج ، ولهذا لم يعرف العرب من الشعر إلا ما ورثوا عن أهل البادية، فجهلوا الشعر القصصي والشعر التمثيلى، وجهلوا من الشعر الغنائى نفسه فنونا كثيرة وضروبا مختلفة، ومع هذا كله فقد تطور الشعر العربى وتجدد تجدداً ما ، فيجب علينا أن نعرف ما حقيقة هـذا التجدد وما قيمته ، وأين يوجد الفرق الواضح القوى بين الشعر العربى الجديد والشعر العربى القديم؟ وموعدنا بهذا الفصل الآتى

القدماء والمحدثون (١)

تجدد الشعر فى العصر الاموى — الغزل الاباحى — والغزل العفيف —

الشعراء المتوسطون بين هذين الفنين

نظلم العصر الأموي ونظلم معه تاريخ الادب العربى إن زعمنا أن التجديد الذى تناول لفظ الشعر ومعناه انما حدث فى العصر العباسى خاصة. فان العصر الأموى قد كان عصر تجديد أيضا، بل قد كان عصر تجديد قوى ظاهر فى اللفظ والمعنى، وربما كان عصر الأمويين من هذه الناحية أخصب وأكثر إنتاجا من عصر العباسيين، فقد حاول الشعر فى هذا العصر أن يتجدد لا فى لفظه ومعناه فحسب بل فيهما وفى الموضوع أيضاً. ولكن هذه المحاولة لم توفق توفيقاً تاما لأن عصر الامويين لم يطل، ولانه لم يكن عصر ثبات واطمئنان وانما كان عصر تحول وانتقال. وكان من الممكن أن يتمم العصر العباسى ما بدأه العصر الأموى من تجديد موضوع الشعر. ولكنا سنرى فى غير هذا الفصل أن هذا لم يتح للشعر العربى لأن العصر العباسى سلك بالامة العربية طريقا جديدة مغايرة مغايرة شديدة للطريق التى سلكها العصر الاموى.

لم يكد يمعن المسلمون فى الفتح وبسط سلطانهم على أرض الفرس من جهة والروم من جهة اخرى حتى تغير كل شىء فى حياة الطبقة العليا

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢ جماد الأولى سنة ١٣٤١ — ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٢.

من الامة العربية . وكان مصدر هذا التغير شيئين : أحدهما مادى وهو كثرة ما أفاء الله على المسلمين فى هـذا الفتح والتغلب من المال والغنائم الموفورة التى بدلت حياة هؤلاء الناس فجعلتها يسيرة بعد عسر، سهلة بعد صعوبة، لينة ناعمة بعد شدة وخشونة . والثانى معنوى، فقد رأى العرب فى هذه البلاد المفتوحة نظما للحكم والسياسة لم يألفوها ، وطرقا للادارة وتدبير الامور العامة لم يعهدوها من قبـل ، فتأثروا بما رأوا من ضروب الحياة السياسية أيضاً . ونتج عن هذا التأثر المزدوج أن استبدل العرب بالخيام دوراً وقصوراً فيها ضروب الترف واللذة ؛ وحاولوا أن يستبدلوا بالخلافة التى كانت بدوية فى كل شىء ملـكا حضريا فى كل شىء . وما لبثوا أن وفقوا الى الأمرين جميعا

ولم يكن بد من أن يترك هذان الأمران آثاراً ظاهرة قوية فى حياة العقل والشعور ؛ فان الحضرى يشعر ويفكر بطريقة تخالف طريقة البدوي فى شعوره وتفكيره ، وكذلك يشعر الرجل الغنى المنعم الذى لا تشرق عليه الشمس الا اشتد طمعه فى اللذة والنعيم بغير ما يشعر به الرجل الفقير المعدم الذى أخذ نفسه بضروب الصبر والقناعة واحتمال الشدة والمشقة . ثم إن الأمة العربية كانت أمة عصبية شديدة فلم تكن تنقاد بطبيعتها لزعيم أو تذعن لسلطان ثابت الملك ، وانمـا كانت قبائل وشعوبا ، ترى كل قبيلة منها لنفسها السيادة والسلطان . وكان هنالك دين جديد يحاول أن يمحو هذه العصبيـة أو أن ينظمها فيؤسس الخلافة ؛ وكانت هنالك فكرة جديدة

تحاول أن تمحو هذه العصبية أو تنظمها فتؤسس الملك مكان الخلافة . ومن هنا كان تجدد الشعر ملائماً كل الملاءمة لتجدد الحياة . فنشأ عند العرب في عصر بني أمية نوعان من الشعر لم يكن قد ألفهما الجاهليون، أو على أقل تقدير لم يكن هؤلاء الجاهليون قد أحسنوا فهمهما والعناية بهما : الأول نشأ عن حياة الترف والغنى والثروة وهو الغزل . وليس ينبغي أن يقال إن الغزل فن قديم عند العرب، فنحن نعلم ذلك ولا نشك في أن الشعراء الجاهليين جميعاً قد تغزلوا وشببوا ووصفوا النساء ، وإنما نريد أن فنا جديدا قد نشأ في هذا العصر لم يكن موجوداً من قبل ، وهذا الفن هو الغزل يقصد لنفسه لا ليتخذ وسيلة لشيء آخر ، هو فن الحب من حيث هو حب ، هو الفن الذى يعنى به شاعر قد فرغ من كل شيء ، فحياته المادية ميسرة ولذاته موفورة عليه، فكل ما يعنيه هو أن ينعم بهذه اللذات وأن يغنيها في شعره ، لا أكثر ولا أقل . ومن الظاهر أن الجاهليين لم يعرفوا هذا الفن ولم يتذوقوه ، فلسنا نعرف في العصر الجاهلي شاعراً قصر شعره على الغزل وحياته على الحب والغرام، وإنما كان الغزل كغيره من فنون الشعر، أو بعبارة أصح كان وسيلة الى غيره من فنون الشعر : كان العرب يبدءون قصائدهم مهما تختلف موضوعها بوصف الطلول والنساء ، كما كان اليونان يستهلون قصائدهم بمناجاة آلهة الشعر . وقلما كان الشاعر العربي قبل الاسلام يقصر قصيدة بأسرها على الغزل . وليس الامر كذلك في عصر بني أمية ، فقد نرى في هذا العصر شعراء يتخذون الغزل لأنفسهم صناعة وفنا مختارا لا يتكلفون غيره ولا يعنون بسواه ، فهم لا يمدحون

ولا يهجون ، وانما حياتهم وصف النساء وما تبعث النساء فى أنفسهم من عواطف وأهواء وميول ، فان طلبت اليهم القول فى شيء غير هذا أعرضوا أو عجزوا .

وفى الحق أن هذا الفن الجديد كان مختلفا متنوعا فى هذا العصر باختلاف الشعراء واختلاف ضروب الحياة التى كانوا يحيونها . فكان هناك شعراء يتخذون الغزل صناعة يصفون به لذاتهم وأهواءهم وافتتانهم فيما يتذوقون من نعيم الحياة ، وزعيم هؤلاء الشعراء عمر بن أبي ربيعة ذلك الذى أقام بمكة فاتخذ كل شيء وسيلة الى وصف المرأة والتغزل بها ، ولم يكتف بالوصف والقول وانما أضاف اليهما حياة عملية فيها شيء من اللذة والترف كثير . وكان هناك شعراء آخرون لا يقصدون الى وصف اللذات وما تستتبعه ، وانما يقصدون الى شيء آخر ، يقصدون الى وصف العواطف الحارة الصادقة التى تعذب صاحبها وتعنّيه دون أن تتيح له لذة مادية ما ؛ وانما اللذة الوحيدة التى يجدها والتى هو بها كَلِف وعليها حريص هى لذة الألم بأنه يحب ويحب من لا سبيل الى وصله أو التقرب اليه ، وزعيم هؤلاء الشعراء جميل الذى أمضى حياته وقصر شعره على حب بثينة ، لا يطمع من هذا كله بشيء الا الشعور بأنه يحب وبأن حبه لا حد له ، وبأن هذا الحب يضنيه ويعنيه ، وبأنه يجد فى هذا الألم والعذاب لذة لا تعدلها لذة ، بل كان يطمع فى شيء آخر وهو أن تحس صاحبته ما يدخر لها من حب وما يلقى فى سبيلها من ألم . .

كان عمر بن أبي ربيعة زعيم المتغزلين الإباحيين . وكان جميل زعيم

المتغزلين العذريين . وكان بين هذين الرجلين المتناقضين شعراء يتوسطون في الامر فيبيحون أحيانا ويعفّون أحيانا أخرى ، وربما كان كلفهم بالفن الشعري والإجادة فيه أشد من كلفهم باللذة لأنها لذة ، أو بالعفة لانها عفة ، فلم يكن أحدهم يعنيه أن يقال إنه ما هر في تذوق لذات الحياة أو إنه عفيف حقا مثال للعفة وطهارة القلب ، وانما كان يعنيه أن يقال لقد تغزل فأجاد الغزل ، وشبب فأحسن التشبيب . وهؤلاء الشعراء كثيرون ولكن جمهورهم لم يقصر حياته الفنية على الغزل وحده وانما تناول مع الغزل فنونا أخرى . ومن هؤلاء الشعراء كثيّر الذى تغزل فأكثر الغزل واتخذ لنفسه صاحبة كانت هي مصدر حبه الغرامى وهى عزة . ولكنه مدح وارتزق من شعره . ولست أشك - والرواة لا ينكرون ذلك - أن كثيراً لم يكن صادق الحب ولا عفيفه ، وانما كان يتخذ الغزل صنعة ويقفو فيه أثر أستاذه جميل .

ولقد راج هذا الفن الجديد في عصر بني أميـة رواجا ظاهراً جداً نشأ عنه أن كلف به الشعب فأضاف الى حياة جميل وكثير وعمر ما ليس منها ، واخترع شعراء ربما لم يوجدوا قط ، وألف لهم فصولا من الحياة الغرامية ربما لم يعرفها التاريخ ، ونظم على لسان هؤلاء الشعراء الخياليين قصائد ومقطعات ربما لم يثق بصحتها الرواة ، فمن ذلك حياة قيس ابن الملوح وليلاه ، ومن ذلك هذه الاخبار الكثيرة المسرفة التى تضاف الى قيس بن ذريح ولبناه . ثم تكلف الشعراء الحقيقيون المبالغة في هذا الفن واختراع المواقف الحرجة المعضلة التى ليس لها حل وليس منها مخلص .

ولعل أحسن مثال لهذا التكلف هذا البيتان اللذان يضافان الى ليلى الأخيلية

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها   فليس اليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه   وأنت لأخرى صاحب وخليل

فانظر اليها كيف اخترعت هذا الموقف العسير موقف عاشقين كلفين ليس الى وصالهما سبيل ، لان كليهما متزوج ولان كليهما وفى عفيف . لا أشك فى أنك ستقول ليس فى هذا الموقف شىء من الغرابة ، فقد كانت ليلى متزوجة وكان توبة متزوجا ، وليس غريبا أن يكون كلاهما وفيا عفيفا . لا أشك فى أنك ستقول هذا ، وقد أقوله أنا ايضا . ولكنى لا أدرى لماذا أميل ميلا قويا جداً الى اعتقاد أن هذا الموقف موقف فنى اخترعته الشاعرة لتجيد فى الفن فهو الى الشعر أقرب منه الى الحياة الواقعة. ومهما يكن من شىء فقد نرى أن هذا الفن الجديد قد عظم شأنه عند العرب فى هذا العصر ، واختلفت مذاهب الشعراء فيه ، فذهب بعضهم فيه مذهب اللذة وذهب الآخرون فيه مذهب العفة . وربما كان من الخير أن نلاحظ أن الذين ذهبوا مذهب اللذة فى هذا الفن كانوا المترفين من أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار الذين ورثوا الثروة الطائلة الضخمة عن آبائهم وحيل بينهم وبين العمل السياسى لامر ما . ومن هنا كانت مكة والمدينة فى هذا العصر أقرب الى اللهو والمجون والتفنن فى اللذة وما تستتبعه من لعب وشرب وغناء وغزل من دمشق عاصمة الملك ومستقر الخليفة ، وأن الذين ذهبوا مذهب العفة وأسرفوا فى هذا المذهب كانوا من أهل البادية ، بل إن الشعراء الذين اخترعوا ولم يعرفهم التاريخ كانوا

أيضا يخترعون فى البادية وكانت عشيقاتهم من نساء البادية أيضا . ولقد يكون من العسير تعليل هذا فنحن نعلم من أخلاق العرب البادين أنهم الى المادة والإباحة أقرب منهم الى هذه الحياة العذرية . واذن فقد يحسن أن نفترض أن شعوراً جديداً قد أخذ فى هـذا العصر يستأثر بالنفوس العربية ،وأن هذه النفوس قد خضعت فى هذا العهد الجديد لنزعة جديدة هى الطموح الى المثل الأعلى والسمو الى حياة عقلية وشعورية جديدة راقية لم تكن معروفة من قبل ، ولـكن هذا افتراض لم أوفق الى تحقيقه بعد

على أن الشعراء الآخرين الذين كانوا يمثلون السنة الموروثة ويذهبونه مذهب الجاهليين فيمدحون ويهجون ويصفون قـد تأثروا بهذا الفن الجديد ، مع أن حياتهم الشعرية لم تكن مقصورة على الغزل فان هذا الغزل نفسه قد رق ولطف فى شعر الفرزدق وجرير والأخطل حتى أصبح الفرق بينـه وبين غزل الجاهليين ظاهراً بينا . فقليلا ما تجد فى شعر الجاهليين غزلا يقارب فى عذوبة اللفظ وسحره وفى لطف المعنى ودقته قول جرير

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال معينا

غيّضن من عبراتهن وقلن لى ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فانظر الى هذا الشطر الاخير « ماذا لقيت من الهوى ولقينا » انظر الى جمال لفظه وسهولتـه وخفته على السمع وحسن موقعه من النفس . وانظر الى دقة معناه ولطفه،والى سعة هذا المعنى التى لا حد لها والتى عجز الشاعر عن أن يستقصيها ، وأراد أن يشعرك بهذا العجز فعمد الى

الاستفهام : « ماذا لقيت من الهوى ولقينا»، شيء ليس الى وصفه ولا الى تحديده من سبيل . فهذا هو الفن الاول الذى استحدث فى الشعر العربى أيام بني أمية . ولنختصر :

(نشأ عند العرب فن جديد هو الغزل، ذهب فيه الشعراء مذهبين مختلفين : مذهب اللذة، ورافع لوائه عمر بن أبي ربيعة ، ومذهب العفة ورافع لوائه جميل بن معمر . ومضى بين هذين المذهبين الشعراء الآخرون فنهم من اتخذ الغزل صنعة وفنا فحذا حذو أولئك أو هؤلاء ، ومنهم من سلك مسلك الشعراء الجاهليين فتناول فنون الشعر كافة ولكن غزله تأثر بمذهب الفن الجديد فرقّ لفظه وسهل، ودقّ معناه ولطف .)

أما الفن الآخر الذى استحدث أيام بني أمية فهو الشعر السياسى، وقد نشأ عن استحالة الخلافة الى ملك ، وعما كان من حرب بين العصبيات من جهة ومن حرب بين العصبية والدين من جهة اخرى . ولعل من الخير أن نرجىء بحث هذا الموضوع الى حديث الاسبوع الآتى .

القدماء والمحدثون (١)

تطور الشعر فى العصر العباسى ـ اسبابه العامة ـ نموذج من نماذج هذا التطور

رأينا أن تطور الشعر فى عصر بني أمية كان قويا منتجا من بعض الوجوه ، فقد تناول اللفظ والمعني وأحدث فنين جديدين : فن الغزل وفن الشعر السياسى . وقلنا فى آخر الفصل الماضى إن تغير الحياة العربيـة أيام بني العباس أثر فى حياة الشعر تأثيراً ظاهراً فمحا الفن السياسي محوا . وحول الغزل عن طريقته الأموية . وفى الحق أن الشعر قد سلك فى أيام بني العباس طريقا تـكاد تخالف كل المخالفة طريقه أيام بنى أمية ، فنشأت معان جديدة ، وذهب الشعراء مذاهب مختلفة فى وصف هذه المعانى والتعبير عنها ، ونشأ عن هـذه المذاهب المختلفة ضروب من التصرف فى فنون القول والاختيار بين ألوان الكلام . ذلك أن الحياة فى عصر بنى العباس كانت جديدة من كل وجه فانقطعت الصلة شيئاً فشيئاً أو كادت تنقطع بين هذه الحضارة البديعة التى كانت تزدهر فى بغداد وضواحى بغداد وبين هـذه البداوة القاسية الخشنة التى كانت تبسط سلطانها على بلاد العرب . فبينما كانت دمشق على حضارتها أيام الامويين ملتقى للجديد والقديم ، وبينما كان الحضرىّ الخالص يستطيع أن يعيش فيها عيشة راضية مطمئنة وكان البدوى المعرق فى البداوة يستطيع أيضاً أن يعيش هذه العيشة وكان كلاهما

(١) نشرت بالسياسة فى ١٦ جمادى الاولى سنة ١٣٤١ هـ ـ ٢ يناير سنة ١٩٢٣ م

يستطيع أن يفهم صاحبه بدون مشقة أو عناء ، وبينما كان الخلفاء من الامويين على ضخامة ملكهم وسلطانهم وعلى كثرة ثروتهم وغنائم وعلى تذوقهم أنواع الترف واللذة بادين فى لغتهم وسيرتهم الظاهرة ، بينما كانت دمشق وأهلها على هـذه الحال كانت بغداد على حال تخالفها كل المخالفة ، فهى مدينة بنتها الحضارة الجديدة ، وبنتها فى أرض قد بعد عهدها بالبداوة واختلفت عليها الحضارات الكثيرة، وأتاحت لها الطبيعة من خصب الارض وثرائها واعتـدال الإقليم وصفاء الجو ما يجعل الحضـارة سهلة ميسورة مستعدة للرقى والنمو فى وقت سريع . فليس عجيبا أن يأنس اليها أهل الحضر وينفر منهـا الأعراب ومن يشبه الاعراب من الذين لم تصقلهم الحضارة ولم يبعد عهدهم بالنعيم . كان الحضرى يأنس الى بغداد ، وكان البدوي ينفر منها وينكر نفســه فيها . ولم يكن خلفاء بنى العباس يحبون البادية ولا يحنون اليها ولا يتكلفون فى قصورهم عيشة أهلها ، وانما قطعوا بينهم وبين هذه العيشة كل صلة واتخذوا لأنفسهم من ملوك الفرس مثلا يحتذونها فى ضروب الحياة . ولم يحيطوا أنفسهم بالقواد والمشيرين من زعماء العرب ورؤساء القبائل كما كان يفعل الخلفاء من بنى أمية وانما استوزروا الفرس واستشاروهم ، وقصروا أو كادوا يقصرون عليهم قيادة الجيش ومناصب الدولة . فليس غريباً أن تكون بغداد غير دمشق والعراق غير الشأم ، وليس غريباً أن ينشد فى بغداد والعراق شعر يخالف ما كان ينشد فى دمشق والشأم .

على أن الحياة السياسية نفسها تغيرت فى هـذا العصر تغيراً شديداً

مختلفاً . فكان السلطان الفعلى للفرس كما قدمنا، وكانت الحكومة المركزية في بغداد قوية شديدة البطش ممتدة في الأمصار والاقاليم . ومن قوة الحكومة المركزية وامتدادها نشأ شيء من ضيق الحرية قضى على النزعات الحزبية القديمة وأكره الشعراء على أن يتركوا السياسة لأهل السياسة، فانمحى هذا الفن الذى أزهر أيام بني أمية ولم يخلفه في الشعر فن جديد . وهنالك تغير آخر شديد الخطر وهو تغير الحياة العقلية . فقد اشتد الاختلاط بين الأمة العربية وغيرها من الامم الأخرى التى سبقتها الى الحضارة، فلم يقف هذا الاختلاط عند المجاورة والمعاشرة والحديث والتقليد ، وانما تجاوز هذا كله الى ما هو أشد منه وأقوى أثراً في الحياة المادية والمعنوية ، تجاوزه الى الإصهار والتوالد من جهة ، والى الاختلاط العقلى الخالص من جهة أخرى ، فنشأت أجيال ورثت الى المزاج العربى المزاج الفارسي أو غير الفارسي ، ونقلت الى هذه الأجيال آثار الفرس والهند واليونان في الحكمة والموعظة ، وفي الفلك والنجوم، وفي السياسة والاخلاق، وفي العلم والفلسفة ، فلاجرم كان هذا كله مصدر تغير قوى شديد في حياة النفس العربية أنتج أدباً لم تنتجه تلك الحياة البدوية الخالصة في الجاهلية وصدر الاسلام، أو تلك الحياة البدوية المتحضرة في أيام بنى أمية ، أنتج أدبا حضريا خالصا يعبر عن شعور حضرى خالص ، ولولا قوة الآداب العربية القديمة وشدة سلطانها على النفوس وقدرتها على المقاومة من جهة ، ولولا أن هذه الاجيال الجديدة لم تقرأ شيئاً من آداب هذه الامم وانما قرأت آثارها العلمية والفلسفية من جهة أخرى : نقول، لولا هذان الشيئان لاستحال

الشعر العربي استحالة أشد وأعظم أثراً وأكثر إنتاجا من هذه الاستحالة التي نريد أن نتبين حقيقتها ومقدارها في هذه الفصول. ومهما يكن من شيء فقد كان ما وصفنا من تغير الحياة المادية والسياسية والعقلية في القرن الثاني للهجرة تغيراً للحياة الشعرية ليس إلى إنكاره من سبيل.

ادرس هذا العصر درساً جيداً واقرأ بنوع خاص شعر الشعراء وما كان يجري في مجامعهم من حديث تدهشك ظاهرة غريبة، هي ظاهرة الإباحة والإسراف في حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم، سواء أكان هذا القديم ديناً أم خلقاً أم سياسة أم أدبا. فقد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشاراً فاحشاً اضطر الخلفاء من بني العباس إلى أن يبطشوا بالشعراء والكتاب لأنهم اتهموا بهذه الزندقة، وظهر ازدراء الادب العربي القديم والعادات العربية القديمة والسياسة العربية القديمة، بل ظهر ازدراء الامة العربية نفسها وتفضيل الامة الفارسية عليها، وكانت مجالس الشعراء والكتاب والوزراء مظهراً لهذا كله. وليس يعنينا الان أن تكون النهضة السياسية الفارسية، وحرصها على الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان مصدر هذا التغير، وانما الذي يعنينا أن هذا التغير قد وجد وقوى حتى ظهر في الشعر ظهوراً جعل إنكاره مستحيلا. فيكفي أن تقرأ شعر أبي نواس وما كان بينه وبين أصحابه وخصومه من معارضة ومناقضة لتعرف مقدار هذا التغير. ثم إن هذا التغير نفسه قد أنتج نتيجته الطبيعية فنهض القديم للدفاع عن نفسه واشتد الجهاد بينه وبين الجديد، وكان هذا الجهاد بالسيف مرة وباللسان أخرى، بالسيف

حين يتعرض الدين أو السلطان السياسى للخطر ، وباللسان حين لا يتعرض لهذا الخطر إلا الأدب وأساليبه المختلفة.

ولعل من ألذ ما يقرأ عبث أبي نواس بالفقهاء والمحدّثين، وإشفاق الفقهاء والمحدثين من أبي نواس وأمثال أبي نواس . لذيذ هذا الإشفاق وذلك العبث، لأنه ينبئنا باستحالة غريبة فى الحياة العربية . فقد كان أبو نواس محدّثا روى عنه الشافعى، وكان مع ذلك فاجراً ماجنا يذيق المحدّثين ألوانا من الأذى . كان هؤلاء المحدثون يعظون أبا نواس مرة ، وينكرون عليه فجوره مرة أخرى ويشهرون به فى دروسهم مرة ثالثة، فكان أبو نواس يجد لكل شىء من هذا جوابا ، فيرد الواعظ ردا حسنا فيه شىء من التهديد ، ويهجو من ينكر عليه فيشدد النكير، ويكذب على من يشهر به حتى لقد نظم مرة شعرا اختلق فيه حديثا رفعه الى النبي ورواه عن أحد المحدّثين المعاصرين ثم كتب هذا الشعر وبعث به الى هذا المحدّث المسكين وكان تقيا ورعا ، وروى ابن عساكر أن صاحبا من أصحاب هذا المحدّث دخل عليه فوجده يبكى ، فلما سأله عن ذلك قال للجارية ، هات الرقعة ، ودفع الرقعة الى صاحبه وهو يقول : انظر الى الفاسق لقد كذب على النبي صلى الله عليه وسلم، والله ما حدثته بهذا قط . وكان أبو نواس وأصحابه على فسقهم ومجونهم يتدينون ويقيمون الصلاة ولكنهم كانوا يعبثون فى هذا كما يعبثون فى غيره. وربما قضوا الوقت الطويل عاكفين على الخمر ثم يذكرون الصلاة فيقيمونها . ولعلهم أقاموا الصلاة فى مثل هذه الحال يوما وأمهم أحد الندماء فغلط وهو يقرأ قل هو الله أحد ، فاستحالت الصلاة من خشوع لله إلى

استهزاء بهذا الإمام الجاهل ، فقال أبو نواس

أكثر يحيى غلطا في قل هو الله أحد

وقال العباس بن الأحنف

قام طويلا ساهياً حتى اذا أعيا سجد

وقال الحسين الخليع

يزحر في محرابه زحير حبلى بولد

وقال الرابع ولعله مسلم بن الوليد

كأنما لسانه شُدّ بحبل من مسد

ومثل هذا ما تحدّث به الجاحظ أن خمسة من الظرفاء ذهبوا الى دير يبتغون الشرب واللهو وإنهم لفي ذلك إذ قام أحدهم يصلي وأقبلت دلالة فأخذوا يسألونها عن أمرهم ، قالت كم أنتم ، قالوا أربعة : وأهملوا صاحبهم لانه يصلي ، ولكن هذا الصاحب لم يهمل نفسه فقال : سبحان الله وعرفت الدلالة أنهم خمسة

كان هذا العصر اذن عصر شك في كل شيء وعصر مجون وإباحة وتهتك في الحياة العملية وفي القول أيضا . ومن هنا نجد في هذا العصر شعراً كثيراً نستطيع أن نقرأه في الكتب دون ان نستطيع ترديده في الصحف ، بل في دار الكتب المصرية كتاب في أخبار أبي نواس ليس إلى نشره من سبيل ، لان قوانيننا لا تبيحه وليس الى إصلاحه من سبيل لان هذا الإصلاح يذهب بخير ما فيه . على اننا نستطيع مع هذا أن نعطيك صورة واضحة من هذا العصر دون ان نضطر إلى مثل هذا.

الفحش اذا روينا لك قصيدة من شعر أبى نواس ولم نحذف منها إلا بيتا واحداً ليس إلى روايته من سبيل . ولكننا نحب أن نلاحظ أن الشاعر كان يستطيع أن يقول معنى هذا البيت فى غير إثم ولا فحش لولا أنه تعمد الإثم، لان الاثم والفحش كانا بدع بغداد فى ذلك العصر :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء ... وداونى بالتى كانت هى الداء
صفراء لا تنزل الاحزان ساحتها ... لو مسها حجر مسته سراء

. . . .

قامت بإبريقها والليل معتكر ... فلاح من وجهها فى البيت لألاء
فأرسلت من فم الابريق صافية ... كأنما أخذها بالعين إغفاء
رقت عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافة وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نوراً لمازجها ... حتى تولد أنوار وأضواء
دارت على فتية دان الزمان لهم ... فما يصيبهمو إلا بما شاءوا
لتلك أبكى ولا أبكى لمنزلة ... كانت تحل بها هند وأسماء
حاشا (لدرة) أن تبنى الخيام لها ... وأن تروح عليها الإبل والشاء
فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة ... حفظت شيئا وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت امرءاً حرجا ... فإن حظركه فى الدين إزراء

فانظر إلى هذه القصيدة على قصرها كيف تمثل هذا العصر تمثيلا صادقا ، فليس فيها لفظ واحد غريب ، وإنما ألفاظها كلها مألوفة تجرى على ألسنة الناس جميعا فى أحاديثهم العادية ، وليس فيها معنى واحد بدوى ، وانما معانيها كلها حضرية لا تخطر إلا لمن نشئوا فى المدن وامتلأت رءوسهم

بما علا رءوس أهل المدن من جد ولعب . بل فى هذه القصيدة بيت ينكر كل العصر القديم وأساليبه الشعرية فهو يريد أن يبكى على الخمر لا على الأطلال والدمن :

لتلك أبكى ولا أبكى لمنزلة   كانت تحل بها هند وأسماء

فاذا أردت أن تدرس هذه القصيدة درسا مفصلا رأيت هذه الإباحة فى البيت الذى لم نروه ، ورأيت فى آخر القصيدة بيتا يعتز بالدين نفسه فى نصر هذه الاباحة وتأييدها ، فهو يريد أن يكون ماجنا فاسقا وأن يستمتع باللذات على اختلافها دون أن يقنط من رحمة الله ، وهو ينكر على صديقه النظام وأصحابه من المعتزلة تشددهم فى أمر العفو والخطيئة والتوبة ويؤثر مذهب أهل السنة الذين يفتحون باب العفو أمام المذنبين . ذلك لأن شاعرنا وأصحابه يريدون أن يفوزوا بالدنيا والآخرة فيلهوا فى مقتبل الشباب حتى اذا أدركهم الكبر تابوا واستغفروا وانتظروا عفو الله . وكان المعتزلة يغلقون على الناس هذا الباب، فلا عجب اذا انصرف عنهم الشعراء وأهل المجون .

ويقال إن أبا نواس لما حضره الموت اختلف إليه أصحابه فأخذوا يعظونه ويلومونه على ما أنفق من عمره فى طاعة الشيطان ، وغلا بعضهم حتى أيأسه من الآخرة ، فقال : اسندوني ، وتكلف النهوض وروي حديثاً يضمن له عفو الله .

وقد تحدث الرواة بعد موته أنه دخل الجنة لأن أحدهم رآه فى النوم فسأله عما فعل الله به، فقال: غفر لى بأبيات قلتها . وهذه الأبيات فى الزهد

والندم قالها فى مرض موته، وزعم الرواة أنها وجدت تحت وسادته، وسنعرض لها حين نعرض لزهد ابن أبى نواس

إلى جانب هذا كله نجد فى هذه القصيدة معانى لا يمكن أن توجد إلا فى نفس من قرأ الفلسفة اليونانية وخالط المتكلمين والمتفلسفين فانظر الى قوله :

رقت عن الماء حتى ما يلائمها　　لطافة وجفا عن شكلها الماء

فهذا أسلوب النظام وغير النظام حين كانوا يتكلمون فى الجزء الذى لا يتجزأ، وفى كثافة الاجسام ولطافتها، وفيما بينها من ملاءمة ومباينة وكذلك قوله «حتى تولد أنوار وأضواء» فلفظ التولد من ألفاظ المتكلمين واصطلاحات المعتزلة بنوع خاص. والبيت الاخير من هذه القصيدة :

لا تحظر العفو إن كنت امرأ حرجا　　فإن حظركه فى الدين إزراء

ليس إلا وضعا لمذهبين كلاميين أحدهما بإزاء صاحبه : مذهب المعتزلة ومذهب أهل السنة

هذه القصيدة إذن تمثل الحياة الشعرية فى بغداد أيام ابى نواس ولكنها تمثلها تمثيلا مجملا. فاذا أردت تفصيل هذه الحياة وأن تتخذ منها صورة بينة تثبت ما قلناه من أن هذا العصر قد كان عصر شك وإباحة وجب ان تدرس حياة الجماعات الأدبية فى بغداد والبصرة، وهى شىء يشبه (الصالونات) الادبية (Les Salons Littéraires) فى فرنسا إبان القرن الثامن عشر فى فرنسا. وسنحدثك عن هذا فى الاسبوع الآتى

القدماء والمحدثون [1]

تطور الشعر فى العصر العباسى — الاندية الادبية — الشك والمجون

كان أمر العرب مع الفرس كأمر الرومان مع اليونان من وجوه كثيرة ، فقد سبق الفرس الى الحضارة والنظام وأخذوا منهما بنصيب موفور قبل أن يخضعوا لسلطان الامة العربية . فلما جاء الاسلام وكان الفتح ومكن الله للعرب فى بلاد الفرس كان الجهاد والتغالب بين الحضارة الفارسية والبداوة العربية ، بين اللين والخشونة ، بين الحياة المترفة المعقدة والحياة الساذجة الهينة . لم يكن هذا الجهاد عنيفا حين كانت الحياة المادية موضوعه ، فكل الناس يؤثر اللين على الخشونة ويفضل النعمة على البؤس ويحرص على أن يستبدل الإثراء بالعدم - وإنما كان الجهاد عنيفا بعض العنف حين كانت الحياة العقلية موضوعا له . فاشتد النضال بين أنصار العادات العربية القديمة والسنن العربية الموروثة ، وأنصار العادات والسنن الفارسية ، وكان القرن الأول للهجرة عصر هذا الجهاد ، ولكنه لم يكد ينقضى حتى ظهر انتصار الجديد وأخذ القديم ينهزم أمامه وينحصر فى البلاد العربية الخالصة ، وأخذ سلطان الحضارة يسود بلا شريك ولا منازع فى العراق والشأم وغيرهما من البلاد التى خضعت للعرب وكانت متحضرة قبل وصول العرب اليها ، وكذلك كانت حال الرومان بعد أن أخضعوا

(١) نشرت بالسياسة فى يوم الاربعاء ٢٣ جمادى الاولى سنة ١٣٤١ ١٠ يناير ١٩٢٣

اليونان، فقد فتح الرومان بلاد اليونان فتحا سياسيا ولكن اليونان فتحوا روما فتحا أدبيا كما قال الشاعر الرومانى هوراس.

انتصرت الحضارة واشتدت فيها رغبة العرب من أهل المدن على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية. وكان هذا الانتصار عاما تناول الحياة المادية والعقلية وتناول معها حياة الشعور، ففكر العرب المحدثون بطريقة تخالف مخالفة شديدة تفكير العرب القدماء، وعاشوا كذلك فى دورهم وقصورهم عيشة تخالف عيشة آبائهم، وظهرت عندهم العلوم وضروب الفلسفة، وتغير لهذا كله حسهم وشعورهم فتغير لسان هذا الحس وهذا الشعور وهو الأدب نثراً كان أو شعراً

وقد أشرنا فى الفصل الماضى إلى أن أول العصر العباسي قد كان عصر شك واستهتار، أنكر العقل العربى فيه قديمه، ولم يشتد اطمئنانه الى الجديد، فلم يتخذ لنفسه قاعدة ثابتة فى الحياة، وإنما عاش من يوم إلى يوم فاحتمل الآلام كارها واستمتع باللذات راغبا فيها مستزيداً منها. وكانت هذه اللذات كثيرة مختلفة، وكانت هذه اللذات ميسرة له موفورة عليه. فكانت هناك لذة الصلات الاجتماعية بين الرجل والمرأة، ولم تكن هذه المرأة عربية وإنما كانت فارسية أو غير فارسية، ولم يكن الوصول اليها عسيراً وإنما كان شيئا سهلا ميسوراً، فقد كانت المرأة تباع وتشترى، وكثيراً ما كانت تنال بالهبة والعطاء:

لم تكن هذه المرأة عربية ولم تكن بدوية، وإنما كانت أعجمية متحضرة قد بعد عهد أهلها وبلادها بالحضارة، فرق طبعها وصفا مزاجها

وافتنّت فى تلطيف الحياة وترفيهها ، وفى اختراع ضروب اللهو وصنوف النعيم ، ولم تكن جاهلة وانما كانت متعلمة ، ومتعلمة تعلما متقنا ، فقد وجدت فى ذلك الوقت تجارة واسعة عظيمة الإنتاج ، وكان الرقيق موضوع هذه التجارة ، فكان يعلم احسن تعليم ويدرّب أحسن تدريب على فروع الحياة المختلفة ، ولم تكن هذه المرأة حرة محتفظة بكرامتها الشخصية حريصة على أن تكون لها منزلة السيدة ، وانما كانت مبتذلة ممتهنة تباع وتشترى كما يباع المتاع ويشرى .

وكان العرب مندفعين فى هذا النوع من اللذة يستمتعون به فى غير قصد ولا احتياط ، والى جانب هذه اللذة كانت توجد اللذات الاخرى : لذات الطعام ولذات الشراب ، ولذات الأثاث ولذات اللباس ، ثم كانت توجد اللذات العقلية ، كانت تترجم لهم آثار الفرس وآثار اليونان ، فيقرءون ويفهمون ويتأثرون فى حياتهم العملية بما يقرءون وما يفهمون ، ولم يكن من شأن هذه الآثار المترجمة أن تؤيد سلطان الحياة القديمة أو ترغب فيها ، وإنما كانت تصرف عنها وتنفر منها وتملأ قلوب الناس لها بغضا وعليها سخطا ، فلا جرم آثر هؤلاء المحدثون من العرب عيشة الفرس وغير الفرس وتفكيرهم على عيشة العرب وتفكيرهم ، ووُجد هؤلاء الشعراء والكتاب والفلاسفة الذين كانوا يسخرون من كل قديم ويحفلون بكل جديد ، يجهرون بذلك حينا ويسرون حينا آخر ، يأمنون معه دهراً ويلقون فى سبيله الموت من وقت إلى وقت

وجد مطيع بن إياس الذي كان لا يبالى أكان عفيفاً أم غير عفيف ،

ولا يبالى أكان حراً كريما نقى العرض أم ممتهنا مبتذلاً مرذول السيرة ، ووجد حماد عجرد الذى لم يكن يحفل بدين ولا بدنيا وإنما كان يأخذ اللذة حيث وجدها وينوّعها ما استطاع الى تنويعها سبيلا ، والذى أسرف فى المجون والتهتك حتى لامه ابو حنيفة وشهر به فلم يجد حماد رداً على ذلك إلا هذه الأبيات المشهورة التى يتهم فيها أبا حنيفة بأنه حديث النسك وأنه كثيرا ما شاركه فى الإثم والمعصية :

إن كان نسكك لا يتم ... م بغير شتمى وانتقاصى

فاقعد وقم بى حيث شئـ ... ـت مع الأدانى والأقاصى

فلطالما زكيتنى ... وأنا المقيم على المعاصى

أيام تأخذها وتعـ ... ـطى فى أباريق الرصاص

ووجد رفيقهما يحيى بن زياد الذى كان يقاسمهما حظهما من كل إثم فى القول والعمل ، ثم أدركه الكبر فتاب وأناب . وظهر بشار الذى كان يؤثر النار على الطين ، أى كان يميل إلى دين الفرس القديم ويزدري الاسلام ، والذى مهر فى وصف الفسق والمجون حتى حبسه المهدى وحتى شكا منه إلى الخليفة أشراف الناس لأنه كان يفسد عليهم نساءهم . ووجد والبة بن الحباب الأسدى الذي عرضت منادمته على الرشيد فأبى وأشفق وأعلن إباءه وإشفاقه فى ألفاظ لا تسمح بنشرها القوانين ولا الأخلاق . ومصدر هذا الإباء والإشفاق شعر لوالبة أعلن فيه بغيه وفجوره إعلاناً خاف الرشيد عاقبته على نفسه فيما ذكر الرواة ، وكان الرشيد مازحا من غير شك ولكنه كان يجل مجالسه عن مثل هذا الشاعر الذى لا يستر فسقه . وكان

أبو نواس تلميذاً لوالبة بن الحباب هذا ، وعنه أخذ الفسق العملي واللفظي، بل قيل إنه أخذ عنه الإباحة بأشنع معانيها . ولقد وجدت بعد هذه الطبقة التي ذكرنا بعض أسمائها طبقة أخرى كانت أشد منها مجونا وأكثر منها فجوراً وأقل منها حرصا على الاستتار . وكان ابو نواس من زعماء هذه الطبقة ، وكان معه الرقاشي والعباس بن الأحنف ومسلم بن الوليد والحسين الخليع وغيرهم من الشعراء ، كان هؤلاء الناس لا يستترون في معصية ولا يكفون عن فاحشة ، وكانوا يتنقلون بمعاصيهم وآثامهم بين بغداد والكرخ والبصرة والكوفة والرقة ، كانوا يأخذون اللذة حيث وجدوها ، فإذا أخذوها لم يتركوها حتى تتركهم ، وكانوا لا يخشون في ذلك خلقا ولا دينا ، وربما أصابهم من وقت إلى وقت غضب الخليفة فاستتروا حينا أو اضطروا إلى السجن حتى ينالهم العفو ، فما هي إلا أن يستأنفوا سيرتهم الاولى . ومن هذا قصة منتحلة — فيما أعتقد — ولكن لها قيمتها التاريخية لأنها تمثل رأى هذه الطبقة في الخلفاء .

روى عن أبي نواس أنه قال لما حبسني الأمين رأيت بشاراً في النام فقال لي : بماذا حبسك هذا الغلام ؟ يعني الأمين ، قلت بقولي :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً اذا أمكن الجهر

فقال : أو يحظر عليك شيئا وهو يجاهر به ! هلا بدأ بنفسه لعن من نقل اليهم الملك ! فقلت : فبماذا حبسك جده المهدي ؟ قال بقولي :

قاس الهموم تنل بها نجحا والليل إن وراءه صبحا

عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعد ماجمحا

قلت : فيم أفرج عنك ؟ قال بقولى :

يامنظراً حسناً رأيتــه ... من وجه جارية فديته
ومخضب رخص البنا ... ن بكى علىّ وما بكيته
بعثت إلىّ تسومنى ... برد الشباب وقد طويته
والله رب سريرتى ... ما إن صبوت ولا نويته
أعرضت عنك وربما ... عرض البلاء وما اتقيته
إن الخليفــة قــد أبي ... واذا أبي شيئاً أبيتــه
ونهانى الملك الهما ... م عن النساء فما عصيته
لا بل وفيت ولم أضع ... عهــداً ولا رأيا رأيته

وبقولى أيضاً

والله لو لا رضى الخليفة ما احـ ... تملت ضيما علىّ فى شجنى
قد عشت بالريحان والراح والمز ... هر فى كل مجلس حسن
ثم نهانى المهــدىّ فانصرفت ... نفسى صنيع الموفق اللقن

فانتبهت وقد حفظت الأبيات وبشار أمامى فقلت

أعاذل أعتبت الإمام وأعتبا ... وأعربت عما فى الضمير وأعربا
وقلت لساقيها أجزها فلم أكن ... ليأبى أمير المؤمنين وأشربا

وقلت أيضاً

أطع الخليفة واعص ذا عرف ... وتنح عن طرب وعن قصف

فصارت هذه الابيات إحدى منجياتى وكان الشيخ بشار سببها .

ولا تنس أن الأمين الذى حبس أبا نواس كان ينادمه ، وكان أبو نواس

به كلفا . ويقال إن الرشيد كان قد كلف الكسائي تأديب الأمين وكان أبو نواس صديقاً للكسائي فقال له أبو نواس يوما أحب أن أقبل الأمين ، فجزع الكسائي لذلك وأشفق منه ، وألح فيه أبو نواس ، ولم يكتف بالإلحاح بل أنذر وصنع هذين البيتين وأظهر انه سيرفعهما الى الرشيد وهما :

قل للإمام جزاه الله صالحة … لا يجمع الله بين السخل والذيب

السخل غر وهم الذيب غفلته … والذيب يعلم ما في السخل من طيب

فاشتد جزع الكسائي واحتال لأبي نواس فقال له : أطل الغيبة ثم أقبل كأنك قادم من سفر فأعانقك ويعانقك الأمين فتقبله ، ففعل أبو نواس ثم خرج فقال في ذلك شعرا

فهذا القليل الذى رويته لك والذي ليس هو شيئا يذكر بالقياس إلى ما تستطيع أن تقرأه في كتب الأدب المختلفة يبين لك إلى أي حد وصل هؤلاء الناس في هذا العصر من المجون والتهتك والاندفاع في الحرية والاستمتاع باللذة ولا يزجرهم عن ذلك حياء ولا دين

خسرت الاخلاق من هذا التطور وربح الادب ، فلم يعرف العرب عصرا كثر فيه المجون وأتقن الشعراء التصرف في فنونه وألوانه كهذا العصر . ثم كان من كثرة المجون أو بعبارة أصح كان من فساد الخلق في ذلك العصر والعصور التى وليته أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن معروفا في الجاهلية ولا في صدر الاسلام ولا في أيام بني أمية وإنما هو أثر من آثار الحضارة العباسية ، هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عند ما خالطت العرب أو عند ما انتقل العرب اليها فاستقر سلطانهم في بغداد . وهذا الفن الجديد

هو الغزل بالغلمان الذى سنحدثك عن خصائصه فى غير هذا الفصل.

وإنما الذى يعنينا الآن أن نلاحظه أن هؤلاء الناس الذين وصفنا لك ما وصلوا إليه من شك فى كل شىء وعبث بكل شىء وإسراف فى المجون واللهو كانوا يجتمعون، ويجتمعون كثيراً أكثر مما كان يجتمع أسلافهم. وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة فيها اللهو وفيها الترف. كانوا لا يجتمعون إلا على لذة، إلا على كأس تدار أو إثم يقترف، وكانت اللذة والآثام حديثهم إذا اجتمعوا، يتحدثون فيها شعراً ونثراً، وكان الدين واللغة والفلسفة حديثهم أيضاً ولم تكن اجتماعاتهم تخلو دائماً من النساء، فقد كان الإماء الظريفات يأخذن منها بنصيب عظيم. وكانوا يجتمعون فى الحانات والأديرة وفى بيوت الأمراء والوزراء وفى بيوتهم الخاصة، فيلذون ويتحدثون. فأنت تستطيع أن تتنبأ بمقدار ما كان لأحاديثهم هذه من أثر عظيم فى الأدب العربى والعقل العربى، كانت هذه الأحاديث عذبة غير متكلفة ولا ثقيلة الروح، كانت تصدر عنهم عفواً فتمثل عقولهم وشعورهم وقوة حرصهم على اللذات وشدة شغفهم بالجديد أحسن تمثيل، ولكنا لن نحدثك بعد عن هذه الأندية الغريبة، وإنما وصلنا بك إلى باب من أبوابها فلننتظر اليوم لنستمع إليهم فى الأسبوع الآتى

*

القدماء والمحدثون (١)

تطور الشعر فى العصر العباسى — الأندية الأدبية — الألفاظ والمعانى

انتهى بنا الحديث فى الأسبوع الماضى الى الأندية الأدبية التى كان لها أيام بنى العباس أثر فى الأدب لايمحى ويد على الشعر لن ينالها النسيان . لم تكن هذه الأندية تجتمع فى أماكن معينة أو منازل معروفة ، وإنما كانت تجتمع حيث يتاح لها الاجتماع ، كانت تتنقل بأدبها وعلمها ، وبجدها وهزلها ، بين مدن العراق المختلفة وبين ما كان فى هذه المدن وضواحيها من الحدائق والبساتين ومن الأديرة والمساجد ومن الحانات وبيوت الإثم ، وكانت تجتمع بنوع خاص فى قصور الخلفاء والوزراء والقادة وكبار الدولة ، وكانت تتألف من هؤلاء الناس الذين سمينا لك بعضهم فى الأحاديث الماضية ، وكان هؤلاء الناس الممتازون بالشك فى كل شىء والعبث بكل شىء يلقون فى مجالس الخلفاء والوزراء وفى المساجد طبقات أخرى من الناس لاتشك ولا تعبث ولا تتعاطى المجون ، كانوا يلقون الفقهاء والمحدثين ، وكانوا يلقون المتكلمين والرواة وعلماء اللغة . فكانت أحاديثهم فى هذه المجالس متأثرة بجد هؤلاء العلماء وبمهابة الأمراء والوزراء ، فكانوا قلما يتجاوزون جد القول إلى هزله ، وقلما يعنون فيما كانوا يعنون فيه اذا خلوا الى أنفسهم من الفحش الذى لا حد له ، والمجون

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٣ جمادى الاولى سنة ١٣٤١ — ١٧ يناير سنة ١٩٢٣

الذى لايعدله مجون . كانوا فى هذه المجالس يتناولون جد الحياة فيحسنون فيه ، فتراهم يروون الشعر وينقدون الشعراء ويتحدثون بطرائف الحديث وغرائبه ، ويتناولون الخلفاء والأمراء والوزراء بالمدح وضروب الثناء ، فيخرجون وقد امتلأت أيديهم بخيرات الدنيا ، فاذا خرجوا ذهبوا بما كسبوا من العطاء إلى حيث ينفقونه فى اللهو واللعب وفى اللذة والفسوق .

فأنت ترى أن الإنصاف وحسن الوفاء للتاريخ يضطراننا الى أن نعترف بأن الشك والمجون لم يكونا كل شىء فى ذلك العصر ، وانما كان إلى جانب الشك يقين ، وإلى جانب الهزل جد . كان الشعراء والكتاب والأدباء بوجه عام يشكون ويعبثون ، وكان الفقهاء والمتكلمون والرواة مستيقنين يؤثرون الجد ويغلون فيه . ولكن إذا أردت أن تتخذ من هذا العصر صورة صادقة تحكم بها عليه حكماً صادقاً فأنت مضطر إلى أن ترجع إلى هؤلاء الشعراء والكتاب أكثر من رجوعك إلى هؤلاء الفقهاء والمتكلمين والرواة ، لأن الشعراء والكتاب يمثلون الجماعة حقا ويعبرون عن أهوائها وميولها ، ويصفون ما تضطرب فيه من ضروب الحياة ، أفتظن أن شاعراً كأبى نواس يبلغ ما بلغ من الشهرة حتى يفتن به الناس فى بغداد وغيرها من مدن العراق بل فى الشأم ومصر حين ذهب الى الشأم ومصر فيحفظون شعره ويتناشدونه ثم يضيفون إليه كل ما أعجبهم من شعر فيه هزل ومجون وليس له قائل معروف ، ثم لايكتفون بذلك بل يروون عنه الروايات وينتحلون له القصص ، ويتحدثون عنه فى اللعب واللهو بالأعاجيب ، أفتظن أن الناس يتخذون أبا نواس مثالا للذة ونعيم الحماة

فيكلفون به هذا الكلف إذا لم يكن أبو نواس لسانهم الصادق ومرآتهم الصافية؟ كلا! ليس من شك في أن صلة حقيقية قوية كانت تصل بين هؤلاء الشعراء وبين طبقات الناس المختلفة، وتجعل هؤلاء الشعراء تراجمة صادقين لما يخطر لهذه الطبقات من خواطر وما يضطرب في نفوسها من عواطف، حينما كان الفقهاء والمتكلمون ورواة الحديث والأخبار عاكفين على الفقه يستنبطونه وعلى الكلام يحصونه، وعلى الحديث يروونه، وعلى الأخبار يتلقطونها ويذيعونها بين الناس، وكانوا في هذا كله لا ينطقون بلسان أحد ولا يعبرون عن رأى أحد ولا يمثلون إلا العلم الذى يعنون به ويعكفون عليه، بل ربما وجب علينا أن نشك بعض الشك ونحتاط بعض الحيطة حين نذكر ورع هؤلاء العلماء وإمعانهم في البر والتقوى، فقد كان منهم الأبرار والأتقياء حقاً، ولكن كان منهم أيضاً الذين يحبون الحياة ويتذوقون لذاتها ويظهرون للناس براً وديناً من ورائهما شيء كثير. ولعلك تذكر ما يروى من أخبار يحيى بن أكثم الذى كان قاضى المأمون ونديمه، ولعلك تذكر ما يروى من أخبار أبى عبيدة معمر بن المثنى وما كان بينه وبين الشعراء. بل لعلك تذكر ما يروى من أخبار الخلفاء أنفسهم وما كانوا يمعنون فيه من لهو ولعب دون أن يمنعهم ذلك من أن يظهروا مظاهر الأئمة الأتقياء. ولقد آن لنا ألا نخدع أنفسنا بما كان يخدع به ابن خلدون نفسه في أمر الرشيد وأمثال الرشيد، فقد تحدثوا أن الرشيد كان يصلى في كل يوم مائة ركعة وأنه أمضى خلافته بين الحج والغزو، فظن ابن خلدون أن هذا وحده يكفى لتبرئة الرشيد مما أضيف إليه من

أنه كان يلهو ويسكر . وكذلك ذكروا عن المأمون خلالا نقية وخصالا طاهرة ربما صحت كلها ولكنها لم تمنع المأمون من أن يلهو ويشرب الخمر (كان هذا العصر عصر شك وعصر مجون وكان عصر رياء ونفاق ، فكان لكثير من الناس مظهران مختلفان : أحدهما للعامة والجمهور وهو مظهر الجد والتقوى ، والآخر للخاصة ولأنفسهم وهو مظهر اللهو والمجون الذى يخلع فيه العذار وتترك فيه للشهوات حريتها المطلقة)

وإذن فقد كان هؤلاء الشعراء الذين كانوا يجهرون بالشك ويعلنون المجون أصدق لهجة وأصح تمثيلا للعصر الذى كانوا يعيشون فيه من العلماء والخلفاء والوزراء وكبار الدولة . وليس هذا مقصوراً على العرب ولا على العباسيين ولا على بغداد ، فقد عرفه اليونان والرومان والأوربيون وعرفته أثينا وروما وباريس . ومالنا نطيل فى هذا ، ويكفى أن تقرأ عصر بريكليس وأغسطس ولويس الرابع عشر لتفهم عصر الرشيد والأمين والمأمون

كان هؤلاء الشعراء إذن يمثلون عصرهم تمثيلا صحيحا . فلنا أن نتخذهم مقياساً للحكم على هذا العصر . ولكن تغير الحياة أيام بنى العباس لم يحدث الشك والمجون وحدهما ولم يغير الشعر من هذه الناحية فحسب ، وإنما أحدث شيئا آخر وغير الشعر من ناحية أخرى ؛ أحدث سهولة فى التعبير عما فى النفس لأنه أطلق للعواطف والأهواء حريتها فانطلقت الألسنة بوصف هذه العواطف والأهواء . ضعف رقيب الدين والأخلاق على الحياة وضعف معها رقيب السلطان السياسى أيضا . ففكر الناس كما أحبوا ، وعاشوا كما أحبوا ، تاركين السياسة لأهل السياسة ، وتركتهم السياسة

أحراراً واستفادت من هذه الحرية ، فبينما كانوا يلهون ويلعبون وبينما كانوا يعبثون ويسرفون فى الهزل كانت السياسة تقوى سلطانها وتبسط ظلها على جميع الأقاليم الإسلامية .

أصبحت العواطف حرة فأصبحت الألسنة حرة . ونشأ من حرية العواطف تنافس فى اللذة واستباق إليها . فنشأ من هذا التنافس فى اللذة العملية تنافس فى وصفها واستباق إلى إجادة هذا الوصف . وكان هؤلاء الشعراء اذا اجتمعوا إلى لذة تنافسوا أيهم يسبق صاحبه فى الشرب وغير الشرب ، ثم يتنافسون أيهم يسبق صاحبه فى وصف الشرب وغير الشرب ومن هنا كثر الافتنان فى اللذات وكثر معه الافتنان فى القول .

ثم تغيرت ألفاظ الشعر لهذا السبب نفسه ، فإن العاطفة التى أصبحت تستطيع أن تحيا من غير جناح ولا رقيب أصبحت تستطيع أن تصف نفسها من غير تكلف ولا تقيد بالقديم ، واذا كان الشاعر يستطيع أن يشرب جهراً دون أن يستخفي من الشرطة فماله لا يصف الخمر كما يحب دون أن يخشى سطوة الاصمعى أو أبى عبيدة .

نشأ عن هذا كله أن اشتد توقد الأذهان عند الشعراء وأصبح قول الشعر أيسر وأسهل فى هذا العصر منه فى العصور الأخرى . وكانت النتيجة الشعرية لهذا القرن الثانى من الهجرة أضخم وأعظم منها لغيره من العصور الماضية ، كان هؤلاء الناس إذا اجتمعوا تحدثوا أو كادوا يتحدثون شعراً لا نثراً ، وكثيراً ما كانوا يوفقون إلى القول البديع والشعر الطريف ، وكثيراً ما كانوا يسقطون إلى سخيف اللفظ ومتكلفه ، وإلى ردىء المعنى

وفاتره ، ولم يكن ذلك يؤذيهم أو ينال منهم ، فهم كانوا لا يعنون فى هذه المجالس بإجادة أو إتقان ، وإنما كانوا يعنون بوصف شعورهم وعواطفهم من جهة ، وبالتفوق والغلب من جهة أخرى . فانظر إلى هذه الجماعة من الشعراء وقد اجتمعت مرة تتناشد وتتحدث حتى إذا كان الظهر سأل واحد منها أين نحن العشية ؛ فأخذ كل واحد يدعو الجماعة الى بيته ، وعرض عليهم أبو نواس أن تكون هذه الدعوة شعراً لا نثراً وأن تذهب الجماعة إلى أشد الشعراء إجادة وأحسنهم كلاما

فقال داود بن رزين الواسطى

قوموا لمنزل لهو　　وظل بيت كنين

فيه من الورد والنرجـ　　ـس والياسمين

وريح مسك ذكى　　وفائح المرزجون

وقينة ذات غنج　　وذات عقل رصين

تشدو بكل طريف　　من محكم بن رزين

وقال أبو نواس :

لا بل إلىَّ ثقاتى　　قوموا بنا لحياتى

قوموا نلذ جميعا　　بقول هاك وهاتى

. . . . .　　. . . .

. . . . .　　. . . . .

فشاوروه مجونا　　فى وقت كل صلاة

وقال الخليع :

إلى الخليع فقوموا ‏ ‏ إلى شراب الخليع
إلى شرابٍ لذيذٍ ‏ ‏ وأكل جدى رضيع
ونيل أحوى رخيم ‏ ‏ بالخندريس صريع
فى روضة جادها صو ‏ ‏ ب غاديات الربيع
قوموا تنالوا وشيكا ‏ ‏ منال كل رفيع

وقال الرقاشى :

لله در عقار ‏ ‏ حلّت ببيت الرّقاشى
عذراء ذات احمرارٍ ‏ ‏ إنى بها لا أحاشى
قوموا ندامى رووا ‏ ‏ مشاشكم ومشاشى
وناطحونى بكأس ‏ ‏ نطاح سود الكباش
فإن نكلت فحلّ ‏ ‏ لكم دمى ومشاشى

وقال عمرو الوراق :

عوجوا إلى بيت عمرو ‏ ‏ إلى سماع وخمر
وناشجات علينا ‏ ‏ تطاع فى كل أمر
فهاك أحلى وأشهى ‏ ‏ من صيد باز وصقر
هذا وليس عليكم ‏ ‏ أولى ولا وقت عصر

وقال الحسين الخياط :

قضت عنان علينا ‏ ‏ بأن نزور حسينا
وأن نقر لديه ‏ ‏ باللهو والقصف عينا

فما رأينا كظرف الـ   حسين فيما رأينا
قد قرب الله زينا   منه وباعد شينا

وقالت عنان :

مهلا أفديك مهلا   عنان أحرى وأولى
بأن تنال لديها   أشهى النعيم وأحلى
فان عندي حراما   من الشراب وحلا
لا تطمعوا فى سواى   من البرية كلا
يا إخوتى خبرونى   أجاز حكمي أم لا

ومضى كل واحد يقول كلاما هكذا فيه ترغيب وفيه حث على اللذة وفيه تفضيل لما عنده ، يقول ذلك كما قاله أصحابه فى لفظ سهل رشيق غير متكلف بل غير معنيٍّ به حتى يسقط فى الخطأ اللفظى أو فى الضرورة . فرأى أبو نواس أن القوم قد استبقوا فلم يسبق أحد صاحبه فاقترح ألا يذهبوا إلى بيت أحد بل إلى حانة فقال :

ألا قوموا إلى الكرخ   إلى منزل خمار
الى صهباء كالمسك   إلى جونة عطار
وبستان به نخل   له زهر بأشجار
فإن أحببتموا لهواً   أتيناكم بمزمار

أتريد أحسن من هذا الشعر دلالة على ما كان يمتاز به هذا العصر فى حياته المعنوية والمادية ، بل فى تصوره وشعوره ، وتعبيره عن هذا التصور والشعور ؟ عواطف حرة يصفها كلام حر ، ومعان سهلة مألوفة لم يبحث

عنها صاحبها ولم يطل البحث ، وإنما وجدها فى نفسه فأظهرها فى لفظ لم يتكلف تخيره ولا نظامه ولا تنسيقه .

« فأنت ترى أن هذا العصر إنما كان يمتاز فى حياته الأدبية بخلال أربع : الشك ، والمجون ، وحرية العواطف . وسهولة اللفظ ، »

واذا أردنا مثالا يختصر هذا العصر ويشخصه فهذا المثال هو أبو نواس الذى سنتخذ درسه الخاص سبيلا إلى درس هذا العصر كله .

القدماء والمحدثون

ابو نواس

أنكر بعض الناس علينا وعلى السياسة حديث الأربعاء، وألحوا فى الإنكار وكتبوا فى الصحف يعلنون إنكارهم ويطلبون الينا وإلى السياسة أن نصلح هذا الحديث ونعدل به عن الشر إلى الخير وعن الهزل الى الجد. وزعموا أن ما نرويه فى هذا الحديث من شك الشعراء حينا ومجونهم حينا آخر مفسد لأخلاق الشباب مدنس لقلوبهم الطاهرة. وتجاوزوا هذا الى أكثر منه فزعموا أنا متكلفون مخطئون حين نصف القرن الثانى للهجرة بأنه كان عصر شك ومجون، وأن الناس كانوا فيه أحرارا لا يكادون يأخذون أنفسهم فى اللهو بخلق أو دين. زعموا أننا مخطئون، وأننا قد اتخذنا طائفة من الشعراء الماجنين ليس لهم وزن فجعلناهم مقياسا للعصر الذى عاشوا فيه، وأعرضنا عن العلماء والفقهاء وأهل الجد وأصحاب الحديث. قالوا: وليس هذا من الإنصاف فى شيء.

كتبوا هذا كله وتجاوزوه الى شتم نعرض عنه ونشكره لكاتبيه. ولعل حديث الأربعاء الماضي يغنينا عن الرد على هؤلاء الكاتبين من بعض الوجوه، فقد بينا فى ذلك الحديث أن هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقا وكانوا أشد له تمثيلا وأصدق لحياته تصويرا من الفقهاء والمحدثين

(١) نشرت فى ٧ جماد الآخرة سنة ١٣٤١ هـ ٢٤ يناير سنة ١٩٢٣ م

وأصحاب الكلام ، وأن هؤلاء العلماء على ارتفاع أقدارهم العلمية ومنازلهم الاجتماعية والسياسية وعلى أن كثيراً منهم كان ورعا مخلصاً طيب السيرة لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك كما شك الشعراء ولها كما لها الشعراء واستمتع بلذات الحياة فى سره كما استمتع بها الشعراء فى جهرهم . فلسنا اذن فى حاجة الى إعادة هذا الحديث والخوض فيه ، وانما نلفت سادتنا المشفقين على أخلاق الشباب وطهارته الى أنهم ليسوا أشد منا إشفاقا على هذا الشباب أن يسوء خلقه أو يفسد قلبه ، ولكنا لسنا نرى رأيهم فى هذا التحرج ، ولسنا نحب أن يكون شبابنا من الجهل والغفلة والضعف بحيث نخشى عليه بيتا من الشعر ليس حظه من المجون والفتنة شيئاً يذكر ، فنحن نتخير لهذا الشباب من هذا الشعر الدنس أقله من الإثم حظا وأنزره من الفجور نصيبا ، ولسنا نروى لك ما يسمع ومالا يسمع ولسنا نحدثهم بما يقال ومالا يقال . وانما ننظر فى هذا كله الى الذوق والمنفعة جميعا ، وأين يقع ما نرويه وما نتحدث به مما يقرأ الشبان ويسمعون ويرون من آداب الفرنجة وأحاديثهم وفى ملاعبهم وملاهيهم !!

ولو أن ما نرويه وما نتحدث به هو الخطر الوحيد الذي نخشاه على أخلاق الشبان لكنا أسرع الناس إلى إجماله ولتحدثنا الى قرائنا فى الزهد والتقوى وفى الطاعة والنسك ، ولكن نخشى على الأخلاق أخطاراً أعظم وأسوأ وقعاً من هذا الحديث البريء الذي ننشره كل أسبوع . وهل يحب سادتنا أن يجهل الناس بشاراً وأبا نواس والرشيد والأمين ، أم هل يحبون أن نعطيهم من هذا العصر صورة كاذبة كلها جد حين كان حظ هذا العصر

من الهزل عظيما؛ على أن هؤلاء السادة الذين يتحرجون ويعتصمون بالدين يضيقون على الناس ما وسع الدين، ويعسرون وقد أمرهم الدين أن ييسروا. ونستطيع أن نؤكد لهم أن السلف الصالح من المسلمين كان أشد منهم بالله إيمانا وأكثر منهم لله طاعة، وكان فى الوقت نفسه أرحب منهم صدرا وأشد احتمالا، فكان يسمع للجد وكان يسمع للهزل، بل كان يجد وكان يهزل. وإن أخلاقنا العامة وعاداتنا لتمنعنا أن ننشر للناس ما أنشد عبد الله بن عباس فى المسجد الحرام وقد سئل عن الشعر أينقض الوضوء وإن أخلاقنا وعاداتنا لتمنعنا أن ننشر للناس ما أنشد عبد الله بن الزبير حين لقى الفرزدق بالمسجد الحرام أيضا، وكان عبد الله خليفة، وكانت النوار زوج الفرزدق قد شكت اليه زوجها، بل إن أخلاقنا وعاداتنا تمنعنا أن ننشر للناس بيتاً قاله حسان يهجو به هنداً زوج أبي سفيان. فلما سمعه النبي صلى الله عليه وسلم أعجب به وقال لشاعره فيما ذكر الرواة: قل وروح القدس معك، نعم تمنعنا الأخلاق أن ننشر هذا الآن لأن العصر قد تبدل، وقد تطورت نظم الحياة، ولكن هناك أشياء نستطيع نشرها دون أن نجني على الأخلاق أو نعرضها للخطر. ونحن نستأذن هؤلاء السادة فى أن نرغب فى ألا تكون حياتنا خلا، وانما نريد ألا تخلو من الفكاهة واللذة. ولقد قال بعض الشعراء يمازح فقيها من فقهاء هذا العصر الأول

سألت الفتى المكى ذا العلم ما الذى يحل من التقبيل فى رمضان
فقال لىَ المكى أما لزوجة فسبع وأما خلة فثمان

وقال شاعر آخر فى مثل هذا المعنى :

سألت الفتى المكى : هل فى تعانق وضمة مشتاق الفؤاد جناح
فقال : معاذ الله أن يذهب التقى تلاصق أكباد بهن جراح

ومثل هذا كثير كان يرويه العلماء والفقهاء ويعجبون به ويرتاحون له . وكان سفيان الثورى يقول : إن أبا نواس أشعر الناس لقوله :

يا قمراً أبصرت فى مأتم يندب شجواً بين أتراب
يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب

* * *

وقد انتهى بنا الحديث إلى أبي نواس . وأنا أريد أن أحدثك عن أبى نواس . ولست أذكر لك أنه ولد سنة ١٤١ هـ ومات سنة ١٩٩ فأنت تعلم ذلك وتستطيع أن تجده فى أى كتاب من كتب الأدب ، ولست أصف لك نشأته الاولى ، ففيها غموض كثير ، وفيها اختلاف واضطراب . وربما كان من الحق على ألا أنشر لك ما تحدث الناس به من شباب أبى نواس ففيه شيء من الإثم كثير قد يغضب سادتنا المتحرجين ، وهو فى الوقت نفسه يخالف أخلاقنا وذوقنا العام . لا أحدثك إذن عن نشأة أبي نواس ، بل لا أريد أن أحدثك فى هذا المكان عن سيرة أبى نواس وحياته ، فان ذلك يحتاج من البحث والتحقيق العاميين إلى ما لا تحتمله الصحف السيارة ولكنى قلت : إن أبا نواس كان مثالا صادقا للعصر الذى عاش فيه ، وإن هذا العصر كان يمتاز بالشك والمجون وإيثار اللذة ، وقلت فى حديث آخر : إن شعراء هذا العصر وأدباءه كانوا قد اتخذوا لانفسهم قاعدة هى

أن يستمتعوا بلذات الحياة ما استطاعوا ، فاذا أدركهم الشيب والضعف لجئوا إلى عفو الله ولاذوا به ، ولهذا كان أبو نواس يكره المعتزلة وينكر على النظام رأيه فى الخطيئة والتوبة . قلت هذا كله ، وأريد فى هذا الفصل أن أثبت لك أن أبا نواس لم يكن قليل الخطر ولا رجلا لا يؤبه له ، وإنما كان ذا مكانة عالية ، وعالية جداً ، وأنه على هذه المكانة قد كان ماجناً ، مجاهراً بالمجون ، مستمتعاً باللذة ، لا يخشى فى ذلك سخط الأمراء ولا إنكار الفقهاء والمحدثين ، وإنما يعتمد على شيء واحد هو عفو الله ، وأنه قد أخذ من الحياة لذاتها جميعا . فلما مرض وعلم أنه ميت أنفق مرضه يتوب وينيب ويعتذر ويستغفر ، فلما مات رأى بعض الرواة فى المنام أن الله قد غفر له وأنه قد دخل الجنة .

ولست أروى لك ما سأرويه من كتب ليست موضع الثقة ، وإنما أعتمد فى حديث اليوم على كتاب واحد معروف لا أتجاوزه وهو « تاريخ دمشق » للحافظ بن عساكر ، فانظر الى الذين روى عنهم أبو نواس ، وانظر الى الذين رووا عن أبى نواس من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث ، فأما الذين روى عنهم فيما ذكر ابن عساكر فهم : حماد بن حماد ، وحماد بن زيد ، وعبدالواحد بن زياد ، ومعتمر بن سليمان ، ويحيى القطان ، وأزهر بن سعد السمان ، وأما الذين رووا عنه فهم فيما ذكر ابن عساكر أيضاً : محمد بن إبراهيم ، بن كثير الصيرفى ، وعبيد الله بن محمد العبسي ، ومحمد بن جعفر غندر ، وأحمد بن حمزة بن زياد الريفي ، وعمرو بن بحر الجاحظ ، ويعقوب بن زيد الفارسى ، ومحمد بن ادريس الشافعى وجماعة سواهم .

فاذا أردت أن تعرف أقدار هؤلاء الفقهاء والمحدّثين فارجع الى طبقات الفقهاء والمحدثين ، وستثق بأن شاعرنا لم يكن رجلا ما ، وإنما كان رجلا يقدره أهل عصره ويكبرونه فى كل ما عرض له من الفنون ، فكان أهل اللغة يقولون إنه أعلم الناس بالغريب ، وكان الأدباء يقولون إنه أرق الناس أدبًا وأحسنهم شعراً ، وكان الخلفاء والوزراء والأمراء يعجبون بظرفه وحسن حديثه ، وكان الشعراء يعترفون له بالزعامة والتفوق ، وكان الفقهاء والمحدثون لا يأنفون أن يحدّثوه وأن يتحدثوا عنه ، ولو روينا لك الأدلة على هذا كله لأسرفنا فى الاطالة .

ولكنا ننتقل من هذا إلى ذكر شىء من دعابة أبى نواس ومجونه مع الفقهاء والمحدّثين والخلفاء . تحدث ابن عائشة أنه قال : كنا على باب عبد الواحد بن زياد ومعنا أبو نواس فقال : ليسأل كل واحد منكم ثم قال : سل يافتى ، فأنشأ أبو نواس يقول :

ولقد كنا روينا عن سعيد عن قتاده
عن سعيد بن المسيب أن سعد بن عباده
قال من مات محبا فله أجر شهاده

فالتفت إليه عبد الواحد بن زياد فقال : اعزب عنى يا خبيث ، والله لاحدثتك بشىء وأنا أعرفك .

وتحدّث محمد بن جعفر قال : لقى شيبة أبا نواس فقال له : يا حسن ، حدثنا عن ظرفك ، فقال :

حدثنا الخفاف عن وائل وخالد الحذاء عن جابر

عن مسعر عن بعض أصحابه يرفعه الشيخ إلى عامر
قالوا جميعا : أيما طفلة علقها ذو خلق طاهر
فواصلته ثم دامت له على وصال الحافظ الذاكر
كانت لها الجنة مفتوحة ترتع فى مرتعها الزاهر
وأى معشوق جفا عاشقا بعد وصال دائم ناضر
ففى عذاب الله بعداً له نعم وسحق دائم داحر

فقال له شيبة : إنك لجميل الاخلاق .

فما رأى ساداتنا المتحرجين :

وتحدث سليم بن منصور قال : رأيت أبا نواس فى مجلس أبى وكان واعظا يبكى بكاء شديداً فقلت : إنى لأرجو أن لا يعذبك الله بعد هذا البكاء أبداً ، فأنشأ يقول :

لم أبك فى مجلس منصور شوقاً إلى الجنة والحور
ولا من القبر وأهواله ولا من النفخة فى الصور
لكن بكائى لبكا شادن تقيه نفسى كل محذور

ثم قال أما ترى الأمرد الذي عن يمين أبيك ! إنما بكيت رحمة لبكائه .

وتحدث ابن الزيات عن محمد بن ضوء بن الصلصال بن الدلهمس قال : كان أبو نواس يزورنى فى الكوفة فيأتى بيت خمار بالحيرة يقال له جابر وكان نظيف الثوب يعتق الشراب فيكون عنده ما يأتى عليه سنون ، قال فرأى فى يده يوماً شيئاً عجيباً فى نهاية الحسن وطيب الرائحة ، فقال لى : يا أبا جعفر لا يجتمع هذا والهم فى صدر ، قال : وكان معجبا بضرب الطنبور

فكان إذا جاءنى جمعت له ضراب الطنابير ومعدنهم الكوفة ، فكان يسكر فى الليلة سكرات ، قال : فجاءني مرة من داره فقال : قد حدث أمر ، قلت ماهو ؟ قال : نهانى أمير المؤمنين محمد عن شرب الخمر ، وأنشدنى :

أيها الرائحان باللوم لوما   لا أذوق المدام إلا شميما

القصيدة ، فقلت ماتريد أن تفعل ؟ قال : لا أشربها أخاف أن يبلغه أنى شربتها ، فأتيناه بنبيذ وجلسنا فى منزل جابر ، فلما دارت الكأس بيننا أنشأت أقول وأذكر قوله لى :

عتبت عليك محاسن الخمر   أم غيرتك نوائب الدهر
فصرفت وجهك عن معتقة   تفتر عن خلق من البشر
ونسيت قولك حين تمزجها   فيزول مثل كواكب النسر (كذا)
لا تحسبن عقار خابية   والهم يجتمعان فى صدر

فأخذ يسب الأمين فى كلام لانرويه وشرب الخمر ، ثم شخص الى محمد ، فقال له : أين كنت ؟ قال : عند صديقي الكوفى ، وحدثه الحديث ، قال. فقال لى : ماصنعت حين أنشدك الشعر ؟ قال . شربتها يا أمير المؤمنين ، قال : أحسنت وأجملت ، ثم قال : اشخص حتى تحمل الى صديقك هذا ، قال : فشخص فحملني اليه فلم أزل مع محمد حتى قتل .

ولكنا قد أكثرنا من رواية هذا المجون ونخشى أن نكون قد أثقلنا على المتحرجين ، فلنرو لهم شعراً لأبى نواس ملؤه البر والتقوى ، وفيه الزهد والموعظة .

نقل عن عبدوس راوية أبى نواس أنه قال : دخلت على أبى نواس الحسن

بن هانىء فى علته التى مات فيها فقلت له كيف تجدك يا أبا نواس ؛ فقال : أجدنى قائلا :

سبحان من خلق الخلا ق من ضعيف مهين
يسوقه من قرار إلى قرار مكين
يحول شيئًا فشيئًا فى الحجب دون العيون
حتى استوت حركات مخلوقة من سكون

قال ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان من غد دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس : قال أجدني قائلا :

وعظتك أجداث صُمُت ونعتك أزمنة خُفُت
وتكلمت عن أوجه تبلى وعن صور سبت
وأرتك قبرك فى القبو ر وأنت حى لم تمت
ولربما انقلب الشمات خال بالقوم الشمت

ثم أطرق فتركته ، فلما كان فى اليوم الثالث دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس : قال أجدنى قائلا :

يا نواسىّ تفكر وتعزّ وتصبر
ساءك الدهر بشىء وبما سرّك أكثر
يا كثير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
أكبر العصيان فى أصغر عفو الله يصغر

فلما كان فى اليوم الرابع دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نوس : قال أجدنى قائلا :

كن مع الله يكن لك　　واتق الله لعلك
لا تكن إلا معداً　　للعنايا فكأنك
إن للموت لسهما　　واقعاً دونك أو بك
فعلى الله توكل　　وبتقواه تمسك
نحن نمسى بين أسبا　　ب سكون وتحرك

قال : ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان في اليوم الخامس دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدنى قائلا :

يا ناظراً يرنو بعينى راقد　　ومشاهداً للأمس غير مشاهد
منتك نفسك ضلة فأبحتها　　طرق الحمام وأنت غير مراصد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى　　درك الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدما　　منها إلى الدنيا بذنب واحد

قال : ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان في اليوم السادس دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدنى قائلا :

دب فيَّ السقام سفلا وعلواً　　وأرانى أموت عضواً فعضوا
ليس تأتي من ساعة بى إلا　　نقصتنى بمرها بي جزوا
ذهبت جدتى بطاعة نفسى　　وتذكرت طاعة الله نضوا
قد أسأنا كل الإساءة يارب　　فصفحاً عنا إلهى وعفوا

ثم أطرق وانصرفت ، فلما كان في اليوم السابع دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس : قال أجدنى قائلا :

انى وما جمعت من صفد　　وحويت من سبد ومن لبد

همم تصرفت الخطوب بها ... فغدوت من بلد إلى بلد
لو لم تكن لله متهماً ... لم تمس محتاجاً إلى أحد

ثم أطرق فتركته وانصرفت، فلما كان فى اليوم الثامن جئت لأدخل فلقينى الغلام فى الطريق ومعه رقعة مختومة : فسألته عنه، فقال أعظم الله أجرك فى أبي نواس فقد توفى . وكان كتب اليك هذه الرقعة قبل موته، فقرأتها فاذا فيها

شعر حي أتاك من لفظ ميت ... صار بين الحياة والموت وقفا
لو تأملتني وأبصرت وجهي ... لم تجد من مثال رسمي حرفا
نفس خافت وجسم نحيل ... أرمضته الأسقام حتى تعفى

فجئت معه إلى منزل أبي نواس فاذا به قد مات، ونظرت فيما خلف فاذا مقدار ثلثمائة درهم وإذا بين مخدتيه رقعة فيها هذا الشعر :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
أدعوك رب كما أمرت تضرعا ... فاذا رددت يدي فمن ذا يرحم
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن الذى يرجو ويخشى المجرم
مالى اليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم أني مسلم

قال : فوقفت حتى جهزناه وصلينا عليه ودفناه وانصرفت .

* * *

أكثر هذا الشعر لأبى نواس من غير شك ولكن هذه القصة التى رويناها متكلفة من غير شك أيضا، وانما نعتقد أن الرجل قال أكثر هذا الشعر فى أوقات مختلفة من حياته، وقال بعضه عند ما أحس الموت

ولسنا نلح في هذا البحث ولا نفصله فقد أطلنا أكثر مما ينبغي وإن كان ذنب هذه الإطالة يقع على أبي نواس أكثر من وقوعه علينا ، فقد رأيت مكانة شاعرنا ورأيت مذهبه في الدين والمجون والشك ؛ فلنترك هذا كله ولنحدثك عن قيمة أبي نواس الشعرية في الأسبوع الآتي .

*

القدماء والمحدثون (١)

أبو نواس

زعمت لك فى الأحاديث الماضية أن أبا نواس كان مثالاً لعصره، وأن الذين عاصروه كانوا يعجبون به الاعجاب كله ويقدمونه على شعراء عصره جميعاً إلا بشار بن برد. وأريد اليوم أن أؤيد هذا الزعم وأن أستوفى هذا الموضوع حقه من البحث. ويخيل إلىّ أن بحثاً كهذا على ما فيه من الرواية والنقد لن يخلو من فائدة وإن خلا من لذة؛ أو بعبارة أصح وإن لم يحدث فى نفسك هذه اللذة التى يحدثها الشعر الماجن الظريف.

لن يخلو هـذا البحث من فائدة لأنه سيظهرك على ما كان للأدباء والشعراء والفقهاء وأصحاب الكلام وأئمة اللغة من رأى فى هـذا الشاعر الذى اخترت شعره موضوعاً لهذه الاحاديث، ولأنه سيبين لك طريقة هؤلاء الناس جميعاً فى نقـد الشعر وفى فهمه وفى تصوره والحكم عليه. وليس هـذا بالشىء القليل. ولقد أضطر إلى أن أستأذن رجال الأدب القديم من المعاصرين فى أن أكون جريئاً وحراً فى هذا البحث. وأرجو ألا تغضبهم هذه الجرأة ولا تسوءهم هذه الحرية. وأؤكد لهم أنى لم أعمد اليهما عمدا وإنما اضطررت اليهما اضطرارا، واضطرنى اليهما بحث أعتقد أنه صحيح، وصدق فى التاريخ أعتقد أنه واجب على الباحثين.

---

(١) نشرت بالسياسة فى ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ هـ ٣١ يناير سنة ١٩٢٣ م

إذن فأنا أستأذن أئمة الأدب وشيوخه المعاصرين في أن أكون حراً وفي أن أكون جريئا ، وفي أن أزعم أن الذين عاصروا أبا نواس وجاءوا بعده من الأدباء والشعراء وأئمة اللغة لم يكن لهم في النقد مذهب معروف أو خطة واضحة ، وإن شئت فقل إنهم قد كانوا يذهبون في النقد مذاهب لا ترضينا ولا تحقق ما أصبحنا نسمو اليه من مثل أعلى في النقد خاصة وفي الأدب عامة .

ولست أدري أكانت هذه المذاهب تحقق ما كان يسموا اليه أدباء العصر العباسي أم لا ؛ ولست أدري أكانت تظل حال النقد على ما كانت عليه أيام الجاحظ والمبرد لو أن حياة العرب السياسية لم تفسد ولم تتغلب أجناس أخرى أعجمية على السلطان العربي ؛ ولكني أستطيع أن أقول : إن هذه المذاهب التي نجدها منبثة في كتب الأدب على اختلافها قبل أن يصبح البيان علما ذا قواعد وأصول ليس من شأنها أن ترضي باحثا أو تقنع أديبا . وإننا نستطيع أن نقول : إن أدبنا العربي يخلو أو يكاد يخلو من النقد الصحيح خلواً تاما .

إلام تقصد إذا عرضت لشاعر من الشعراء وأردت أن تقرأ شعره وتفهمه ثم تنقده ؛ تقصد فيما أظن إلى أشياء : الأول أن تصل الى شخصية الشاعر فتفهمها وتحيط بدقائق نفسه ما استطعت ، فتعرف كيف أحس ما أحس وكيف شعر بما شعر به ، ثم كيف وصف إحساسه وأعرب عن شعوره . الثاني أن تتخذ هذه الشخصية وما يؤلفها من عواطف وميول وأهواء وسيلة إلى فهم العصر الذي عاش فيه هذا الشاعر ، والبيئة التي خضع لها

هذا الشاعر ، والجنسية التي نجم منها هذا الشاعر . فأنت لا تقصد الى فهم الشاعر لنفسه ، وإنما تقصد إلى فهم الشاعر من حيث هو صورة من صور الجماعة التي يعيش فيها . ومهما تكن مقتصداً ، ومهما تكن متواضعا فأنت سواء شعرت بذلك أم لم تشعر به لا تقنع بالأشخاص وإنما تطمع في الجماعات ، لا ترضى بالجزئي وإنما تسمو إلى الكلى كما يقول أهل المنطق . فأبو نواس وحده لا يعنيك وإنما يعنيك أبو نواس من حيث إنه كان يعيش لا أقول مع فلان وفلان . وقل مثل ذلك في شوقي ، وقل مثله في حافظ .

فالشاعر ليس شاعراً لأنه يقول فيحسن ، وانما هو شاعر لأن قوله الحسن هـذا يمثل عواطف الذين يسمعونه ويقرءونه ، يرضيهم ويقع من نفوسهم موقع الإعجاب . ولم يرضيك البيت من الشعر ؟ لأنه يوافق هوى في نفسك ، ويلائم عاطفة من عواطفك ، ويرضى حاجة من حاجتك الى الجمال . إذن فأنت تنقد الشاعر لتفهم شخصيته أولاً ثم جماعته أو عصره أو بيئته أو هذا كله ثانياً . وهناك شيء ثالث تقصد اليه حين تقرأ الشعر وتحاول نقده ، وهو اللذة ، اللذة الفنية ، اللذة التي تجدها اذا نظرت الى شكل جميل ، أو استمعت الى قطعة من الموسيقى ، أو خضعت لمظهر من مظاهر الطبيعة الساحرة . عقلك وشعورك يعملان إذن حين تقرأ الشعر وحين تنقده ، لأنك تريد أن تفهم وتريد أن تلتذ .

ولا تقل إن في هذا شيئاً من التحرج ، أو إن فيـه تضييقا ومحاولة من هذه المحاولات التي أرادت غير مرة أن تجعل النقد علماً ذا قواعد وأصول فلم تفلح ولم توفق إلى شيء كثير . لا تقل هـذا فإني لا أتحرج

ولا أضيق ولا أحاول أن أضع للنقد قواعد وأصولا معينة ، وانما أحاول أن أفهم معك معنى النقد وما يرمي اليه الناقد . ومهما تختلف مذاهب النقاد المحدثين ومسالكهم فهم يقصدون الى هذا كله أو بعضه .

سل « سانت بوف » (Sainte - Beuve) ينبئك بأنه يعني قبل كل شيء اذا قرأ قصيدة من الشعر او فصلا من النثر بأن يجد شخص الشاعر او الكاتب ، وبأن يحلل هذا الشخص ويصل الى دقائقه ودخائله كما يفعل علماء التاريخ الطبعي في معاملهم . ولكن الشخص وحده لا يكفيه ولا يعنيه وانما هو يتخذ هذا الشخص وسيلة الى النوع ، يتخذ هذا الجزئي وسيلة الى الكلي . ثم سل «تين» (Taine) ينبئك بأن شخص الشاعر او الكاتب ومزاجه وعواطفه وكل ما يكون نفسه لا يعنيه الا من حيث هو أثر من آثار العصر الذى عاش فيه والبيئة التي خضع لها والأمة التي نجم منها ، فالشخص عنده اثر من آثار هذا العصر وهذه البيئة وهذه الأمة . ثم سل « جول لمتر » jules Le naitre ينبئك بأن هذا كله لغو وثرثرة ، وأن الفن وحده هو الذى يعنيه ، ويعنيه من حيث إنه يؤثر في النفس فيبعث فيها العواطف على اختلافها ، ويبعث فيها الرضا والاعجاب .

وفي الحق ان الناقد لا يقنع بما كان يقنع به « سانت بوف » أو « تين » أو « جول لمتر » أو غيرهم من النقاد ، وانما يود لو استطاع أن يوفق الى هذا كله ، ويستخلص منه غرضا شاملا يطلبه ويسمو اليه حين ينقد . فيفهم شخصية الشاعر أو الكاتب وعصره وفنه .

ولست أريد أن أتعمق فى تفصيل هذا كله ، فان فصلا من فصول الصحف السيارة لا يتسع لمثل هذا التعمق ، وانما أردت أن أنتهى بك الى مانطلبه الآن الى النقد ، لأنتقل من هذا الى ما كان يطلبه المعاصرون لأبي نواس الى هذا النقد . والحق أن الفرق بين الغرضين عظيم جدا نطلب نحن كثيرا . ولم يكن يطلب القوم إلا شيئاً قليلا .

* * *

قلت فى أول هـذا الفصل : إن القوم لم تـكن لهم مذاهب واضحة فى النقـد ، أو ان مذاهبهم لم يكن من شأنها أن ترضينا . وكلا القولين صحيح ، فانا لا نعرف لأدباء القرن الثاني والثالث للهجرة مذهبا فى النقد معروفا أو خطة فيه واضحة . ومع ذلك فقد نقدوا وحكموا على الشعر والنثر فاستحسنوهما وازدروهما . ولم تـكن أحكامهم متفقة ، ولم تـكن أهواؤهم متشاكلة ، وانما كانوا يختلفون ، ويختلفون اختلافا كثيراً . ولعلنا لا نخطىء اذا قلنا : إن كل فريق من أهل ذلك العصر كان يتخذ صناعته وفنه الذى غلب عليه مقياسا لنقده وميزانا لرأيه فى جودة الأثر الأدبي أو رداءته ، فالجيد عند أبى عبيدة ويونس بن حبيب وأبي عمرو الشيبانى وابن الأعرابى ما اشتمل على الالفاظ الجزلة المتينة والأساليب الفخمة الرصينة وما كان الى لغة الأعراب أقرب منه الى لغة أهل الحضر : والجيد عند الجاحظ وأمثال الجاحظ من الكتاب والشعراء ورواة الأدب — الذين لم يقصروا حياتهم على اللفظ ولم يختصوا بالبحث مادة اللغـة وانما تناولوا الأدب من حيث هو وعُنوا بالمعاني عناية لا تقـل عن عنايتهم بالألفاظ

وربما تفوقها ـ ما اشتمل على المعنى الطريف فى اللفظ المستعذب الذى لم يمعن فى الغرابة ولم يسفل الى لغة السوقة . والجيد عند الفقهاء والمحدّثين ما لاءم أصلا من أصول الدين أو غرضا من أغراضه أو نزعة من نزعاته .

ومن هنا كان يونس بن حبيب وأبو عبيـدة يؤثران الفرزدق على جرير ، وكان بشار وأبو نواس يؤثران جريرا على الفرزدق . ولما كُلم بشّار فى ذلك قال . ليس ذا من عمل اولئك القوم انما يعرف الشعر من يضطر الى أن يقول مثله الخ . . .

وروى مثل هذا فى أمر أبى نواس ومسلم فقد كان الأُدباء والشعراء يفضلون أبا نواس ، وكان ثعلب يفضل مسلما . وسئل البحترى عن ذلك ففضل أبا نواس فلما ذكر له أمر ثعلب قال كلاما كالذى قاله بشار .

ولعل مما يمثل لك هـذا المعنى تمثيلا حسنا ما كان بين المأمون وابن الأعرابي . فقد سأل المأمون هذا الإمام اللغوى عن أجود ما قيل فى الخمر فأخذ يذكر له شعر الأعشى والأخطل ، ومما رواه له قول الأعشى

تريك القذى من فوقها وهى فوقه اذا ذاقها من ذاقها يتمطق

فلم يحفل المأمون بشيء من ذلك بل آثر قول أبى نواس

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم
فعلت فى البيت اذ مزجت مثل فعل الصبح فى الظلم
فاهتدى سارى الظلام بها كاهتداء السفر بالعلم

فانظر الى هذين الذوقين المختلفين . فاما المأمون فحضرى يؤثر المعنى الجيد فى اللفظ السهل .

وأما ابن الأعرابي فحب للغريب مؤثر للفظ الجزل . وكان أبو عمرو الشيباني يقول : لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الارفاث لاحتججنا بشعره وكان كثير من أئمة اللغة والفقهاء والمحدثين والمتكلمين يعجبون بأبي نواس ولا يكرهون منه الاهذا الارفاث والمجون . ذلك لأن مقامهم وصناعاتهم كانت تضطرهم الى هذا التحفظ ، فأما الأدباء والشعراء ومن اليهم فكانوا يعجبون بأبي نواس إعجابا لا حد له ؛ لا يصرفهم عنه انه آثر السهل على الغريب أوالهزل على الجد ؛ وربما رغبهم ذلك فى شعره وحبب اليهم سيرته

ولو أنى ذهبت أروى لك آراء هؤلاء العلماء والأدباء والشعراء فى أبي نواس لأطلت عليك إطالة ثقيلة مملولة . ولكنك تستطيع أن تصدقني وأن ترجع الى الكتب فترى أن إجماع هؤلاء منعقد على أن أبا نواس أشعر المحدثين لا يستثنون منهم إلا بشار بن برد . ومع هذا فلست أرى لهذا الإجماع قيمة ولا خطراً ؛ لأن القوم حين استحسنوا شعر أبي نواس لم يستحسنوه عن درس مفصل مستقصى ، وانما كان يعجب أحدهم البيت أو البيتان أو المقطوعة أو القصيدة فلا يأبى أن يقول إن أبا نواس أشعر الناس . فانظر الى من فضل أبا نواس على الشعراء جميعا لأنه قال :

يا قمرا أبصرت فى مأتم ... يندب شجوا بين أتراب

القصيدة . وانظر الى الأصمعي يفضل أبا نواس لأنه قال

أما ترى الشمس حلت الحملا ... وقام وزن الزمان فاعتدلا

وانظر الى ابن الأعرابي الذى كان يفضل أبا نواس على الشعراء جميعا لقوله :

تغطيت من دهرى بظل جناحه ... فعيني ترى دهرى وليس يراني

فلو تسأل الأيام ما اسمي لما درت وأين مكاني ما عرفن مكاني

وانظر الى أبي العتاهيـة والعتابي اللذين كانا يفضلان أبا نواس على الشعراء جميعا لقوله :

اذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

وكان أبو نواس نفسه يفضل أبا العتاهية على الشعراء جميعا لقوله :

النـاس في غفـلاتهم ورحا المنيـة تطحن

وفضل المبرد أبا نواس على المحدثين جميعا لانه شبب ومدح في أربعة أبيات فقال :

تقول غداة البين إحدى نسائهم لي الـكبد الحري فسر ولك الصبر

وقد خضبتهـا عـبرة فادمعهـا على خـدها خد وفي نحرها نحر

وقالت الى العباس قلت فمن إذن ومالي عن العباس معدي ولا قصر

فهل يكلفن إلا براحتـه النـدي وهل يزهون إلا بأوصافه الشعر

وأعجب من هذا أن هؤلاء الناس الذين كانوا يفضلون أبا نواس في هذه اللحظة كانوا يفضلون غير أبي نواس في لحظة أخرى ، فلو أنك أردت أن تعرف من أشعر الناس عند هؤلاء الأدباء والعلماء لـكان الناس جميعا أشعر الناس . ومازال العرب يسأل بعضهم بعضا من أشعر الناس ، فيجيب المسئول أشعرهم من قال ثم يروى بيتا أعجبه . ولا يمنعه ذلك أن يروى غداً بيتاً آخر لشاعر آخر على أن هذا البيت أجمل الشعر وعلى أن هـذا أشعر الناس ، وعلى هذه القاعدة وصل كل شاعر الى هـذه المنزلة لأن لـكل شاعر بيتاً جيداً على أقل تقدير .

فأنت ترى أن مثل هذه الأحكام لا يمكن أن يطمئن اليها ناقد فى نفسها ، ولا أن يطمئن اليها من حيث إنها تمثل آراء أصحابها فإن هؤلاء النقاد انما كانوا يجيبون بما يحضرهم لا أكثر ولا أقل . ومع هذا كله فما زلت أري أن معاصري أبي نواس كانوا يقدمونه ويدينون له بالزعامة . وليس هذا الاقتناع عندى أثراً من آثار هذه الأحكام التى رويت لك طرفا منها ، وانما هو أثر القراءة الطويلة فى الكتب الكثيرة وأثر المقارنة بين هذا الشاعر ومن عاصره ومن جاء بعده .

كان القدماء يؤثرون أبا نواس على معاصريه وكانوا فى ذلك محقين . ولكنهم لم يقولوا ولعلهم لم يعلموا : لماذا كانوا يؤثرون أبا نواس . فمن الحق أن نبحث نحن عن مصدر هذا الإيثار أو عن مصدر هذا التفوق الذي ليس فيه شك ، وأن نبحث عن هذا المصدر ، لا كما بحث المتقدمون فى البيت أو البيتين أو القصيدة ، وانما فى الديوان كله . ومن الحق ألا يكون سبيلنا فى هذا البحث جودة اللفظ والمعنى وحدهما . وانما سبيلنا فيه اللفظ والمعني وما بين اللفظ والمعنى ونفس الشاعر من صلة ، وما بين نفس الشاعر وعصره من صلة أيضا . وهذا هو الذي سنبدأ به فى الاسبوع الآتى .

*

الى الاستاذ طه حسين (١)

سيدي الاستاذ

أطالع بشوق وإمعان مقالاتكم الأسبوعيـة على أدب القدماء والمحدثين أو « حديث الأربعاء » ومما يلفت النظر ويستدعى التمحيص والحذر فى ذلك الحديث حكمكم أن أبا نواس ومن فى طبقته أو على شاكلته من الشعراء كانوا مثالا صادقاً للعصر الذى عاشوا فيه ، وأن الرشيد والمأمون ذهبـا من الشك والاستمتاع باللذائذ فى ذلك العصر مذهب أبى نواس وأضرابه من شعراء المجون . وقد سردتم طائفـة من الشعر والأخبار المنسوبة اليهم واستنتجتم منها ذلك الحكم الذى يحتـاج الى تمحيص كثير

نعم إن المقدمات التى استخرجتم منها تلك النتيجـة ربما ظهرت صحيحة لأول وهلة ، لأنها تستند إلى أشعار وأخبار مكتوبة ومنسوبة الى ناقليها وقائليها وهم معروفون مشهورون فى التاريخ . لكن هذا وحده لا يكفي لمثل ذلك الاستنتاج ولا تبنى عليه أحكام سوداء فى تاريخ أبيض ناصع كتاريخ الرشيد والمأمون ومن عاصرهما من العلماء والفضلاء . وأرى أن الاستاذ تعجل فى الحكم لتلقيه أخبار أبي نواس وما نقل الينا من شعره كأخبار صحيحة لا غبار على نسبتها اليه وصدورها عنه ، وهذا ما لا يصح للمؤرخ المحص التسليم به والسكوت عليه

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣٣١ هـ ٧ فبراير سنة ١٩٢٣ م

إن الحقائق التاريخية ولا سيما فى تاريخ الإسلام تشبه الدر الملقى بين أشواك يحتاج مريد استخراجه من تلك الأشواك الى أناة وروية ونظر فى وجوه السلامة من أذى الشوك . ولا نريد أن نذهب بعيداً فى مذاهب الشك التى ذهب اليها الاستاذ وانما يكفى أن ننبهه بما نقول وهو العليم الى ما عاناه رواة الحديث ونقلة الأخبار النبوية فى تمحيص تلك الاخبار وتنظيفها من شوائب الوضع المكذوب ولا سيما فى أيام الفتنة الكبرى التى انقسم فيها المسلمون إلى شيع سياسية كانت تعمل للسياسة باسم الدين وتضع من الاخبار ما يوافق مذاهبها السياسية وإن كان فيه مساس بالدين وتشويه له . هذا فيما له صلة بأصل الشريعة وانتساب إلى صاحب الشرع فما بالك بأخبار الخلفاء ووقائع التاريخ وأخبار الناس

نقرأ شيئا فى التاريخ وشيئا فى كتب القصاصين عما أنتجه التنازع بين الشيع الدينية والسياسية على الأصح فى عصور المحنة التى مرت على المسلمين . نقرأ فى كتب التاريخ أخبارا نسبها شيع العباسيين الى خلفاء بني أمية . وأخبار نسبها شيع آل على الى خلفاء بني العباس هى أحط ماينسب إلى خلفاء أو ملوك أو سمهم ما شئت كانوا فى مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الجاه والملك ، وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسيرة فى المنزلة التى أنزلهم اليها الوضاعون ويدوم لهم طويلا ذلك الملك العريض والشهرة الذائعة فى التاريخ

ونقرأ ما هو أقبح من ذلك فى كتب القصاصين منسوبا الى الخلفاء وأهل العلم والأدب، فلو سلمنا بكل ما جاء فى تلك الكتب والأقاصيص

واعتبرناها أخبارا صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الاسلامية الاولى التى نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد

الحقيقة التي ينبغى أن تقال أن التنازع السياسى بين الشيع الاسلامية أدخل من روايات بعض الاخباريين شوائب فى التاريخ الإسلامي ليست هي منه في شيء ، وانما هى من وضع المتزلفين لبيوت الإمارة والملك أو المتشيعين لبعض المذاهب السياسية أو الدينية . ولما أنكر ابن خلدون أقوال الملفقين الذين لفقوا على الرشيد تلك الحكايات الشائنة لم يكن فى إنكاره إلا على حق لما عرف عنه من بعد النظر فى التاريخ وصحة بحثه فى طبائع الاجتماع وأخلاق الامم ومنازعها شأن كل مؤرخ بحّاث لا يأتى الكلام على عواهنه ولا يأخذ الحوادث بظواهرها ، ولا شك عند كل منصف أن ابن خلدون أوثق وأصدق كلاما من أبي نواس وأمثاله من المجونيين . هذا اذا صحت كل أخبار المجون المنسوبة الى هؤلاء

أما القصص أو كتب القصاصين فلها شأن آخر لأن واضعيها انما وضعوها لأغراض وبواعث تجارية أو سياسية أو دينية . أما الاغراض التجارية فهى الكسب والانتفاع ، وأما البواعث السياسية أو الدينية فهى منع العامة عن الخوض فى سياسة الخلفاء والحكام والخوض فى أخبار الصحابة وما شجر بينهم على ما يقال أو يظن ، اذ من المعلوم أنه لم يكن فى القرون الأولى للاسلام من وسائل التسلية وأماكن اللهو العامة

ما يقضى فيه العامة أوقات الفراغ ، وهم بالضرورة فى حاجة الى الاجتماع ، فكانت أكثر أحاديثهم فى مجتمعاتهم تدور على أخبار الصحابة وحوادث الصدر الأول لقرب العهد به ، ثم سياسة الخلفاء وحكامهم ، وقد كان ذلك يجر فى كثير من الأحيان إلى الشجار ثم الفتنة كما تقرأ فى أخبار أهل السنة والشيعة فى بغداد عاصمة الملك والخلافة ، وكانت هذه المنازعات والفتن تفضى أحيانا الى إهراق الدماء بين العامة الذين يتشيع كل فريق منهم لرأيه ومذهبه بلا علم ينفع أو فهم يردع

فكان هذا سببا على ما يظهر لتفكير العلماء فى وسيلة من الوسائل تشغل العامة عن الخوض فى مثل تلك الأخبار ، فأخذ بعض الأذكياء فى وضع قصص تتلى فى المجتمعات فيلهو بها العامة عن الأخبار المثيرة للعواطف أو الأحقاد فكان منها المختصر المبعثر فى ثنايا الكتب ومنها المطول المجموع فى كتب على حدة ، ومن ذلك أخبار الفتوحات كفتوح الشأم وفتوح مصر وفتوح اليمن المنسوبة الى الواقدى وهى ليست له . وكتاب قصة عنترة العبسى وواضعها مجهول ، وكتاب ألف ليلة وليلة وكاتبها مجهول أيضا ، وقد قالوا إنها مترجمة عن الفارسية ولكن أخبارها لا تدل على ذلك . ولما استطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار وأصبحت ضرورة من ضرورات الحياة لأن فيها نوعا من التلهى وترويح النفس تنافس الرواة والقصاصون فى تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة فى كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام وغير ذلك فكان منها الغث والسمين ومنها الملفق والقريب من الصحة .

وقد غالى بعض الأخباريين فى إيراد أخبار المجون والتهتك والانغماس فى الشهوات مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد عن معنى الأدب الذى أخذ منه الشعراء والأدباء المنسوبة اليهم بسبب كبير ينافى ما ينسب اليهم من اطراح رداء الحشمة والمروءة . ولا أظننى مخطئا إذا قلت إن ما نقل من هذا القبيل عن أبى نواس وأضرابه من شعراء ذلك العصر ويسميه حضرة الاستاذ طه حسين عصر الشك والمجون ويتخذه دليلا على حكمه على أهل ذلك العصر إنما هو تلفيق قصصى يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون ، واما سد نهمات العامة إلى أمثال تلك القصص المخزية والروايات الملفقة . على أنه لو صح شيء منه لما كان لنا أن نتخذه دليلا على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل ذلك العصر لأنه مجون لا يجوز أن يتعدى الماجن مهما تطاول الى النيل من سواه باسم المجون

على أنى أعتقد كما قلت أن ما نسب الى أولئك الشعراء كأبى نواس وبشار ومن فى طبقتهما محل للشك ، ولا سيما اذا صح أن شعر أبى نواس لم يجمع فى كتاب (ديوان) على حدة فى حياته وانما جمعه رواة القصص وأخبار شعراء المجون وتناولوه بعد وفاته بزمن قريب أو بعيد . ومحل هؤلاء الرواة من الثقة أو عدمها لا يحتاج الى تعريف بعد الذى قدمناه : وحسبنا أن الاستاذ طه حسين نفسه تردد فى قبول رواية عبدوس عن المقاطيع الشعرية التى قال : إن أبا نواس أنشدها له قبيل وفاته فى أيام متتابعة

فى التوبة والاستغفار . تردد الاستاذ فى صحتها وقال : إنها قصة متكلفة من غير شك وإنما نعتقد أن الرجل قال أكثر هذا الشعر فى أوقات مختلفة من حياته

فلذى جوّز للأستاذ الشك فى صحة هـذه القصة يجوز الشك فى صحة أكثر القصص والروايات التى نقلت عن أبى نواس وغيره من شعراء المجون ويثبت أنها قصص موضوعة ليس لها قيمة تاريخية ، فلا يصح أن تتخذ مثالا صادقا لذلك العصر . واذا قرئت فانما تقرأ لأن فيها فكاهة وترويحا للنفس لا لأنها أمثلة من تاريخ أمة كان عصرها ذاك عصر جد لا هزل وعصر نهضة علمية بلغت فيه أقصى ما يمكن أن تبلغه أمة فى عشرات من السنين . ولقد أحسن الأستاذ فى مقالته الأخيرة بالإشارة إلى ذلك فى قوله : إنه لا يرغب أن تكون حياتنا كلها خلاء وانما يريد ألا تخلو من الفكاهة واللذة. فإن فى قوله هذا دليلا على أنه يريد أن يخفف عن أبى نواس عبء الحمل الذى ألقاه على عاتقه وأن يستدرجنا ونعم ما فعل الى الشك فى صحة تلك القصص المخزية ، وأنه انما أوردها للفكاهة ولا سيما بعد أن عزز ذلك بقوله : إن أبا نواس لم يكن قليل الخطر ولا رجلا لا يؤبه له ، وانما كان ذا مكانة عالية وعالية جدا . ثم سرد عن تاريخ الحافظ ابن عساكر أسماء من رووا عن أبى نواس وروى عنهم أبو نواس : ولا جرم أن المجاهرة بالمجون والاستمتاع باللذات ثم رواية الحديث نقيضان لا يجتمعان . وهـذا ما يؤيد رأينا فى أن أكثر ما نقل عن أبى نواس

وأضرابه من شعراء المجون انما هى روايات قصصية بعيـدة عن الصحة وأنه لا يصح أن تتخذ دليلا على حالة الأمة الروحيـة والخلقية فى ذلك العصر . وفوق كل ذلك علم عليم

رفيق العظم

*

رد على نقد [١]

كيف نفهم التاريخ

ما زلت أذكر هذا المقال الرائع الذى نشرته « السياسة » للأستاذ رفيق بك العظم منذ أسبوعين . ووعدت بالرد عليه ثم حالت حوائل بينى وبين هذا الرد الى الآن . ما زلت أذكر هذا المقال ، وأريد أن أرد عليه ، فان الخلاف بين هذا العالم الجليل وبيني لايتناول أشياء مفصلة فحسب ، وانما يتناول مبدأ عاما قبل كل شيء . وقد عرف الناس رأى هذا العالم الجليل فى هذا المبدأ ، وأريد أن يعرف رأيى فيه . ولست أدرى أأطمع فى إقناع هذا العالم الجليل أم أيأس منه ، لأن الخلاف بينه وبيني جوهرى جداً وشديد جداً . يذهب مذهباً فى التاريخ وفهمه ، وأذهب مذهبا آخر فى التاريخ وفهمه . ويخيل الىّ أن ليس الى الاتفاق بين هذين المذهبين من سبيل .

لا يزال العالم الجليل رفيق بك العظم وكثير من العلماء المعروفين فى الشرق يسبغون على التاريخ الإسلامى صفة من الجلال والتقديس الدينى أو الذى يشبه الديني تحول بين العقل وبين النظر فيه نظرا يعتمد على النقد والبحث العلمى الصحيح ، فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب وجلال خطرهم وتقديس مكانتهم : وهم يضيفون اليهم كل خير وينزهونهم عن كل شر . وهم يصفونهم بجلائل الأعمال ويرفعونهم عن صغائرها وهم يتحدثون

---

(١) نشر فى ٦ رجب سنة ١٣٤١ هـ — ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٣ م

ذلك قاعدة من قواعـد البحث ومقياسا من مقاييس النقد . فاذا أضفت الى الرشيد شيئاً فليس هذا الشيء صحيحاً الا اذا كان فى نفسه خليقا بالرشيد يليق به وبمكانته ، وليست هذه المكانة هى مكانته فى نفسها وانما هى المكانة التى خلعها عليه القدم وبعـد العهد وجلال الخلافة وكرامة الدين وسطوة الأمة العربية :

فأما النقد التاريخى من حيث هو نقد تاريخى . فاما النظر الى الناس من حيث هم ناس ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس ، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم ، والملاءمة بين هـذه الأخلاق والعادات وما اكتنفها من الظروف والأحوال فذلك شىء قلما يفكر فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون اليـه ولست أغض من هؤلاء العلماء وانما أجلهم وأكرمهم : وحسبك أن إمامهم فى هذا المذهب هو ابن خلدون . ولعلك تعلم أنى أجل ابن خلدون وأكبره ، ولكنى أخالفهم فى الرأى وأرى أن مذهبهم فى التاريخ غير مستقيم ، وأنه خليق بأن يتغير وأنه سيتغير بدون شك . بل أنا أرى أكثر من هذا ، أرى أن هذا المذهب : مذهب تقديس السلف وتنزيهه عن الصغائر ، مذهب إسباغ الدين على التاريخ طور من أطوار التاريخ لا بد من أن يمر به ، بل طور من أطوار الحياة العقلية والسياسية للناس لا بد من أن يمروا به . وقد خضعت لهـذا الطور أمم أخرى غير العرب . فكتب مؤرخوها كما يكتب الاستاذ رفيق بك العظم ورأوا فى الآباء والاجداد ما يرى فى قدماء العرب .

ذلك أن هـذه الامم اذا اضطرتها صروف الحياة الى أن تنزل عن

مجدها وتنحط عن مكانتها العالية فتخضع لخطوب الدهر حينا وتنام عن العزة والسلطان ثم استفاقت من هذا النوم وتنبهت بعد الغفلة وطمحت الى أن تسترد المجد القديم وتستأنف سيرها فى سبيل العلياء فأول شعور تجده فى نفسها انما هو الشعور بهذا المجد القديم والحاجة الى إجلال أصحابه وإكبارهم واتخاذهم مثلا عليا . فأنت لاتنظر الى هؤلاء الناس نظرا عاميا مجردا بريئا ، وانما تنظر اليهم نظرا متهما ملؤه الإعجاب والإكبار . لانك تتأثرهم وتحتذى على مثالهم . واذن فرأيك فيهم غير صحيح وحكمك لهم أو عليهم متهم . وكيف تستطيع أن تجمع بين الإعجاب الذى لا حد له وبين النقد العلمى الذى لا يعرف الهوى ولا يتأثر بالميول والعواطف ! ومن هنا يتأثر بحثك ونقدك بهذا الإعجاب وهذا الميل الى الاحتذاء والتقليد ، فتصرف همتك الى أن تبرىء موضع إعجابك من كل عيب وتدفع عنه كل مكروه وتبذل ما تستطيع من قوة وجهد لتوجد فنا من النقد التاريخى له قيمته وخطره ، ولكن الغاية التى يسمو اليها ليست علمية بالمعنى الصحيح لأنه يسمو الى التنزيه والتمجيد لا الى التحقيق الذى لايسمو الى مدح ولا الى ذم ، والذى لا يحفل بحمد أو هجاء : انظر الى مقدمة ابن خلدون والى القسم الاول من هذه المقدمة . انظر بنوع خاص الى منهجه التاريخى والى هذا النقد الذى بسطه ليبين اغلاط المؤرخين وتورطهم فى ضروب من الخطأ فى الحكم ، تجده قد تصور قواعد علمية لابأس بها ، فهو يكره الغرض والهوى ، ويحذر من اخطار كثيرة تحيط بكاتب التاريخ ويحبب اليك او يحتم عليك تحكيم العقل فيما يروى لك من الحوادث ،

وهو يصل من هذا كله الى استكشاف قوانين قيمة فى النقد التاريخى ، ولكنه لا يكاد يعرض لتطبيق هذه القوانين كما يقولون حتى يتورط فى مثل ما تورط فيه المؤرخون من قبل . لأنه متأثر بمجد القدماء وصلاح القدماء وطهارة القدماء ، وانحطاط المعاصرين وفساد أخلاقهم وأحوالهم . فهو اذا أراد مثلا أن يصحح نسب الدولة الإدريسية فى المغرب الأقصى لم يعمد الى بحث تاريخى وانما استدل على صحة هذا النسب بحديث شريف فيه أن الولد للفراش وللعاهر الحجر . وهو اذا أراد أن يدفع عن الرشيد ما اتهم به من العبث والمجون لم يذهب مذهب المؤرخين فى ذلك . وانما تحدث اليك بأن الرشيد كان يصلى مائة ركعة فى اليوم وكان يحج سنة ويغزو سنة أخرى ، واذا كان هذا شأنه فليس من الممكن أن يعبث ولا أن يلهو . ولم يفكر ابن خلدون فى أن من حق مؤرخ آخر أن ينكر عليه أن الرشيد كان يصلى مائة ركعة فى اليوم أو أن يزعم له أن الرشيد كان يجمع بين الصلاة وبين العبث . ولم يخطر ذلك لابن خلدون ، لأن ابن خلدون كان يعجب بالرشيد ويكبره ويريد أن يضعه هو وأمثاله من الخلفاء موضع القدوة الصالحة والمثل الأعلى

ولقد أذكر رسالة صغيرة قرأتها للمؤرخ اليونانى « بلوتارك » « Plutarque » قصد بها الى نقد « هيرودوت » « Hérodote » واتهمه فيها بالكذب والافتراء ، وكان لهذه الرسالة فى العصر القديم شهرة أساءت الى « ابى التاريخ » ، فظن فيه الناس الظنون لأنه اتهم قدماء اليونان

وأبطالهم فى الحرب الفارسية اليونانية بالنقائص المختلفة فوصف بعضهم بالخيانة ، وبعضهم بالغدر ، وبعضهم بالجبن ، وبعضهم بالرشوة . ونهض « بلوتارك » للدفاع عن هؤلاء الأبطال فزعم أن « أبا التاريخ » كاذب ، وأن هؤلاء الأبطال أرفع مكانة وأعلى منزلة وأجل خطرا من أن يقعوا فى مثل هذه الآثام . وفتن اليونان بهذا النقد لأنه يبرىء الآباء والأجداد من هذه النقائص . فلما كان العصر الحديث وكان استكشاف الآثار اليونانية وكان استكشاف مناهج النقد الحديثة فى التاريخ ظهر أن « هيرودوت » لم يكذب ولم يتكلف . وأن « بلوتارك » هو الذي تكلف تقديس الناس وتبرئتهم مما لا يبرأ منه الناس . وليس هذا بغريب فقد عاش « أبو التاريخ » فى أيام مجد اليونان وعزتهم فلم يكن يؤذيه ولم يكن يؤذى اليونان أن يصف أبطالهم بما لا يسلم منه الناس من العيوب . وعاش « بلوتارك » أيام ذلة اليونان وانحطاطهم السياسى فكانت هذه النقائص تؤذيهم وكانوا محتاجين الى المبالغة فى مجدهم التليد حين أعوزهم المجد الطريف .

هذه حالنا : ليس لنا مجد ولا مأثرة فنحن ننتحل مجد الآباء والأسلاف زينة لنا وافتخاراً . ويخيل الينا أن وصف هذا المجد بأوصافه الطبيعية لايغض من الأسلاف وحدهم وانما يغض منهم ومنا . أليس كذلك ؟ وإلا فما مفاخرتنا بالعرب ؟ وما مفاخرتنا بالفراعنة ؟ وما مفاخرتنا بآثار العرب والفراعنة ؟ ضرب من الغرور نخفى به ما نحن فيه من جهل وانحطاط وضعف .

لقد كان رواة العرب ومؤرخوهم الذين عاشوا أيام مجد العرب وعزتهم لا يكرهون أن يصفوا خلفاء العرب وأمراءهم بما يتصف به الناس من

نقص . لأن هذا الوصف لم يكن يؤذيهم ولا يؤذى العرب فى أيامهم .
وحسبك أن تقرأ ، لا أقول كتابا بعينه وانما أقول فى أى كتاب من كتب
الأدب والتاريخ لترى خلفاء العرب وأمراءهم وذوي المكانة فيهم يوصفون
بالخير والشر ، بالرفعة والضعة ، بما هو مشرف وبما هو مزرى. ذلك لأن
هؤلاء الناس كانوا ناسا لا ملائكة .

يقول الأستاذ وأصحابه إن هذه الاخبار مختلقة منتحلة . وأنا أول
من يعترف بأن كثيرا من الأخبار مختلق منتحل . ولكنى لا أستطيع
أن أومن بأن كل خبر يصف القدماء بما لا يرضى منتحل . وان كل خبر
يصفهم بما يرضى صحيح . هذا إسراف . وإسراف كثير . وانما القصد
والإنصاف هو أن تعرض لهذه الأخبار المختلفة بالنقد والتمحيص فتتبين
بقدر ما تستطيع ما كان منها صادقا وما كان منها منتحلا . وأنا أزعم أن
كثيرا جدا من هذه الأخبار صادق . وأزعم أن كثيرا جدا من خلفاء
بني أمية وبنى العباس كانوا كما يقول الرواة يعبثون ويصطنعون ضروب
اللهو . ويستمتعون بفنون من اللذات كان يكرهها الدين . لقد كان
« اغسطس » و « تيبريوس » و «نيرون» كبار الكهنة فى روما ، ولكنهم
كانوا اقياصرة أيضا . فكانوا يؤدون للدين حقه وكانوا يؤدون للدنيا حقها .
ولقد كان لويس الرابع عشر والخامس عشر مظهرا القوة المسيح فى فرنسا
ولكنهما كانا فى الوقت نفسه مظهراً لسلطان الفرنسيين وثروة الفرنسيين
ومجون الفرنسيين ، فكانا يصليان وكانا يعبثان وكانا يسمعان وعظ آباء
الكنيسة وخطبائها . وكان هذا الوعظ يوجه اليهما عنيفا مخيفا كأنه

الصواعق فيعجبان ويفزعان من سخط الله ثم ينصرفان الى القدر فما هى الا أن يتورطا فى الموبقات . ولا تقل كان هذان مسيحيين وكان قياصرة الرومان وثنيين وكان خلفاؤنا مسلمين . فقد تختلف الديانات فى جوهرها ولـكن الاثر الدينى فى نفوس الناس واحد لا يكاد يختلف . فمن المسيحيين والوثنيين اتقياء ورعون كما أن من المسلمين والاسرائيليين أتقياء ورعين لا تقل إن مجـد العرب وما كانوا يأتون من جلائل الأعمال وما كانوا يقومون به من فتح وبسط للسلطان كان يحول بينهم وبين اللهو والعبث فأنا أؤكد لك أن « اغسطس » لم يكن خاملا ولا عاجزاً ، وأن لويس الرابع عشر لم يكن كسلا ولا مغرقا فى النوم . وما رأيك فى أن عصر الثورة الفرنسية وهو عصر هـذا الجد المفزع المخيف كان أشد العصور الفرنسية دعابة ومجونا ، وكانت تجرى فيـه أنهار الدماء وأنهار الخمر ، وما رأيك فى هذا العصر الذى نعيش فيـه ؛ وما رأيك فى الحرب الـكبرى وما جرت على أوربا من هول ؛ أتظن أن الاوربيين انصرفوا الى جـد هـذه الحرب وأخطارها عما فى الحياة من عبث ولهو ؛ كلا : لقـد ازداد سلطان اللهو ثباتا فى اوربا ولقـد كان الجندى يقتتل ويتعرض لالوان الهول حتى اذا ظفر باليوم أو الايام بعيداً عن ساحة القتال اندفع فى لذاته وشهواته اندفاعا لم يكن يعرفه قبل الحرب ماذا اقول ؛ لقد كانت تحمل اليهم اللذات فى ميـدان القتال ، فكانت أصوات المدافع ودويها لا تمنع أصوات المغنين والمغنيات والممثلين والممثلات ان تصل الى آذان الجند . وكانت المنايا ترقص أمام هؤلاء الجنـد فتروعهم فاذا سلموا منها وظفروا

بوقت الراحة ذهبوا فاستمتعوا برقص الراقصات ، ولم يمنعهم هذا كله أن يظفروا بالمجد سواء منهم الغالب والمغلوب

فلم يكن الدين اذن ليمنع الأمويين والعباسيين أن يستمتعوا بلذات الحياة ، ولم يكن الفتح ليمنعهم أن يستمتعوا بهذه اللذات . ولم يكن العلم ليحول بينهم وبين ذلك . فما كان حظهم من العلم بأكثر من حظ المعاصرين من أهل أوربا وأمريكا . ولقد كان حظهم من اللذة أقل من حظ المعاصرين من أهل اوربا وأمريكا .

خليق بنا أن نتدبر حين نقرأ التاريخ ونحاول فهمه وتفسيره . خليق بنا أن نفهم قانونين وضعهما ابن خلدون . ولكن أن نفهمهما أحسن مما فهمهما ابن خلدون . وهما أن الناس جميعا متشابهون مهما تختلف أزمنتهم وأمكنتهم ، وأن الناس جميعا مختلفون مهما تشتد بينهم وجوه الشبه . يجب أن نفهم هذين القانونين وأن نحسن الملاءمة بينهما ، وأن نعرف فيم يختلف الناس وفيم يتشابهون ؛ وما أثر هذا الاختلاف وهذا التشابه ؛ ونحن اذا فهمنا هذين القانونين عرفنا أن العصر العباسي قد كان كغيره من عصور المجد والحضارة ، فيه جد وهزل . وفيه شك ويقين . وأنا أزعم — وأعتقد انى قادر على إثبات ما أزعم — أن القرن الثاني للهجرة قد كان عصر لهو ولعب . وقد كان عصر شك ومجون . وكل شيء يثبت صحة هذا الرأى ، فقد كان هذا العصر عصر انتقال من بداوة الى حضارة . ومن سذاجة الى تعقيد ، ومن فطرة خالصة الى علم وفلسفة . وقد كان فوق هذا كله عصر امتزاج بأمم مختلفة وشعوب متباينة ، منها البدوى والحضرى ، ومنها الجاهلى

والعالم، ومنها الغني والفقير . أفتريد أن تختلط هذه الأمم وتمتزج هذه الشعوب دون أن تضطرب لهذا الاختلاط والامتزاج أخلاق وعادات ونظم؛ دون أن ينهار بناء قديم ويقوم بناء جديد؟ إنك لا تستطيع أن تمزج طائفة من عناصر الكيمياء المختلفة دون أن يحدث لهذا الامتزاج اضطراب وانقلاب جديدان . أفتريد أن يمتزج العربي والفارسي والمصرى والرومى وأن تبقى الأخلاق والعادات كما كانت دون أن ينالها فساد أو اضطراب؛ ذلك شيء تستطيع أن تفترضه في الخيال . فأما في الحياة الواقعة فليس اليه من سبيل .

ها نحن أولاء عاشرنا الاوربيين معاشرة ليست بالقوية ولا المتصلة . فانظر الى أثرها القوى العميق في حياتنا العامة والخاصة . ثم حدثني عما يمكن أن يحدث لو أن الاتصال بيننا وبين الاوربيين كان من القوة والعمق بحيث كان الاتصال بين العرب والفرس والروم . لست أدرى لم تفرق بين هذه العصور والاجيال المتشابهة وإن اختلفت . المتفقة وإن افترقت؛

يجب أن تفهم قانوني ابن خلدون . فالناس جميعا متشابهون مهما تختلف أزمنتهم وأمكنتهم . مختلفون مهما تشتد بينهم وجوه الشبه .

أنا أزعم اذن أن القرن الثاني للهجرة كان عصر شك ومجون . وأزعم أن كل شيء في هذا العصر يؤيدني في هذا الرأى . وحسبي أن ألفت الأستاذ رفيق بك الى ان هذا القرن قد بدأ بخلافة الوليد بن يزيد . وختم بخلافة الأمين بن الرشيد . وأحب أن يقارن بين هذين الخليفتين ثم ألفت الاستاذ الى بشار ومطيع وأبي نواس والرقاشي والعباس بن الاحنف

ومسلم بن الوليد وحماد عجرد ويحيى بن زياد وابن المقفع وأبان بن عبد الحميد وغيرهم من الشعراء والكتاب والمفكرين . ولا أريد أن أذكر الفقهاء وأصحاب الكلام مخافة أن يغضب المتحرجون

ألفت الأستاذ الى هؤلاء جميعا . وأحب أن يقرأهم ويدرس حياتهم على هذه القاعدة وهي أنهم ناس لا ملائكة . ولكني أخشى ألا يفعل الأستاذ لأنه اتخذ لنفسه قاعدة تقديس القدماء ، أما أنا فلا أقدس القدماء وانما أنظر اليهم كما أنظر اليك وإلى نفسي . وأعلم أنهم مثلك ومثلي يجدون ويمزحون . يحسنون ويسيئون . وعلى هذه القاعدة وحدها حدثتك فيما مضى ، وعلى هذه القاعدة نفسها سأحدثك في الاسبوع الآتي عن الخمر عند أبي نواس .

*

الخمر قبل أبي نواس (١)

لا يمتاز أبو نواس من معاصريه بالمدح ولا بالهجاء، ولا بالفخر . ولا بالوصف . ولا بغير هذه الفنون مما ألف الشعراء المتقدمون أن يخوضوا فيه . وإن كانت شخصية أبي نواس ظاهرة محببة اليك والى في هذه الفنون نفسها كما سترى ذلك عند ما نعرض لهذا النحو من شعره ، وإنما يمتاز أبو نواس بشعره في الخمر . وبافتنانه في المجون كما يمتاز بغزله وحسن مداعبته النساء والغلمان .

ومع هذا فأبو نواس لم يخترع هذه الفنون ولم يسبق اليها . بل هو لم ينفرد بها في عصره . وإنما سبقه اليها كثير من الشعراء في الجاهلية وفي الاسلام ، ونافسه فيها كثير من معاصريه إن لم نقل جميع معاصريه ، سبقه اليها كثيرون . ونافسه فيها كثيرون ، ولكنه امتاز ممن سبقه ومن عاصره ومن خلفه ، وظل زعيم القدماء ، وزعيم المحدثين في الخمر والغزل والمجون . ولو أننا نعنى في هذه الاحاديث بالتعمق في البحث العلمي لكان من الحق علينا قبل أن نصف خمريات أبي نواس أن ندرس مع شيء من التفصيل خمريات الشعراء الذين سبقوا أبا نواس . وأن نجتهد في أن نتبين المقدار الذي سبق اليه أبو نواس لنعرف ما اخترع وما استحدث . وليكون حكمنا له أو عليه صحيحاً من كل وجه . ولكنك تذكر أنا لا نزعم لهذه

(١) نشرت بالسياسة في ١٢ رجب سنة ١٣٤١ ــ ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٣

الاحاديث صفة البحث العلمى المستقصى ، لان هذا البحث لايليق بالصحف السيارة ولا بالاحاديث التى تقرأ أو تسمع فى أى مكان وعلى أى حال دون أن يختصها القارىء أو السامع بعناية أشد من عنايته بما ينشر فى هذه الصحف من ضروب الكلام .

قليل من شعراء الجاهلية من لم يعرض للخمر فى شعره . فأكثر هؤلاء الشعراء كانوا يشربون الخمر ، ومنهم من كان شربه لها متصلا ، ومنهم من كان يلم بها إلماما . وكانوا يصفون هذه الخمر وأقداحها وآنيتها المختلفة . ولهم فى ذلك الكلام الجيد الكثير . ولا سيما الأعشى الذى أكثر فى الخمر وأطال ، واشتهر بأنه من وصافها المجيدين . واستطاع ابن الاعرابى أن يزعم للمأمون أنه اشعر من وصف الخمر لقوله :

تريك القذى من فوقها وهى فوقه   اذا ذاقها من ذاقها يتمطق

بل ربما كان لنا أن نقول إن أبا نواس نفسه قد عدا على الأعشى فأخذ منه شيئا ليس بالقليل . وأخذ منه بنوع خاص نصف هذا البيت المشهور :

دع عنك لومى فان اللوم اغراء   وداونى بالتى كانت هى الداء

فالصلة ظاهرة بين هذا الشطر الأخير « وداونى بالتى كانت هى الداء » وبين قول الأعشى :

وكأس شربت على لذة   وأخرى تداويت منها بها

فليس من شك فى أن أبا نواس قد ذكر هذا البيت حين قال شطره السابق ، ولكن أبا نواس لم يأخذ اللفظ ، بل ولم يأخذ المعنى دون أن يصلح ويغير ويضيف . فان قوله : « دع عنك لومى فان اللوم اغراء » ليس

فى شعر الأعشي وهو يكفى لان يحتفظ لابى نواس بالبيت كله ، وقوله : « وداوني بالتى كانت هى الداء » يذكر بقول الأعشى ، ولكنه ليس إياه ، لأن الأعشى لم يرد أن يقول :لا أنه كان يشرب كأساً ويتداوى بكأس أخرى ، فمعناه ضيق محدود ، بينما أبو نواس قد مدّ هذا المعنى وبسط أطرافه ،فأصبح لاحد له ، أصبح يرافق الحياة ، أصبحت الخمر داء ملازما لمن يشربها ، وأصبحت هى دواء لهذا الداء ، فهو يتداوي طول حياته من الخمر بالخمر ، أما الأعشى فكان يتداوى من كأس بكأس ، كان لايذكر الداء والدواء إلا اذا شرب ، بينما أبو نواس لاينفك يذكرها ، لانه لاينفك فى داء ودواء .

وللأعشى غير هذا كثير ، ولكننا لانعرض له لما قدمنا ، وهناك شاعر آخر جاهلى يظهر أنه قد عني بالخمر وأجاد فيها إجادةلابأس بها ، وكان مسيحياً عاش قبل الاسلام ، ولم يكن بادياً بمعنى الكلمة ، وإنما كان حاضراً أو كالحاضر . وكان يعيش فى هذا الاقليم الذى عاش فيه أبو نواس ، وكان يختلف إلى الأديرة ومساكن الرهبان التى ربما اختلف اليها أبو تواس بعده بنحو قرنين ، وكان هذا الشاعر يجيد فى معان أجاد فيها شعراء العراق ، كان يجيد فى الخمر وكان يجيد فى الزهد والنسك وضرب الأمثال وإطلاق الحكم البالغة ، كان يجيد حيث أجاد أبو نواس ، وكان يحسن حيث أحسن أبو العتاهية ، ويروى له غزل لابأس به ، وهو عدى بن زيد العبادى الذى عاش فى الحيرة فى أواخر العصر الجاهلى ، لم يرو الرواة له كثيراً فى الخمر ، ولكن ما يروى عنه يدل على أنه كان بها كلفاً ، وفيها مجيداً ، وانظر إلى

هذه الأبيات القليلة التي يختلف فيها الرواة اختلافا كثيراً ، والتي كانت تغني للوليد بن يزيد فيستعذبها ويشرب عليها حتى يسكر .

بكر العاذلون في وضح الصبـ ح يقولون لى أما تستفيق

ويلومون فيك يابنـة عبد الـ له والقلب عنـدكم موثوق

لست أدرى اذا أكثروا العذل فيها أعـدو يلومني أم صديق

ثم ثاروا الى الصبوح فقامت قينـة في يمينهـا إبريق

قدمتـه على عقار كعين الـ ديك صفى سلافها الراووق

مرة قبـل مزجهـا فاذا ما مزجت لذ طعمها من يذوق

وطفت فوقهـا فقاقيع كالد ر صغار يثيرهـا التصفيق

ففي هذه الابيات على جاهليتها رقة الحضارة دون ان تخلو من رصانة البداوة . ولا بأس بهذا البيت الذي يصف ما يبدو على الخمر حين تمزج فيذكر على بعد بقول أبي نواس .

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

ولا بأس بهذه الصورة التي يظهرها قوله : .

ثم ثاروا الى الصبوح فقامت قينـة في يمينهـا إبريق

ولو أن لدينا شيئاً كثيراً من شعر هـذا الشاعر في الخمر وغير الخمر لاستطعنا أن نتبين شيئاً من الصلة القوية بينه وبين شعراء العـراق في العصر العباسي وأن نستخلص من هذا بوضوح أثر الاقليم العراقي والبيئة العراقية في الشعراء على اختلاف عصورهم وأحوالهم الاجتماعية . ولـكن ما يروى عن هذا الشاعر قليل جداً ، وأكثره مشكوك فيه . وأحسب

ان الحظ الموفور منه — ولا سيما الزهد والحكم — قد نحل فى العصر الاسلامى وأضيف الى هذا الشاعر لأن ذاكرة الرواة حفظت عنه قليلا من الزهد فاضاف المنتحلون الى هذا القليل ما يجعله كثيراً وهذا الانتحال على الجاهليين معروف مشهور :

فالجاهليون إذن وصفوا الخمر وأجادوا فيها بعض الإجادة . ولكن وصفهم لم يكن عميقا ، ولم يصنع فيه التدقيق ، وانما كانوا يقنعون بالظواهر فيصفون لون الخمر ومظهرها . ويصفون أقداحها وأباريقها وصفا مجملا ، ويصفون طعمها ويصفون ما تحدث من نشوة غير مبالغين فى هذا الوصف ، ولا مسرفين فى البحث عن الدقائق . بل انما كانوا يقصدون حين يصفون الخمر الى الفخر والتمدح بالمحاسن وكرام الخلال . فكثير جداً فى ذلك العصر ما يشبه قول عنتره

وإذا شربت فاننى مستهلك ... مالى وعرضى وافر لم يكلم

وكثير جدا ما يشبه هــذه الابيات التي قالها المنخل اليشكرى فى وجهتها وهى الفخر ، لافى معانيها . وهى من أبدع ما يروى عن الشعراء الجاهليين ولكن لا تنس أن المنخل اليشكرى شاعر من شعراء العراق أيضاً كان يعيش فى الحيرة وينادم النعمان ويعاصر النابغة وهذه هى الابيات :

ولقــد دخلت على الفتا ... ة الخدر فى اليوم المطير
الكاعب الحسناء تر ... فل فى الدمقس وفى الحرير
فدفعتهـــا فتـــدافعت ... مشى القطاة الى الغدير
فلثمتهــــــا فتنفست ... كتنفس الظبى البهير

ولقد شربت من المدا مة بالصغير وبالكبير
فاذا سكرت فانني رب الخورنق والسدير
واذا صحوت فانني رب الشويهة والبعير
يا هند من لمتيم يا هند للعاني الأسير

فانظر الى أول هذا الشعر كيف أحسن تصوير هذه الفتاة ، وكيف ذكر يوم لهوه ثم انظر الى هذين البيتين : أحدهما يشبّه تدافع الفتاة بمشى القطاة الى الغدير ، والآخر يصور رغبة الفتاة ورهبتها ، ويتخذ اضطراب نفسها صورة لانخلاع قلبها . ثم انظر اليه كيف عرض للخمر فلم يزد على أنه قد شرب منها بالكاس . وشرب منها بالقدح . وعلى أنه قد يسكر فيخيل اليه أنه الملك ذو القصر وينسى حياته الحقيقية فلا يذكرها الا اذا صحا فرأى الشاة ورأى البعير

وانظر إلى قول الآخر من شعراء الجاهلية :

ومعرس عرض الردى عرسته والصبح ساطع لونه لم ينجلِ
فاتيت حانوتا به فصبحته من عاتق بمزاجها لم تقبل
صهباء صافية القذى أغلى بها يسر كريم الخيم غير مبخل

فالجاهليون كانوا يصفون الخمر . ولكنهم لم يكونوا يمعنون فى هذا الوصف امعانهم فى وصف الخيل والابل ، وما الى الخيل والابل ، لأنهم لم يكونوا من النعمة ولين العيش بحيث يستطيعون ان يعكفوا عليها ويعاشروها معاشرة متصلة كما كانوا يعاشرون الابل والشاء . وانما كانت تسنح للكثير منهم فرصة اليوم أو الساعة يشرب فيها ويلهو ؛ فاذا فرغ

من شربه ولهوه تحدث بذلك مفاخراً وربما وصف الخمر وذكر اللهو وهو لم يشرب ، ولم يأخذ من اللهو بحظ ، وانما دعاه الى ذلك الفخر والفن . فقد دخل وصف الخمر والالمام بها فى فن الفخر والتحدث بما يمتاز به المفاخر من الكرم والسخاء ومن العفة حين يدعو كل شيء الى اطراح العفة ، الى غير ذلك من هذه المعانى الشائقة التى نجدها عند الجاهليين جميعا . فاذا اردت أن تذكر هذا الفن عند الجاهليين بشيء يشخصه وجدت صفتين اثنتين . الاولى ان الشعراء كانوا يلمون بالخمر الماما ولا يلحون فى وصفها ولا يكثرون منه ولا يدققون فيه . وانما كانوا يعرضون له مع شيء من الاحتياط . الثانى انهم لم يتخذوا وصف الخمر فنا مستقلا من فنون الشعر كما اتخذوا المدح والهجاء والفخر وما يشبه هذه الفنون . ولم يكن من الممكن ان يستقل وصف الخمر فى هذا العصر ويصبح فنا قائما بنفسه يقصد من حيث هو . لأن الحياة الجاهليه لم تكن تسمح بذلك ولا تدعو اليه . ولهذا اشتهر الاعشى وعدى بن زيد باكثارهما فى وصف الخمر لأن ذلك لم يكن شيئا مألوفا . فلما جاء الاسلام سكت الناس عن الخمر حينا ، صرفهم عنها الدين ، وصرفهم عنها جد الخلفاء ، وصرفهم عنها الفتح والاستعمار . ومع ذلك فيظهر ان الشعر وحده هو الذى سكت عن الخمر خوفا واشفاقا ، وان كثيراً من العرب البادين والمتحضرين كانوا لا يضنون على انفسهم باللهو يختلسونه اختلاسا ويسترقونه استراقا . وللرواة فى ذلك أحاديث منها الصحيح ومنها المتكلف المنحول . فهناك بيت يحضرني ولست أدرى لمن هو ، ولكنى أعلم انه قيل ايام عمر رضى الله عنه ، وانه موجه اليه وهو : —

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا فى الجوسق المتهدم

وقصة الوليد بن عقبة عامل عثمان رضى الله عنه على الكوفة شائعة معروفة . والرواة يزعمون انه كان يدمن على الشراب وانه صلى بالناس الصبح مرة وهو سكران فركع ثلاثا ثم التفت الى المصلين وقال : « ان شئتم زدناكم » ويروى الرواة ان عثمان امر بحده وان عليا رضى الله عنه هو الذى ضربه . والرواة يتحدثون بشيء كهذا عن عمرو بن معد يكرب الزبيدى فيزعمون انه كان يحب الخمر ويعكف عليها وكأنه كلم فى ذلك وذكر بآيات الله فقال كلاما لا نرويه

وما كاد ينتهى عصر الخلفاء ويثبت سلطان بني أمية حتى ضعف سلطان الدين وانصرف الخلفاء وولاتهم عن الحدود والشرائع الى الخصومة السياسية والجهاد بين الأحزاب والعصبيات . وكثرت الغنائم وعظمت الثروة واضطر افراد كثيرون من احفاد المهاجرين والانصار واشراف قريش إلى أن يقيموا فى الحجاز مستمتعين بثروة ضخمة وغني كثير . وقد حيل بينهم وبين العمل السياسى خوفا منهم أو عقابا لهم ، فانصرفوا إلى اللهو وعكفوا على اللذة وأسرفوا فيها وتغيرت الآية : فكانت مكة والمدينة وطن الشعراء الغزلين وموطن المغنين ومجتمع طلاب اللهو ، وكانت هؤلاء الناس جميعا مجالس معروفة مشهورة كثر ذكرها فى كتب الادب والتاريخ . وكثرت حولها الاخبار والاشاعات . واضطر الخلفاء من بنى أمية إلى أن يظهروا فى بعض الاحيان ضروبا من القسوة . فنكلوا ببعض هؤلاء الناس وعذبوا بعضهم ثم نفوه . وخبر الاحوص ابن محمد الأنصارى معروف .

وخبر المخنثين فى المدينة معروف أيضا . وشعر عمر بن ابي ربيعة وأخبار الدلال أكثر وأشهر من أن نلح فى ذكرها

ومع هذا فقد كان المسلمون يشربون ويلهون ، ولكنهم كانوا يحتشمون ، فلا يكادون يذكرن ذلك فى الشعر الا الماما ، كانوا يحتشمون اشفاقا ووقاراً ، ولم يكن المسيحيون مكلفين أن يحتشموا ولا ان يخافوا ، بل كانوا يجهرون بلذاتهم ، وظهر فى ذلك وبرع فيه الأخطل شاعر بنى امية ولسانهم الناطق بسياستهم المناضل عن حزبهم ، كان مسيحيا وكان كلفا بالخمر مشغوفا بها حتى كره ذلك منه القسس ، ويقال انهم عذبوه وضربوه لانه كان شديد الخضوع للدين ، وكان يقبل من رؤساء دينه ما لم يكن يقبل من خلفاء المسلمين : أكثر الاخطل من الشرب وأكثر من وصف الخمر وأجاد فيه وجاهر بشربه ولهوه واستخدمه فى السياسة . فيروي أنه دخل ذات يوم على عبد الملك ابن مروان وهو سكران يترنح فانشده هذين البيتين

اذا ما نديمي علني ثم علني	ثلاث زجاجات لهن هدير
خرجت أجر الذيل تيها كأنني	عليك أمير المؤمنين أمير

فلما سأل عبد الملك عن شأنه ذكر الاخطل ما كان من زفر بن حارثة الذى عادى بني أمية وكلفهم ضروبا من العناء ، فلما أنزلوه على حكمهم قربه عبد الملك وأخذ يحبه فاغتاظ لذلك الزعماء وأغروا به الاخطل فدخل على الخليفة فى هذه الحال وأنشده هذين البيتين ، وكان زفر جالسا على سرير عبدالملك ، فروي الاخطل من شعر زفر هذين البيتين :

أريني سلاحي لا أبا لك انني أرى الحرب لا تزداد الا تماديا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات الصدور كما هيا

فيقال ان عبد الملك ضرب برجله في صدر زفر فألقاه على السرير وكاد يقتله

ولسنا نريد أن نطيل في شعر الاخطل ووصفه للخمر فشعر الاخطل معروف وديوانه مطبوع . ولكننا نستطيع أن نقول بالاجمال ان الاخطل على إكثاره في وصف الخمر لم يكد يتجاوز ما سبقه اليه الاعشى وغيره من شعراء الجاهلية فهو أكثر في وصف الخمر ولكنه لم يخترع شيئاً كثيرا أخذ الزمن يتقدم وأخذ الناس يترقون . وأخذ الاحتشام يقل ويضعف في الطبقات المختلفة ، وأخذ الميل الى اللذة والاسراف فيها ينتقلان من مكة والمدينة الى دمشق . ولسنا نذكر يزيد بن معاوية . فقد كان الانكار عليه شديداً ، وكان سخط الناس عليه يدل على أن عهدهم بالاحتشام لم يزل قريبا وحرصهم عليه لم يزل قويا . بل لا نذكر أبناء عبد الملك فقد كانوا يحتاطون في اللهو ويتسترون . ولكن القرن الاول للهجرة لم يكد ينتهي حتى كان الجيل قد تغير والعهد قد تبدل وحتى كان الاختلاط بين العرب والفرس وهذه الامم الكثيرة المتباينة في الشام قد عمل عمله وأخذ يظهر آثاره الكثيرة المختلفة ، ومن أعظمها وأشدها خطراً المجون وحب اللهو وحرية الفكر والسيرة . ولقد أشرنا في الحديث الماضي الى أن هذا القرن الثاني للهجرة قد كان عصر مجون وشك ، وقلنا يكفي أن يكون هذا القرن قد

بدىء بالوليد بن يزيد وختم بالامين بن الرشيد . ولقد كنا نود لو أتيح لنا البحث عن حياة الوليد بن يزيد وعما سلك من طرق الهزل وما ابتدع من ألوان المجون حين كان وليا للعهد وحين كان أميراً للمؤمنين . ولسنا نود ذلك حبا فيه أو كلفا به . بل لأن للوليد بن يزيد أثراً قوياً جداً عرفه المتقدمون أنفسهم فى شعر أبى نواس فان صاحب الاغانى مثلا يتحدث بان الشعراء العباسيين أخذوا كثيرا عن الوليد فى الخمر . ويختص منهم أبا نواس لانه أكثر الانتفاع بشعر الوليد . وليس فى هذا شىء من الغرابة فقد كان الوليد سىء الحظ فى حياته وبعد موته ، ولم يجمع شعره بل تفرق وضاع أكثره فعدا عليه الشعراء وأمنوا أن يتهموا بالسرقة . كان الوليد سىء الحظ فقد كان عمه هشام يكرهه ويحقد عليه ويريد أن يخلعه من ولاية العهد ويضع ابنه مكانه . فكان لذلك يضطهده ويضطهد أولياءه . فلما مات هشام واستخلف الوليد لم يطل عهده بالخلافة وما أسرع ما ثار الناس به وقتلوه . وليس يعنينا أن يكون الوليد ظالما أو مظلوما وليس يعنينا أن نحكم فى أمر الوليد من جهة الدين والسياسة . وانما الذى يعنينا الآن هو أن نقول ان الوليد كان شاعراً مجيدا وماجنا ماهرا فى المجون مفطورا عليه وانه هو الذى فتح هذا الباب لمن جاء بعده من الشعراء . وهو من هذه الجهة سىء الحظ لان شعره ضاع ولم يحفظ وتفرقت شخصيته بين الشعراء فلم يبق منها إلا خيال ضئيل تنم به اخباره فى الاغانى .

نقول ان الوليد هو الذى فتح للشعراء باب المجون . ونريد مع هذا أن نتحفظ ونحتاط حتى لا يغضب الأستاذ رفيق بك العظم وأصحابه .

فنحن نعلم أن الوليد كان مضطهدا فى حياته أيام عمه هشام . وانه اضطهد بعد موته ولا سيما أيام بنى العباس وان خصومه واعداءه من الامويين والعباسيين قد أضافوا اليــه من الشعر والحوادث ما لم يقل ولم يعمل . واذن فيجب الاقتصاد والحذر عندقراءة مايضاف اليه . ومع هذا الاقتصاد والحــذر فليس من شك فى أن الوليد كان ماجنا خليعا وكان مسرفا فى الخلاعة والمجون . ولم يكن اسرافه فى الخلاعة والمجون أثراً من آثار اللذة والكلف بهـا فحسب ، وانما كان فيما يظهر أثراً من آثار اضطراب الدين وفساد العقيدة فى نفسه . كان أثراً من آثار البدع الجديد الذى نشأ من اختلاط المسلمين بأهل النحل المختلفة فأحدث الشك والالحاد فى نفوس نفر منهم غير قليل . فلم يكن الوليد مؤمنا بالبعث ولا بالعقاب والثواب ، وكان مع هذا يؤدى فرائضه الدينية فيصلى ويصوم لان الناس كانوا يصلون ويصومون . ولانه كان وليا لعهد الناس أو خليفــة على الناس . وانظر الى هذه الابيات :

أدر الكاس يمينـاً ‌ ‌ لا تدرهـا ليسـار
إسق هذا ثم هــذا ‌ ‌ صاحب العود النضار
من كميت عتقوهـا ‌ ‌ منــذ دهر فى جرار
ختموهـا بالأفاريـــــه وكافور وقار
فلقــد ايقنت أني ‌ ‌ غـير مبعوث لنار
. . . .
وذروا من يطلب الجنـــــة يسـعى لتبار

فى هذا الشعر شيء من روح أبي نواس . ولكنه لم يبلغ من الصقل وصفاء الأديم ما بلغه أبو نواس . والوليد يعترف فيه بانه لن يبعث ولن يعذب . واذن فليستمتع باللذات . وليدع الاتقياء يشقون بخيال الجنة الذى يسعون اليه . بل هو لايريد أن يدع هؤلاء الناس وما يسعون اليه من نعيم حق أو باطل ، وانما يريد أن يروضهم حتى يصل بهم الى ما يريد من انكار كل شيء والعبث بكل شيء سواء فى ذلك الدين والخلق والعادة ولقد تحدث بعض الرواة أنه حضر الوليد وهو خليفة فلما كانت العصر نهض فصلاها ، ثم جلس يتحدث ، فلما كانت المغرب نهض فصلاها ، ثم تعشى ، ثم صلى العشاء وأخذ يتحدث ، ثم قال : اسقيني : فاقبلت جوار فقمن بينه وبين الراوى فسقينه . وأخذ يقول اسقيني وأخذ الجواري يسقينه حتى أقبل الفجر ، قال الراوى فاحصيت له سبعين قدحا . ومثل هذا كثير فى أخبار الوليد . والناس يروون أنه سكر يوما فأمر جارية له فصلت بالناس . ولم يكن الوليد مغرقا ولا مندفعا فى اللذات اندفاعا غير منظم . لم يكن سكيراً معربداً وانما كان فى قلبه مكان للحب ، وللحب القوي المتين ، فقد كلف بسلمى بنت سعيد بن عمرو بن عثمان . وكان قد تزوج أختها فطلقها وأراد أن يتزوج سلمى فحال هشام بينه وبين ذلك ، فأنطقه هذا الحب بشيء من الغزل كثير ، فيه نقاء وجودة ، وفيه رقة ووفاء . فلما ولى الخلافة وصل الى ما أراد ولكن سلمى لم تقم عنده الاأربعين يوما ثم ماتت فجزع الوليد ورثاها بالشيء الكثير . وأكثر ما قال الوليد فى سلمى غنى فيه . وروى أبو الفرج منه طائفة لا بأس بها . فاذا أردت أن تتعرف روح

الوليد وشخصيته الشعرية فاقرأ هذا الشعر فى الاغانى. ولكنى أروى لك أبياتاً له فى الخمر لا تشك حين تقرؤها فى أنك تقرأ ابانواس.

إصدع نجىّ الهموم بالطرب	وانعم على الدهر بابنة العنب
واستقبل العيش فى غضارته	لا تقف منه آثار معتقب
من قهوة زانها تقادمها	فهى عجوز تعلو على الحقب
أشهى الى الشّرب يوم جلوتها	من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلت ورق جوهرها	حتى تبدت فى منظر عجب
فهى بغير المزاج من شرر	وهى لدى المزج سائل الذهب
كأنها فى زجاجها قبس	تذكو ضياء فى عين مرتقب
فى فتية من بني أمية أهـ	ـل المجد والمأثرات والحسب
ما فى الورى مثلهم ولا بهم	مثلى ولا منتم لمثل أبى

فانظر الى هذا الشعر الجيد السهل، وانظر ما فيه من تشبيه بديع ينم عن حضارة وترف :

فهى بغير المزاج من شرر	وهي لدى المزج سائل الذهب

ثم ألست تحس فى هذا الشعر كله رقة أبي نواس وخفة روحه؟ ومع هذا فالوليد محتفظ بالسنة القديمة : يتخذ الخمر وسيلة الى الفخر

لم يكد يبتدىء القرن الثانى اذن حتى ظهر المجون وانتشر ووصل الى قصور الخلفاء. ثم كانت ثورة العباسيين فتم انتصار الفرس على العرب وانتقل مركز الخلافة من الشام الى العراق وأصبح الادب عراقيا لا شاميا ولا بدويا. أي اصبح خاضعا من كثب لتأثير الفرس وحضارة الفرس.

فتم انتصار العبث والمجون ، وتمت استحالة الطبع العربى وانقطع أو كاد ينقطع العهد بين هذا الطبع وبين بداوة العصر الاموى . وأقبل ابو نواس وأصحاب ابى نواس فوجدوا سنة موروثة وطريقا ممهدة فاحيوا السنة وسلكوا الطريق ، ورثوا الوليد وأصحاب الوليد فلم يضيعوا الميراث ولم يفسدوه، وانما نموه ورقوه ،وكان هذا الشعر العباسى الذي نزعم ان ابا نواس يمثله والذي سنحدثك عنه فى الاسبوع الآتى

الخمر عند أبي نواس (١)

رأيت فى الأسبوع الماضى أن الخمر قد وصفت قبل أبي نواس بنحو قرنين ، فأحسن وصفها ، وأن الشعراء قد كلفوا بها وتهالكوا عليها ، وأن الوليد بن يزيد كان أول من اتخذ وصف الخمر وسيلة إلى اعلان المجون فيما نعلم ، وأن شعراء آخرين قد تبعوا الوليد واقتفوا أثره فاحسنوا وأجادوا ولكن أبا نواس هو زعيم هـذا الفن كما قلنا ، والناس مجمعون على ذلك ، فلا نعرف من يقدم أحداً على أبي نواس فى وصف الخمر والافتنان فيها ، ولقد كان بعض الرواة يغلو فى ذلك فيزعم أن أبا نواس قد وصف الخمر وصفاً لو سمعه الحسنان لهاجرا اليه ولعكفا عليها : يريد الحسن البصرى وابن سيرين . ولسنا ندرى الى أى حد كان ينصف هذا الراوية ، ولكنا نعلم أن أبا نواس قد أحسن وصف الخمر احساناً لم يسبق اليه ولم يلحق فيه ، ونعلم أيضاً أن هذه الاوصاف التى نستحسنها ونستعذبها ليست من الجودة أو الحسن بحيث ترغبنا فى الخمر أو تحملنا على أن نهاجر اليها ونعكف عليها بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك فنزعم أن كثيراً من هذا الاحسان وهذه الإجادة قد يمر بنا دون أن نلاحظه أو نلتفت اليه إلا اذا كنا قد أتقنا درس هذا العصر الذى عاش فيه أبو نواس وتبينا ذوق أهله وما كانوا يحبون ويكرهون ، فى هذا الاحسان والإجادة شىء كثير اضافى ، أى أنه احسان وإجادة بالقياس الى العصر الذى قيل فيه ، والى الناس الذين

(١) نشرت بالسياسة فى ١٩ رجب سنة ١٣٤١ ـ ٧ مارس سنة ١٩٢٣

سمعوه ، فاذا تغير الزمان واستحال الذوق فليس بالاحسان ولا بالإجادة ، وربما كان أدنى إلى الثرثرة ولغو الكلام ، ولهذه الملاحظة خطرها فهى تدل على شيئين قيمين : أحدهما أن الحكم على شعر القدماء ـ ولا سيما الشعر الغنائى ـ لاينبغي أن يتخذ فيه الذوق العصري وحده مقياساً للجودة والرداءة . وإنما ينبغى أن يكون مقياس ذلك ذوق العصر الذى عاش فيه الشاعر ، فان الشعر الغنائى بطبعه مرآة لعواطف الشاعر ومعاصريه ، ممثل لما كان يحس الشاعر وقومه وما كانوا يشعرون به . وواضح أن هذه العواطف ليست متحدة على اختلاف الأزمنة والأمكنة ، وأن أهل بغداد كانوا يحبون مالانحب ويكلفون بما لانكلف به ، ويميلون الى مالانميل اليه ، فليس غريباً أن يستعذبوا من الشعر ما لانستعذب ، وأن يفتنوا منه بما نقرؤه نحن غير مكترثين . الثاني أن قليلا جداً من هذا الشعر الغنائى مايبقى على الدهر ويخلد على مر الأيام ، وأن قليلا جداً من الشعراء المغنين من يظفرون باعجاب الجيل الذى يعيشون فيه والأجيال التى تليه ، فاذا ظفر احدهم بهذا الاعجاب المتصل فذلك آية نبوغه وقدرته على وصف العواطف التى تهز قلوب الناس من حيث هم ناس لا من حيث أنهم بغداديون أو مصريون ، ولا من حيث أنهم من أهل القرن الثانى أو الرابع عشر للهجرة . ولأبى نواس حظ غير قليل من هذا الاعجاب كما رأينا فيما مضى وكما سنرى فيما نعرض له من شعره . ولكن لأبى نواس شعراً كثيراً عجب به الناس فى عصره ولا نحفل به نحن الان . وهذا الشعر كثير فى الخمر . وربما كان أحسن مثال له هذه القصائد الطوال التى قالها أبو نواس

وغير أبي نواس في قدم الخمر وتعتيقها . وأنها قد شهدت عصر نوح ثم عاد وثمود وانها تستطيع أن تتحدث اليك باخبار الأولين الى آخر ماهناك مما هو كثير يملأ شعر القدماء ولا نعجب به نحن إلا اعجاباً اضافياً لاننا نعلم أن القدماء كانوا يعجبون به ويتنافسون فيه . ومن ذلك أيضاً هذا الشعر الكثير الذى يصف الشعراء فيه بحثهم عن الخمر وارتيادهم إياها ومغالاتهم فى ثمنها فيشبهونها بالعذراء تخطب الى أبيها الدهقان ويغالى هذا الدهقان فى مهرها ويتمنع فى تزويجها من شاربيها لانه يريد أن يتخذ لها الاكفاء . ومن ذلك ايضا الاكثار فى وصف طعم الخمر وريحها وانها تقطب الجبين وتزيل الزكام الى آخر ما هناك مما لا نحفل نحن به الآن

ثم هذا الكلام الكثير فى ان الخمر لا تطبخ على النار ولم ترها الشمس وانما عتقت وتخمرت فى جوف الارض بمعزل عن حر الشمس والنار . وقد نقرأ الشعر الذى يتناول هذه المعاني فنعجب به لان لفظه جيد، أو لأن فيه مغالاة تدهشنا وتخالف ما ألفنا ، أو لأن فيه شيئا من الإحالة والبعد عن معقول الناس . فاذا اردنا أن نحلل هذا الشعر ونلتمس ما فيه من الجمال الصحيح ونلائم بينه وبين ميولنا وأهوائنا وعواطفنا وأذواقنا لم نجد شيئا . وأغرب من هذا أن الشعراء المعاصرين الذين يحتذون القدماء ويقتفون آثارهم قد يبلغون منا هذه المنزلة ويسحروننا بكلام نسمعه فنعجب به ، حتى اذا حاولنا فهمه واستقصاء ما فيه لم نجد شيئا أو وجدنا مالا يروق فأى الناس سمع هذا الشعر من قول حافظ ثم لم يفتن به :

يا غلامُ المدامَ والكاسَ والطا ... سَ وهيِّئ لنا مكاناً كأمسِ

واسقني يا نديم حتى تراني لا اطيق الكلام الا بهمس
خمرةٌ قيل إنهم عصروها من خدود الملاح في يوم عُرسِ

فانظر الى هذا البيت الأخير كيف يفتنك لفظه ويسحرك؛ وكيف لا تفتنك خدود الملاح فى يوم عرس؛ ولكن تكلف أن تتبين هذه الخمر التى تعصر من خدود الملاح: وحدثني أتستطيع أن تشربها، أو أتستطيع أن تنظر اليها دون أن تتأذى وينالك شيء من الألم غير قليل، اذن فينبغى أن نحتاط ونقتصد فى الإعجاب بالشعر عامة وبشعر القدماء خاصة. فان سحر الشعر كثير قوى، مختلفة أسبابه وبواعثه.

والآن وقد بسطنا هذه المقدمة التى لم يكن منها بد نستطيع أن نعرض لوصف الخمر فى شعر ابى نواس. وأول ما نذكر من ذلك هذه القصيدة التى نستطيع أن نعتبرها مقياسا لذوق الشعراء فى ذلك العصر والموضوعات التي كانوا يلمون بها ويقصدون اليها وهى:

يا خاطب القهوة الصهباء يمهرها بالرطل يأخذ منها مِلْأَهُ ذهبا
قصرت بالراح فاحذر أن تسمعها (كذا) فيحلف الكرم ألا يحمل العنبا
انى بذلت لها لما بصرت بها صاعا من الدر والياقوت ما ثقبا
فاستوحشت وبكت فى الدن قائلة يا أم ويحك أخشى النار واللهبا
فقلت لا تحذريه عندنا ابداً قالت ولا الشمس قلت الحر قد ذهبا
قالت فمن خاطبي هـذا فقلت أنا قالت فبعلىَ؟ قلت الماء ان عذبا
قالت لقاحى؟ فقلت الثلج أبرده قالت فبيتى فما أستحسن الخشبا

قلت القناني والأقداح ولدّها فرعون قالت لقد هيجت لى طربا

لا تمكنني من العربيد يشربنى ولا اللئيم الذى ان شمّنى قطبا

ولا المجوس فان النار ربهم ولا اليهود ولا من يعبد الصلُبا

ولا السفال الذى لا يستفيق ولا غر الشباب ولا من يجهل الأدبا

ولا الأراذل الا من يوقرنى من السقاة ولكن أسقني العربا

يا قهوة حرمت الا على رجل أثرى فأتلف فيها المال والنشبا

فانظر الى هذه القصيدة فلن تجد فيها معني يخلبك أوشيئاً يستهويك، ومع ذلك فاستطيع أن أؤكد لك أن القدماء كانوا يكلفون بهذه المعانى ويستعذبون الشعر الذى ترد فيه . وكانوا يحبون هذا التشبيه : تشبيه الخمر بالعروس تخطب ويغالى فى مهرها ، وكانوا يحبون هذا الحوار يجرى بين الخمر ومن يرتادها ، وكانوا يحبون هذه الابيات الاخيرة التى تقصى عن الخمرمن ليس لشربها أهلا ، وكانوا يعجبون بنوع خاص بهذا البيت الاخير الذى يحل الخمر للغنى يتلف ثروته فيها . أما نحن فلعلنا لا نحب من هذا كله شيئا ولعلنا نقرأهذه القصيدة فلا نجد فيها ما يستخف ولا ما يرغب فى الخمر

ولكن أبا نواس كان يحب الخمر حبا ربما كان أشبه بالدين: كان يعبدها ويقدسها تقديسا .

فانظر الى هذه الابيات ولست أشك فى أنك ستستحسنها وتعجب بها الاعجاب الكثير وتشعر بأنها ليست مدحا للخمر وانما هي صلاة الى الخمر:

أثن على الخمر بآلائها وسمّها أحسن أسمائها

لا تجعل الماء لها قاهرا ولا تسلطها على مائها

كرخية قد عتقت حقبة　　حتى مضى أكثر أجزائها
فلم يكد يدرك خمارها　　منها سوى آخر حوبائها
دارت فأحيت غير مذمومة　　نفوس حراها وانضائها
والخمر قد يشربها معشر　　ليسوا اذا عدوا بأكفائها

فانظر الى هذا البيت :

أثن على الخمر بآلائها　　وسمها أحسن أسمائها

أليس الشطر الاول منه تسبيحا للخمر أليس الشطر الثاني منه تقديسا للخمر ؟ أليس في هذا البيت على سهولته وبراءته من ألفاظ المجون أشد ألوان المجون ؟ أليس فيه الاستهزاء بالدين والسخرية منه ؟ أليس يذكرك القرآن ؟ أليس يذكرك قول الله تعالى : « ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها » ثم انظر الى ما جاء بعد هذا البيت انظر الى سهولة اللفظ وخلوه من التكلف ، أنظر الى هذا النظم يكاد يكون نثرا ، وانظر الى دقة هذا المعنى الذى قد لا يعجبك في نفسه ولكنه على هذا جميل دقيق يمثل عقل أبي نواس واصطباغه بالصبغة الفلسفية التي كانت عامة في عصره

كرخية قد عتقت حقبة　　حتى مضى أكثر أجزائها
فلم يكد يدرك خمارها　　منها سوى آخر حوبائها

فهذه الدقة لا تستهويك ولا ترغبك في الخمر ولا تنزع بك الى حب الشراب ، ولكنها في نفسها جميلة محببة

وانظر الى استئناف الثناء على الخمر في لفظ حلو سهل غير متكلف ولا متصنع

دارت فأحيت غير مذمومة نفوس حسراها وأنضائها
والخمر قد يشربها معشر ليسوا اذا عُدّوا بأكفائها

فقد رأيت فى هاتين القصيدتين شيئين مختلفين :

رأيت فى الأولى معانى لا تعجبك ولا تروقك وكانت تعجب القدماء وتروقهم ، ورأيت فى الثانية معاني ليست جميلة لأنها تصف الخمر وتحث عليها ، وانما هى جميلة لنفسها لأنها تدل على قدرة الشاعر ودقته وحسن غوصه على المعانى ، وهى تعجبك كما كانت تعجب المتقدمين

وانظر الى هذه الابيات التى تجمع بين إعجابك وإعجاب القدماء لأنها تصف شيئاً ترغب أنت كما كان يرغب القدماء فى وصفه :

كم مترف عقل الحياء لسانه فكلامه بالوحى والايماء
لما نظرت الى الكرى فى عينه قد عقّل الجفنين بالاغفاء
حركته بيدى وقلت له انتبه يا سيد الخلطاء والندماء
حتى أزيح الهم عنك بشربة تسمو بصاحبها الى العلياء
فأجابني والسكر يخفض صوته والصبح يدفع فى قفا الظلماء
انى لافهم ما تقول وانما رد التعافى سورة الصهباء

ومع ذلك فأنت لا توقظ نديمك من نومه ، ولا تحركه بيدك ، ولا تستأنف الشراب اذا أقبل الصباح كما كان يفعل القدماء . ولكن انظر الى هذا البيت بنوع خاص :

فأجابني والسكر يخفض صوته والصبح يدفع فى قفا الظلماء

كان أبو نواس اذن يعبد الخمر ويدمن عليها فيشربها اذا أمسى ويشربها

اذا أصبح ، وربما عكف عليها ليله ويومه ، وربما عكف عليها الأسبوع كله لاينصرف عنها الاحين يثقله النوم كما نري ذلك فى قصيدته التى مطلعها :

ياطيبنا بقصور القفص مشرقة — فيها الدساكر والانهار تطردُ

وقد اشتهر ذلك عنه وعن مولاه الأمين الذى كان ينادمه ويساقيه ، واتخذ أنصار المأمون فى خراسان هذا سلاحا يحاربون به الامين . فكان ينشد مجون أبى نواس فى المسجد الجامع عند الصلاة ويلعن من قاله ومن أحبه ، وكأن هذا قد وصل الى الأمين فى بغداد فاشفق منه وأراد أن يحتاط ويصطنع الوقار ، فنهي أبا نواس عن شرب الخمر وأظهر أبو نواس الطاعة . ولكن ذلك شق عليه فقال فيه شعرا كثيرا جدا منه هذه الابيات

أعاذل أعتبت الامام وأعتبا — وأعربت عما فى الضمير وأعربا
وقلت لساقيها أجزها فلم أكن — ليأبي أمير المؤمنين وأشربا
فجوزها عنى سلافا ترى لها — الى الأفق الأعلى شعاعا مطنبا
اذا عب فيها شارب القوم خلته — يقبل فى داج من الليل كوكبا

وقال هذه القصيدة الأخرى التى تبين مقدار ما يعانى من الالم والحرمان لطاعة الأمين

أيها الرائحان باللوم لوما — لا أذوق المدام الا شميما
نالني بالملام فيها إمام — لا أرى لى خلافه مستقيما
فاصرفاها الى سواى فانني — لست الا على الحديث نديما
كبر حظى منها اذا هى دارت — أن أراها وأن أشم النسيما
فكأني وما أزين منها — قعدى يزين التحكيما

كلٌ عن حمله السلاح الى الحر ب فاوحى المطيق ألاّ يقيما

وليس كل الناس قادراً على أن يفهم هذين البيتين الاخيرين على انهما لا يخلوان من جمال . فهو يشبه نفسه في وصفه للخمر وحثه الناس على شربها دون أن يستطيع لها مذاقا بالخارجي الذي عجز عن الحرب فقعد وأخذ يحث الناس عليها . على أن أبا نواس لم يتب قط عن الخمر ، ولم يكن يستطيع أن يتوب . ولعل التوبة لم تدركه الا حين أدركه الموت . وقد ذكرنا لك في غير هذا الفصل ما كان من أمر صديقه الكوفي الذي مازال به حتى حمله على خلاف الأمين فشرب الخمر وسب زبيدة وعاد الى الامين فأخبره أنه قد خرج عن طاعته ، فلم يغضب لذلك الامين بل حمده ورضى عنه وأمر أبا نواس فحمل اليه صديقه الكوفي فاتخذه نديما .

على أن من الحق أن نعرف لأبي نواس شيئا غير هذا الفسق والاغراق في المجون وهو أنه كان يريد أن يتخذ ، ويتخذ الناس معه في الشعر مذهبا جديدا . وهو التوفيق بين الشعر وبين الحياة الحاضرة بحيث يكون الشعر مرآة صافية تتمثل فيها هذه الحياة ، ومعنى ذلك العدول عن طريقة القدماء لأن هذه الطريقة كانت تلائم القدماء وما ألفوا من ضروب العيش ، فاذا تغيرت ضروب العيش هذه وجب أن يتغير الشعر الذي يتغنى بها ، فليس يليق بساكن بغداد المستمتع بالحضارة ولذاتها أن يصف الخيام والاطلال أو يتغنى الابل والشاء . وانما يجب عليه أن يصف القصور والرياض ويتغنى الخمر والقيان ، فان فعل غير ذلك فهو كاذب متكلف

أراد ابو نواس أن يشرع للناس هذا المذهب ، فجد فيه ووفق التوفيق

كله واتخذ وصف الخمر وما اليها من اللذات وسيلة الى مدح طريقته الحديثة وذم طريقة القدماء . ولولا ما نعرفه من سيرته وإدمانه لكان من الحق أن نشك فى أنه من اللهو والمجون بحيث يصف نفسه ، وأن نتساءل أليس هذا الغلو والاسراف أثراً من آثار التعصب لمذهبه الجديد؟ على أن هذا المذهب الجديد على حسنه واستقامته ، وعلى أن ابا نواس موفق فيه ، لم يسلم من أشياء تمكننا من أن نفهم بغض الناس له ونعيهم عليه : فهو ليس مذهبا شعريا فحسب وانما هو مذهب سياسى أيضاً . يذم القديم — لا لأنه قديم — بل لأنه قديم ولأنه عربى . ويمدح الحديث — لا لأنه حديث — بل لانه حديث ولأنه فارسى . فهو إذن مذهب تفضيل الفرس على العرب : مذهب الشعوبية المشهور . ومن هنا نفهم سخط كثير من العرب وأنصار العربية على هذا المذهب الجديد ، ونفهم أيضاً أن الرشيد حبس أبا نواس لقصيدة هجا بها العرب : ومهما يكن من شىء فالخمريات التى عرض أبو نواس فيها لتأييد مذهبه الجديد وذم المذهب القديم هى اجود ما يروى عن أبي نواس . ولا بد من ان نلم بكل هـذه القصائد لنستطيع أن نستخلص أصول هذا المذهب الجديد كما كان يتصوره أبو نواس . ولكننا نرجىء هذا الى الاسبوع الآتى ونختم حديث اليوم بهذه الأبيات فى هذا الموضوع

لا تبك ليلى ولا تطرب الى هند	واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً اذا انحدرت من حلق شاربها	أجدته حمرتها فى العين والخد
فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة	فى كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من يدها خمراً ومن فمها	خمراً فمالك من سكرين من بد

لى نشوتان وللندمان واحدة   شيء خصصت به من بينهم وحدى

ويتحدث الرواة ان أبا نواس انشد هذه الأبيات طائفة من أصحابه فخروا له سجدا : فقال فعلتموها اعجمية والله لا كلمتكم ثلاثا وثلاثا وثلاثا. ثم ندم وقال تسعة أيام فى هجر الاخوان كثير: وربما كان أصحاب أبى نواس مسرفين حين سجدوا له اعجابا به . ولكن الشيء الذي لاشك فيه هو أن هذه الابيات من أحسن شعره واجوده . وليس من السهل أن تقول لماذا حسنت هذه الابيات ولكنك تشعر فيها بجمال يجذبك ويستهويك دون أن تستطيع له تحديداً : جمال فى اللفظ وجمال فى المعنى ، فليس فى اللفظ كلمة غريبة أو حرف ينبو على السمع ، بل هى ألفاظ متخيرة ليست بالمبتذلة ، ولا التى لا يفهمها عامة الناس ، وليس فى المعنى شيء مستغلق أو شيء مبتذل بل هى معان مألوفه ولكن استطاع الشاعر أن يقارب بينها فيحدث من هذه المقاربة جمالا ولذة ما كنت لتحسها لولا ان قرن لك الشاعر هذه المعاني بعضها الى بعض . انظر الى قوله :

« واشرب على الود من حمراء كالوردِ »

وانظر الى قوله :

فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة   فى كف جارية ممشوقة القد

تسقيك من يدها خمرا ومن فمها   خمراً فما لك من سكرين من بد

فهذه الطائفة من التشبيهات يتلو بعضها بعضا ويكمل بعضها بعضا هى التى تحدث فى نفسك اللذة وتبعثها على الاعجاب : وانظر الى هذا البيت

الآخير ، والى شطره الثاني بوجه خاص ، تجده حضريا فانيا فى الحضارة ومترفا مغرقا فى الترف ، يعبر عن حضارته وترفه بلفظ يكاد يصل الى قلبك دون أن تسمعه

لى نشوتان وللندمان واحدة   شىء خصصت به من بينهم وحدي

ولست أدرى لماذا لم أسمع هذا البيت مرة الا وددت لو سمعته من فم مغن يجيد الغناء

*

الخمر عند أبي نواس[١]

بعد العهد بيننا وبين أبي نواس ، فقد مضت أشهر بيننا وبين آخر مقال كتبناه عن وصف الخمر فى شعره . وما إخالك الا قد نسيت هذا المقال كما هو شأن القارىء لما يكتب فى صحيفة سيارة مهما يكن هذا الذي يكتب ، سياسة أو أدبا أو غير السياسة والادب . ما إخالك الا نسيت هذا المقال ، على أنه لم يكن الا مقدمة لما نريد أن نقوله موجزين عن خمريات أبي نواس . فقد رأينا أن أبا نواس كان بعد الوليد بن يزيد أشد الشعراء عناية بالخمر وأكثرهم افتنانا فيها ، وان الناس جميعا شهدوا له فى ذلك بالسبق والتقدم ، لم يفضلوا عليه أحداً من الشعراء الذين جاءوا قبله أو بعده ، ورأينا أن الناس محقون فى هذا . ولكننا رأينا أن معانى أبى نواس فى الخمر على أنها كثيرة مختلفة يكاد ينالها الاحصاء ، ونستطيع أن نقسمها الى قسمين اثنين : القسم الأول هذه المعانى الكثيرة التى كانت تعجب القدماء وتفتن النقاد منهم ، ثم أصبحت لا تعجبنا أو لا تفتننا على أقل تقدير كتشبيه الخمر بالعذراء تخطب الى أبيها الدهقان ، وكالاسراف فى وصف قدم الخمر وما مر عليها من الأجيال والعصور ، وكالافتنان فى وصف طعم الخمر وريحها . القسم الثانى هذه المعاني التى أعجبت القدماء وفتنتهم ومازالت تعجبنا وتفتننا لانها لاءمت ذوق القدماء وحياتهم وما زالت تلائم ذوقنا

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٦ ذو القعده سنة ١٣٤١ هـ ١١ يونية سنة ١٩٢٣ م

وحياتنا ، ولانها حببت الى القدماء شرب الخمر وما زالت تحبب الى المحدثين شرب الخمر . وهذه المعاني قليلة فى شعر أبى نواس ، قليلة فى شعر غيره من الشعراء ، قليلة فى الخمريات قلتها فى غير الخمريات ، ذلك لأن المعانى التى تتفق على استحسانها العصور المتباعدة والاجيال المتباينة قليلة بطبعها فى كل فن من فنون الشعر والادب . ثم مثلنا فى ذلك المقال لهـذه المعانى وتلك ، وأشرنا الى أن شعر أبى نواس فى الخمر لم يكن هزلا كله ، ولم يكن الغرض منه المجون وحـده أو الاسراف فى وصف اللذات . وانما كان أبو نواس يتخذ الخمر وسيلة الى شىء من الجد ، له خطره فى الأدب ، ووسيلة الى شىء آخر من الجد ، له خطره فى غير الأدب .

كان أبو نواس اذن حين يصف الخمر ، أو حين يتغزل ، يقصد الى ما يقصد اليه الشعراء المجيدون من وصف الحس والشعور وتمثيل العاطفة تمثيلا صحيحا ، ولـكنه كان يقصد مع هذا الشىء المشترك بينه وبين الشعراء الى شيئين آخرين أشرنا اليهما فيما مضى ونعود اليهما اليوم .

كان أبو نواس يريد أن ينهج بالشعر منهجا جديداً لم ينهجه المتقدمون أو قل انهم نهجوه ولـكنهم لم يشعروا بذلك ، ولم يتخذوه عقيدة أو مذهبا فى الأدب . كان يريد أن ينهج بالشعر منهجاً يشـبه المنهج الذى نريد نحن وأصحابنا أن ننهجه بالـكتابة . كان يريد أن يتخذ الشعر لسانا للحياة الحاضرة وأن يلائم بين الشعر وبين ذوق الشعراء والذين يسمعون للشعراء . كان يريد بعبارة مجملة أن يعدل عن أساليب القدماء فى وصف الاطلال والبكاء عليهـا وفى تغنى الابل والشاء ، إلى وصف الحيـاة التى يحياها الشعراء

والمستمعون لهم ، ايثارا للصدق وبعداً عن الـكذب . كان أبو نواس اذن في هـذا الشعر المخالف للاخلاق وأصول الفضيلة محبا للاخلاق وأصول الفضيلة ، كان يؤثر الصدق وينكر الـكذب . ولـكن يجب أن تفهم هذا على وجهه ، فلم يكن أبو نواس مؤثراً للصدق لأنه صدق ، لم يكن واعظا ولا ناسكا ، لم يكن حكيما يبشر بالحكمة أو فيلسوفا يدعو الي الفلسفة ، وانما كان شاعرا يصدق في شعره ويحب أن يتحدث الى الناس بما يفهمونه ، فينزل منهم موضع الاعجاب والفتنة ، كان يحب الصدق حبا عمليا أو قل كان يحب الصدق حبا فنيا ، ولم يكن يدعو اليه لان الدعوة اليه ترضى الدين أو ترضى الفضيلة ، وانما كان يدعو اليه لأن الدعوة اليـه ترضى الذوق وترضى الجمال الفني

وهو لم يكن يدعو الى تجنب أساليب القدماء في وصف الأطلال والبكاء عليها وحدها ، لم يكن يدعو الى تجنب أساليب القدماء في المعانى فحسب ، وانما كان يدعو الى تجنب سـنة القدماء في المعاني وفي الالفاظ جميعا . كان يريد ألا يستعير المحدثون معانى القدماء لأن لهم معانيهم ولهم حياتهم ، وكان يريد ألا يسرف المحدثون في استعارة ألفاظ القدماء لأن لهم ألفاظهم ، أي لان لغتهم تطورت كما تطورت حياتهم ، أو لان حياتهم تطورت فيجب أن تتطور اللغة لتلائم هذه الحياة . حدثت معاني لم يكن يألفها القدماء فيجب أن تحدث لهذه المعانى ألفاظ غير الألفاظ التى ألفها القدماء ، رقت حاشية الحياة الحديثـة وظهر فيها الترف ولين العيش ، فيجب أن تصطنع الألفاظ الرقيقة لهذه الحياة الرقيقة ،

ويجب أن نلاحظ هنا شيئين : الأول أن هـذا التطور فى اللغة واقع على كل حال سواء أراده الشعراء والـكتاب أم لم يريدوه . وآية ذلك ظاهرة فى اللغة العربية وغير العربية ، فشعر الأمويين ليس كشعر الجاهليين ، وان كان الشبه بين هذين النوعين من الشعر قويا ، وشعر العباسيين ليس كشعر الأمويين . وقل مثل ذلك فى النثر أيام بنى أمية وأيام بنى العباس . التطور اذن واقع لأنه قانون لا منصرف عنه لأي جماعة من الجماعات ، والناس خاضعون لهذا التطور راضون عنـه ، ولـكن المشقة كل المشقة ليست فى خضوعهم له ورضاهم عنه ، وانما هى فى اعترافهم به واتخاذه مذهبا وطريقا . وهذا هو الشيء الثانى الذى نريد أن نلاحظه وهو أن الخلاف بين القـدماء والمحدثين يكاد يكون فى الاعتراف بالحديث لا فى قبول الحديث ، فالحديث مقبول بطبعه لأنه الحياة ، ولـكن الاعتراف به شاق لاننا فطرنا على المحافظة والاتصال بالسنن الموروثة . ومن هنا نفهم أن أبا نواس كان أشد الناس إلحاحا فى تغيير الأسلوب الشعرى وتجديد اللفظ والمعنى ، ونفهم أنه لم يكن وحده مغير الأسلوب الشعرى ولا مجدد اللفظ والمعنى . وانما كان الشعراء المعاصرون له سواء منهم أنصـاره وخصومه يغيرون الأسلوب الشعرى ويجددون اللفظ والمعنى ، وكان منهم من يعترف بهذا التغيير ويرى انه مشروع فيمضى فيه ويحرص عليه ، وكان منهم من ينكر هذا التغيير ويتكلف الفرار منه . وقع هذا أيام أبي نواس ، ووقع هذا فى القرن السابع عشر الفرنسى ، ووقع هذا فى كل عصر من العصور التى تطورت فيها الامم وتطورت فيها اللغات أيضا . كان أبو نواس اذن يطالب

الشعراء بأن يكونوا صادقين غير منافقين مع أنفسهم . وانظر الى طريقه فى الدفاع عن رأيه وأخذ الناس بهذا الرأى :

عاج الشقى على رسم يسائلهُ ... وعجت أسأل عن خمّارة البلدِ
يبكى على طلل الماضين من أسد ... لادر درك قل لى مَنْ بنو أسد
ومَن تميم ومن قيس ولفهما ... ليس الاعاريب عند الله من أحد
لاجف دمع الذى يبكى على حجر ... ولا صفا قلب من يصبو الى وتد
كم بين ناعت خمر فى دساكرها ... وبين باك على نُؤىٍ ومنتضد
دع ذا عدمتك واشربها معتقة ... صفراء تفرق بين الروح والجسد
من كف مضطمر الزنار معتدل ... كأنه غصن بان غير ذى أوَدِ
أما رأيت وجوه الارض قد نضرت ... وألبستها الزرابى نبْرة الاسد
حاك الربيع بها وشيا وجللها ... بيانع الزهر من مثنى ومن وَحَد

فانظر اليه كيف آثر العنف فى خطاب خصمه فاسرف فى ذم القديم والنعى على من يتكلفه وأسرف فى مدح الجديد والحث عليه . وانظر الى تبرمه باسد ومن يبكى على أسد ، والى ذمه لتميم وقيس والعرب كافة . ثم انظر اليه كيف يحقر هذا القديم ويرفع من شأن الجديد ، ويأخذ الناس بأن ينظروا الى ما حولهم من جمال الطبيعة فيألفوه ويصفوه ، ولا يشغلوا عن رياض العراق وجناته بطلول الجزيرة العربية وصحاريها . ومثل هذا الشعر كثير فى خمريات أبى نواس ، كثير فى غير الخمريات أيضا . يكفى أن ترجع الى ديوانه لتقنع منه بما تريد

هذا أحد الشيئين اللذين كان يقصد اليهما أبو نواس حين يفتن فى

وصف الخمر واللذة . الشيء الثاني مذهب في الحياة لا في الأدب . ذكرناه كثيراً فسخط الناس وأشفقوا ، وغلا بعضهم في السخط والاشفاق حتى ظن بنا انا نأتمر بالدين والعادة والخلق ، حين لم نكن نفكر الا في شيء واحد هو التاريخ ، هذا الشيء الذي نريد اليوم أن نمر به مسرعين هو المجون . فقد كان أبو نواس مجددا في كل شيء ، مجددا في الشعر ومجددا في الحياة . ويقيننا نحن أن أبا نواس لم يكن مجددا وحده وانما كان أهل عصره كلهم مجددين . والفرق بين أبي نواس وغيره من معاصريه أنه كان يريد أن يحمل هؤلاء المعاصرين على أن يعترفوا بحياتهم ولا يكذبوا على أنفسهم ، فاذا كانوا قد نبذوا القديم واجتنبوه في واقع الامر فمن الحق عليهم ألا يخفوا هذا ولا يفروا منه . فهو اذن في قضية المجون يسلك نفس الطريق التي يسلكها في قضية الأسلوب الأدبي . يرى أن هناك تطورا واقعا واننا خاضعون لهذا التطور واننا ننكر هذا التطور ولا ننكر خضوعنا له وانما نؤمن به ايمانا ونعترف به اعترافا . وحجته في ذلك أن هذا سبيل الصادقين . وانك قد تستطيع أن تخفي ما تشاء على من تشاء ، ولكنك لن تستطيع أن تخفى على الله شيئاً ، والله وحده هو الذي يجب أن تصدقه في سرك وجهرك ، فاذا اجترأت على معصية الله ومخالفة حدوده فما يعنيك أن يقول الناس فيك . وانظر الى هذه الابيات :

. . . .

لاتسقني ان كنت بي عالما ... الا التي اضمرت في صدرى

هات التي تعرف وجدى بها ... واكْنِ بما شئت عن الخمر

يا حبـذا الجهر بامر الصبا   ما كنت من ربك فى ستر

هو اذن مقتنع بوجوب العدول عن القديم والاعتراف بالجديد ، وهو شديد الاقتناع قد يتكاف فى سبيله ما يتكلفه المقتنعون من الاسراف والتعصب والخروج من الطور ، وانظر الى هذه الابيات التى لم يحفل فيها أبو نواس بقاعدة دينية أو خلقية وإنما اتخذ الإباحة والصراحة مذهباً وسبيلا :

الا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمرُ   ولا تسقنى سراً اذا أمكن الجهرُ

فعيش الفتى فى سَكرة بعد سَكرة   فان طال هذا عنده قصر الدهر

وما الغبن الا أن ترانىَ صاحياً   ولا الغنم الا أن يتعتعني السكر

فبح باسم من أهوى ودعنى من الكنى   فلا خير فى اللذات من دونها ستر

ولا خـير فى فتـك بغـير مجانة   ولا فى مجون ليس يتبعـه كفر

ولا تحسبن أبا نواس شاذاً فى هذا أو منتحلا اياه انتحالا . وإنما هو أثر البيئة فيه ، وهو نفسه يحدثنا بهذا فيقول :

وقائل هـل تريد الحـج قلت له   نعم اذا فنيت لذات بغـداذ

أما وقطربل منها بحيث أرى   فقنة الفرك من أكناف كلواذ

فالصالحية فالكرخ التى جمعت   شـذاذ بغـداد ما هم لى بشـذاذ

فكيف بالحج لى مادمت منغمساً   . . . .

وهبك من قصف بغداد تخلصنى   كيف التخلص لى من طيرنا باذ

ويقول بعد أن حج :

قالوا تنسكَ بعـد الحج قلت لهم   أرى وأرجوا وأخشى طير ناباذا

أخشى قضيّب كرم أن ينازعني   رأس القطار وان أسرعت اغذاذا

ما أبعد النسك من قلب تقسمه ... قطربل فقرى بنى فكاواذا
فان سامت وما قلبي على ثقة ... من السلامة لم أسلم ببغداذا
ما شئت من بلد دان منازهه ... .
وفتية توصوا بترك البر بينهم ... تقول ذا شرهم بل ذاك بل هذا
ليسوا كقوم اذا حاذيت مجلسهم ... أنفذت بالترك والاركان إنفاذا
هناك لاتتخطى الأذن لائمة ... ولا ترى قائلا من ذا ولا ماذا

فقد رأيت مما روينا أن أبا نواس لم يبتدع مذهبه فى القديم ولا فى المجون ابتداعا ولم يتكلفه تكلفاً ، وإنما عاش فى عصر وبيئة كانا يضطرانه الى أن يرى هذا الرأى وينهج هذا المنهج ، وكل الفرق كما قلنا بينه وبين خصومه وأنصاره أنه كان صريحاً يؤثر الاعتراف بحياته التى يحياها على التستر والتكتم ، ولسنا نقول إنه مصيب ولسنا نقول إنه مخطىء ، فقد يختلف الناس فى ان الصراحة خير أو شر اذا كان موضوعها الاثم والمجون . وليس يعنينا أن تكون صراحة أبى نواس شراً أو خيراً ، وليس يعنينا الآن اثم أبي نواس أو مجونه أو بغضه للقديم وحبه للحديث ، ليس يعنينا شىء من هذا فى نفسه فنحن لانتخذ أبا نواس قدوة ولا إماما ، ولا نعتقد أن أبا نواس يصلح قدوة أو اماما فى ضروب الحياة المختلفة ، وإنما نحن نذهب مذهب المؤرخ ، ويخيل الينا أن هذا البحث على ايجازه ينتج لنا أن شعر أبي نواس فى الخمر على ما فيه من جمال فنى يعجب الأدباء والنقاد كان يرمى الى غرضين اثنين : الاعتراف بالجديد فى الأدب ، والاعتراف بالجديد فى الحياة ، بل نستطيع أن نوجز فنقول كان شعر أبى نواس كله رفضاً للقديم

فى كل شىء وكلفاً بالجديد فى كل شىء .

والآن وقد عرفنا فلسفة أبى نواس فى الخمر لا ينبغى أن ننصرف عن هذا الباب من شعره دون أن نشير الى ماله من المقطوعات والقصائد التى تنظر اليها فى نفسها النظر الفنى الخالص ، فلا تستطيع إلا أن تعجب بها وترضى عنها ، فتقرأها وتقرأها وتميل الى حفظها وتميل الى أن تسمعها فى الغناء

كثير جداً هذا النوع من شعر أبى نواس فى الخمر ، وكأنه كان يريد حين يضع هذه المقطوعات أن تتخذ للغناء والتلحين تمجيداً للخمر وتأييداً لمذهبيه فى الأدب والمجون ، فأنت تذكر همزيته المشهورة : « دع عنك لومى فان اللوم اغراء » وتذكر انى قد حللتها فى غير هذا المكان وتذكر قصيدته الاخرى :

أعاذل أعتبت الامام وأعتبا ... وأعربت عما فى الضمير وأعربا

وانظر الى هذه القصيدة وقد كان فيها جدال بينه و بين مسلم بن الوليد :

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا ... وأمله ديك الصباح صياحا
أوفى على شرف الجدار بسدفة ... غردا يصفق بالجناح جناحا
بادر صباحك بالصبوح ولا تكن ... كمسوفين غدوا عليك شحاحا
وخدين لذات معلل صاحب ... يقتات منه فكاهة ومزاحا
نبهته والليل ملتبس به ... وأزحت عنه نقابه فانزاحا
قال ابغني المصباح قلت له اتئد ... حسبى وحسبك ضوؤها مصباحا
فسكبت منها فى الزجاجة شربة ... كانت له حتى الصباح صباحا
من قهوة جاءتك قبل مزاجها ... عطلا فالبسها المزاج وشاحا

شك البزال فؤادها فكأنما أهدت اليك بريحها تفاحا
صهباء تفترس النفوس فما ترى منها بهن سوى السبات جراحا
عمرت يكاتمك الزمان حديثها حتى اذا بلغ السآمة باحا

وانظر الى هذه المقطوعة التى تكلف أبو نواس فيها البديع فاحسن التكلف :

عاذلى فى المدام غير نصيح لاتلمني على شقيقة روحى
لاتلمنى على التى فتنتني وأرتنى القبيح غير قبيح
قهوة تترك الصحيح سقيما وتعير السقيم ثوب الصحيح
ان بذلى لها لبذل جواد واقتنائى لها اقتناء شحيح

وانظر الى هذه الابيات التى لايشك قارئها انها قيلت أمس أو اليوم لأنها تصف شيئاً مما نحن فيه ، واحسب انها ستظل جديدة على الدهر :

تفتير عينيك دليل على أنك تشكو سهر البارحة
عليك وجه سيء حالهُ من ليلة بت بها صالحة
ونفحة الخمر وأنفاسها والخمر لا تخفى لها رائحة
وغادة هاروت فى طرفها والشمس فى مفرقها جانحة
تستقدح العود باطرافها ونغمة فى كبدى قادحة

وانظر الى هذه الابيات أيضا وحدثنى اليست وضعت لتغنى

إله بالبيض الملاح وبقينات وراح
لا يصدنك لاح هو عن سكرك صاح
ليس للهم دواء كاغتباق واصطباح

فلعمري ما يداوى الهم بالماء القراح

ولو أني أردت أن أروى لك كل ما يعجب من هذا الشعر لما فرغت. ولكني أريد أن أختم هذا الفصل بقصيدة كلها جد وقد أعجب بها العلماء والنقاد في القرن الثالث لأن أبا نواس عرض فيها للوصف فأجاده وأحسنه احسانًا عظيما ، وأعجب بها أنا لأن أبا نواس أراد أن يبكي الأطلال والديار فبكاها ولكنه لم يبك أطلال البادية وانما بكى أطلال الحاضرة . لم يبك أطلال حي ارتحل وانما بكى أطلال الشرب وأصحاب اللهو بعد أن فرغوا من لهوهم وانصرفوا عن ملهاهم فتركوا فيه ما ترك أمثالهم من الآثار . فأبو نواس لا يذكر الخيمة ولا النؤى ولا الوتد وانما يذكر ما ستسمع :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا . بها أثر منهم جديد ودارس

مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنى ويابس

حبست بها صحبي فجددت عهدهم واني على أمثال تلك لحابس

ولم أر منهم غير ما شهدت به بشرقي ساباط الديار البسابس

أقمنا بها يوماً ويومين بعده ويوماً له يوم الترحل خامس

تدور علينا الكأس في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس

قرارتها كسرى وفي جنباتها مهى تدريها بالقسي الفوارس

فللخمر ما زرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

أرأيت الى هذه الآثار تركها جر الدنان ؟ أرأيت الى هذا الريحان جنيه ويابسه ؟ هذه هي أطلال أبي نواس . ثم ألا تحس في هذه القصيدة شيئاً من الميل الى الفرس والاعجاب بهم والحنين الى عهدهم القديم ؟ ثم ألا ترى

ووصف الكأس ومافيها من صورة وتقسيم هذه الصورة بين الخمر ومزاجها؟
ثم انظر الى هذا البيت الذى يبتدىء به أبو نواس إحدى قصائده وانظر
الى ما فيه من هذه السخرية العصرية بأصحاب الاطلال والباكين عليها:
بامرىء القيس وأصحابه:

قل لمن يبكى على رسم درس ... واقفاً ما ضر لو كان جلس
تصف الربع ومن كان به ... مثل سلمى ولبيني وخنس
اترك الربع وسلمى جانبا ... واصطبح كرخية مثل القبس

هذه طائفة من شعر أبى نواس فى الخمر لم نتكلف اختيارها، ولا
نشك فى أن لأبى نواس خيراً منها ولكننا أطلنا فى هذا الباب فلننتقل
منه الى الغزل فى الاسبوع الآتى.

الغزل في شعر ابي نواس[1]

رأينا مذهب أبي نواس في وصف الخمر وتمجيدها . وعرفنا أنه لم يصف الخمر عبثا وانما اتخذ وصفها وسيلة الى اعلان رأيه في تجديد الادب واعلان مذهبه في المجون واعلان ما يكنّ للخمر من حب وما يختصها به من كلف . ونريد اليوم أن نعرف مذهب أبي نواس في الغزل ، ولكنى أتعجل فألفتك الى أن هذا غير ميسور : لأن أبا نواس لم يتغزل كغيره من الشعراء الذين سبقوه ، ولم يسلك السبيل التي مهدت من قبله ، وانما سلك سبُلا أخرى ليس يباح لنا في صحيفة سيارة أن نسلكها معه أو نتبعه فيها

لأبي نواس غزلان : غزله بالنساء وغزله بالغلمان وهو مجيد في الثاني ، محسن الاحسان الفني كله ، صادق أيضا أشد الصدق ، ولكنك تقرنا على أننا لا نستطيع أن نطرق هذا الباب الا في كتاب مخصص لأبي نواس يقرؤه الخاصة ولا تصل اليه يد العامة الا مصادفة وبعد مشقة . أما غزله بالنساء فكثير ، وفيه الجيد ، ولكن فيه الردىء . ولعلك اذا أردت أن تميز هذا الغزل أو تصفه بوصفه الصحيح لم تستطع أن تعدل عن هذا الحكم : وهو أن أبا نواس لم يكن جاداً ولا صادقا حين كان يتغزل بالنساء ، وانما كان مازحا أو بعبارة أصح كان مخادعا وكان كذابا ، كان

---

(١) نشرت بالسياسة فى ١٨ ذو الحجة سنة ١٣٤١ هـ اول اغسطس سنة ٢٩٢٣ م

مغرورا وكان مفتونا ، وكان مع هـذا كله شاعراً يريد أن يطرق أبواب الشعر جميعها ومنها التغزل بالنساء فتغزل بهن حتى لا يفوته هذا الفن.

وفى الحق انه لم يقصر فى هذا الفن . فقد وصف النساء فأحسن وصفهن ، وقد وصف مابين النساء والرجال من صلة فأجاد الوصف وأتقن التصوير . ولكنه لم يصف النساء جميعا وانما وصف منهن طائفة خاصة ، ولم تكن هـذه الطائفة أقرب النساء الى الطهر والعفاف ، ولا الى البر والصون ، وانما كانت طائفة مبتذلة ممتهنة ، حظها من الطهر والعفاف قليل . لم يعرض أبو نواس أو لم يكد يعرض للمحصنات من النساء ، ولا للاحرار منهن ، وانما عرض للاماء . فأحسن وصفهن وترك لنا منهن صورة ان لم تكن صحيحة صادقة كل الصدق فهى قريبة جداً من الحقيقة الواقعة . عرض للاماء ولطائفة بعينها من الاماء ، لهذه الطائفة التى كانت تتألف من إماء مهذبات قد أُحسن تأديبهن فروى الشعر وقرضنه وأحسنّ الموسيقى ونبغن فيها وأخذن من العلم والأدب المعروفين حينئذ بطرف لابأس به ، فكنّ يثبن لمناظرة الشعراء والعلماء وأئمة اللغة ، وكنّ يعتززن بذلك ويتقدمن على الحرائر والمحصنات ، لأن حرية هؤلاء وإحصانهن كانا يحولان بينهن وبين التحدث الى الرجال والتبذل فى هذا الحديث . كان الاماء اذن مظهر المرأة فى بغداد ولكنه كان مظهراً سيئاً جداً من جهة وحسناً جداً من جهة أخرى كان مظهراً سيئاً لانهن كن مبتذلات خليعات يتهالكن على الخلاعة ويسرفن فى المجون ، ويتخذن من تهالكهن على الخلاعة واسرافهن فى المجون سلاحاً قويا يتملقن به لذة الرجال وشهواتهم ، ويحاربن به الحرائر المحصنات

حرباً غير متكافئة . وكن مظهراً حسناً لاجن كن أديبات عالمات يتصرفن في فنون الأدب والعلم على اختلافها . ومن هنا وجب القصد والاحتياط في الحكم على نساء هذا العصر بما نرى في شعر أبي نواس وغير أبي نواس وبما نرى في الاغاني وغير الاغاني مما يشهد بتفوقهن العقلي من جهة وانحطاطهن الخلقي من جهة أخري . يجب القصد والاحتياط لان الكثرة المطلقة من هؤلاء النساء لا تمثل المرأة العربية الحرة . بل لا تمثل المرأة المسلمة الحرة . وانما تمثل هذا الرقيق الذى كان يجلب الى بغداد وغير بغداد من حواضر المسلمين فيتخذ فيها تجارة ولهواً كما يتخذ تجارة ولهوا فاخر الاثاث وحسن الرياش . هولاء النساء لا يمثلن المرأة الحرة وانما يمثلن الرجل الحر : فقد كن له لذة ولهوا ، وكن لاخلاقه وحياته خارج البيت مرآة مجلوة تمثلها أحسن تمثيل . فلولا أن هؤلاء الاماء اللاتى ذكرهن أبو نواس كن يحببن اللهو ويتهالكن على المجون ويقبلن فيه من ضروب الخلاعة والابتذال مالا يقبله الحرائر لما استطاع أبو نواس وغير أبي نواس أن يقولوا فيهن ما قالوا أو أن يصفوهن بمثل ما وصفوهن به .

كان في جاهلية العرب وصدر الاسلام وأيام بني أمية شعراء يحبون الفتك ويتحدثون به . فلامرىء القيس وعمر بن أبي ربيعة في ذلك شعر كثير . ولكن هؤلاء الشعراء كانوا يؤثرون العفة وحسن القول حتى في الفتك والفحش ، وكان شعرهم الفاحش قليلاً جداً بالقياس الى شعرهم العفيف ، وكان الشعراء الصادقون في الحب المؤثرون للعفة والطهارة في كل مايقولون

كثيرين جداً بالقياس الى هؤلاء الشعراء الفاتكين . ذلك لأن سلطان الاماء كان ضعيفا جداً أو لم يكن موجوداً فى هذه العصور ، ولأن الرجال الاحرار كانوا يؤثرون كرامتهم على لذاتهم فكانوا يؤثرون نساءهم على إمائهم . أما فى أيام بني العباس فقد تغيرت الحال تغيراً شديداً : كثر الاماء كثرة فاحشة وتفوقن تفوقا فاحشا فى الادب والشعر والغناء وفى ضروب الزينة واستهواء الرجال ، وتغيرت أخلاق الرجال فتهالكوا على اللذة واستبقوا الى الشهوات ، فاعتقلوا الحرائر المحصنات وكلفوهن ما تتكلفه المرأة الحرة المحصنة من الاشراف على حياة الأسرة فى عفة وكرامة ولكن من وراء حجاب ، ثم أسرفوا فى اتخاذ الرقيق وأباحوا لأنفسهم مع هذا الرقيق من ضروب اللذات ما تأبي الكرامة وإكبار الحرائر اتخاذه مع الزوجات فكان هذا الفساد العظيم الذى يمثله غزل أبي نواس بالنساء والغلمان ، أتظن أن أبانواس كان يستطيع أن يقول فى حرة محصنة مثل هذه القصيدة

ونابه فى الهوى لنا ناسى	قطع بالهجران أنفاسى
لست لهـا واصفا مخافة أن	يعرف مابى جماعة الناس
أكثر وصفى لها شكاية ما	فيها قضى الله لى على راسى
يطمعني لحظها ويؤيسني	باللفظ منها فؤادها القاسى
فصرت باللحظ من معذبتى	واللفظ بين الرجاء والياس
أسعد يوم لها حظيت به	مقالها لى ولست بالناسى
لذلك اليوم ما حييت وما	ترجم قولى سواد أنفاسى
تقول لى والمدام مرسلة	تفيض حولى نفوس جلاسى

هل لك أن تطرد النعاس فقد ... طاب انضواع المدام والاس
قلت لها فابتدى وهاتي فما ... حسوت منها فانني حاسى
وغايتي أن أنال فضلتها ... فى الكأس من شربها أو الطاس
ثم أظن الحذار نبهها ... وما بها قد أردت من باس
قالت فدع عنك الاحتيال لما ... أردت سكرى له وإنعاسى
أعرضت عنها وقد فهمت لكى ... تحسب اني لقولها ناس
ثم دعتها المدام من كثب ... والليل ذو سدفة وادماس
فاحتلبت زقاً فمج بها ... فى الكأس راحا كضوء مقباس
ثم تحست حتى اذا شربت ... نصفا كما قيس لى بمقياس
نازعتها الكأس فيه فضلتها ... ففزت بالكأس بعد إمراس
فكادت النفس للسرور بها ... تخرج بين المدام والكاس

أترى الى امرأة حرة محصنة تستحث أبا نواس على المنادمة ومنازعة الكأس ؛ أترى اليها تذهب هذه المذاهب الملتوية فى اجتذابه اليها وترغيبه فيها ، تطمعه حينا وتؤيسه حينا آخر ؛ بل أترى الى امرأة حرة محصنة تبتذل نفسها فتنزل الى المنادمة والمداعبة ؛ كلا ! وانما هى أمة من الاماء وامرأة من هؤلاء النساء اللاتى يبذلن أنفسهن فابتذلهن الرجال ، ومن هنا لم يكن أبو نواس صادقا ولا متحدثا عن عاطفة قوية متقدة فى أكثر الأحيان حينما كان يذكر هؤلاء النساء أو يتغزل بهن ، وانما كان يترضاهن ترضيا ويتملقهن تملقا ويتخذهن وسيلة الى إرضاء مجونه من جهة وفنه من جهة أخرى .
أضف الى هذا أن أبا نواس كان معتدلا جداً فى الميل الى النساء وكان

مسرفا جداً فى ميل آخر ... فمن المعقول ألا يتحدث عن نفسه وعواطفه حين يتغزل بالنساء . ولا تكاد تقرأ قصيدة أومقطوعة من شعر أبي نواس فى هذا الفن من الغزل إلا رأيت فيها التكلف ظاهراً والكذب واضحا ، لا أريد التكلف اللفظى وانما أريد تكلف المعنى وانتحال الحب . وربما كان من الحق أن نستثني من هـذا الشعر شعره فى « جنان » . فقد يظهر أنه كلف بها حقا وهام بها بعض الهيام وتجشم فى سبيلها ما لا يتجشمه الماجن المداعب ، ولكنه مع ذلك لم يكن مقتصدا ولا عفيفا فى كل ما قال فى « جنان » وانما أسرف وورط نفسه فى شيء من الاثم ، فانظر الى هذه الابيات :

وعاشقين التفّ خداهما   عند التثام الحجر الأسود
فالتقيا من غير أن يأثما   كأنما كانا على موعد
لولا دفاع الناس إياهما   لما استفاقا آخر المسند
قلنا كلانا ساتر وجهه   مما يلي جانبه باليد
تفعل فى المسجد ما لم يكن   يفعله الابرار فى المسجد

وليس من شك فى أنهما كانا على موعد . فانظر الى هذه الابيات :

ألم تر أنني أفنيت عمري   بمطلبها ومطلبها عسير
فلما لم أجد سببا اليها   يقربني وأعيتني الأمورُ
حججت وقلت قد حجت جنان   فيجمعني وإياها المسير

وأنا أحسب أن حب أبي نواس لجنان لم يكن من الحب الصادق العفيف وانما كان نوعا من الامل يتحرق الرجل لتحقيقه ويعسر عليه هذا التحقيق ، فاما إيثارها بالخير وتقديم لذتها على لذته وأمنها على أمنه فعاطفة

أحسب أنها لم تجد الى نفسه سبيلا . وهذه الابيات أصدق دليل على ذلك

يا قمرا أبصرت في مأتم ينـدب شجوا بين أتراب
يبكي فيذري الدر من نرجس ويلطم الورد بعنـاب
أبرزه المـأتم لي كارها برغم بواب وحجاب
لا زال موتا دأب أحبابه وكان أن أبصره دابي

أتظن أنه يحبها حقا حين يتمني أن يموت أحبابها فى كل يوم لتظهر مُعْولة . نادبة ، وليستطيع هو أن يراها ؟ ألست تري فى هذا أن الرجل كان أثراً مسرفا فى حب نفسه ولذته يريد أن يستمتع بمنظر هذه المرأة مهما تكلفت هذه المرأة فى هذا من شر واحتملت من خطوب ؟ لم يكن أبو نواس اذن صادقا فى حب النساء ، وليس شعره صادقا فى تمثيل النساء كما هو صادق فى تمثيل الرجال . ولـكنه على هذا كله يظهرنا على وجه من وجوه الحياة الادبية والعادية فى بغداد أيام بني العباس . ومن الحق أن نتبين هذا الوجه ونحسن درسه ، فقد يعيننا ذلك على فهم أشياء كثيرة لم نفهمها بعد من أمر هذا العصر . واذن فمن الحق أن نتناول هذا الفن من شعر أبي نواس بشيء من البحث المفصل الدقيق وأن نعرض فى شيء من التفصيل لمن عُرف من هؤلاء الإماء اللاتى تعشقهن أبو نواس . ونرجو أن نفي بذلك في مقال آخر

*

الغزل عند ابى نواس[١]

بعيد جدا ما بين هذا الغزل النواسى العباسى الذى أشرت فى الفصل الماضى الى أنه ضعيف متكلف ، وذلك الغزل الاموي العربي الذى أشرت فى فصل مضى أول هذا العام الى صدقه وقوته

نعم إن الفرق عظيم بين هذا الغزل النواسى و بين ذلك الغزل الذى كان ينشره جميل أو كثير أو عمر بن ابى ربيعة . الفرق عظيم جدا ، وليس عظم هذا الفرق شيئا غريبا فى نفسه ، فيكفى أن تنظر الى العصر الأموى والعصر العباسى من جهة ، وتنظر الى نفسية الشعراء الامويين ونفسية أبى نواس من جهة أخرى لتقتنع بأن هـذا الفرق لا ينبغى أن يكون غريبا بل ينبغى أن يكون واجبا محتوما . يجب ان تنظر الى العصرين لترى فى أولهما على رقيه وعناية الناس فيه باللذة والعاطفة سذاجة ظاهرة مصدرها أن الاختلاط بين العرب وغير العرب لم يشتد ولم ينته الى نتائجه المعقولة ، وفى ثانيهما لتري أن النفس العربية قد أخذت تبرأ قليلا قليلا من عربيتها وتتأثر بهذه الاجناس المختلفة من الناس التى كانت تفد على العراق وعلى بغداد بنوع خاص فتحمل أمزجتها وأهواءها ولذاتها وكل مافيها من خير وشر بعيد ما بينه وبين مافى نفس الأجناس العربية من صلة . يكفى أن تنظر الى هذا كله لتعرف هذا الفرق بين الغزل العباسى عامة وبين

---

(١) نشرت بالسياسه فى ٨ صفر سنة ١٣٤٢ هـ ـ ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣ م

الغزل الاموي عامة ، فاذا فهمت هذا وعرفت له أثره في نفس أبي نواس وجب عليك أن تنظر الى أبي نواس نفسه ، والى ماقدمت من حياته وميوله وأهوائه ، وأن تنظر بعد ذلك الى أئمة الغزل من شعراء العصر الاموى والى نفسياتهم المختلفة ، فتزداد بهذا الفرق إيماناً ، ويزداد هذا الفرق أمامك وضوحا .

كان جميل وأمثال جميل قوما غزلين بطبيعتهم ، غزلين لأنهم يحبون النساء أو يحبون امرأة بعينها بين النساء ، يحبونها ويكلفون بها فيملك عليهم هـذا الحب نفوسهم وحياتهم حتى لايعيشون الا به وله ، وحتى لايصدرون إلا عنه ولا يردون الا عليه ، وكانت نفوسهم صافية لم تكدرها آثام الحضارة ، سهلة لم تعقدها حاجات المدنية ، فكانوا اذا ذكروا النساء أو تغنوا بحبهن وصفوا عواطف قوية صادقة ، فصدقوا في الوصف وكانوا فيه أقوياء . ثم كان كثير وأمثال كثير يحبون النساء ويحبون ذكر النساء ، يتخذونه فناً ويحاولون الإجادة فيه ، فلم يكونوا من صدق العاطفة وقوتها بمكان جميل وأصحاب جميل ، ولكنهم كانوا قريبين منهم لأنهم كانوا يتأثرونهم ويسلكون سبيلهم ويريدون أن يخدعوا الناس عن أنفسهم وأن يمثلوا أنفسهم في صورة العاشقين حقاً ، كان الاولون صادقين . وكان الآخرون يريدون أن يظهروا مظهر الصادقين ، وربما لم يحرموا الصدق حرماناً تاماً . أما عمر بن أبي ربيعة ومن سار سيرته من شعراء بني أمية فلم يكونوا يصدرون عن عاطفة عذرية . ولم يكونوا يتكلفون هـذه العاطفة العذرية ، لم يكونوا ينظرون الى المرأة من حيث هى المثل الأعلى

للجمال والحب . وإنما كانوا ينظرون اليها من حيث هى المثل الأعلى للجمال واللذة ، والفرق بين هاتين الوجهتين عظيم . كان ابن أبى ربيعة رجلا يحب الحياة ويحب المرأة لانها زينة الحياة أو لأنها اللذة فى الحياة ، وكان صادقا فى حب المرأة ، من حيث هى لذة الحياة . فكان غزله على بعده من العذرية أو من الأفلاطونية كما يقول المحدثون مؤثراً لأنه كان صادقا ولأنه كان يترجم عن عواطف صحيحة تؤثر فى نفس الشاعر وتؤثر فى حياته العملية ايضا . كذلك كان شعراء بني أمية . سواء منهم العذريون حقا ومن تكلفوا العذرية ومن أعرضوا عنها ولم يلتفتوا الا الى اللذات وضروب اللهو بالنساء .

أما أبو نواس فأمره غير هذا كله ، لم يكن عذريا ، وما كان يستطيع أن يكون عذريا ، وهو الرجل الذي شك فى كل شىء ، أو قل أنكر كل شىء ولم يؤمن الا بالمجون واللذة يلتمسهما حيث يجدهما لا يتقيد فى ذلك بحرج أو جناح ، لم يكن عذريا ولم يكن يتكلف أن يكون عذريا ، وانما كان يسخر من العرب ومما كان العرب يتكلفون . لم يكن يتكلف العذرية وانما كان يهيم باللذة ، وبلذة غير التى كان يهيم بها عمر بن أبى ربيعة ، لم يكن أبو نواس يحب النساء . وكان ينفر منهن نفوراً شديداً حتى لم يفلح الذين أرادوه على أن يتزوج رغم إلحاحهم عليه وتوسلهم اليه : لم يفلحوا لأن أبا نواس لم يكن يتصور حياة الزوجية ولم يكن يستطيع أن يعيش عيشة متصلة مع امرأة . لم يكن اذن يحب النساء فلم يكن من الميسور أن يهيم بهن أو يحسن الغزل فيهن ، ومع ذلك فقد تغزل ، تغزل لأنه شاعر ولأن

من الحق على كل شاعر أن يتغزل ، فالغزل فن من فنون الشعر يجب على الشعراء المجيدين أن يطرقوه ويأخذوا منه بنصيب ، وقد طرقه أبو نواس وأخذ منه بنصيب. ولكنا نظلم أبا نواس إن قلنا إنه لم يكن قط صادقا فى غزله ؛ نظلمه لأنه كان صادقا فى غزله ؛ بل كان شديد الصدق فيه ؛ بل قد نستطيع أن نقارن بينه وبين عمر ابن أبى ربيعة فى صدق العاطفة وإجادة الوصف وقوة التأثير إذا احتفظنا بشيئين : الفرق بين العصر العباسى والعصر الأموى ، والثانى أن أبا نواس لم يكن يجيد الغزل بالنساء وإنما كان يجيد الغزل بالغلمان ... فلابي نواس فى هذا الباب ما لابن أبى ربيعة فى الغزل بالنساء ، بل أنا أزعم أن أبا نواس فى هذا الباب أشعر من ابن أبى ربيعة فى الغزل بالنساء ، ولست أستدل على هذا الا بشىء واحد وهو أن أبا نواس يكرهك حين تقرأ غزله بالغلمان على أن تعجب بهذا الغزل رغم ما فيه من منافرة للطبع والخلق والدين ، أما ابن أبى ربيعة فهو لا يكرهك على أن تعجب بغزله ، بل كل شيء يحملك على أن تعجب بغزله ، فطبيعتك تحبب اليك ذكر النساء والتغزل بهن . واذا أسرف ابن أبى ربيعة فتجاوز الخلق أو الدين فليس فى هذا الإسراف خروج عن الطبيعة أو تجاوز لها ؛ وإنما هو جزء من الطبيعة أو قل إنه الطبيعة بنفسها جاء الدين والأخلاق لتقييدها وإصلاحها .

أبو نواس اذن مجيد حين يتغزل بالغلمان . ولكنه فاتر أو كاذب أو متكلف حين يتغزل بالنساء ، وهو على كل حال لا يصف حين يذكرهن عاطفة قوية فى نفسه أو حبا صحيحا ، وإنما يصف ضروبا من اللهو وفنونا

من المجون ، وقد يصف أحدنا الحب فيحسن الوصف لا لأنه يشعر به بل لأنه شاعر مجيد يتكلف الشيء فيحسنه احياناً .

وقد يمتاز غزل أبي نواس بشيء فسرته في الفصل الماضي وهو أنه لم يتغزل بحرة وإنما وقف غزله كله على الإماء ، وذلك واضح فقد عرفنا أنه يكره الزواج وعرفنا أنه كان ماجنا مسرفا في المجون فلم يكن من السهل عليه ولا من الميسور له أن يخالط الحرائر أو يتحدث اليهن حين كان من اليسير عليه أن يداعب الإماء ويسرف في مداعبتهن ؛ ولا سيما بعد ماقدمت لك في الفصل الماضي من رقي الأمة في هذا العصر وتفوقها على الحرة وتهالكها على اللهو والمجون . فاذا عرفنا هذا كله وأنزلنا غزل أبي نواس بالنساء منزلته الصحيحة كان من اليسير أن نتبين شيئاً مما في هذا الغزل من جودة اللفظ والمعنى ، لا على أن نتخذ هذه الجودة مقياساً لنبوغ أبي نواس في الشعر أو لصدقه في الحب ، فاذا أردنا أن نبحث عن مقياس لذلك فليس أمامنا إلا وصفه للخمر وغزله بالغلمان ؛ وإنما نبحث عن غزله بالنساء لنعرف شيئًا من أخلاق العصر ومن أخلاق الإماء فيه ، ولنعرف أيضاً شيئًا من ظرف النساء في بغداد ، وإن شئت فقل : من ظرف الغزل بالنساء في بغداد . ولهذه الأشياء قيمتها في الأدب وفي التاريخ .

وانظر الى هذا العبث الذى يمثل الحياة البغدادية ، حياة المجون والدعابة تمثيلا صحيحاً :

أرسل من أهوى رسولا له إليّ والمنسوب محبوب
فقلت: أهلا بك من مرسل ومن حبيب زانه طيب

جشمته فى كلمة فانثنى ... وقال هـذا منك تجريب
مثلك لايعشق مثلى وقـد ... هام به بيضاء رعبوب
وجاءت الرسل بأن ائتنا ... فجئتها والقلب مرعوب
قالت : تعشقت رسولى لقد ... بدت لنا منك الأعاجيب
ذاك وهـذا لك يا غادرا ... فى دفـتر الحاصل مكتوب
من يأمن الذئب على معزة ... أهـل لأن يخفره الذيب
فقلت فى رفق وفى تؤدة ... مقالة قد قال يعقوب
الذئب لايؤمن لكنه ... عليه فى يوسف مكذوب
ثم طرحوا يوسف فى جبـه ... عمـداً وقالوا خانه الذيب

أترى اليه كيف كان يحب صاحبته حبًا قويا صادقا حتى خانها فى رسولها فداعب هذا الرسول ، وهو يعترف بهذه المداعبة فيما بينه وبينك ، ولـكنه حين يلقى حبيبته ويريد أن يدافع عن نفسه يضع نفسه موضع الذئب فى قصة يوسف ؛ ولـكن أعجب من هذا أن تـكتفى صاحبته منه بهذا الدفاع ، بل أن تلومه فى هذا الرفق واللين ، ولـكننا فى بغداد وبين قوم يلهون لا اكثر ولا أقل .

وانظر الى هذه الأبيات الأخرى التى يسخر فيها من نفسه فيحسن السخرية :

وقصرية أبصرتها فهويتها ... هوى عروة العذرى والعاشق النهدى
فلما تمادى هجرها قلت : واصلى ... فقالت بهذا الوجه ترجو الهوى عندى
فقلت لها لو كان فى السوق أوجه ... تباع بنقد حاضر وسوى نقد

لغيرت وجهى واشتريت مكانه ... لعلك أن تهوى وصالى من بعد
وان كنت ذا قبح فإنى شاعر ... فقالت: ولو أصبحت نابغة جعدى

ثم انظر الى هذا الظرف

سألتها قبلة ففزت بها ... بعد امتناع وشدة التعب
فقلت بالله يامعذبتى ... جودى بأخرى أقضى بها أربى
فابتسمت ثم أرسلت مثلا ... يعرفه العجم ليس بالكذب
لاتعطين الصبىّ واحدة ... يطلب أخرى بأعنف الطلب

وانظر الى هذه القصيدة التى لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها بغدادية ، لأنها تمثل رقة بغداد وتمثل هذه النزعة الدينية التى تجدها فى العامة والتى تحملهم على أن يقسموا بالقرآن وسور القرآن وبالحج ومناسك الحج حين ينبغى أن يقسموا بشىء آخر :

مالى وللعاذلات ... زوقن لى ترهات
سعين من كل فج ... يلمن فى مولاتى
يأمرنني أن أخلّى ... من راحتىّ حياتي
وذاك مالا ولالا ... يكون حتى الممات
والله منزل طه ... والطور والذاريات
الر وصاد وقاف ... والحشر والمرسلات(١)
ورب هود ونون ... والنور والنازعات
لارمت هجرك حتى ... حتى وإن لم تواتى

(١) يريد ألف لام راء وهو مفتتح سور من القرآن

تجمعوا علمونى يا إخوتى كيف آتي
يا ويلتا أى شىء بين الحشا واللهاة
من لوعة ليس تطفى تطير فى جانحاتى
أنا المعنى ومن لى يرثى لطول شكاتى
الظاهر العبرات الباطن الزفرات
منيت بالمتحرى فى كل أمر مساتى(١)
يا سائلى عن بلائى أنظر الى لحظاتى
يخفى الهوى فى سكون الـ ـمحب والحركات
والله لو كنت أعمى عرفت فى سحناتى
حلفت بالراقصات فى لجة الفلوات
ومتن بالهدايا يطعن فى اللبات
وما توافى بجمع والشعب فى عرفات
لو جاء منك رسول يقول : نفسك هات
لقلت : هاك خذنها مسلما لوفاتى
ويلاه نار التصابى رقت الى اللهوات
فأبكت العين مني بمثل ماء الفرات
وصاحب كان لى فى هواى ذا تهمات
لم يطلع طلع شأني الا اتهام هناتي
فبينما نحن نمسى نسيح فى الطرقات

---

(١) يريد مساءتى

اذ قيل شمس ضحاها ... في أربع عطرات
فقلت شمس وربي ... قد جلت الظلمات
وقد نسيت الذى بى ... منها من الكربات
لريح حب جرت لى ... فانشأت عبراتى
وانزفت ماء عينى ... وأصعدت زفراتي
وقد تغير لونى ... كمثل نقس الدواة
فالحب فيه هناة ... موصولة بهناة
يعقبن طوراً سروراً ... وتارة حسرات

ألست ترى أنه قد أحسن التحدث الى النساء بلغة النساء ولهجة النساء ولقد أراد أن يسلك سبيل امرىء القيس وعمر بن أبي ربيعة فيما كانا يقصان من زيارتهما لعشيقاتهما فقال فى ذلك شعرا لا بأس به . ولكن لا أروى لك منه الا هذين البيتين لأن فى أولهما إيجازا ظريفا ، وفى الآخر تمثيلا لأمر بغداد :

فكدنا ولما ، غير أن شفاهنا ... تعاطت خليطى سكر وعقار
وودعتها صبحا ولم أنس صدها ... وقد بادلتني خاتما بسوار

وانظر اليه كيف يمازح صاحبته ويتمني عليها الوصل وينكر عليها الهجر ويعدها بألا يكون ثقيلا ولا مطيلا إن وصلته ؛ كل ذلك فى بيت واحد ظريف وهو :

فراجعي الوصل فإن زرتكم ... قدر فواق فاحلقى راسى

وانظر إلى هـذه الابيات التى لا أصفها إلا بأنها تصلح للغناء اذا

أسقطت منها بيتا واحدا لأن لفظ الانقاس فيه غريب قد نستثقله :

إني عشقت وما بالعشق من باس ... ما مر مثل الهوى شيء على راسي
مالى وللناس كم يلحونني سفها ... ديني لنفسي ودين الناس للناس
ما للعداة اذا ما زرت مالكتي ... كأن أوجههم تطلى بأنقاس
الله يعلم ما تركى زيارتكم ... الا مخافة أعدائي وحراسي
ولو قدرنا على الإتيان جئتكم ... سعيا على الوجه أو مشيا على الراس
وقد قرأت كتابا فى صحائفكم ... لا يرحم الله الا راحم الناس

ولأبي نواس من هذا شيء كثير لا أستطيع أن أرويه وتستطيع أنت أن تقرأه فى ديوانه ، فتجد فيه ماشاء الله أن تجد من ألوان الكذب والغرور والدعابة والمجون والعبث بكل شيء ، وتجد فيه من القصص مايلذ ومايضحك. ولكنى قلت لك إن أبا نواس يمتاز فى غزله بأنه كاذب . وأريد أن أختم هذا الفصل ببيتين يشهدان عليه بأنه كاذب فى غزله وبأنه انما يتكلف الغزل بالنساء ليرضي حاجته الفنية أو ليخدع النساء عن أنفسهن . على أن أحد هذين البيتين فى نفسه حكمة صادقة يحسن أن يفكر فيها كثير من الناس

يا من يوجه القاظى لا قبحها ... لانه ساحر العينين معشوق
لو كان من قال نار أحرقت فمه ... لما تفوه باسم النار مخلوق

وسأحدثك فى الفصل الآتي عن شعر أبي نواس فى الصيد والطرد

جد أبى نواس [١]

المـدح

وما رأيك فى أن نترك القديم والجديد ، وكلاهما لن يفيد ، ونعود الى أبى نواس فنستأنف البحث عن شعره بعد أن انصرفنا عنه حينا طويلا . على أنا حين نستأنف البحث عن شعر أبى نواس لن نترك القديم والجديد وإنما نوغل فيهما إيغالا ، فلقد كتبنا عن أبى نواس فى السنة الماضية فصولا طوالا أثبتت ـ فيما نعتقد ـ أنه صاحب الجديد وحامل لوائه ، وأنه خصم القديم وأشد اعدائه ، حتى خيل الى الناس أن الأسباب كانت قد انقطعت بين هذا الرجل وبين الأدب العربى القديم ، وأنه كان يريد أن يهدم كل شىء ويبنى على أنقاضه شيئا آخر ، فمن الناس من أحب أبا نواس لهذه الخصلة لأنها صادفت فى نفسه هوى وفى قلبه ميلا ، ومن الناس من كره أبا نواس لهذه الخصلة لأنه من أنصار القديم المشغوفين به الملحين فى البكاء عليه . ولكن أبا نواس خليق بان يحبه أولئك وهؤلاء معاً ، لأنه على حبه للجديد وإلحاحه فى الدعوة اليه كان محبا للقديم ملحا فى الحرص عليه كأنه كان يعرف أن الناس سينقسمون الى فريقين مختلفين ، وكان يحرص على أن يأخذ من رضا كليهما بنصيب ، وما لنا نتحدث بشىء من ذلك وقد قلنا ألف مرة ومرة إن انقسام الناس إلى أنصار الجديد وأنصار القديم فطرة فى الناس تلزمهم فى كل زمان ومكان إن كان لهم حظ من حياة ؟

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٣ رجب سنة ١٣٤٢ هـ — ٢٨ فبراير سنة م ١٩٢٤

وقد كان الناس أحياء أيام أبي نواس ، فكان منهم محب الجديد وكان منهم محب القديم ، وكانوا جميعاً أقوياء فى حبهم . وكان من المعقول أن يتحدث اليهم جميعاً شاعر كأبى نواس بما يحبون وما يفهمون . بل مالنا نذكر شيئاً كهذا ونحن نعلم أن الشاعر المجيد والكاتب البارع مهما يسرفا فى حب الجديد والتهالك عليه فهما لم ينشآ من لا شيء وهما لن يستطيعا أن يقطعا الصلة بينهما وبين القديم الذي غذاهما وأنشأهما . فهما بطبيعة الحال يمثلان الجديد الذى يصبوان اليه ويمثلان القديم الذي نشآ منه . ولقد كان أبو نواس من أكثر الشعراء رواية للقديم وحفظا له . قالوا إنه تحدث عن نفسه أنه روى لستين امرأة ، فكيف بالرجال ؟ ولسنا نستطيع أن نتصور أبا نواس إلا على أنه قد حفظ أو قرأ ما كان يرويه أئمة الشعر واللغة من شعر الجاهليين والإسلاميين وأحاديثهم . وليس من اليسير ولا من الممكن أن يخلص أبو نواس من هذا كله فيكون جديداً صرفاً فى كل ما يقول .

فاذا تحدثنا عن أبي نواس فنحن نتحدث عن القديم والجديد ؛ ولن نستطيع ان نتحدث عن شاعر مجيد حقا أو عن كاتب بارع حقا إلا اذا تحدثنا عن القديم والجديد ؛ لأن إجادة الشعر والبراعة فى الكتابة يستلزمان شيئين لا بد منهما ، الاول الاحتفاظ بالخير من القديم ، والثانى استغلال الجديد واجتناء ثمراته الطيبة . ففى الشاعر المجيد والكاتب البارع شخصان أحدهما قديم والآخر جديد ، أو فيهما شخصية واحدة هى المزاج المعتدل لاتصال القديم بالجديد ونشوء أحدهما عن الآخر .

على أن الحياة في عصر أبي نواس كانت تضطر هذا الشاعر وأصحابه الى أن يظهروا مظهرين يكادان يختلفان اختلافا تاما : أحدهما مظهر المجدد المسرف فى التجديد . والآخر مظهر الحريص على القديم المسرف فى الاستمساك به . ذلك أن أبا نواس وأصحابه كانوا يعيشون عيشتين مختلفتين : إحداهما عيشتهم الخاصة يعكفون فيها على لذاتهم ويفرغون فيها لحاجاتهم المادية والمعنوية المختلفة فيتصلون فيها بعامة الناس وأوساطهم وأصحاب الحرف والصناعات منهم ويتصلون فيها أيضا بأولئك الذين كانوا يقومون على اللذات يبيحونها للناس ويمهدون لهم أسبابها ووسائلها من الخمارين والمغنين والحسان من الذكور والإناث ، فيتحدثون الى هؤلاء الناس جميعا لغة يفهمونها ويذوقونها ، وتعبر حقا عما يجدون ويشعرون . وأما عيشتهم الثانية فهى تلك العيشة المتصلة بالأمراء وأشراف الناس فى حياتهم الظاهرة الرسمية إن صح هذا التعبير ، وهم فى هذه العيشة مضطرون أن يتخذوا ما ألف الناس من شكل وصورة ترضاهما الأخلاق وتقرهما النظم الاجتماعية والسياسية ، وهم مضطرون الى أن يتحدثوا الى أمراء الناس وأشرافهم لغة شريفة مختارة ترتفع عن الابتذال وتبرأ من تافه القول ، وربما اشتد فيها التكلف وعظم حظها من التصنع . كانوا مضطرين اذن الى أن يصدقوا فى حياتهم الأولى ، ويتكلفوا الكذب والنفاق فى حياتهم الثانية. وهذا دأب الأجيال المختلفة ، فلك فى بيتك وبين أصدقائك وخلانك عيشة ولغة تخالفان كل المخالفة أو بعضها عيشتك ولغتك حين تكون الصلة بينك وبين الناس عامة ، وحين تكون الصلة بينك وبين الكبار والزعماء

خاصة ، فليس عجيبا إذن أن تقرأ لأبي نواس في الخمر والمجون والغزل وما يشبه ذلك هذا الشعر الرقيق العذب الذي هو مرآة النفس حقا والصورة الصحيحة الجلية للعواطف والشعور ، هـذا الشعر الذى رق لفظه ودق معناه ، وبرئ من التكلف وانحط في بعض الأحيان حتى كاد يبعد عن الفصاحة المأثورة ، وليس عجيبا أن تقرأ لأبي نواس شعرا آخر قد قوى متنه واشتد أسره وتخيرت فيه الالفاظ تخيراً دقيقاً وتقيد فيه الشاعر بطائفة من القيود اللفظية والمعنوية والعروضية ما كان ليتقيد بها في شعره الآخر .

وفي الحق أنك ترى أبا نواس حين يذكر الخمر والغزل والمجون وما يشبه ذلك من فنون الشعر لا يكتفي باطلاق العنان لشعوره وعاطفته وإيثار اللفظ السهل العذب للمعنى الرقيق الحلو ، وإنما يضيف الى ذلك شيئاً آخر ، فهو يؤثر من الأوزان الشعرية أخفها وأقصرها وأيسرها على الأذن وأقربها من النثر وألينها قيادا للمعنى . فاذا تحدث الى الأمراء والأشراف عمد الى اللفظ الضخم الفخم ، والى الاسلوب المتين الرصين ، والى الأوزان الطوال التي لا تخلو من فخامة وجلال فاتخذها وسيلة للتعبير عما يريد أن يتحدث به الى هؤلاء الناس ، وكأن فنون الشعر كانت تنقسم الى ضربين مختلفين : أحدهما هذا النحو الذى يقصد به الى وصف اللذات وأهواء النفس وعواطفها وفي هذا الضرب من الشعر كان الشاعر حراً يرسل نفسه على سجيتها فلا يكاد يتقيد بشيء ، من ذلك الغزل والمجون ووصف الخمر والهجاء. والآخر هذا النحو الذى يقصد به الى الجد وفنونه من مدح ورثاء ووصف وفخر ، وفي هذا النحو يتخير الشاعر أشرف اللفظ ، ويتقيد في الوزن والقافيـة

والأسلوب بقيود ترفعه عن متناول العامة وتكسبه شيئاً من الارستقراطية يلائم الموضوع الذى يقول فيه . ولقد تحاول أن تقارن بين أبي نواس حيث يمجن ويتغزل ويصف الخمر ويهجو ، وحين يمدح أو يرثى أو يفخر فلا تكاد تشعر بوجه للمقارنة ، وانما يظهر الفرق عظيما بين الرجلين . وأنت مضطر الى أن تكون ناقدا بصيراً لتتميز شخصية الشاعر فى هذين الفنين المختلفين من الكلام ، بل أنا أذهب الى أكثر من هذا فأزعم أن شخصية الشاعر تنمحى أو تكاد تنمحى فى هذا الشعر الجدى بحيث تلتبس أشخاص الشعراء على غير النقاد العليمين بضروب الشعر ، حين تظهر هذه الشخصية ناصعة جلية كل الجلاء فى فنون الهزل واللعب بحيث يشعر بها ويحسها الناقد وغير الناقد ، بل أزعم أن من اليسير أن تضيف مدح أبي نواس أو فخره الى غير أبي نواس من الشعراء المجيدين ، وأن تضيف الى أبي نواس من مدح مسلم ووصفه وفخره دون أن يكون خطؤك عظيما من الوجهة الفنية لأن هنالك مثلاً أعلى من الإجادة والإتقان قد وضعه الشعراء امامهم فهم يحتذونه ويتأثرونه ، وهذا المثل الأعلى انما هو أسلوب القدماء من الجاهليين والإسلاميين فاذا أحسنوا تأثر هذا الأسلوب وتقليده فهم راضون .

ومالى لا أقيم الدليل على ما أقول ؟ فانظر الى هذه الأبيات من شعر أبي نواس الجدى ، وحدثنى أترى فيها شخصية الشاعر بارزة واضحة ؟ ثم حدثنى أتكاد تصدق أن قائل هذا الشعر هو الذى رويت لك عنه فى السنة الماضية ما رويت من العبث والمجون :

لما نزعت عن الغواية والصبا　　　وخدت بى الشدنية المذعان

سبط مشافرها دقيق خطمها وكأن سائر خلقها بنيان
واحتازها لون جرى فى جلدها يقق كقرطاس الوليد هجان

هو يصف ناقته التى حملته الى ممدوحه الرشيد ، فيجب أن يسلك فى وصف الناقة تحمله الى ممدوحه طريق غيره من الشعراء الذين حملتهم النوق الى الملوك والأمراء ، وليس يعنيه أن يفهمه عامة الناس ، وانما يعنيه أن يتحدث الى أشراف الناس أشرف اللغة ، بل ليس يعنيه أن يكذب ، فلعله لم يركب الى الرشيد ناقة ولم تحمله الى الرشيد الا قدماه ، ولكنه مضطر أن يسلك مسالك جرير والفرزدق والأخطل والشماخ وغيرهم من الشعراء الذين كانوا يتكلفون الأسفار الطوال ليبلغوا من يمدحون . ثم قارن بين الشعر الذي لا تكاد تفهمه حتى تستشير معاجم اللغة وبين قوله .

دمعة كاللؤلؤ الرط ب من الطرف الكحيل
ذرفت فى ساعة البـ ين على الخد الأسيل
انما يفتضح العشـ ـاق فى وقت الرحيل

أتجد فى هذا الشعر لفظا غريبا أو معنى عويصا ؟ أتشعر بأن بينك وبين قائل هذا الشعر من بعد الأمد ما بينك وبين قائل تلك الابيات الثلاثة فى وصف الناقة ؟

ثم أريد أن أروى لك من جد أبى نواس هذه القصيدة التى سيعسر عليك فهمها عسرا شديدا كما عسر فهمها على غير واحد من علماء اللغة وأصحاب النحو ، وقد قالها يمدح بها العباس بن عبد الله بن أبى جعفر المنصور أمير المؤمنين .

أيها المنتاب من عفره   لست من ليلى ولا سمره
لا أذود الطير عن شجر   قد بلوت المر من ثمره
فاتصل إن كنت متصلا   بقوى من أنت من وطره
خفت مأثور الحديث غداً   وغد أدنى لمنتظره
خاب من أسرى الى بلد   غير معلوم مدى سفره
وسدته ثنى ساعده   سنة حلت إلى شفره
فامض لا تمنن علىّ يدا   منّك المعروف من كدره
رب فتيان ربأتهم   مسقط العيوق عن سحره
فاتقوا بى مايريبهم   إن تقوى الشر من حذره
وابن عم لايكاشفنا   قد لبسناه على غمره
كمن الشنآن فيه لنا   ككمون النار فى حجره
ورضاب بت أرشفه   ينقع الظمآن من خصره
عنيه خوط اسلحة   لان متناه لمهتصره
ذا ومغبر مخارمه   تحسر الأبصار عن قطره
لا ترى عين البصير به   ما خلا الآجال من بقره

ثم يقول فى وصف الفرس:

يكتسى عثنونه زبداً   فتصيلاه الى نحره
ثم يعتم الحجاج به   كاعتمام الفوف فى عشره
ثم تذروه الرياح كما   طار قطن الندف عن وتره
كل حاجاتى تناولها   وهو لم تنقض قوى أشره

ثم يتخلص الى صاحبه فيقول .

ثم أدناني الى ملك يأمن الجاني الى هجره

تأخذ الأيدى مظالمها ثم تستذرى الى عصره

كيف لايدنيك من أمل من رسول الله من نفره

فاسل عن نوء تؤمله حسبك العباس من مطره

ثم يقول :

واذا مج القنا علقا وتراءى الموت فى صوره

راح فى ثنيى مفاضته أسد يدمى شبا ظفره

تتأبى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

أفهمت من هذه الأبيات شيئاً كثيراً ؟ ألا تكاد تشعر أن أبا نواس قد أسرف فى إيثار الغريب حتى كأنه أراد أن يبهر أبا عبيدة والاصمعى وأمثالهما وأن يحير أصحاب النحو والعروض بما تكلف من غموض وبما ركب من ضرورة شعرية ؛ وفى الحق أن اللغويين تعبوا فى تأويل بعض هذه الأبيات ، وما أظن أنهم اتفقوا على تأويل قوله .

كن الشنآن فيه لنا ككمون النار فى حجره

فان مرجع هذا الضمير المذكر ليس بالواضح ولا الجلى وان كان المعنى فى نفسه واضحاً جلياً

أليس معقولا أن يقول بعض أئمة اللغة فى أبي نواس : لولا مجونه وفسوقه لاحتججنا بشعره ؛ ففي هذا الشعر وأمثاله مايرضى أنصار الغريب والمشغوفين به ، ومع ذلك فهذه القصيدة على غرابتها وخشونة مركب

الشاعر فيها من خير ماقال أبو نواس ، فيها من دقيق المعنى وشريفه مالا تكاد تجده فى مدائحه الأخري ، ثم فى لفظها وقوافيها بنوع خاص جمال تشعر به وتميل اليه دون أن تستطيع تفسيره فى سهولة ويسر .

على أن أبا نواس قد تجاوز الحد فى إيثار الغريب أحيانا حتى كدت لاتفرق بينه وبين رؤبة والعجاج ، فانظر الى شيء من هذه الأرجوزة التى مدح فيها الفضل بن الربيع :

وبلدة فيها زور | صعراء تخطي فى صعر
مرت اذا الذئب اقتفر | بها من القوم الاثر
كان له من الجزر | كل جنين ما اشتكر
ولا تعلاه شعر | ميت النساء حتى الشفر
عفتها على خطر | وغرز من الغرر
ببازل حين فطر | يهزه جن الأشر
لا متشك من سدر | ولا قريب من جور
كأنه بعد الضمر | وبعد ما جال الضفر
وانعج فى غسر | جأب رباعى الثغر
يحدو بحقب كالأكر | ترى باثباج القصر
منهن توشيم الجدر | وعين ابكار الخصر

ثم يصل الى المدح فيقول :

. . . . . . | اليك كلفنا السفر
خوصا يجاذبن النحر | قد انطوت منها السرر

طى القرارى الحبر ۞ لم تتعقدها الطير

ولا النسيج المزدجر ۞ يافضل للقوم البطر

اذ ليس فى الناس عصر ۞ ولا من من الخوف وزر

ثم يمضى فى ذلك حتى يكاد يبلغ الإسراف شأن الذين ينحدرون من الرجز على سفح لا قرار له .

وقد كنت أريد أن أفسر لك شيئاً من هـذه الطلسمات ، ولكني أرى أن الصحف السيارة لا تتسع لتفسير الغريب الذى انما تتسع له المدارس والجامعات . على أنى لا أريد أن تيأس من أبى نواس فتعتقد أنه لا يؤثر الا الغريب فالحق أنه قد آثر الغريب احيانا وآثر السهل اللين احيانا أخرى

ولقد تجد من مدائح أبي نواس ما فيه مجون ودعابة لا حيطـة فيها ، ولقد تجد من مدحه مافيه مجون مع احتياط . وأحسب أن فهم ذلك وتعليله ميسور ان اذا عرفنا الأشخاص الذين مدحهم أبونواس ، فقد مدح اشخاصا لم يكن من السهل عليه أن يبتدىء مدحهم بالمجون أو أن ينزل فى مدحهم عما ألف الشعراء من فخم اللفظ ورصينه ، ومدح اشخاصا آخرين كان من الحق له أن يتفكه معهم ويتجاوز الفكاهة الى الدعابة ، فهو جاد حريص اذا مدح الرشيد ؛ وهو يتردد بين الجد والهزل اذا مدح الأمين . ولعله انما اجترأ على الهزل فى مدح الأمين بعد أن اتصل به وكثر اختلافه الى مجالس لهوه وشربه . وهو يتردد كذلك بين الهزل والجد حين يمدح هذا الأمير السمح الذى كان يطمع فيه الشعراء ويدلون عليه وهو العباس بن عبدالله بن أبى جعفر . وكثيراً ما يداعب هذا الوزير الخطير الذى كان يهابه أيام

الرشيد ثم طمع فيه أيام الأمين حين لان الخليفة له ويسر عليه فى أمور كان يعسر فيها الرشيد وهو الفضل بن الربيع

ولم يكن أبو نواس يشفق من التصريح بالمجون والفسوق حين كان يعرض لمدح شابين عظيمين ، هما العباس ومحمد ابنا الفضل بن الربيع هذا لم يكن يرى مكانا للكلفة بينه وبين ابني صديقه ونديمه الذى كثيراً ما خلصه من غضب الأمين وشفع له فى مواقف حرجة اضطره اليها المجون

وأبو نواس صادق اللهجة حين يمدح هؤلاء الناس جميعا ؛ لانه كان يحبهم ويدلّ عليهم ويطمع فى الخير منهم . ولكنه متكلف متصنع حين يمدح البرامكة ؛ لان ميله اليهم لم يكن الا بمقدار طمعه فيهم . وكأن البرامكة كانوا يشعرون منه بذلك فيحتملونه احتمالا ولا يضمرون له حبا صحيحا . أما الصلة بينه وبين الخصيب فسنعرض لها بشيء من التفصيل فى غير هذا الفصل .

ولكنا لا نريد أن نتركك على ما روينا لك من هذا الشعر الغريب فنتم مقال اليوم بهذه الابيات التى مدح بها أبو نواس العباس بن عبد الله ابن أبي جعفر :

غرد الديك الصبوح	فاسقنى طاب الصبوح
واسقني حتى ترانى	حسنا عندى القبيح
قهوة تذكر نوحا	حين شاد الفلك نوح
نحن نخفيها ويأبى	طيب ريح فتفوح
فكأن القوم نهى	بينهم مسك ذبيح

أنا فى دنيا من العبا   س أغدو وأروح
هاشمى عبدلى   عنده يغلو المديح
علم الجود كتاب   بين عينيه يلوح
كل جود يا أميرى   ما خلا جودك ريح
انما أنت عطايا   أبداً لا تستريح
بح صوت المال مما   منك يشكو ويصيح
ما لهذا آخذ فو   ق يديه أو نصيح
جدت بالاموال حتى   قيل ما هذا صحيح
صور الجود مثالا   وله العباس روح
فهو بالمال جواد   وهو بالعرض شحيح

خاتمة القول في أبي نواس (١)

المدح ـ الرثاء ـ الهجاء ـ الزهد

فصلنا القول فى هزل أبى نواس ومجونه تفصيلا ، ونحن مضطرون الى ان نجمل القول فى جده اجمالا ، لا لانا نؤثر هزل أبى نواس على جده ولا لانا نريد ان نتملق هذا الميل العام الذى يحمل جمهور القراء ان يؤثر الهزل على الجد ويفضل ما يسر ويلهى على ما ليس له حظ من السرور واللهو بل لانا نعتقد أن شخصية أبي نواس فى حقيقة الامر إنما هى شخصية شاعر هازل ماجن تظهر الظهور كله اذا هزل أو مجن أو حاول الاستمتاع باللذات والتغنى بآثار هذه اللذات فترى فيها خفة ونشاطا وشيئاً يشبه النزق أو هو النزق . ونرى فيها جرأة غريبة وحرصاً قليلا جدا على الاحتياط وصراحة لا تعد لها صراحة . فلعلك تذكر ما روينا لك من شعره فى الخمر والمجون والنساء . ولعلك تذكر أن حظ هذا الشاعر من الصراحة وازدراء الدين والخلق والادب الموروث عظيم . ومع ذلك فقد تخيرنا هذا الشعر الذى رويناه لك تخيرا دقيقاً وراعينا فيه اخلاق الناس فى هذا العصر وميولهم وحاجة الشباب الى القول الطاهر البرىء . وراعينا فيه مع ذلك شعور المتشددين فى الدين والمستمسكين بالادب القديم ، أولئك الذين يسميهم ابن قتيبة المتزمتين ، راعينا هذا كله فيما روينا لك من شعر أبى نواس فى اللهو والمجون ، ولم نسلم مع ذلك من نقد الناقدين وإنكار المنكرين ، وغلو

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٠ شعبان سنة ١٣٤٢ هـ ـ ٢٦ مارس سنة ١٩٢٤م

قوم اتهمونا بألوان من التهم وأضافوا الينا ضروباً من الخروج على الدين والاخلاق والكيد لتاريخ الأمة العربية المجيد.

ولو اننا روينا لك من شعر أبي نواس في العبث والدعابة وفي اللهو والمجون دون تحفظ ولا احتياط لمثلنا لك شخصيته على وجهها ولكننا مؤرخين حقا، ولكننا كنا نتعرض لما لا نحب من إفساد الذوق والاساءة الى الاخلاق. فابو نواس شاعر خطر لا ننصح بقراءته الا لطائفة خاصة من الناس يستطيعون أن يقرءوا ويحكموا دون أن يتأثروا أو يقلدوا.

شخصية أبي نواس شخصية شاعر ماجن قبل كل شيء. وبعد كل شيء. ونحسب أن هذا الرجل لو خلي وطبعه ولم تضطره الظروف السياسية والفنية والمعاشية — إن صح هذا التعبير — الى أن يصطنع الجد من حين الى حين لكان شعره كله هزلا ومجونا. وما رأيك في رجل لم ينظر في يوم من الايام الى الحياة الا من حيث هي سبيل من سبل اللذة ووسيلة من وسائل اللهو. ولم يجد الا ليستعين بجده على الهزل: أفتظنه مدح لأنه كان يحب ممدوحيه أو يكبرهم؟ أو لأنه كان يحب المدح ويميل اليه؟ كلا! انما مدح الخلفاء والوزراء والامراء؛ ليتخذ مدحهم وسيلة الى مدح الخمر، أو قل ليتخذ مدحهم وسيلة الى شرب الخمر والاستمتاع بها وبما تستتبع من اللذات. مدحهم لانه كان في حاجة الى ما يرزقونه من المال، ومدحهم لأنه كان في حاجة الى أن يتملقهم ويتقى شرهم، مدحهم مستجديا ومدحهم متقيا. ولعله لم يخلص في مدح واحد من هؤلاء الا نفراً نستطيع أن نتعرفهم اذا نظرنا في تاريخهم من جهة وفي سيرة أبي نواس معهم من

جهة أخرى . لم يخلص أبو نواس فى مدح الرشيد ، وانما مدحه مستجديا أو متقيا . ولم يخلص أبو نواس فى مدح البرامكة ، وأخلص ابو نواس فى مدح الامين ، لا لأنه كان يكبر الامين ويجله ، بل لأنه كان ينادم الامين ويرى فيه خليلا على الشرب وصديقا على اللذة . وكثيرا ما كان يسخر من الامين اذا سنحت له الفرصة ، وقد هجا الامين غير مرة . وقل مثل ذلك فى مدحه للفضل بن الربيع وزير الامين ، وقل مثل ذلك فى مدحه لابناء الفضل بن الربيع فقد كان هؤلاء جميعا أصدقاءه وندماءه كما أنهم كانوا حماته ورازقيه . وقل مثل ذلك فى مدحه للخصيب فقد بلغ الخصيب من الإنعام على أبى نواس والانبساط له حدا عظيما . ويروون أن أبا نوس كان يشرب مع الخصيب حتى يمعن فى السكر ويفقد الرشد ويأتى من المنكرات ما يأتيه السكارى اذا انتهوا من سكرهم الى الحد الاقصى ويذكرون أنه قال قصيدته المشهورة فى الخمر التى مطلعها :

يا شقيق النفس من حكم   نمت عن ليلى ولم أنم

وهو فى شر حال . . .

ومن هنا لا تكاد تحس الاخلاص فى مدح ابى نواس ، وانما هو شىء متكلف تظهر فيه الصنعة ويستخفى فيه الطبع . وقد تحسن هذه الصنعة حينا وقد تسوء حينا آخر ، وهى على كل حال ميالة الى الاسراف والمبالغة وقليل فيها التجديد وكثير فيها الاعتماد على القدماء ومشاركة الشعراء فى هذه الصفات الشائعة التى كانوا يقدمونها الى الخلفاء والوزراء يستجدون بها المال . فانظر الى هذه الابيات التى يقولها أبو نواس فى مدح الرشيد :

والى أبي الامناء هارون الذي   يحيي بصوت سمائه الحيوان
ملك تصور في القلوب مثاله   فكأنما لم يخل منه مكان

فاما أول هذين البيتين فشائع مشترك المعني ولكن جماله لفظى . وأما الثاني فلا يخلو من دقة ولا من جمال، ولكن انظر الى ما يقول بعد ذلك .

هارون ألفنا ائتلاف مودة   ماتت لها الأحقاد والأضغان
فى كل عام غزوة ووفادة   تنبتُّ بين نواهما الأقران
حج وغزو مات بينهما الكري   باليعملات شعارها الوخدان
يرمى بهن نياط كل تنوفة   فى الله رحّال بها ظعان
حتى اذا واجهن أقبال الصفا   حن الحطيم وأطت الاركان
لأغر ينفرج الدجى عن وجهه   عدل السياسة حبه إيمان
يصلى الهجير بغرة مهدية   لو شاء صان أديمها الاكنان
لكنه فى الله مبتذل لها   ان التقىّ مسدد ومعان

أفترى فى هذا الكلام كله شيئاً قيما أو معني طريفا ؟ أفتؤمن له باكثر من الجمال اللفظى يلقاك من حين الى حين ؛ ثم ألست تضع يدك على الصنعة ؟ ألست تتبين التكلف واضحاً جليا ؟ ثم انظر الى هذين البيتين فهما لا يخلوان من جمال ولكن التكلف فيهما ملموس .

الفت منادمة الدماء سيوفه   فلقلما تحتازها الاجفان
حتى الذى فى الرحم لم يك صورة   لفؤاده من خوفه خفقان

ويظهر أن أبا نواس قد أحب هذا المعنى وأعجب به فاعاده فى قصيدة أخرى مدح فيها الرشيد ، ولكنه كان فيها أقرب الى الإجادة وأبعد عن

التكلف ، وذلك حيث يقول :

ملك تطيب طباعه ومزاجه عذب المذاق على فم المتذوق
يلقى جميع الأمر وهو مقسم بين المناسك والعدو الموفق
يحميك مما تستضر بفعله ضحكات وجه لا يريك مشرق
حتى اذا أمضى عزيمة رأيه أخذت بسمع عدوه والمنطق

فهذا كله كلام عذب سهل ولكنه عادى مألوف . أما المعني الذى أشرنا اليه فى القصيدة الماضية فانظر اليه كيف صاغه أبو نواس أحسن صيغة :

انى حلفت عليك جهد ألية قسما بكل مقصر ومحلق
لقد اتقيت الله حق تقاته وجهدت نفسك فوق جهد المتقى
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

فانظر الى هذا البيت وقارن بينه وبين قوله

حتى الذى فى الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان

ألست ترى أنه أقل تكلفا فى اللفظ وأكثر صفاء فى الأسلوب ومع ذلك فالمعنى فى نفسه سخيف لأنه محال . وقد لاحظ القدماء ذلك واختلفوا فيه فمنهم من أنكر على أبى نواس هذه الإحالة ومنهم من أعجب بها . وأنا أشارك المنكرين فى إنكارهم وأوثر على هذا المعنى عند أبى نواس قول أشجع السلمى فى مدح الرشيد :

وعلى عدوك يا ابن عم محمد رصدان ضوء الصبح والإظلام
فاذا تنبه رعته واذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام

فهذا الشعر متين رصين وهو فى الوقت نفسه صحيح مستقيم

لا ينكره العقل ولا يذهب فيه الخيال الى غير حد ، وهو يمثل جلال الخليفة وسطوته أحسن تمثيل . ولعل أحسن مدح صدق فيه أبو نواس هو مدحه للخصيب ، فلا تكاد تقرأ هذا المدح حتى تحس أن الشاعر مخاص لا يتكلف ولا يتعمل وانما هو مغمور بنعمة الخصيب راض عن حياته في مصر سعيد بهذه الحياة.فشعره يصف هذا كله ويمثله تمثيلا صادقا ولست أروي لك القصيدة المشهورة

أجارة بيتينا أبوك غيور ... وميسور ما يرجي لديك عسير

ولكن أقرأ شيئاً من قصيدة أخرى لم يكثر الناس تناقلها .و انظر ألا ترى الشاعر فيها سعيداً مغتبطا يخامره عظيم الامل في مستقبله :

ذكر الكرخ نازح الاوطان ... فصبا صبوة ولاتَ أوان

ليس لى مسعد بمصر على الشو ... ق الى أوجه هناك حسان

اذ لباب الأمير صدر نهارى ... ورواحى الى بيوت القيان

واغتفالى المولى لاختلاس الغم ... زة ممن أحبه بالبنان

واعمالى الكؤوس في الشرب تسعى ... مترعات كخالص الزعفران

يا ابنتي أبشرى بميرة مصر ... وتمني وأسرفى فى الاماني

أنا فى ذمة الخصيب مقيم ... حيث لاتعتدى صروف الزمان

كيف أخشى على غول الليالى ... ومكانى منَ الخصيب مكانى

ثم يقول .

قادنى نحوك الرجاء فصدقـ ... ـت رجائى واخترت حمد لساني

انما يشترى المحامد حر　　طاب نفسا لهن بالأثمان

ولم لا يكون سعيدا ؛ ولم لا ينطق بهذا الشعر الجميل الصادق وهو يقضي نهاره وليله بين باب الامير ودور اللهو ؟

وكما أن مدح أبي نواس في أكثر الاحيان ليس بالصادق ولا الممتاز فرثاؤه قليل الخطر ، وربما كان أقل خطراً من مدحه ، وربما كان الرثاء أضعف شعر أبي نواس ، وهذا واضح فلم يكن أبو نواس رجلا محزونا ولا ميالا الى الحزن وانما كان رجلا مبتهجا بطبعه أو كان هو الابتهاج . فليس غريبا أن لا يجيد الرثاء ، وليس غريبا أن يتكلفه اذا اضطر اليه ، ثم لا ننس أن أبا نواس لم يستطع أن يطمئن الى حياة الزوجية ، وعجز الذين أرادوا أن يحملوه على الزواج فلم تكن له أسرة ولم يعش بين أبنائه وبناته فلم تنشأ في نفسه هذه العواطف الرقيقة التي تنشئها الحياة المنزلية الصالحة . وانما كان مقسم الحياة بين اللذات وضروب المزاح .

أما صلات المودة التي كانت تصل بينه وبين الناس فلم يكن أكثرها يقوم على الجد وانما كان يقوم على اللذات ، فكان أبو نواس مدينا لاصدقائه بالابتسام لا بالعبوس ، ومن هنا لا تكاد تشعر بشيء من الألم حين تقرأ مراثيه القليلة . وأنا أزعم أن أبا نواس لم يصدق في رثائه الا مرة واحدة وذلك حين رثي الامين في هذه الابيات :

طوي الموت ما بيني وبين محمد　　وليس لما تطوى المنية ناشرُ

فلا وصل الا عبرة تستديمها　　أحاديث نفس مالها الدهر ذا كر

وكنت عليه أحذر الموت وحده　　فلم يبق لى شيء عليه أحاذر

لئن عمرت دور بمن لا أوده   فقد عمرت ممن أحب المقابر

فاما غير ذلك من الرثاء فسخيف أو متكلف . ولست أشك فى أن أبا نواس كان يشعر بضعفه فى هذا الفن وكان مع ذلك يحاول أن يخفى هذا الضعف فكان يسلك الى اخفائه سبلا مختلفة أظهرها الاكثار من الوصف على نحو ما كان يغرق فيه الجاهليون من وصف الوحش والجبال وما الى ذلك

ليس لرثاء أبي نواس قيمة نخير ألاّ نطيل فيه ، وأن ننتقل الى فن آخر أجاد فيه أبو نواس اجادة مطلقة ليست أقل من اجادته فى الخمر ولا فى المجون لانه باب من المجون وهو الهجاء . على أننا نسرف اذا قلنا ان هجاء أبي نواس مجون كله ففي هجاء أبي نواس جد كثير وفيه هزل كثير ، ولقد كنا نريد أن نخصص للهجاء عند أبي نواس فصلا مطولا ولكنا مضطرون الى أن نعدل عن ذلك لان أكثر هذا الهجاء مملوء بفاحش القول ومقذعه فليس الى روايته من سبيل . فانكتف بأن نعطيك منه صورة موجزة جدا . ولنلاحظ قبل كل شىء أن هجاء أبى نواس ينقسم أقساما . فهناك الهجاء السياسى وهذا الهجاء نفسه ينقسم قسمين أحدهما هجاء أبى نواس للعرب عامة وللنذاريين خاصة ، فقد كان أبو نواس شديد الميل الى الفرس ، وكان لا يحب من العرب الا اليمانية : فاما النذارية فقد كان يزدريهم ويمقتهم كل المقت ، وكان ينالهم بأشد الشعر إقذاعا حتى يُروى أن الرشيد حبسه فى ذلك ، وكان لا يكاد يستثني قريشا فاذا فعل فمخافة السيف لأن النبوة والخلافة كانتا فى قريش . القسم الثانى من هجائه

السياسى هجاؤه للذين عاصروه من الأمراء والوزراء فقد كان أبو نواس يكره البرامكة وكان يكره الأمويين وكان ينال اولئك وهؤلاء بفاحش القول ، ولم يكن أبو نواس طيب النفس ولا رحيما اذا هجا أعداءه السياسيين وانما يظهر أنه كان شديد الضغن منكر الحقد . فانظر الى هذه الابيات التى هجا بها اسمعيل بن صبيح مولى الأمويين وكاتب الأمين :

ألا قل لاسماعيل إنك شارب ... بكأس بني ماهان ضربة لازم

أتسمن أولاد الطريد ورهطه ... بإهزال آل الله من نسل هاشم

وان ذكر الجعدى اذريت عبرة ... وقلت أدال الله من كل ظالم

وتخبر من لاقيت انك صائم ... وتغدو بجحر مفطرا غير صائم

فان يَسْر اسماعيل فى فجراته ... فليس أمير المؤمنين بنائم

فانظر الى هذه الوقيعة المنكرة ، ثم اقرأ هذه الابيات الاخرى فليست أقل نكرا مما روينا لك :

ألست أمين الله سيفك نقمة ... اذا ماق يوما فى خلافك مائق

فكيف باسماعيل يسلم مثله ... عليك ولم يسلم عليك منافق

أعيذك بالرحمن من شر كاتب ... له قلم زان وآخر سارق

أحيمر عاد ان للسيف وقعة ... برأسك فانظر بعدها ما توافق

تجهز جهاز البرمكيين وانتظر ... بقية ليل صبحه بك لاحق

وقسم آخر من هجاء أبى نواس تناول به العلماء من اللغويين وأصحاب النحو والكلام ، فقد هجا الهيثم بن عدى وهجا أبا عبيدة بهذين البيتين المنكرين ويروى أنه كتبهما على الحائط حيث كان يدرس أبو عبيدة

صلى الاله على لوط وشيعته أباعبيدة قل بالله آمينا
فانت عندى بلا شك بقيته منذ احتلمت وقدجاوزت سبعينا

وهجا النظام من المتكلمين بهذه الابيات :

قولا لابراهيم قولا هترا غلبتني زندقة وكفرا
ان قلت ما تشرب قال خمرا . . . .
أو قلت ما تترك قال برا أو قلت ما ترهب قال بحرا
أو قلت ما تقول قال شرا أصلاه ربى لهبا وجمرا

ولعلك تذكر انه كان يقصد الى النظام بقصيدته التى أولها : « دع عنك لومى فان اللوم اغراء » . والعجب أن هؤلاء العلماء الذين هجاهم أبو نواس كانوا يحبونه ويعجبون بشعره ولعل شيئاً من هذا الاعجاب مصدره الخوف فقد كان أبو نواس ينذر العلماء اذا احتاج الى ذلك ، ولما لم يجد له الكلبى نسبا فى أنساب العرب قال فيه :

أبا منذر ما بال أبواب مذحج مغلقة دونى وأنت صديقى
فان تعزنى يأتك ثنائى ومدحتى وان تأب لايسدد عليك طريقى

وقسم ثالث من هجاء أبى نواس هو هجاؤه لأصحابه من الشعراء والندامى فله فى الرقاشى وفى بنى نوبخت كلام كثير مقذع . وظاهر أن رجلا كأبى نواس قضى حياته بين الكاس والطاس فى لعب ومزاح كان من خفة الروح وتوقد الذكاء ودقة الفطنة بحيث كان يبلغ ما أراد اذا هجا فهو من اشد الشعراء فى عصره إقذاعا ومن اكثرهم نكاية بالخصم ، وفى هجائه ازدراء لا يعدله ازدراء ، ولقد أحب أن أذكر لك من ذلك شيئاً

قليلا فانظر الى قوله :

أمات الله من جوع رقاشا فلولا الجوع ما ماتت رقاش

ولو أشممت موتاهم رغيفا وقد سكنوا القبور اذاً لعاشوا!

وانظر الى قوله فى هجاء داود بن رزين راوية بشار

اذا أنشد داود فقل أحسن بشار

له من شعره الغثّ اذا ما شاء أشعار

وما منها له شيء ألا هذا هو العار

وانظر الى هذين البيتين :

بما أهجوك لا أدرى لسانى فيك لا يجري

اذا فكرت فى عرضك أشفقت على شعرى

وانظر الى قوله :

سيروا الى أبعد منتاب قد ظهر الدجال بالزاب

هذا ابن نوبخت له إمرة صاحب كتاب وحجّاب

وانظر الى قوله فى البرامكة :

إنىَ لولا شقاء جدى ما مات موسى كذا سريعا

ولا طوته المنون حتى أرى بنى برمك جميعا

هذا زمان القرود فاخضع وكن لهم سامعا مطيعا

وهذا أخف ما قال أبو نواس فى الهجاء . ونحن مضطرون أن نطوى عنك أجود هجائه لأنه قد بلغ من القبح كما قلنا حداً يحول بيننا وبين روايته

وفن آخر من فنون الشعر أجاد فيه أبو نواس إجادة مطلقة ، ولعله

أول من اتخذه فنا مستقلا من فنون الشعر فنظم فيه القصائد طوالها وقصارها وهو فن الصيد ، ولكني لا أحدثك عنه في هذا الفصل لأن أبا نواس قد آثر فيه الغريب ايثارا شديدا حتى أصبح من المستحيل أن تتسع له الصحف السيارة لشدة احتياجه الى الشرح والتفسير . ولعلي أوفق الى جمع هذه الفصول كلها في كتاب فأضيف اليها فصلا عن الصيد في شعر أبي نواس .

أما الفن الذى أريد أن أختم به القول في أبي نواس فهو من الزهد ، وقد أجاد فيه أبو نواس إجادة لا بأس بها وذلك مفهوم أيضا : فلو أنك أردت أن تتبين فلسفة أبي نواس لما استطعت الا أن تقول ان أبا نواس كان يزدرى الحياة ويسخر منها ، ولعلك تدهش اذا قلت لك انى أشبه أبا نواس بأبي العلاء ، تدهش لان أبا نواس مشرق مبتسم ، بينما أبو العلاء عابس مكتئب ، وتدهش لان أبا نواس رجل لذة وفجور بينما أبو العلاء رجل زهد وحرمان . ومع ذلك فابو نواس شبيه بأبي العلاء : كلاهما كان يزدرى الحياة ، وكلاهما كان يمقتها مقتا شديداً . وكل ما بينهما من الفرق أن أبا نواس كان يكره الحياة فيزدريها ويستعين عليها باللذة واللهو ، وان أبا العلاء كان يكره الحياة فيستعين عليها بالزهد والحرمان . وفي الحق أن المتشائين ينقسمون الى هذين القسمين : فمنهم متشائم يضحك ويلهو ، ومنهم متشائم يعبس ويبكى ، وهم جميعا متشائمون تقوم فلسفتهم على هذه القاعدة ، وهي أن الحياة شيء ليس بذى خطر ، لم ينشأ من خير ولن ينتهى الى خير ، فلتقض في لعب ولهو ، أو فلتقض في حكمة وزهد . هذا شيء

يختلف باختلاف الأمزجة لا أكثر ولا أقل . فليس غريبا اذاً أن يجيد أبو نواس فى المجون وفى الزهد معا ، على أنى لا أستطيع أن أحكم على أبى نواس أكان هو مسلما حقا أم لم يكن ، ولعل أصدق حكم ممكن فى أبى نواس هو انه تجاوز حدود الاسلام وازدرى أصوله وقواعده غير مرة فى حياته الطويلة ، ولنقل إن شعره فى الزهد آية على أنه تاب غير مرة أيضاً ولنختم قولنا فيه بهذه الابيات القيمة التى قالها فى الزهد :

أيّة نار قـدح القادح ... وأى جـد بلغ المـازحُ
لله در الشيب من واعظ ... وناصح لو حظى الناصح
يأبى الفتى الا اتباع الهوى ... ومنهج الحق له واضح
فاسم بعينيك الى نسوة ... مهورهن العمل الصالح
لا يجتلى الحوراء من خدرها ... الا امرؤ ميزانه راجح
من اتقى الله فذاك الذى ... سيق اليه المتجر الرابح
شمّر فما فى الدين اغلوطة ... ورح لمـا أنت له رائح

الوليد بن يزيد(١)

كان خليعاً ماجنا ، ويقول الرواة إنه كان زعيم أصحاب الخلاعة والمجون . تبعه أبو نواس في خلاعته ومجونه ، وتبعه غير أبي نواس من شعراء هذا العصر فسطوا على شعره وسرقوا معانيه وألفاظه ، أو قل انهم استباحوها واغتصبوها اغتصابا ، لم يروا في ذلك حرجا ولم يخشوا في ذلك دفاعاً . كان الوليد أمويا فكان بغيضاً إلى الناس أيام بني العباس ، ثم كان الوليد بغيضاً الى بني أمية أنفسهم قبل أن يمكن الله لبني العباس في الارض ، فكان بغض الناس له مضاعفاً ، كرهوه حين كان الأمر لبني أمية لأنه كان بغيضاً إلى قومه ولان التوفيق السياسي أخطأه ولانه كان على شيء غير قليل من سوء السيرة ولان قومه الذين ثاروا به وقتلوه بالغوا في تسوىء سيرته وأضافوا اليه من القول ما لم يقل وحملوه من الآثام ما لم يحمل ، وأنت تعلم آثار البغض السياسي وما تحدثه الفتن لمن لم يوفق فيها الى النصر ثم كانت ثورة العباسيين واستقرار الامر لهم ، فشمل البغض بني أمية جميعاً وكان حظ الوليد منه مضاعفاً وتقرب الناس الى بني العباس بلعن بني أمية جميعاً خيرهم وشريرهم ، كما تقرب الناس إلى بني أمية من قبل بالقدح في بني هاشم جميعاً وبلعن على رضي الله عنه . ومن هنا كان من الحق أن تحتاط الاحتياط كله حين تقرأ ما تجد في الكتب من ذم الوليد والنعي عليه ورميه

(١) نشرت بالسياسة في ٢٧ شعبان سنة ١٣٤٢ هـ ٢ ابريل سنة ١٩٢٤

بالكفر حيناً وبالزندقة حيناً آخر واضافة الشعر المملوء كفراً وفجوراً اليه؛ يجب أن نحتاط فى هذا كله فأكثره أو كثير منه على أقل تقدير متكلف منحول، ولسنا نحن الذين يقولون ذلك بل قاله الاولون فقد اختلفوا فيه فيه اختلافا عظيما، فاما أكثرهم فكانوا يتقربون الى بنى العباس وإلى عامة الناس بالطعن فيه والنعى عليه، وليس أحرص من أصحاب السلطان والعامة على أن تكون هناك ضحايا بريئة أو غير بريئة ينالونها بضروب الغضب وينزلون بها ألوان السخط. وأما القليل من هؤلاء الاولين فكانوا يقصدون فى ذلك فيسكتون وربما اصطنع بعضهم الشجاعة فدافع عنه فى رفق وحذر. قالوا دخل مروان بن أبى حفصة على الرشيد فسأله عن الوليد فتردد فاعفاه الرشيد من آثار قوله فقال «كان من أصبح الناس وأظرف الناس وأشعر الناس» فاستنشده الرشيد من شعره فانشد هذه الابيات

ليت هشاماً عاش حتى يرى	مكياله الاوفر قد أترعا
كلنا له الصاع التى كالها	فما ظلمناه بها أصوعا
لم نأت ما نأتيه عن بدعة	أحلها القرآن لى أجمعا

قالوا فأمر الرشيد بهذه الابيات فكتبت له. وتحدثوا أن رجلا من ولد الغمر بن يزيد بن عبد الملك دخل على الرشيد فسأله عن نسبه فانتسب إلى قريش فسأله أن يخصص وأمنه على نفسه إن ظهر انه مروانى فلما ذكر الرجل نسبه بش له الرشيد وقال لعن الله قاتلى أبيك فقد قتلوا خليفة مجمعاً عليه وقضى حوائجه. وعلى نحو من ذلك كان رأى المهدى، قال الرواة ان فقيهاً من الذين كانوا يختلفون الى مجلس المهدى استطاع أن يدفع عن الوليد حين

اتهم بالزندقة فذكر صلاته وطهارته وخشوعه ولكنه ذكر شربه وحبه للهو وعكوفه عليه ، ويقيننا نحن أن الوليد لم يكن كما يزعم خصومه مسرفا فى اللهو والفجور الى غير حد كما أنه لم يكن كما يريد أنصاره تقياً صالحا وانما كان رجلا من الناس أحب اللذة وكلف بها وأعانته عليها ظروف نريد أن نجملها ، فأخذ منها بحظ موفور دون أن يخرجه ذلك عن دينه أو يتجاوز به حدود ما ينبغى للخلفاء فى عصره ولكنه كان شقياً سيء الحظ جنت عليه الظروف السياسية التى عاش فيها أكثر مما جنى عليه لهوه ومجونه.

أول هذه الظروف السياسية التى جنت على الوليد أنه كان ولياً لعهد أبيه يزيد بن عبد الملك ولكنه كان غلاما فتوسط بينه وبين أبيه فى الخلافة عمه هشام بن عبد الملك ولم يكد يتم الأمر لهشام حتى طمع فى الخلافة لابنه وأراد أن يخلع الوليد من ولاية العهد، وكان قد أعطى العهد على نفسه ليفين للوليد ولكن الأثرة وحب الابناء كانا أقوى وأشد تأثيراً فى نفس هشام من العهد والوفاء به، أزمع هشام خلع الوليد وأخذ يحتال فى ذلك ويعد له وأحس الوليد ذلك فكانت بينه وبين عمه ضغائن وأحقاد اشتدت شيئا فشيئا حتى أصبحت عداء صريحاً وحتى اضطرت الوليد الى أن يترك العاصمة ويرتحل إلى البادية مغاضباً لعمه مجتنباً شره فلم يزد ذلك هشاماً إلا بغضا لابن أخيه وحقداً عليه والا اضطهاداً له ولاوليائه ، وأخبار ذلك كثيرة منتشرة فى الكتب ، وبأي شيء يشنع هشام على الوليد حتى ينفر الناس منه ويصرفهم عن بيعته الا بالدين وذكر الفجور والفسوق؛ وقد انتفع هشام بهذا وأسرف فى الانتفاع به فاذاع عن الوليد ما أراد أن يذيع من اللهو والمجون والادمان.

والكفر والزندقة وسمع له الناس وهم بين مصدق مغرور ومكذب ولكنه يتماق فيظهر التصديق ، ودافع الوليد عن نفسه ما استطاع فلأمر ما كان مغنوه يغنونه هذين البيتين .

يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكر
نشربها صرفا وممزوجةً بالسخن أحياناً وبالفاتر

وأبو شاكر هذا هو مسلمة بن هشام الذى كان يرشح للخلافة مكان الوليد ، وتحدثوا ان هشاماً سأل الوليد ذات يوم أسئلة تنم عن رأيه فيه فلم يكن جواب الوليد أقل حدة وفطنة من أسئلة هشام ، سأله ماشرابك فاجاب : شرابك يا أمير المؤمنين : ولسنا نزعم ان الوليد لم يكن يشرب وانما نزعم أنه كان يشرب كغيره من أبناء الخلفاء ومن الخلفاء أنفسهم كان يشرب كهشام وبنى هشام ، ولكن الغرض السياسى أباح لهشام أن يذمه ويشنع عليه بما كان يأتى هو وبما كان يأتي أبناؤه

كان الوليد مضطهدا أيام هشام فكان هذا الاضطهاد نفسه يضطره الى اللهو واللعب لأمرين ، ليسلى عن نفسه ما يناله به السلطان من المحن من جهة ، وليظهر نفسه مظهر الرجل الذى لا يريد أن يضعف ولا أن يستكين من جهة ، كان يشرب عنادا وكان يشرب طالبا للعزاء ، ومضى في الشرب عناداً وتعزيا حتى شغف به شغفا غير مألوف فأمكن من نفسه وصدق بعض آراء الناس فيه ومات هشام دون أن يستطيع خلعه ولكنه كان قد استطاع ايذاءه وايذاء أصحابه ونالهم بمحن كثيرة شديدة فلما تم له الامر وتبوأ دار الخلافة جرى مع طبيعته فانتقم وأسرف فى الانتقام كما

أسرف هشام فى الاساءة اليه ولكنه انتقم من الابرياء أو انتقم من قوم لم يكونوا أساءوا اليه الا تأثراً لهشام وكذلك شأن الانتقام السياسى ، يصيب البرىء قبل أن يصيب المسىء . ثم لم يكتف الوليد بالاسراف فى الانتقام بل أسرف فى شىء آخر ، كان محروما أيام عمه تجرى مع طبيعته وأراد أن يستوفى حقه بعد الحرمان فتجاوز الحق . كان مقترا عليه فقد قطع عنه هشام عطاءه وارزاق أصحابه ومواليه وقد انفتحت له الان خزائن الدولة فأسرف فيها ، كان مضيقا عليه يختلس اللهو اختلاسا ويفر باللذة فرارا وقد أصبح الآن صاحب السلطان فاطلق لنفسه عنانها وأخذ من اللذة ما استطاع وفوق ما استطاع .

ثم لم يكد يصل الى الخلافة وينتقم لنفسه حتى كان هذا الانتقام نفسه مصدر شر له ، فقد كون حزبا قويا يكره الوليد ويأتمر به ويرثي لأبناء هشام ويبث الدعوة للتشنيع على الوليد واساءة رأى الناس فيه . فلم يكن بد للوليد من أن يدفع عن نفسه ويحارب هؤلاء الخصوم ، ولم يكن الوليد ملكا ولا قديسا وانما كان رجلا من الناس وكان أمويا من بني أمية فيه أخلاقهم وخصالهم وفيه عنفهم وعنادهم وفيه غرورهم وطغيانهم فلقى الشر بالشر وتحدى خصومه فامكنهم من نفسه وصدق رأيهم فيه . ثم انتصر عليه خصومه فخلعوه وقتلوه وأرادوا بطبيعة الحال أن يحمد الناس ما فعلوا فاضافوا الى آثام الوليد وسيئاته ما استطاعوا . ثم كانت الفتنة العباسية فأصبح بنو أمية جميعا فى رأي الخلفاء العباسيين وعامة الناس ومن يتملق الخلفاء والعامة من العلماء والفقهاء كفرة فجاراً وأصبح الوليد مثالا لكفرهم

وفجورهم ، وكذلك يكتب التاريخ فيظلم فيه ناس من الحق ألا يُظلموا :

لا نريد أن ندافع عن الوليد فليس يعني الدفاع عن الوليد شيئاً ، وليس يعنينا في حقيقة الامر أن يكون الوليد خيِّرا أو شريرا ، ولكن أمامنا حقيقة تاريخيــة نريد أن نتصورها تصورا صحيحا ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، فاذا أردنا أن نحكم على الوليد حكما قريبا من الصدق كان من الحق أن نقول انه كان رجلا مستمتعا بلذاته مسرفا في هذا الاستمتاع ولكنه لم يبلغ من ذلك ما يقول خصومه ولعله لم يصل الى هذا الاسراف في الاثم الا لأن خصومــه اضطروه الى ذلك اضطرارا ، اما باضطهادهم اياه واما بتشنيعهم عليه وتحديهم له .

ولقد نريد أن ننظر الى الوليد نظرة غير النظرة التاريخية ، نريد أن ننظر اليه من الوجهة الادبية ، فقد كان الوليد أديباً وكان شاعرا ، وهذا وحده هو الذي يعنينا الآن من هذا الرجل . نريد أن ننظر اليه من هذه الوجهة ونريد أن نتبين شخصيته الادبيــة والشعرية بنوع خاص ولكن ذلك ليس ميسوراً ، فقد ذهبت أشعار الوليد كلها أو أكثرها ولم يبق منها الا الشيء القليل ، ذهبت لتعصب الناس عليــه وتحرجهم من رواية شعره . وما نحسب أن هذا التحرج كان دينيا فقد روى الناس شعر أبي نواس وغيره من أصحاب اللهو والمجون ، وانما كان هذا التحرج سياسيا . ومن يدري لعل هذا التحرج السياسي قد أضاع علينا من آثار بني أميــة شيئاً كثيراً ومع ذلك فيظهر أن كثيراً من شعر الوليد كان محفوظا يتناقله الناس في القرن الرابع فانا نجد في الاغاني أن قصــائد الوليد (تدل على نفسها)

ولهذا لم يحرص أبو الفرج على روايتها واثباتها وليته فعل ، فان هذه القصائد التي كانت تدل على نفسها في القرن الرابع لم يبق منها الآن شيء الا هذه المقطوعات التي أراد الله أن يرويها لنا أبو الفرج فكانت كل ما نعرف من شعر الوليد . ليس من اليسير اذن أن نعطي من الوليد صورة صادقة ، وإنما نحن مضطرون الى أن نعطي منه صورة شاحبة ممتقعة ضعيفة لا تكاد تمثله أو تدل عليه ، ومع ذلك فهي خير من لا شيء .

— أخص ما يمتاز به الوليد انه كان شاعرا صادقا لا يكذب ولا يميل الى الكذب في شعره ، ولم يكذب : وهو من فتيان بني أمية عزيز النفس رفيع المنزلة ليس في حاجة الى أن يمدح ليكسب الحياة . وليس في حاجة الى أن يهجو ليدفع عن نفسه خصما يكافؤه : وأي الشعراء كان يجرؤ على أن يهجو ولي عهد المسلمين ؟ ولو فعل فما كان ولي عهد المسلمين ليهجوه وانما كانت السبيل في ذلك أن يناله ما هو أهل له من العقاب . ثم لم يكن الوليد متكلفا في حياته . وكأنه كان يزدري الناس ولا يحفل بهم ، ولم لا يزدريهم ؟ وقد رآهم يتملقون عمه ويعينونه على الظلم ونقض العهد لا لشيء الا لأنه صاحب السلطان ، أفيحفل بمثل هؤلاء ؟ واذا لم يحفل بهم فما كان له أن يتكلف ما ليس فيه أو ينتحل من الخصال خصلة لا تعجبه .

قالوا كان الوليد متزوجا من احدى بنات سعيد بن خالد بن عمرو ابن عثمان . فعرف أن لزوجه اختا تفوقها جمالا وحسنا فطلق زوجه وأراد أن يقترن بأختها فخطبها الى أبيها ، وعرف ذلك هشام فارسل الى سعيد أتريد أن تستفحل الوليد لبناتك يطلق هذه ويتزوج تلك : فرد سعيد خطبة

الوليد . فقال الوليد هذا سعيد يرد خطبتي ولو كنت خليفة لزوجني بناته جميعا ... وفي الحق أن سعيدا لم يرد هـذه الخطابة الا مجاراة لهشام ، وآية ذلك أنه زوج ابنته من الوليد بعد أن أصبح أمير المؤمنين ، فلم يكن من المعقول ورأي الوليد في الناس رأيه أن يحفل بهم أو يعنى بترضيهم . كان يكرههم ويكرهونه وهو ولي العهد فلم يكن يحاول ارضاءهم . وكان سيدهم وهو خليفة فلم يكن يحاول ارضاءهم أيضاً . ثم لم يكن الوليد يتعاطى الشعر حبا في الشعر ، لم يكن يحرص على أن يكون شاعرا مجيداً وانما كان يلهو أو كان يجد وكان يتخذ الشعر وسيلة عادية للتعبير عما يجد في لهوه وجده وكان لا يعنيه أن يقول الناس أحسن أو أصاب وانما كان يعنيه أن يشعر هو بانه وصف ما في نفسه وترجم عن عواطفه ومن هنا كان شعر الوليد كما قلنا صادقا يمثل نفسه تمثيلا صحيحا . وسنرى أن هذه النفس لم تكن بغيضة ولا ثقيلة الظل . ومن هنا أيضاً كان شعر الوليد أقرب الى الرداءة اللفظية منه الى الجودة . فقد قلت لك انه لم يكن يتكلف هذه الجودة ولا يطمع فيها وانما كان يقول جريا مع الطبع ولم يكن يقول الشعر الا وهو متأثر بما يسر أو يحزن . واذن فقد كان مشغولا بسروره وحزنه عن الألفاظ . كان يقول الشعر وهو سكران يشرب ويطرب بما حوله وكان همه أن يكون قد قال شعراً سجل فيه عاطفة ثارت في نفسه أو خاطراً خطر له ، وكان يحب شعره لأنه كان معجبا بنفسه وكان يرى في هذا الشعر مرآة لهذه النفس وكان يحب أن ينظر كثيراً في هـذه المرآة ولذلك كان لا يكاد يقول شعرا الا طلب الى أحد المغنين أن يغني له فيه صوتا وربما

قال الابيات فكلف أحد المغنين أن يغنيه فيها فما زال كذلك يسمع ويشرب يومه أو ليله .

وهذا النحو من الشعر الذى لا يتكلف صاحبه فيه لفظا ولا معنى وانما يغترفه اغترافا سهلا لا مشقة فيه يكفى أن يخطر الخاطر أو تعرض الحادثة فاذا الشاعر ينظم فيها أبياتا أى يقول فيها كلاما كان يستطيع أن يقوله نثرا ولكنه تعود النظم فهو ينظم فى غير عسر ، ولهذا كان الشعر أيسر شىء على الوليد ، كان يتكلم شعرا حين ينثر الناس ، كان اذا أعجبه شيء عادي وصفه شعرا ، وكان اذا اشتهى شيئاً اشتهاه شعرا . وكان اذا غمه شيء مهما يكن جليلا أو ضئيلا عبر عن ذلك بالشعر ، كان الشعر عنده كالنثر عند غيره ولهذا اصطنع من بحور الشعر أخفها وألطفها وأقربها الى النثر وأشدها ملاءمة لحياة اللهو والدعة التى كان يحياها ، فقليلا ما تجد عند الوليد هذه البحور الطوال المعقدة وانما شعره كله هزج ورمل وهو اذا عمد الى البحور الطوال اجتزأها اجتزاء وخففها تخفيفا فاختار أيسرها وأقصرها . قلت لك انه لم يكن ينظم الشعر وانما كان يتكلمه . وهو فى هذا قدوة للذين اتبعوه من شعراء العباسيين ، فقد حدثتك عن أبي نواس انه كان اذا لها أو تغزل آثر من بحور الشعر أيسرها وأقصرها وأخفها موقعا وأدناها من النثر مكانا ، وكذلك كان غير أبى نواس من شعراء العباسيين ، إمامهم فى هذا كله الوليد .

ولو أن الوليد أكثر من تعاطى الجد فى شعره لاختار لهذا الجد

من الاوزان الشعرية ما فيه جلال ومهابة ولكنه لم يكن يجد في شعره كثيراً ، فقد قلت لك انه لم يكد يمدح ولم يكد يهجو ، وانما تعاطى من فنون الشعر ضروبا خاصة ، وصف الخمر لانه كان يشربها ، ووصف اللذة لانه كان يستمتع بها ، ووصف الصيد لانه كان يصيد ، وكل هذه الفنون تحتاج الى الشعر السهل والى الوزن القصير . وتغزل الوليد كثيراً فقد ذكرت لك انه أحب أخت زوجه وكانت هذه المرأة التى فتن بها تسمى سلمى بنت سعيد فلا تكاد تجد شعرا للوليد يخلو من سلمى وهو يفتن فى ذكر سلمى افتنانا عظيما فيذكر اسمها مكبرا ومصغرا ويذكره كاملا ومرخما ويتخذه مرة كنية لها كأنه يداعبها ، ومن الغريب انه كان فى هذا الحب سيئ الحظ كما كان فى حياته كلها ، فقد طلق امرأته ليتزوج أختها فحال هشام بينه وبين ذلك فندم على تطليق امرأته وكأنه أحبها فأراد أن يراجعها ولكنها كانت قد تزوجت رجلا آخر فقال فى ذلك شعرا لذيذا ولكنه يئس من امرأته فانصرف الى عشيقته سلمى وكأنها كانت تحبه بل كانت تحبه ولكنها كانت تطيع أباها وتكبره فكان الوليد ينسب بها حياته وكان شعره يصل اليها وكان يحب أن يسمع رأيها فى هذا الشعر ، لا لأنه ينتظر أن تمدح شعره أو تذمه بل لانه يريد أن يجد فى كلامها صدى لعواطفه ، وقد بلغ به الغيظ ذات يوم ان خاصم سعيدا وهجاه فبلغ ذلك سلمى فغضبت لهجاء أبيها وبلغ الوليد أنها مغضبة فترضاها بشعر كثير وترضى أباها واعتذر اليه وظل أيام هشام فى وجد وحزن يحب ولا يصل الى من يحب ، وله فى ذلك فنون فقد احتال ذات يوم فى أن يدخل قصر سعيد

فيقال انه لقى زياتا يسوق حمارا فأخذ من الزيات ثيابه وحماره وزيته ونزل له عن فرسه وثيابه ومضى يبيع الزيت حتى دخل قصر سعيد يعرض زيته ورأته سلمى ورآها ثم نهره الخدم فانصرف وقال فى ذلك شعرا . فلما مات هشام وأصبح الوليد خليفة خطب سلمى الى أبيها فقبل خطبته هذه المرة وزوجه ابنته ، وللوليد فى ذلك شعر عذب لذيذ من أخف الشعر ظلا وأحسنه فى النفوس وقعا ، ولكني قلت لك إن الوليد كان سيئ الحظ فى حبه كما كان سيئ الحظ فى حياته كلها ، فلم تلبث سلمى عنده الا أربعين يوما ثم ماتت فجزع الوليد لموتها جزعا شديدا ورثاها رثاء لا نقول انه يفطر القلوب حزنا وأسي ولكننا نقول انه يمثل نفس الوليد التى كانت تعرف كيف تحزن كما كانت تعرف كيف تبتهج . ويكفى أن تقرأ شعر الوليد فى سلمي هذه حية وميتة لتعرف أن الوليد لم يكن يتكلف الشعر ولا يحرص على الاجادة فيه وانما كان يرسله كما يرسل أنفاسه فى سهولة ويسر فاذا هو حار حينا وفاتر حينا وقد يصل الى البرد حينا آخر .

ثم للوليد جد ، ولكنا لم نحفظ منه الا قليلا فقد خاصم هشاما فاضطره هذا الخصام الى شىء من الفخر والعتب ونالته محن اضطرته الى أن يقول فيها شعرا وفقد ابنا له فرثاه وهو فى هذا الجد كله قوى متين لا يخلو من جلال ورصانة .

ولم يكن الوليد شاعرا فحسب ، وكأنه كان يتصرف فى النثر تصرفا حسنا فقد روى لنا أبو الفرج مكاتبة بينه وبين هشام لا بأس بها ولكنى أتردد (وأظن انى محقق) فى نسبة هذه الرسائل الى الوليد والى هشام

وأحسب ان مواليهما هم الذين كانوا يكتبون عنهما ولست أشك فى ذلك بالقياس الى هشام وأنا أرجحه بالقياس الى الوليد ، ومهما يكن من شيء فان معانى هذه الكتب تمثل نفس الوليد وهشام تمثيلا لا بأس به . ثم كان الوليد مع هذا عالما بأيام العرب واحداثها وبأشياء أخري كثيرة وأحسب أن اتصاله بالموالى من الفرس قد علمه شيئاً كثيراً ، والرواة يروون أنه أخذ عنهم الزندقة ومال معهم الى مذهب ماني ، وليس من شك فى أنه كان يلم باصطلاحات حديثة علمية أو فلسفية ظهرت فى شعره عند ما وصف الخمر كما ظهرت فى شعر أبى نواس . ومع ذلك فالفرق بينه وبين أبى نواس ليس بالقليل . كان الوليد أقرب الى البداوة منه الى الحضارة وذلك ظاهر جلى فى شعره ، فعلى هذا الشعر مسحة بدوية لا تقبل الشك ، بينما أبو نواس فى لهوه ومجونه حضري رق حتى كاد ينمحى رقة وخفة

ولنختصر . فللوليد شخصيتان ، شخصيته السياسية التاريخية التى حدثتك عنها فى أول هذا الفصل ، وهذه الشخصية ان لم تكن جذابة خلابة فليست منفرة ولا بغيضة وهى لا تقطع الصلة بين الوليد وبين غيره من الخلفاء الامويين والعباسيين الذين يذكرون بالخير ولعلهم ليسوا أقل إثما من الوليد . وشخصيته الأدبية شخصيته من حيث هو شاعر . وأحسب أنى قد رسمتها لك رسما الا يكن صادقا كل الصدق فليس بعيدا عن الحق ، وأحسب أن هذا الرسم يظهر لك الوليد شاعراً

ظريفا جذابا خفيف الروح . ولكني أريد أن أثبت كل هذه الصفات التى قدمتها ولا بد لذلك من أن ننتقل الى طائفة من شعره ، فليكن ذلك فى الفصل الآتى

مطيع ابن اياس [1]

وكنت تنتظر أن أحدثك عن الوليد بن يزيد لاني وعدتك في الاسبوع الماضي أن استأنف الحديث فيه ، ولكن بدا لى . فسأحدثك عن شاعر آخر ، ولست أكره إخلاف هذا الوعد ، فمن اليسير عليك ومن الخير لك ولى إذا أردت أن تتعرف شعر الوليد وتتثبت صحة تلك الصورة التي رسمتها لك من شخصيته أن ترجع الى كتاب الاغانى وما روى فيه ابو الفرج من شعر الوليد ، ففى ذلك مقنع لك وفى ذلك فائدة أعظم واجدى من الفائدة التي تجنيها لو أني رويت لك طرفا من شعر الوليد فى هذا الحديث . ومن يدرى ؟ لعلك إن رجعت الى أخبار الوليد وأشعاره فى الاغاني صححت بعض ما قد اكون تورطت فيه من خطأ ، ومهما يكن من شيء فان رجوعك الى الاغانى بعد أن قرأت حديثى عن الوليد أنفع لك وأجدى عليك من قراءة حديث آخر ليس لى فيه إلا رواية وتحليل . وذلك في الوقت نفسه ينفعنى ، فانا أريد أن أتحدث اليك مسرعا عن طائفة من الشعراء تتصل بينهم وبين الوليد وأبى نواس صلة متينة قوية هى صلة الخلاعة والمجون والشك والاعراض عما ألف الناس ، أريد أن أتحدث اليك فى هؤلاء الشعراء لا لانى أوثر هزلهم وخلاعتهم على جد غيرهم ، ولا لانى أشعر بأنك تؤثر الخلاعة والهزل على الجد فأحاول أن أرضيك واسليك ، بل لانى أرى فى

---

(١) نشرت بالسياسه فى ٥ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ — ٩ ابريل سنة ١٩٢٤ م

الحديث عن هؤلاء الشعراء وأصحابهم من أهل الظرف والمجون فى ذلك العصر نوعا من الجد عظيم الخطر يمكننا من أن نفهم عصراً من العصور الاسلامية كما ينبغى أن نفهمه ، ويمكننا من أن نحكم على هذا العصر حكما ملائما للحق مقاربا للصواب ، وليس هذا بالشيء اليسير وليس هذا بالشيء الذى يزدريه الباحثون . ولعلك لم تنس بعد أني لم أكد أعرض لابي نواس فى السنة الماضية حتى سخط ناس كثيرون في مصر وفى غير مصر ؛ سخط قوم لأن فى شعر أبي نواس وأمثاله مخالفة للاخلاق ونبوا عن الدين ، وسخط قوم آخرون لانهم زعموا أنى أسيء الى العرب وأتهمهم بما ليس فيهم واتخذ فجور واحد من الشعراء مقياسا لحياة العصر الذي عاش فيه فأعمم حين يجب التخصيص واسرف فى التعميم حين يجب الاحتياط والدقة . لعلك لم تنس هذا بعد ، ولعلك تعلم أن الذين يعنون بالبحث الادبى والتاريخى عناية صادقة اذا خطر لهم رأى وظهر لهم أنه الحق فآمنوا به واطمأنوا اليه لم يسهل عليهم ان يتركوه أو ينصرفوا عنه حتى يثبتوا الأنفسهم وللناس أنه الحق وهم يشتدون فى ذلك ويحرصون عليه حرصا ليس فوقه حرص ، وانا من هؤلاء الناس ، حاولت ان أبحث عن أبى نواس فخطر لى أنه كان شاعراً شاكا ماجنا وان هذا الشك والمجون لم يكونا مقصورين عليه بل كانا قد تجاوزاه إلى غيره من الشعراء وأعلام هذا العصر فتتبعت هذا الرأي وجعلت أدرسه وامتحنه وجعلت كلما امعنت فى هذا الدرس والامتحان أزداد إيمانا بهذا الرأى واطمئنانا اليه . ثم انتقلت منه إلى رأي آخر أوسع منه واشمل فاعتقدت وما زلت اعتقد ان القرن الثاني للهجرة على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد

وأصحاب الشك والمشغوفين بالجد إنما كان عصر شك ومجون وعصر افتتاز وإلحاد عن الاخلاق المألوفة والعادات الموروثة والدين أيضاً :

رأيت هذا الرأى وذهبت اثبته بالادلة المختلفة والحجج المتباينة أثناء بحثى عن أبي نواس . ولكنى لا اكتفى الآن باثبات هذا الرأى ولا بأن أقيم عليه النظرية أستمدها مرة من انتقال العرب من حال الى حال ومرة من اختلاطهم بالامة الفارسية ومرة من طبيعة الحضارة والترف ومرة من ظهور العلم ونقل الفلسفة ، لا اكتفى بهذا كله وإنما أريد ان أشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين في المجون تشخيصا لا يجعل إلى الشك فيها سبيلا ثم أريد أن ابين أن هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون إن سخط عليهم نفر قليل من الفقهاء وأصحاب الزهد فقد كان الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم وأهوائهم ومنازعهم يحبونهم ويميلون اليهم ويتفكهون بما يوصفون به من ظرف وما يروى عنهم من هزل ومجون .واذا كان هؤلاء الشعراء وأصحابهم من حرية الرأى ومن الاسراف فى حب اللذة والتهالك عليها سرا وجهراً بهذا الحد الذي بينته وسأبينه في هذه الفصول ، واذا كان الناس بهم معجبين وعنهم راضين ، أقول اذا كان الامر على هذا النحو فليس عندى شك فى ان هـذا العصر الذى عاش فيه هؤلاء الشعراء وهؤلاء الناس الذين كانوا يعجبون بهـم لم يكن عصر إيمان ويقين فى جملته وإنمـا كان عصر شك واستخفاف وعصر مجون واستهتار باللذات . ولم لا يكون كذلك وقد اجتمع للمسلمين فيه شيئان كلاهما خطر على حياة السذاجة والقناعة ؟ احدهما العقل ، أريد العقل الفلسفى الذي يتدخل فى كل شيء بالنقد والتحليل

و بالنفى والاثبات ولا يريد أن يقف من ذلك عند حد وإنما يريد اذا بدأ البحث أن يستقصيه ، وهو فى أثناء هذا البحث وهذا الاستقصاء يهدم ما يعترض فى طريقه من آثار الوراثة ، والثانى الحضارة وما تستتبعه من نعمة ولذة وترف ، كلتا هاتين الظاهرتين شديدة الخطر على كل قديم ، فاما العقل الفلسفى فمعول يهدم القديم فى الحياة المادية على اختلاف فروعها . ومن زعم ان العرب لم يتأثروا فى القرن الثانى للهجرة بهذين المؤثرين الخطرين فهو مسرف كل الاسراف بعيد عن الحق كل البعد .

ليس غريباً اذن أن يظهر فى هذا العصر الوليد بن يزيد ومطيع بن اياس ويحيى بن زياد وحماد عجرد وابن المقفع ووالبة بن الحباب وغيرهم من الذين عاصروهم وشاركوهم فى شكهم ومجونهم ، وفى لهوهم وعبثهم ، ليس غريبا أن يظهر هؤلاء الناس فى ذلك العصر ، وإنما الغريب أن يخلو منهم ذلك العصر ولا يظهر فيه إلا الفقهاء والنساك وأصحاب الزهد والتقى .

نحن اذاً مضطرون الى أن نأخذ هذا العصر كما هو والى أن نصطنع من الشجاعة ما يمكننا من أن ننظر اليه فى جملته وفى تفصيله لا مشفقين ولا مترددين ولا كالنعامة التى يأتيها الخطر فتخفى رأسها كى لا تراه ويخيل اليها أن ذلك يؤمنها من هذا الخطر . . . فمهما تنكر ظهور الشك والمجون وأصحابهما فى هذا العصر وتغلب هذا الشك والمجون على نفوس المستنيرين من أهله فلن يمنع ذلك أن يكون هذا العصر كما قلت عصراً ظهر فيه الشك والمجون واستأثرا بعقول الكثرة المستنيرة من أهله حتى بعض الفقهاء وأصحاب الكلام . سيقولون : وما ينفعنا أن نعلم بأن هذا العصر قد كان

عصر شك أو عصر يقين ؟ وما يضرنا أن نجهل ذلك ؟ ولست أري على ذلك جواباً معقولا ، وأى جواب معقول تستطيع أن توجهه الى من يسألك ما نفع العلم وما ضرر الجهل وما فائدة الصواب وما مضرة الخطأ ؟ سيقولون ولكنك سيء الاختيار ردىء الذوق ! فما أنت وأصحاب الشك والمجون تحدثنا عنهم فى شهر الصوم وتروى لنا شكهم ومجونهم وتصرفهم فى ألوان الهزل ؟ وهلا أجلت ذلك حتى يفرغ الناس من صومهم وهلا اكتفيت فى هذه الايام التى ينصرف فيها الناس الى الطاعة والتقوي بالتحدث اليهم فى اخبار الزهاد والناسكين وفى مناقب الوعاظ والصالحين ؟ نعم ، سيقولون هذا .ومن يدرى؟ لعلى انما تخيرت هؤلاء الظرفاء وأحاديثهم لأرفه على هؤلاء الصائمين وأخفف عنهم من ألم الصوم قليلا ، وأى اثم فى ذلك وأى جناح فيه ؟

زعموا أن ناسا سألوا ابن عباس عن إنشاد الشعر ، أينقض الوضوء ؟ فانشد ابن عباس شعراً لا استطيع أن أرويه ثم نهض فصلى ، وزعموا أن ناسا سألوا عن شيء كهذا أحد الفقهاء المحدثين وأحسبه سعيد بن المسيب فانشد :

أُنبئت أن فتاة كنت اخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول

لم يتحرج ابن عباس ولم يتحرج ابن المسيب ولم يتحرج غيرهما من الفقهاء وأعلام الدين من رواية الشعر وفنونه المختلفة جدها وهزلها . فما لنا نتحرج الآن ؟ أليس هذا التحرج نفسه مظهراً من مظاهر الضعف ولين العقيدة واضطراب اليقين ؟ إن المؤمن حقا المتدين حقا المخلص فى نسكه

وعبادته لايخشى على ايمانه ولا على دينه ولا على زهده وعبادته شعر مطيع وأصحاب مطيع ، وانما يخشى هذا الشعر من يحس من نفسه الضعف ويريد أن يتقيه ويتجنب أسبابه والمغريات به . واذا أحس الرجل من نفسه ضعفاً فى مثل هذه الاشياء فارو له ماشئت من شعر أو اكفف عن رواية هذا الشعر له فما أنت بنافعه ولا ضاره .

على انى قلت إنا نبحث بحثاً علمياً لا نريد به أن نرضى الناس ولا أن نسلى عنهم وإنما نريد أن نفيد وأن نستفيد . وأرى انى قد أسرفت فى هذه المقدمة ان كان يمكن أن تسمى هذه مقدمة . ولم أتحدث اليك بعد فى مطيع ، ومع ذلك فهو خليق بان أتحدث اليك فيه وبان أطيل الحديث .

كنت اذكر لك فى الحديث الماضى صدق الوليد بن يزيد وخفة روحه فى الشعر ، وأين يقع الوليد بن يزيد من مطيع ابن اياس اذا أردنا أن نذكر صدق اللهجة وخفة الروح وحلاوة الدعابة وجمال اللفظ : الفرق بين الشاعرين عظيم . وربما كان من العسير جداً أن نجد شاعراً مجيداً أو غير مجيد يبلغ مابلغه مطيع من صدق اللهجة وخفة الروح حتى ابو نواس وأنت تعلم رأيي فى أبي نواس . نعم ، مطيع ابن اياس أصدق لهجة من أبي نواس ومن الوليد وأخف روحاً منهما ، وتفسير ذلك يسير فقد كان الوليد كما عرفت مضطهداً أيام ولايته للعهد كثير الخصوم أيام خلافته فكان فى لهوه ومجونه فى هذين العصرين يشعر بالاضطهاد والخصومة ويريد أن يتحدى المضطهدين والخصوم . فكان ذلك ربما دفعه الى شىء من الاسراف فى القول والامعان فى التحدى وتجاوز طبيعته أحيانا ليغيظ خصومه ومضطهديه ، وكان

أبو نواس شاعراً مجيداً مستأثراً فى عصره بالاجادة المضطردة وكان قد اتخذ المجون مذهباً وكان قد أعلن ذلك وأسرف فيه وكان له حساد وخصوم ومضطهدون فكان كالوليد يتحدى هؤلاء الحساد والخصوم ويسرف فى القول اسرافا متعمداً يريد أن يغيظ الفقهاء والمتكلمين ويهزل ويسف فى اللفظ ، يريد أن يغيظ النحاة واللغويين ، لم يكن يخشى الا الخلفاء أو قل لم يكن يخشى من الخلفاء الا الرشيد فكان يحتاط أمام الرشيد .

بينما الوليد يسرف فى القول ليتحدى خصومه السياسيين ، وبينما كان أبو نواس يسرف فى القول ليتحدى خصومه العلماء والأدباء ، كان مطيع لايسرف في القول لأنه لم يكن مضطهداً ولا معرضا لخطر . ستقول وكيف أمن مطيع هذا الاضطهاد وكيف برىء من التعرض للخطر مع أنه كان ظريفاً ماجناً ملحاً فى الفسق متهما فى دينه يوصف بالزندقة ؟ فأقول بل كان مطيع شراً من هذا ايضاً فى النصف الثانى من حياته ، فقد كان بينه وبين الأمويين صلة : مدح الغمر بن يزيد بن عبدالملك ونادم الوليد بن يزيد ومدح أبوه والياً من ولاة بني أمية ومدح هو رجلا من ولد خالد القسرى وكثيراً ما كان يذكر بالخير أيام بنى أمية ويكره أيام بني العباس فكان من المعقول جداً أن يراع من الوجهة السياسية كما كان من المعقول جداً أن يراع من الوجهة الدينية ، ولكنه مع ذلك لم يرع الا مرة أو مرتين خرج منهما آمناً مسروراً موفور الحظ من العطاء ايضاً . تريد أن تفهم هذا وأنا ايضاً أريد أن أفهمه وأعتقد أن تعليل هذا سيصور لك مطيعاً وشخصيته ورأيه فى الحياة والناس أحسن تصوير وأصدقه ، كان

مطيع يزدرى الناس وكان يزدرى الحياة وكان يسخر من هذه كما كان يسخر من هؤلاء وكان يتخذ هذه وهؤلاء وسيلة الى اللذة والى اللذة التى لا حد لها ، فكان يتلون مع هؤلاء الناس بألوانهم وكان يتقلب مع الحياة فى صورها المختلفة ، كان أمويا أيام بني أميـة لم يكره حين مثل بين يدى الوليد فسأله عن شعر أعجب به لمن هو ، لم يكره أن يجيب « عبـدك أنا قائله يا أمير المؤمنين » قالوا فاستدناه الوليد وقبل فاه وبين عينيه وهوى هو فقبل الارض بين يديه . وكان عباسيا حين ثبت الله الملك لبني العباس ولم يكن عباسيا معتدلا ولا هادئا بل قل لم يكن عباسـيا متطرفا لانه لم يكن مقتنعا بشيء وانما كان يريد أن يعيش ويلذ وكان يجـد الحياة واللذة عند بنى العباس ، ولم يكن بنو العباس يزنون عنده شيئاً الا هـذه الحياة وهذه اللذة ، فما الذي كان يمنعه أن يتملق بني العباس وهو لم يكن يتملقهم كما يفعـل الذليل الخانع وانما كان يتملقهم ساخرا منهم مزدريا لهم بل كان يسخر ممن هو أجل منهم خطرا . قالوا أراد المنصور أن يبايع بالخلافة بعده لابنه المهدى وكان ابنـه جعفر يعترض عليه فى ذلك فدعا الناس ذات يوم فاجتمعوا وتكلم الخطباء والشعراء كلهم يمدح المهدى ويبين فضله حتى اذا فرغوا أقبل مطيع على المنصور فقال : يا أمير المؤمنين حـدثنى فلان عن فلان عن النبي (صلعم) انه قال : المهدى منا محمد بن عبد الله وأمه من حمير يملؤها عدلا كما ملئت جورا . وهذا العباس بن محمد أخوك يشهد على ذلك ثم أقبل على العباس فقال له أنشدك الله هل سمعت هذا فقال نعم مخافة من المنصور فأمر المنصور الناس بالبيعة للمهدى . أفترى اليـه أحس شهوة

المنصور فى أن يبايع لابنه المهدى وعزمه على ذلك فأراد أن يرضى المنصور وولى عهده فوضع هذا الحديث وضعا ولم يكتف بالكذب على النبي حتى استشهد أخا المنصور على أنه صادق فشهد خوفا من أخيه . ولا تقل انه فعل هذا ذلة أو إسرافا فى التملق ولكن قل إنه فعل هذا ترضيا للخليفة وولى العهد وازدراء لهما وسخرية من الدين . وقد عرف المهدي له هذه الصنيعة فانت تعلم أن المهدى كان شديدا على الزنادقة أسرف فى قتلهم والفتك بهم وتجاوز فى ذلك حدود العدل والرحمة ، وهو مع ذلك لم يرُع مطيعا. بلى! راعه مرة ولكنه أخرجه من عنده موفورا له الحظ من العطاء . قالوا كان مطيع ينادم جعفر بن المنصور واشتهر ذلك واشتهر مجون جعفر وتهتكه ورفع أصحاب الخبر ذلك الى المنصور وكان المهدي عنده فقال لابيه أنا به عارف . ليس زنديقا ولكنه خبيث الدين فاسق ، فقال له المنصور احضره فانهه ، فاحضره المهدى ولامه وعنفه وأمر أن يضرب مئتى سوط ، قال مطيع ان اذنت لى احتججت فاذن له فقال أنا شاعر وانما ينفق شعرى عند الملوك وقد كسدت عندكم واكتفيت بأن آكل على مائدة أخيك وأصفيته على ذلك شعرى وشكري فان رأيت أن فى ذلك سوء اتبت عنه ، ومضى الحديث على نحو ذلك حتى رق المهدى فأمر أن يطلق ولا يضرب ولا يحبس ، قال فأنصرف بغير جائزة ؟ قال المهدى لا يجوز هذا وأمر له بمأتى دينار خفية عن أمير المؤمنين . قال الرواة وكان المهدى يحفظ له أنه وضع الحديث يوم اراد المنصور البيعة له ... اعتقد أنا ان هاتين القصتين تصوران شخصية هذا الرجل تصويرا صحيحا فيخيل

الى أن عقله كان قد فرغ من كل شيء وانتهى الى السخرية والازدراء للناس وللحياة واتخاذ الناس والحياة وسيلة الى الشيء الوحيد الذى يستحق أن يعيش الناس من أجله وهو اللذة ، ومن هنا تملق المنصور في سخرية من المنصور وابنه وأخيه والدين أيضاً ، ومن هنا تلطف للمهدى حتى ابتز منه جائزة وخرج من عنده موفوراً . أضف الى هذا أن مطيعا اتصل أيام العباسيين بجعفر بن المنصور فنادمه وكان محتميا به فلم يمسه أذى

كل هذا يبين لك ما زعمته آنفا من أن مطيعا لم يكن مضطهدا لا من الوجهة السياسية ولا من الوجهة الدينية ، وانما كان يستطيع أن يحتاط لنفسه فى ذلك احتياطا يسيرا فيأمن كل شر . ولقد كثر تحدث الناس فى عصر مطيع وبعده عن زندقة مطيع وأصحابه وعن افسادهم أخلاق الناس وأديانهم ولست أنكر هذا على نحو ما أنكرت ما كان ينسب الى الوليد ابن يزيد فقد بينت ان حياة الوليد كلها كانت تدعو الى الاحتياط فى تصديق ما كان ينسب اليه ، أما مطيع وأصحابه فلم يكونوا خلفاء ولم يكونوا ولاة عهد ولم يكونوا محسودين الى حد عظيم ، واذن فلم يتكلف الناس الكذب عليهم أو لم يسرفوا فى هذا التكلف وما أشك فى أن حياة هؤلاء النفر الذين كانوا يؤلفون جماعة قوية الاتصال . ما أشك فى أن حياتهم كانت تدعو الى الريب والاتهام فكثيرا ما كانوا يعلنون الفسق ولا يخفونه وكثيرا ما كانت تجرى على ألسنتهم الفاظ ينكرها الدين وينكرها الخلق ولكنى مع ذلك أعتقد أن شيئا من الاحتياط واجب فى تصديق كل ما ينسب الى مطيع وأصحابه . فالناس مشغوفون بالاسراف أبدا

لا يكاد يتهم لهم رجل بالزندقة أو الالحاد حتى يتطوعوا هم باثبات زندقته وإلحاده يخترعون على ذلك الادلة وينتحلون الحجج ويروون الوقائع يزعمون أنهم رأوها وما رأوها وانما يخدعون الناس أو يخدعون أنفسهم . وهذا الاسراف كثير فى شأن مطيع وأصحابه ولكني لا أنكر المثل القائل : لا دخان بلا نار ، فلولا أن حياة هؤلاء الناس كانت تدعو الى القال والقيل لما قال فيهم الناس شيئاً

قلت كان مطيع صادق اللهجة فى شعره لا يكذب ولا يتكلف وعللت صدق لهجته بانه كان حر الرأى وانه كان حر الرأى لانه كان يزدرى الناس والحياة ولست أريد أن أغفل شيئا رواه أبو الفرج وهو يمثل رأى مطيع فى الناس ، وهو يبين لنا مقدار ازدرائه للناس وسوء ظنه بهم . زعموا انه مر بصديقيه يحيى بن زياد وحماد عجرد وهما يتحدثان فقال فيم أنتما قالا فى قذف المحصنات قال وهل فى الارض محصنة تقذفانها فانظر اليه كيف فاق صاحبيه بغياً وسوء ظن بالناس ، كان صاحباه يقذفان المحصنات ويعترفان بانهما يقذفان المحصنات أما هو فلا يرى أن فى الارض محصنة واذن فليس هناك قذف وانما كل قذف هو الحق أو دون الحق . واذا وصل الرجل من ازدراء الناس وسوء الظن بهم الى هذا الحد فما الذى يمنعه أن يكون حرا فيما يعمل وما يقول ، لا يتقى الا شيئا واحدا هو ما يعرضه للموت أو للحرمان واذا كان قد احتاط فارضى السلطان وأمن شره فليس عليه بأس فى شيء آخر . على أن ازدراء مطيع للناس لم يكن شاملا فقد كان يستثنى من هؤلاء الناس أصدقاءه وأصحابه وأخدانه ، ومن أشد الاشياء تأثيرا فى

النفس هذه الصلة المتينة التي كانت بينه وبين صـديقه يحيي بن زياد والتي حرص عليها حرصا شديدا يستثير فى النفس عاطفة مؤثرة حقا . قالوا: شرب مطيع مع صديقه يحيى فعربد عليه وكانت بينهما ملاحاة فآذى مطيع صاحبه فحلف لا يكلمه أبداً ولم يستطع مطيع أن يصبر على هذا الهجر فكتب الى صديقه هذه الابيات العذبة التى تفيض حنانا ورقة والتي لا تخلو من شرف اللفظ وجمال الاسلوب :

ان تصلني فمثلك اليوم يرجى ... عفوه الذنب عن أخيه ووصله

ولئن كنت قد هممت بهجرى ... للذى قد فعلت إنى لأهله

وأحق الرجال أن يغفر الذنـ ... ـب لاخوانه الموفر عقله

الكريم الذى له الحسب الثا ... بت فى قومه ومن طاب أصله

ولئن كنت لا تصاحب الا ... صاحبا لا تزل ما عاش نعله

لم تجده وان جهدت وإنى ... للذى لا يكاد يوجد مثله

انما صاحبي الذى يغفر الذنـ ... ـب ويكفيه من أخيه أقله

الذى يحفظ القديم من العهـ ... ـد وان زل صاحب قل عذله

ورعى ما مضى من العهد منه ... حين يودى من الجهالة جهله

ليس من يظهر المودة إفكا ... واذا قال خالف القول فعله

وصله للصديق يوم فان طا ... ل فيومان ثم ينبت حبله

وكتب اليه :

كنت ويحيي كيدى واحد ... نرمى جميعا ونرينا معا

ان عضني الدهر فقد عضه ... بوجعنا ما بعضنا أوجعا
أو نام نامت أعين أربع ... منا وان أسهر فلن يهجعا
يسرنى الدهر اذا سره ... وان رماه فلنا فجّعا
حتى اذا ما الشيب فى مفرقى ... لاح وفى عارضه أسرعا
سعى وشاة فمشوا بيننا ... وكاد حبل الود أن يقطعا
فلم ألم يحيي على فعله ... ولم أقل ملّ ولا ضيّعا
لكن أعداءً لنا لم يكن ... شيطانهم يروى بنا مطمعا
بينا كذا غاش على غرة ... فأوقد النيران مستجمعا
فلم يزل يوقدها دائبا ... حتى إذا ما اضطرمت اقلعا

وانظر الى هذا الشعر يرثى به يحيى هذا :

قد مضى يحيى وغودرت فردا ... نصب ما سر عيون الاعادى
وأرى عيني مذ غاب يحيى ... بدلت من نومها بالسهاد
وسدته الكف منى ترابا ... ولقد أرثى له من وساد
بين جيران أقاموا صموتا ... لا يحيرون جواب المنادى
أيها المزن الذى جاد حتى ... أعشبت منه متون البوادى
اسق قبرا فيه يحيى فانى ... لك بالشكر مواف مغاد

كان يحيى صديقا لمطيع فى الخير والشر ، صديقا حقاً ، وكان لمطيع صديق آخر ولكن صداقتهما كانت على غير هذا النحو ، كانت صداقة ضاحكة صداقة مزاح ولهو وسخرية ، ذلك هو حماد عجرد فسنرى يوم نعرض لهذا الشاعر أنه كان غضوبا ضيق الذرع وكان أصحابه يعرفون منه ذلك فلا

يرقون له ولا يرفقون به ، وكان حماد أصلع وكانت صلعته شـديدة الحمرة فانتهز ذلك صديقه مطيع وأفسد بينه وبين صاحبة له تسمى خشة وتعرف بظبية الوادى فساءت الحال لذلك بينه وبين صاحبه واتصل بينهما هجاء لذاع ولـكنه لذيذ لم يمنع اتصال المودة بينهما . ولست أروي لك منه شيئاً وقد تستطيع أن تجده فى الاغانى

وأنا مضطر الى أن أعدل عن شعر مطيع كله لضيق المكان وطول هذا الفصل ولـكنى لا أستطيع أن أغفل هـذه الابيات المشهورة التي تمثل شعر مطيع ونفسـه وعواطفه تمثيلا صادقاً أحسه القدماء فرقوا له وكلفوا به . وقد قال هذه الابيات فى جارة له أحبها بالرى ثم اضطر ففارقها فلما كان فى طريقـه مر بعقبة حلوان فجلس يستريح الى نخلتين هناك وذكر صاحبته فقال :

أسـعدانى يا نخلتى حـلوان	وابكيالى من ريب هذا الزمان
واعلمـا ان ريبـه لم يزل يفـ	رق بين الألاّف والجـيرانى
ولعمري لو ذقتما ألم الفـر	قة أبكاكما الذى أبكان
أسـعدانى وأيقنا أن نحسـا	سوف يلقا كما فتفترقان
كم رمتني صروف هذى الليالى	بفراق الاحبـاب والخـلان
غـير أنى لم تلق نفسى كما لا	قيت من فرقة ابنة الدهقان
جارة لى بالرى تذهب همى	وتسـلى ذنوبهـا أحزاني
فجعتنى الايام أغبط ما كنـ	ت بصدع للبين غير مـدان
وبرغمى ان أصبحت لاتراها العـ	ين منى وأصبحت لا ترانى

إن تكن ودعت فقد تركت بى   لهباً فى الضمير ليس بوان
كحريق الضرام فى قصب الغا   ب ومتـه ريحان تختلفان

وقد جعلت هذه الابيات لنخلتى حلوان تاريخا وذكري بين الأدباء والشعراء . قالوا أراد المنصور أن يقطعها فلما أنشد هـذا الشعر كره أن يكون النحس الذى يفرق بينهما . وأراد المهدى أن يقطعهما فنهاه المنصور عن ذلك . قالوا ومر الرشيد بحلوان وهو ذاهب الى طوس فهاج به الدم ووصف له الطبيب جمارا فلما سئل الدهقان أشار الى النخلتين ولم يكن فى حلوان غيرهما فقطعت احداهما ثم مر الرشيد بالاخرى فرأى عليها هـذه الابيات فندم وقال لو علمت أن هـذه الابيات قيلت فى هاتين النخلتين ما عرضت لهما ولو قتلني الدم

واذا صح ما تحدث به الرواة فقد كان موت مطيع شعرا لا يعـد له شعر . قالوا سأله الطبيب فى علته التي مات فيها ماذا تشتهى اليوم ؟ فأجاب أشتهى ألاّ أموت !! أترى جوابا أكثر شعرا وأغزر معنى وأشد تمثيلا لضعف الانسان وقوة رغبته فى الحياة من هذا الجواب ؟ ولئن أردنا أن نحكم على مطيع حكما جامعا مختصرا بعد هذا التفصيل لما تجاوزنا حكم أبى الفرج عليه حيث يقول :

« هو شاعر من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسـية وليس من فحول الشعراء ولـكنه كان ظريفا خليعا حلو العشرة مليح النادرة ماجنا متهما فى دينه بالزندقة » ولو شئنا أن نضيف الى هذا الحكم شيئاً لقلنا إنه كان صادقا في شعره آخذا بحظه الموفور من هذه الأوصاف كلها.

حماد عجرد [1]

« كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون » حماد عجرد وحماد الراوية وحماد الزبرقان يتنادمون على الشراب ، ويتناشدون الاشعار ويتعاشرون معاشرة جميلة وكانوا كأنهم نفس واحدة يرمون بالزندقه جميعاً وأشهرهم بها حماد عجرد . « الاغانى جزء ٣ صفحة ٧٣ طبع بولاق »

ونجد مثل هذا الكلام كثيرا فى كتاب الاغاني ، نجده اذا عرض أبو الفرج لمطيع بن اياس ، ونجده اذا عرض لغير مطيع بن اياس ، ونجد مثل هذا الكلام كثيراً فى كتب أخرى غير الاغانى لكتاب ورواة آخرين غير أبي الفرج اذا عرضوا لواحد من هؤلاء الشعراء العابثين الذين عاشوا فى النصف الاول للقرن الثانى من الهجرة . ونجد فى الاغاني وغير الاغانى كلاما كثيراً عن شعراء عابثين فى المدن الثلاث التى كانت أمصارا متقدمة للعالم الاسلامى أيام بني العباس وهى الكوفة والبصرة وبغداد ، ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك عن غير هذه المدن من الامصار الاسلامية : لا تكاد تجد شيئاً من ذلك عن دمشق ولا عن مصر ، فان وجدت ذكر الزندقة والزنادقة وللعبث والعابثين آخر أيام بني أميــة فانك واجد مع هذا ان هذه الزندقة وهذا العبث والمجون إنما حملت كلها من العراق إلى الشام بامر الوليد بن يزيد أو غير الوليد بن يزيد من مجانى بنى أمية ، الزندقة اذن عراقية لانهـا

---

(١) نشر بالسياسة فى ١٢ رمضان سنة ١٣٤٣هـ — ١٦ ابريل سنة ١٩٢٤ م

فارسية ، نعم ، إنك تجد فى الاغانى وغير الاغانى أن الوليد بن يزيد عبث ومجن وأراد أن يتخذ لنفسه حاشية وندامى من العابثين وأهل المجون فالتمسهم فى الشام فلم يجدهم ، وسأل عنهم فدله الناس على قوم فى العراق ، دلوه على هذين « الحمادين » ، حماد عجرد وحماد الراوية ، ودلوه على مطيع بن اياس. وكانوا فى الكوفة فارسل يطلب إشخاصهم اليه فأشخصوا فاتخذهم ندامى له حتى قتل فعادوا إلى أوطانهم . وتجد فى كتب الادب كلها أو أكثرها ذكرا لطائفة من العابثين وأهل المجون المسرفين فيه ظهروا أيام بني أمية وايام كان بنو أمية حازمين منصرفين الى الجد : ظهروا فى الحجاز ، فى مكة وفى المدينة بنوع خاص ، ولكنك اذا بحثت عن مجون هؤلاء وعن أصل ما كانوا يظهرون من عبث ويتهمون به فى دينهم وسيرتهم انتهيت الى نتيجتين نجملها الآن ونفصلها يوم نعرض للعابثين من أهل الحجاز. الاولى أن مصدر هذا العبث عراقى دعا اليه الموالى الرقيق من الفرس وأهل العراق. الثاني أن لهذا العبث صبغة عربية تميزه من عبث الكوفة والبصرة وبغداد. لأن زعماء العابثين فى المدينتين المقدستين كانوا من اشراف العرب الذين اضطرتهم الحياة السياسية أيام بني أمية الى أن ينصرفوا عن السياسة وأمور الدولة ففرغوا لانفسهم وكان الله قد افاء على آبائهم كثيراً من الغنى والثروة الضخمة أيام الفتح وكان الخلفاء من بنى أمية يعرفون لهم أقدارهم ويسكونهم فى هاتين المدينتين بعيدين عن السياسة لايقطعون عنهم الارزاق والجوائز وإنما يدرونها عليهم ادراراً فكانوا يلهون ويعبثون ويستمتعون بهذه الحياة الفارغة مستعينين مع ذلك كله بالرقيق والموالى من الفرس وأهل العراق.

مهما تبحث اذن عن أصل العبث والمجون والزندقة فى الاسلام فلن تستطيع أن تعدو الفرس وأهل العراق الذين تأثروا بالفرس وكانوا بهم أشد اتصالا ، وقد تجد شيئاً غير قليل من تأثير اليونان وفلسفتهم فى زندقة هؤلاء الزنادقة واباحة هؤلاء الشعراء، ولكن هذا التأثير عرضى لا جوهرى ان صح هذا التعبير ، فهؤلاء الشعراء والزنادقة كانوا يتخذون من الفلسفة اليونانية حلية يزينون بها شعرهم وزندقتهم ولكنهم لم يتعمقوا قط فى الفلسفة اليونانية ولم تتأثر بها حياتهم وعواطفهم تأثراً قويا . على ان زعماء هؤلاء العابثين والزنادقة لم يبلغوا العصر الذي أزهرت فيه الفلسفة اليونانية فى بغداد وغيرها من أمصار المسلمين ، فلم يشهد هذا العصر مطيع ولا الحمادون ولا بشار ولا يحيى بن زياد ولا أيام هؤلاء قبل عصر المأمون وقبل ان يصبح البدع فى بغداد ترجمة الكتب اليونانية ودرس الفلسفة اليونانية . ولو أنى أردت ان أشخص زندقة القرن الثانى للهجرة تشخيصاً إن لم يكن علميا دقيقاً فهو يقربها من الاذهان تقريبا لا بأس به ، أقول لو أني أردت أن اشخص هذه الزندقة تشخيصاً أدبيا لقلت إنها ضرب من السخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص ، هى ضرب من هذا السخط ومن الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهم وحضارتهم وما ذاع فيهم من عقيدة دينية، وأكثر هؤلاء الزنادقة والعابثين لم يكونوا يكرهون الاسلام ليستبدلوا منه ديناً آخر يؤمنون به ويطمئنون اليه حقاً وإنما كانوا يكرهون الاسلام وكان كرههم للاسلام يضطرهم الى أن يحبوا غيره من العقائد الدينية . فهم كانوا يتخذون هذه العقائد وسيلة

إلى النبى على الاسلام والتخلص من قيوده وما أخذ الناس بهمن واجبات لم يكونوا يؤثرون على الاسلام النصرانيةولاالیهودية لانالفرس لميكونوا نصارى ولم يكونوا من اليهود ، ثم لم يكونوا يؤثرون على الاسلام الديانة الفارسية القديمة الخالصة من بدع المبتدعين وإنما كانوا يؤثرون من هـذه العقائد الفارسية ضروبا من البدع تدعو إلى الاباحة واللذة وترغب فيهما وتعين عليهما ، كانوا اذن يطمحون قبل كل شيء الى أن يستمتعوا باللذات فى غير حساب ولا تقتير . ولولا هذا الميل إلى اللذةونعيم الحياة لما انكروا من الاسلام شيئاً ولا سيما هؤلاء الذين كانوا لا يحفلون بالسياسة ولا يكرهون سلطان الدولة العربية ولا يريدونأن يثأروا للفرس من العرب، ولكن الاسلام كغيره من الديانات السماوية شديد فى باب اللذة حريص على تطهير الاخلاق وأخذ الناس بالطهر والنقاء فى سيرتهم الخاصة والعامة، وهذا يناقض الاباحة والاسراف فىاللذةويأخذعليهاالطريقفاذا استطاع محب اللذة والمسرف فيها أن يخرج عن أصول الاسلام فيستمتع بلذته فى غير حرج ولا جناح فهو مضطر بحكم الطبيعة الانسانية إلى أن يدفع عن مسلكه ويلتمس الحجج والادلة أو التعلات والمعاذير يحسن بها سيرته ، وقد فعل ذلك هؤلاءالعابثونفوجدوا ما كانوا يحتاجوناليهفى حياةالفرس وما شاع فيهم من البدعواستحالوا إلى شيء آخر أكثر من نصر اللذةهو التعصب على الاسلام وعلى كل دين من شأنه أن يأخذ الناس بشيء من القسط فى الاستمتاع باللذات ، ومن هنا هاجموا أصول الديانات وسخروا منها ، ومن هنا آثروا النار التى يعبدها الفرس ويردون اليها كل شيء على

الطين الذى ترد اليه الديانات السامية أصل الانسان والحيوان . ومن هنا آثروا التثنية الفارسية على التوحيد السامى ، وهم فى حقيقة الامر لايحفلون بتوحيد ولا بتثنية ولا بتثليث وإنما يحفلون باللذات فهم يؤثرون التثنية لهذا أيضاً . ولهم من الحياة السياسية فى ذلك العصر معين على هـذا الاسراف فى الالحاد والعبث فهو عصر انتصار الفرس على العرب وهـو عصر كان الخلفاء فيه من العرب الهاشميين ويعتزون بالفرس ويتملقونهم ويؤثرونهم بالحظوة ويكلون اليهم أمور الدولة كلها ، فما الذى يمنع الفارسية وأنصارها الذين يتخذونها وسيلة إلى اللذة والاسراف فى المجون أن تنتصر وتسود وتظهر جهرة غير مستخفية ولا محتاطة . من هذا كله نفهم مميزات هذه الزندقة الادبية التى ظهرت فى القرن الثانى للهجرة واستأثرت أو كادت تستأثر بالشعراء والادباء جميعاً . كانت أيام بنى أمية ضعيفة مترددة متسترة لا يكاد الناس يظهرون الميل اليها فلما اجترأ خليفة من خلفاء بنى أمية على أن يجهر بالفجور قويت واستطاعت ان تظهر ثم انتصر الفرس فانتصرت معهم وظهرت واضحة قوية حتى عرضت الحياة الدينية والسياسية للخطر فاضطر الخلفاء من بنى العباس الى أن يقاوموها مقاومة عنيفة لم تخل فى بعض الاحيان من ظلم واسراف .

كان حماد عجرد من زعماء هؤلاء الزنادقة أو هؤلاء الذين كانوا يتهمون فى دينهم ، وكانت لهؤلاء الناس أنديتهم ومجالسهم فى الكوفة والبصرة ثم فى بغداد ، ولم تكن هذه الاندية مستقرة ولا معروفة وإنما كانت متنقلة مع الزعماء . فهم كانوا يجتمعون فى دورهم وهم كانوا يجتمعون فى الاديرة وهم

كانوا يجتمعون فى البساتين والحانات . وعلام كانوا يجتمعون؟ على الشراب والغناء والعبث بالنساء والغلمان ، يسرفون فى ذلك اسرافا لا يعدله اسراف ويسخرون أثناء هذا الاسراف من اصول الديانات والاخلاق والنظم الاجتماعية التى تحظر عليهم ذلك وتعرضهم من أجله لألوان العذاب ، هل كانوا يجتمعون على ضرب من ضروب العبادة المنكرة أو فن من فنون الديانات الغريبة أو لون من ألوان الدرس الفلسفى غير المألوف : ذلك شىء أشك فيه بالقياس إلى الكثرة المطلقة من هؤلاء الشعراء والادباء بل أنا أجزم بأن هذه الكثرة لم تكن تحفل بشىء من هذا لانى قد قلت لك إنها لم تكن مخلصة فى الايمان بمذهب من المذاهب ولا فى إيثار دين على دين وانما كانت تتخذ المانوية شعارا . ولو أنها انصفت نفسها وآثرت الصدق لاتخذت شعارها الشك والسخرية ؛ وليس من شك فى أنهم كانوا يذكرون المانوية ويؤثرونها على الاسلام ولكن تفكها وانتقاما من هذا الدين الذى يسلط عليهم الشرط وغضب الامراء .

وكان هؤلاء الزنادقة يعلمون سخط الكثرة المطلقة من الناس على زندقتهم وان كانت هذه الكثرة تجهل حقيقة هذه الزندقة وكانوا يعلمون سخط الحكومة على الزندقة أيضاً . فكانوا يستغلون هذا السخط استغلالا قويا اذا ساءت الصلة بينهم وبين أصحابهم . وليس ادل من هذا على أن هؤلاء الزنادقة لم يكونوا صادقين فى زندقتهم ، فلو ان هناك صلة دينية متينة تجمع بينهم حقا وتكون منهم أقلية ممتازة متضامنة لما اساء بعضهم الى بعض ولما سعى بعضهم فى بعض ولما استعدى بعضهم على بعض السلطان .

ولكنهم كانوا يسرفون فى الاساءة الى أنفسهم والى أصحابهم. ويكفى أن تقرأ ما كان بين بشار وحماد من الخصومة واتصال الهجاء لتعلم مقدار هذا الاستعداء ومقدار ما كان يضمر الزنادقة بعضهم لبعض من الموجدة والحفيظة ومن الحقد والضغينة التي كانت تحمل أحدهم على أن يغرى بصاحبه اغراء منكراً. وانظر الى قول حماد يغرى الامير بخصمه بشار، فهو يمثل فى وقت واحد اجادة حماد فى الشعر وميله الى الشر وإيثار الانتقام على كل شيء:

قل لعيسى الامير عيسى بن عمرو	ذى المساعى العظـام فى قحطان
والبناء العالى الذى طال حتى	قصرت دونه يـدا كل بانى
يا ابن عمرو عمرو المكارم والتقـ	ـوى وعمرو الندى وعمرو الطعان
لك جار بالمصر لم يجعل الله	له منك حرمة الجيران
لا يصلى ولا يصـوم ولا يقـ	ـرأ حرفا من محكم القرآن
انما معدن الزناة من السفـ	ـلة فى بيتـه ومـأوى الزواني
وهو خدن الصبيان وهو ابن سبعـ	ـين فماذا يهوى من الصبيان؟
طهر المصر منـه يا أيها المو	لى المسمى بالعدل والاحسان
وتقرب بـذاك فيـه الى الله	تفز منه فوز أهل الجنان
يا ابن برد اخسأ اليك فمثل الـ	ـكلب فى الناس أنت لا الانسان
ولعمري لأنت شر من الكلـ	ـب وأولى منه بكل هوان

ولم يكن بشار أقل منه ميلا الى الشر ولا رغبة فى الاساءة الى خصمه وفى اتخاذ الزندقة وسيلة الى هذه الاساءة، ولعل أحدهما قد سرق من صاحبه طريقة الاستعداء هذه ولعلهما لم يسرقاها وانما وجداها طريقة مألوفة بين

الناس فى ذلك العصر ، فقد أشاع بشار عن خصمه حماد هذه الاشاعة المنكرة التى أساءت اليه غير قليل وهى أنه كان ذات يوم ينشد شعراً والى جانبه قارىء يتلو القرآن والناس مجتمعون من حوله فلما رأى حماد اجتماع الناس حول القارىء قال : علام يجتمعون؟ إن الذى أنشده لخير مما يتلو !

وهجا بشار حماداً بابيات يثبت فيها عليه الزندقة فقال :

ابن نهيي رأس علىّ ثقيل   واحتمال الرؤس خطب جليل
ادع غيري الى عبادة الاثنيـ   ـن فاني بواحد مشغول
يابن نهيي برئت منك الى الا   ه جهاراً وذاك مني قليل

قال ابو الفرج فاشاع حماد هذه الابيات لبشار وجعل فيها مكان (فاني بواحد مشغول) (فانى عن واحد مشغول) ليصح عليه الزندقة والكفر بالله تعالى فما زالت الابيات تدور فى ايدى الناس حتى انتهت الى بشار فاضطرب منها وجزع وهذا الخبر يمثل مكر حماد واحتراس بشار ، فقد كان حماد ماكرا شديد المكر ماهرا فى الخصومة يعرف كيف ينال من خصمه وكيف ينتصر عليه وكان بشار محترسا شديد الاحتراس يكره ان يوصف بالزندقة ويشفق من ذلك اشفاقا شديدا،وكان يرسل فضل زندقته الى غيره فيتهم الناس بما فيه ولهذا اكثر الاكثار كله حين هجا حمادا فى وصفه بالزندقة والكفر وما كان حماد اكثر منه زندقة ولا كفرا ، وانما كان الفرق بين الرجلين أن حمادا كان مستهتراً يجهر بمجونه ولا يخفى عبثه وأن بشارا كان محتاطا متحفظا يتكلف الدين والورع كلما احتاج الى ذلك ولم يخف أمر بشار على أحد بل لقى من احتياطه وتحفظه مالم يلق حماد من

جهره واستهتاره فقد قتل بشار لزندقته بأمر المهدي والرواة يختلفون كما
سترى فى موت حماد ولكنهم متفقون على انه قضى حياته موقرا لم يجر
عليه عبثه ومجونه أذى ولا شرا . وفى كتاب الاغانى خبر يثبت ذلك اثباتا
لاشك فيه وهو ان العلماء أجمعوا بالبصرة على أنه ليس فى هجاء حماد عجرد
لبشار شيء جيد الا اربعين بيتاً معدودة ولبشار فيه من الهجاء أكثر
من الف بيت جيد . وكل واحد منهما هتك صاحبه بالزندقة وأظهرها
عليه وكانا يجتمعان عليها فسقط عجرد وتهتك بفضل بلاغة بشار وجودة
معانيه وبقى بشار على حاله لم يسقط وعرف مذهبه فى الزندقة فقتل فيه .
ولعل فى هذا الخبر شيئا من المبالغة ، فهناك خبر آخر يدل على ان بشارا لم
ينتصر على حماد فى الهجاء وانما الذي انتصر هو حماد وان لم يكن له من
جيد الهجاء فى بشار الا أربعون بيتا ، فلسنا نرى فى سيرة حماد أنه قد
سقط أو ازدراه الناس وانما نعلم أنه احتفظ بمكانته وسلطانه حتى مات .
ونحن نذكر السلطان عمدا فقد كان لحماد شيء من السلطان الادبي غير قليل ،
كان يخيف الشعراء وكان يخيف الامراء وكان يخيف كبار الناس ، كان
يخيفهم لانه كان ماهرا في الهجاء سريعا اليه حديد اللسان فيه ، وكان كما
قلت لك فى حديث الاربعاء الماضى سيء الخلق سريع الغضب مندفعا الى
الانتقام ، وكان مع ذلك ماكرا لطيف المكر ، فكان الامراء ووجوه
الناس يحتاطون فى معاملته ويتلطفون له ويبتغون ما يرضيه ويتجنبون
مايسوءه وربما اضطر أحدهم الى شيء فاشفق أن يكره حماد فاعتذر اليه وبالغ
فى الاعتذار وكان حماد يقبل العذر حينا ويرده حينا آخر وكان هو الفائز

فى كلتا الحالتين فان قبل العذر كوفىء لقبوله وان رده بولغ فى ترضيه ،
ولقد خاف بعض الناس حمادا حتى اضطره ذلك الى أن يقطع الصلاة ،
ذلك أنه كان ذات يوم عند رجل من اشراف البصرة فى نفر من وجوه
الناس وجاء الغداء فقيل إن سهم بن عبد الحميد (أحد الحاضرين) يصلى
الضحى فانتظروا وأطال صاحبنا الصلاة فقال حماد :

الا أيهذا القانت المتجهد صلاتك للرحمن أم لى تسجد
أما والذي نادى من الطور عبده لمن غير ما بر تقوم وتقعد
فهلا اتقيت الله اذ كنت واليا بصنعاء تبرى من وليت وتجرد
ويشهد لى انى بذلك صادق حريث ويحى لى بذلك يشهد
وعند أبي صفوان فيك شهادة وبكر وبكر مسلم متجهد
فان قلت زدنى فى الشهود فانه سيشهد لى ايضا بذاك محمد

فلما سمعها سهم قطع الصلاة وجاء مبادرا فقال له قبحك الله يازنديق
فعلت بي هذا كله لشرهك فى تقديم أكل وتأخيره هاتوا طعامكم فاطعموه
لا أطعمه الله . قالوا نزل حماد على محمد بن طلحة فابطأ عليه بالطعام فاشتد
جوعه فقال فيه حماد :

زرت امرأ فى بيته مرة له حياء وله خير
يكره أن يتخم أضيافه ان أذى التخمة محذور
ويشتهى أن يؤجروا عنده بالصوم والصالح مأجور

فلما سمعها محمد قال له عليك لعنة الله . أى شىء حملك على هجائى وانما
نتظرت أن يفرغ لك من الطعام . قال الجوع وحياتك حملنى عليه وان

زدت فى الابطاء زدت فى القول فمضى مبادرا حتى جاء بالمائدة . كان حماد اذن مخوفا حياته كلها لم يسقطه هجاء بشار ولا تشهيره به بل انتصر هو على بشار كما قدمنا ، فاذا اردنا ان نعلل هذا الانتصار الذى ظفر به حماد مع ان خصمه اجود منه شعرا وانفذ منه لسانا فعلة ذلك شيئان ، الاول ان حمادا كان صادقا يلائم بين قوله وعمله فلم يكن يتكلف دينا ولا ورعا ولم يكن يتستر من عبث او مجون فكان بشار اذا هجاه وصفه بما لا ينكر اما بشار فقد كان متكلفا محتاطا فكان حماد اذا هجاه أحيا فى الناس حب الاستطلاع ودلهم من امره على ما يجهلون . الثانى ان حمادا لم يكن يعني فى هجاء بشار بالزندقة ولا بالكفر كثيراً وانما كان يسلك فى هجائه طريق الشعراء الاولين فيهجو أمه وأباه وامرأته ويصف شخص بشار بما لم يكن بشار يستطيع ان يصف به شخص حماد ، قال الرواة ان بشارا بكى حين سمع قول حماد فيه :

وأعمى يشبه القرد اذا ما عمى القرد

فلما سئل عن بكائه قال : يراني فيصفني ولا أراه فاصفه ! وكان هذان الشاعران لما عظمت بينهما الخصومة قد اتفقا على رجل سار بينهما يروى لكل منهما ما قال صاحبه فيه ويحمل اليه الجواب ، ولم تكن الصحف يومئذ معروفة فكان اختيار هذا الرجل وسيلة من وسائل النشر لا بأس بها . واذا سألت عن اصل هذا الهجاء الذى اتصل بين الرجلين أعواما طوالا فمصدره يسير ، وهو أن بشارا كانت له حاجة عند حماد فابطأ فيها فغضب بشار وعاتب صاحبه عتابا لاذعا فغضب حماد وهجا بشارا واتصل

الشر بين الرجلين فكان حديث أهل البصرة بل كان حديث أهل العراق ايام حياتهما و بعد ان ماتا ، وذلك يدلك على ما قلته من أن حمادا كان سريع الغضب مندفعا الى حب الانتقام . على أن الصداقة وحسن المودة ربما وقفاه احيانا عن الاندفاع فى الشر فقد داعب مطيعا ذات يوم فرد عليه مطيع بشعر منكر كان من شأنه أن يغرى به حمادا ولكن حمادا ملك نفسه وغفرها لمطيع ولم يرد عليه هجاءه وانما مدحه بشعر لا بأس به ،على أن حلم حماد كان محدودا فهو كان يحلم اذا لم ينله أذى فى الحب أو الهوى فاذا ناله هذا الاذى فلم يكن للحلم اليه سبيل ، وقد اتصل الهجاء بينه وبين مطيع كما اتصل بينه وبين بشار لامرين كلاهما حب ، الاول أن مطيعاً زار معه صاحبته خشة فازداره عندها وعيره صلعته وكانت شديدة الحمرة ، فساءت الصلة بينه وبين صاحبته فاتصل الهجاء بين الرجلين وانتهز أصحابهما هذه الفرصة فاذكوا النار ليضحكوا من حماد . الثانى أن حمادا كان يهوي غلاما فهويه مطيع وتقرب اليه فاغتاظ لذلك حماد وتهاجيا ، ولم يقف هجاء حماد عند بشار ومطيع وغيرهما من أفراد الناس الذين كان يهجوهم كلما اقتضت الظروف وانما تجاوز هؤلاء جميعا الى رجل من أهل الكرخ يعرف بأبى عون كان صديقا لحماد ولمطيع وكانت له جارية تسمى جوهر كان حماد يحبها ويجن بها وكان يلقاها من حين الى حين فتسامع الناس بذلك وتحدثوا فيه وكره سيدها هذا الحديث فحجبها عن حماد فانكر حماد ذلك وهجا الرجل فاسرف فى هجائه واقذع

ولست أروى لك من هذا الهجاء شيئا فليس الى روايته سبيل . .

وكان حماد ضيق الذرع لا بأصحابه ومداعبيه وحدهم بل بالنساك وأهل الزهد اذا عرضوا له وانتقصوه ، ويختلف الرواة في قصة له أوقعت مع أبي حنيفة أم مع يحيى بن زياد ومهما يكن صاحب هذه القصة فقد كان صديقا لحماد ثم نسك وأخذ ينتقص حمادا وأخذ حماد يلاطفه ويرفق به لعله يقلع عن انتقاصه فلم يقبل فكتب اليه :

هل تذكرن دلجى اليـ ـك على المضمرة القلاص
أيام تعطيني وتأ خذ من أباريق الرصاص
ان كان نسكك لا يتم بغير شتمي وانتقاصي
أو كنت لست بغير ذا ك تنال منزلة الخلاص
فعليك فاشتم آمنا كل الامان من القصاص
واقعد وقم بي ما بدا لك في الاداني والاقاصي
فلطالما زكيتني وأنا المقيم على المعاصي
أيام أنت اذا ذكر ت مناضل عني مناص
وأنا وأنت على ارتكا ب الموبقات من الحراص

ويقول الذين يضيفون هذه القصة الى يحيى بن زياد ان هذا الشعر اتصل به فلم يزده الا طعنا في حماد ونعيا عليه فقال حماد فيه :

لا مؤمن يعرف ايمانه وليس يحيى بالفتى الكافر
منافق ظاهره ناسك مخالف الباطن للظاهر

أما الذين يضيفون القصة الى أبي حنيفة فيقولون إنه لما قرأ تلك

الابيات خاف من حماد فاقلع عن شتمه .

ولو أني أحببت أن أشخص حمادا كما شخصت مطيعا والوليد بن يزيد لوصفته قبل كل شيء بحدة الطبع وسوء الخلق وحب الانتقام والاسراع اليه ، ثم بالصراحة في القول والملاءمة بينه وبين العمل وبكره النفاق والانصراف عنه ، لا يعنيه أرضي الناس عنه أم سخطوا عليه ، ثم بحدة اللسان ومضيه واقذاعه وكلفه بفاحش القول وبحثه عن اسوئه وأقبحه ، ثم بالسخرية من الناس وازدرائهم لا على أنه يتخذ ذلك فلسفة وأصلا من أصول الحياة كالوليد ومطيع وأبي نواس ، بل على أنه يتخذ ذلك وسيلة من وسائل الشعراء يتخلص بها كلما ضاقت عليه المذاهب وأخذت عليه الطرق أو دعته الى ذلك حاجة ، لم يكن حماد يحفل بما يحفل به الناس من الوفاء والانصراف عن التناقض وانما كان صديقا مخلصا حتى تبدو له حاجة أو تسنح له فرصة أو تضطره ضرورة ، فاذا صداقته قد استحالت الى عداء واذا هو ليس أقل صدقا واخلاصا في العداء منه في المودة والحب ، فقد مدح يحيى بن زياد واتخذه صديقا ونال جوائزه ثم كان الخلاف فهجاه ، وصادق بشارا وصافاه ثم اختصما فلم يعرفا في الخصومة رحمة ولا رفقا ، وصافى مطيعا وأحبه ومدحه وأكثر في الثناء عليه ثم اختصما في امرأة مرة وفي غلام مرة أخرى فهجاه وأقذع في هجائه ، وكان على هذا كله يؤثر شعره وضروراته على البر بالناس والعدل في معاملتهم ، هجا ذات يوم رجلا يقال له حشيش وجعل اسمه قافية لهذا الشعر وأراد أن يبالغ في ذمه فشبهه بحيش وكان بحيش هذا رجلا من أهل البصرة وادعا لا يعرف حماداً ولا

يعرفه حماد فلما قرأ الرجل هذا الشعر جزع له وسافر من البصرة حتى بلغ الكوفة فعاتب حمادا فقال له ضاحكا معتذرا : لا بأس عليك فان هذا من آثام القافية ولن أعود اليه

لعلك تسأل بعد هذا كيف استطاع حماد على مجونه وفسقه واشتهاره بالزندقة ونيله من أعراض الناس ووجوه الامصار أن يأمن على حياته غائلة الخلفاء والحكام ؟ والجواب على ذلك يسير وهو أن حمادا كان متصلا أيام العباسيين بأمير من أمرائهم هو محمد بن أبي العباس السفاح ، قالوا انه أدبه ونادمه فأمن لاتصاله به كل غائلة ، على أن اتصاله بمحمد هذا جر عليه خطوبا جساما فقد كان محمد هذا خليعا كما كان جعفر بن المنصور حامي مطيع خليعا أيضاً وكان المنصور يكره محمدا ويؤثر عليه المهدى بالخلافة كما كان المنصور يزدرى ابنه جعفرا ويريد اقصاءه عن الخلافة وكان محمد هذا يعشق زينب بنت سليمان بن على من أشراف العلويين فلما ولاه عمه المنصور البصرة خطب زينب هذه فلم تقبل خطبته فزاده الرفض حبا لها وهياما بها ولم يكن شاعراً أولم يكن يجيد الشعر فلجأ الى مؤدبه ونديمه حماد وجعل حماد يتغزل له فى صاحبته وجعل حكم الوادى يغنيه بغزل حماد وانتشر هذا الشعر ونسبه الناس الى محمد حينا والى حماد حينا آخر ولكن أخا زينب محمد بن سليمان كان يعلم جلية الأمر فغضب على حماد وتوعده وحلف ليقتلنه وظل حماد آمنا ما عاش محمد بن أبي العباس ولكن محمداً مات فاضطرب حماد وأشفق من وعيد خصمه ويقولون انه لجأ الى قبر سليمان أبى خصمه هذا واستجار به وقال شعراً كثيراً جيداً يستعطف به محمد بن سليمان فلم

يعطف عليه ولم يرث له وانما أقسم ليسقين بدمه قبر أبيه ، قال الرواة فهرب حماد حتى وصل بغداد فاستجار بجعفر بن المنصور فاجاره على أن يهجو محمد ابن سليمان فهجاه وبالغ فى هجائه وأجاد ، فلم يزدد محمد الا سخطا عليه ؛ قالوا وكان حماد فى الاهواز فأرسل اليه محمد أحد مواليه فقتله غيلة ويقال لم يقتل وانما أصابته علة طالت عليه ووصل نعيه الى بشار ولم يكن حماد قد مات فقال بشار :

لو عاش حماد لهونا به　　　لكنه صار الى النار

قالوا فبلغ هذا البيت حمادا وهو عليل فقال :

نبئت بشارا نعى لي ولا　　　شر برانى الخالق البارى

ياليتنى مت ولم أهجه　　　نعم ولو صرت الى النار

وأي خزى هو أخزى من ان　　　يقال لى ياساب بشار

ثم مات حماد وكان من أمر بشار ما كان حتى قتله المهدى فدفن بشار مع حماد فى مكان واحد . قالوا فمر بهما شاعر من شعراء البصرة كان يهاجي بشارا يقال له أبو هشام الباهلى فوقف على قبريهما وقال هذه الابيات التى تختصر فيهما رأى طائفة من المعاصرين :

قد تبع الاعمى قفا عجرد　　　فاصبحا جارين فى دار

قالت بقاع الارض لامرحبا　　　بقرب حماد وبشار

تجاورا بعد تجافيهما　　　ما ابغض الجار الى الجار

صارا جميعا فى يدى مالك　　　فى النار والكافر فى النار

*

حسين بن الضحاك الخليع[1]

أريد اليوم أن أحدثك عن شاعر ظريف شديد الظرف، ربما انقطع نظيره في شعراء العصر العباسي كله، وهو مع ظرفه واسرافه في المجون قليل الفحش في اللفظ غير متهالك على القول الآثم والالفاظ المنكرة، لا يتخيرها ولا يقصد اليها، وانما يعرض اليها اذا اضطر اليها اضطراراً، وهو على ظرفه ورقة حاشيته وحرصه على نقاء اللفظ وطهره شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، مجود اذا فكر مظفر اذا بحث موفق الى اللفظ المتين والاسلوب الرصين في غير جفوة ولا غلظة، لا يعرف التكلف في لفظ ولا معنى، وانما ينطلق لسانه مع سجيته، وسجيته سهلة مرسلة غنية غزيرة المادة لا تكاد تنضب ولا ينالها اعياء أو كلال. وحياته كلها عبر وعظات، ولكنها عبر وعظات مبتسمة ليست بالقاتمة ولا العابسة ولا بالتي تردك وتنفرك وتجعل للحزن والأسى الى قلبك سبيلا. ولعلك لا تكاد تجد من شعراء هذا العصر رجلا مثله تقرأ أخباره فتظل مبتسما منذ تبتدىء الى أن تنتهي دون أن تعبس أو تقطب، وربما تجاوزت الابتسام الى الاغراق في الضحك من حين الى حين. ولكنك لن تترك الابتسام الى الحزن الشديد. وربما اعترضتك في طريقك سحابة محزنة ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هينة فهي أضعف من أن تزيل ابتسامتك. وكان هذا

---

(١) نشرت بالسياسة في ١٩ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ ٢٣ ابريل سنة ١٩٢٤ م

الشاعر من المعمرين بلغ المئة أو كاد ، وعاصر طبقات من الشعراء والولاة من حاشية الخلفاء ، ولكنه ظل محتفظا بشخصيته الوادعة المبتسمة ، تغير الناس واختلفت الظروف وظل هو واحداً لم يتغير . كان خليعا بل كان يعرف بالخليع ، وكان كثير المجون مسرفا فيه وما أحسب أن أبا نواس سبقه الى لذة أو تفوق عليه فى مأثم ولكنه على خلاعته واسرافه فى المجون وتهالكه على اللذات احتفظ طول حياته بشئ من كرم الخلق وطهارة العنصر وجودة الاصل كأنما كانت هذه اللذات والآثام تتزلق على نفسه وأخلاقه تزلقا دون أن تترك فيها أثراً باقياً ، وانما كانت الآثار التى تتركها لياليه الساهرة وأيامه المملوءة بالعبث . هذه الاشعار الجميلة الحلوة التى سأظهرك على طرف منها .

قلت إن حياته كانت عبرة كلها ، فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء الذين انما كانوا يصلون الى الخلفاء بعد الجهد والكد وبعد التلطف وحسن الحيلة وانما كان متصلا بالخلفاء اتصالا شديدا يعاشرهم ويرافقهم ويتدخل فى حياتهم الخاصة وربما تدخل الى أكثر مما ينبغى ، وكان الخلفاء يبحثون عنه ويحرصون على عشرته ويبذلون فى ذلك غير قليل من الالحاح والعطاء ، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر فى أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء .

نشأ مع أبي نواس فى البصرة واختلفا معا الى مجالسها وملاهيها ثم افترقا فذهب أبو نواس الى بغداد وأقام هو فى البصرة ، ولم تكد تمضى مدة قصيرة على أبى نواس فى بغداد حتى بعد صوته وتسامع به أهل العراق لأنه

اتصل بالأمراء وأشراف الناس فارتفع قدره وعلت مكانته وحمل الهواء ذلك الى الحسين فى البصرة فغبط صاحبه وقفا أثره وانتقل الى بغداد فمدح الناس وتقرب من أشرافهم واختلف الى مجالس بغداد وملاهيها وقال الشعر فى الخمر وفى ضروب اللذات، وما هى الا أن عظم أمره وتسامع به أهل بغداد وزعماؤها ولكنه مع ذلك لم يصل الى الرشيد وانما اتصل بابناء الرشيد، وهل اتصل أبو نواس بالرشيد الا قليلا؛ وهل اتصل أبو نواس بالرشيد الا كما كان يتصل به الشعراء الذين كانوا يقصدون الى ذلك ويحتالون فيه حتى اذا نالتهم هذه الحظوة أنشدوا الخليفة شعرهم وانصرفوا وقد نالوا من جوائزه ما أتيح لهم، ذلك أن أبا نواس والحسين بن الضحاك لم يكونا من هؤلاء الذين يصاحبون لمصاحبة الرشيد، فقد كان فى الرشيد شىء من العبث وحب اللهو، ولكن عبث الرشيد ولهوه لم يكونا قوام حياته وانما كانا ضربا من الترفيه على النفس؛ ولم يكن أبو نواس والحسين من الذين يصاحبون لغير اللهو، فلم تنفق بضاعتهما عند الرشيد وانما نفقت عند الامراء من أبنائه وعند الوزراء وأشباه الوزراء من رؤساء الدولة وأشرافها. فأما أبو نواس فاتصل بالفضل بن الربيع وبنيه واتصل شيئا بالامين حين كان وليا للعهد؛ واتصل بطائفة من أمراء البيت المالك. وأما الحسين فانقطع أو كاد ينقطع لخدمة أميرين من أبناء الرشيد، لم يكن لهما حظ من الملك ولا طمع فيه وانما كانت حياتهما ضربا من البطالة الاضطرارية، وكأن الله قد وفر عليهما من الثروة وأسباب اللذة ماجعل حياتهما عيداً متصلا وهما صالح بن الرشيد وأبو عيسى بن الرشيد. وكان الحسين متصلا اتصالا خاصا

بصالح ينادمه ويساقيه ويكاد يغني معه الليل والنهار ، ثم اتصل الحسين بالامين واشتدت صلته به حتى تجاوزت علاقته مابين الشعراء والخلفاء الى شيء يشبه الصداقة والمودة القوية ، ولسنا ندري الى أي حد بلغ اخلاص الامين لنديمه ، ولكننا نعلم أن اخلاص الحسين للامين لم يكن له حد ، ونعلم أن أيام الامين أظهرت من هذا الشاعر الخليع المتهالك على اللذة رجلا وفيا متين الخلق صريحا يعرف كيف يكون من الانصار السياسيين وكيف يتعصب لحزبه ويؤيد أصحابه ويتعرض في سبيل ذلك للخطر ، كان الحسين من أشد الناس تعصبا للامين وزراية على المأمون حين ظهر الخلاف بين الاخوين واندفع في ذلك الى غير حد ، ثم اشتدت المحنة ووصلت جيوش المأمون الى بغداد وأخذت الحرب أشنع أشكالها فلم يخف الحسين ولم يفزع ولم يكن أقل انتصاراً لصاحبه منه في أيام اللين والنعمة . ولقد كان يتلقط أخبار هذه الحرب حتى اذا وصل اليه من أخبارها خبر ابتهج به وأسرع لحمله الى الامين مهنئا مشجعا ، روى لنا أبو الفرج من شعره في ذلك هذه الأبيات :

أمين الله ثق بالله ... ه تعط العز والنصرة
كل الأمر الى الله ... كلاك الله ذو القدرة
لنا النصر باذن الله ... ه والكرة والفرة
وللمراق أعدا ... ئك يوم السوء والدبرة
وكأس تورد المو ... ت كريه طعمها مرة
سقونا وسقيناهم ... فكانت بهم الحرة

كذاك الحرب أحيانا ... علينا ولنا مرة

ثم قتل الأمين وكانت الكارثة فلم يهن الحسين ولم يضعف ، لم ينقلب على عقبيه ، ولم يتملق المنتصر وانما ملكه حزن ليس بعده حزن وانطلق لسانه من الرثاء بالجيد المؤلم الذى تتقطع له القلوب وتتفطر له الاكباد ، وانطلق لسانه أيضاً بالهجاء اللاذع للمأمون وأصحابه واستعداء الله عليهم بعد أن عجز عن استعداء الناس ، ولج فى ذلك وألح فيه حتى نهض المأمون من خراسان يريد العراق ، فلم يزدد الحسين الا هجاء للمأمون ورثاء للامين حتى رق له أصحابه وأشفقوا عليه وألحوا فى نصحه . روى أبو الفرج أن الحسين تحدث عن نفسه بهذا القول : « كنت عازما على أن أرثى الأمين بلسانى كله وأشفى لوعتى فلقينى أبو العتاهية فقال لى ياحسين أنا اليك مائل ولك محب وقد علمت مكانك من الامين وانه لحقيق بأن ترثيه الا أنك قد اطلقت لسانك من التلهف عليه والتوجع له بما صار هجاء لغيره وثلبا له ، وتحريضاً عليه وهذا المأمون منصب إلى العراق قد أقبل عليك فأبق على نفسك . ياويحك أتجسر على أن تقول

تركوا حريم أبيهم نفلا ... والمحصنات صوارخ هتف

هيهات بعدك ان يدوم لهم ... عز وان يبقى لهم شرف

أكفف غرب لسانك واطو ما انتشر عنك ، وتلاف ما فرط منك فعلمت انه قد نصحنى فجزيته الخير وقطعت القول فنجوت برأيه وما كدت أنجو »

وما أشك فى أن أبا نواس لو عاش كما عاش الحسين لأدركه من

المأمون شر كثير ، فلم يكن أبو نواس أقل حبا للأمين من الحسين ، ولم يكن أبو نواس أشـد بغضا للمأمون من الحسين ، وأنت تذكر هذه الابيات القليلة التى قالها أبو نواس يرثى بها الامين فمثلت أحسن تمثيل حبه لهذه الدولة الراحلة وبغضه لهذه الدولة القائمة :

طوى الموت ما بيني وبين محمد وليس لما تطوى المنيـة ناشر
وكنت عليه أحذر الموت بعده فلم يبق لى شيء عليه أحاذر
فلا وصل الا عبرة تستديعها أحاديث نفس مالها الدهر آخر
لئن عمرت دور بمن لا أحبهم لقد عمرت ممن أحب المقابر

فانظر بعد هذا الى رثاء الحسين للامين ورأيه فى الدولتين ، وحدثنى أتجد أبلغ من هذا الشعر فى وصف الهزيمة السياسية ، وحدثنى أيستطيع منهزم في السياسة معترف بهزيمته أن يصف موقفه بخير من هذا الكلام :

سألونا أن كيف نحن فقلنا من هوى نجمه فكيف يكون
نحن قوم أصابنا حـدث الدهـ ـر فظلنا لريبـة نستكين
نتمني من الامين ايابا لهف نفسى وأين منا الامين

وانظر الى هذه الابيات التى تذكر بما رويت لك من شعر أبي نواس ، ولم لا يقصد الشاعران الى معنى واحد وكلاهما كان محبا للامين مؤثرا له ، وكلاهما كان عدوا للمأمون مسرفا في بغضه :

أعزي يا محمـد عنك نفسى معاذ الله والايدى الجسام
فهلا مات قوم لم يموتوا ودافع عنك لى يوم الحمام
كأن الموت صادف منك غنما أو استشفى بقربك من سقام

واقرأ هذين البيتين :

هلا بقيت لسد فاقتنا أبدا وكان لغيرك التلف
فلقد خلفت خلائفا سلفوا ولسوف يعوز بعدك الخلف

ويظهر أن هذين البيتين تركا فى نفس المأمون موجدة شديدة على الشاعر ، فقد تحدث ثمامة ابن الاشرس ان المأمون لما وصل بغداد طلب أن يسمى له نفر من أهل الشعر والادب يتخذهم له جلساء . فسمى له قوم منهم الحسين فذكر هذين البيتين وأقسم لا يراه الا فى الطريق . قال ثمامة وانحدر الحسين الى البصرة فأقام فيها طوال أيام المأمون

والناس يتحدثون أن الحسين ضاق بسخط المأمون عليه وأشفق من ذلك فتوسل الى المأمون بوسائل مختلفة ووسط اليه نفرا من أشراف القوم. منهم عمرو بن مسعدة ، ومدحه ، أو استعطفه بشعر لا أجد فيه أنا روح الحسين ، فلم يبلغ من المأمون الا أن وصل له أرزاقه ولكنه أبى الاباء كله أن يأذن له فى الاختلاف الى القصر . وسواء أصحت هذه الاخبار كلها أم لم تصح فان فى حياة الحسين أيام المأمون رغم ما قال فيه وفى أخيه آية على ما اتصف به المأمون من الحلم وسعة العفو والاغضاء عن خصومه السياسيين . ولكن حياة الحسين أيام المأمون لم تكن من السعة واللين على ما تعود أيام كان ينادم الامين ويصاحب صالح بن الرشيد ، فقد ضاقت به بغداد واغلقت دونه أبواب الامراء وزعماء الناس ، واضطر الى أن يعيش فى البصرة من صلب ماله . وأشفق عليه بعض أصحابه وحدثوه فى ذلك وسألوه كيف (تمشى حاله) مع انقطاع الارزاق وكثرة النفقة . فقص

عليهم قصصا لذيذا يظهرنا على لون من ألوان الحياة الخاصة للأمين . زعم الحسين لسائله أنه يجد مشقة فى الحياة ولكنه مع ذلك يعيش وينفق دون أن يحتاج الى المسألة ، وهو انما ينفق ويعيش من صلات الامين وجارية له لم يسمها ، وذلك أن الامين دعاه ذات يوم فزعم له أنه صديقه وعشيره وان عشير الرجل موضع ثقته وسره وأمنه ، وأنه محدثه بشئ يجب أن يخفيه وكانت للامين جارية فتنته بجمالها وحسن غنائها ، ولكنها كانت متجنية كثيرة الدل مسرفة فيه ؛ فكانت تنغص على الامين صفوه فضاق الامين بذلك منها وأراد أن يلقى عليها درسا وكلف الحسين أن يلقى هذا الدرس . زعم للحسين أنه سيدعو هذه الجارية وجارية أخرى لا تبلغها جمالا ولا اجادة فى الغناء وسيأمرهما أن تغنيا وطلب الى الحسين أن يفتر ويتثاقل اذا غنت الجميلة المحسنة وأن يطرب ويشرب ويظهر الجنون والهيام ويشق ثيابه اذا غنت الاخرى وأعفاه من كل حرج ووعده مائة ثوب لكل ثوب يشقه فوعد الحسين بالطاعة وخلا الى الامين وجاءت الجاريتان فغنت المحسنة وكان الحسين فتيا وكان رجلا صادقا ولا سيما اذا شرب . فلم يستطع أن يفى بالوعد وانما أخذ يظهر الرضا والاعجاب وكلما أومأ اليه الامين لم يزدد الا رضا واعجابا ، ثم غنت الاخرى فأخذ يتكلف السرور والطرب واستأنفت المحسنة غناءها واستأنف الحسين شرابه فاذا لبه قد طار واذا هو يصيح واذا الامين يشير ويقطب ويظهر العبوس ولكن الحسين عنه فى شغل بطربه ولذته حتى ضاق الامين وأمر بالحسين فجر برجله ثم أمر فحجب عنه . وأخذ الناس يعطفون على الحسين ويرثون له ويسألونه عن

سبب هذه النكبة فيقول : تحامل على النبيذ فاسأت الادب فقومني أمير المؤمنين : ومضى دون ذلك شهر ثم دعى الحسين الى القصر ، واذا الامين يتلقاه لقاء حسنا ويخلو اليه فى تلك الحجرة ويدعو المغنية وينبيء الحسين أن أمر هذه الجارية قد صلح وانها قد انتهت الى ما يحب وانها قد شفعت للحسين عنده فقبل شفاعتها ومنح الحسين عشرة آلاف دينار ومنحته هى دون هذا المقدار ثم اتصلت صلات هـذه الجارية للحسين فما كان يمضى أسبوع حتى تنتهى اليه هداياها والطافها ؛ وهو يعيش من ذلك أيام سخط المأمون عليه

على أن أيام المأمون لم تكد تنقضى حتى ابتسم الدهر للحسين فعاد الى بغداد واتصل بالمعتصم والواثق والمتوكل وكانت له عندهم جميعا حظوة لا تعد لها حظوة ، وكان مقدما عندهم جميعا على غيره من الشعراء ولا سيما الواثق ، فقد كان يحبه حبا شديداً ويطمئن الى منادمته ويتخذه موضعا لسره فى حياته الخاصة وما كان يقع بينه وبين جواريه من ضروب المجون والمزاح والوان الهجر والصدود ، وله مع هؤلاء الخلفاء جميعا أخبار حلوة تبسط فى روايتها أبو الفرج . فانت ترى أن هذا الشاعر قد اتصل بالامراء من أبناء الرشيد ثم اتصل بالامين والمعتصم والواثق والمتوكل من الخلفاء وأنت تعلم أن حياة القصر تطورت أيام هؤلاء الخلفاء ، تطوراً غير قليل . بل ان مستقر الحكم نفسه قد تغير وأحاط بالمعتصم وخلفائه قوم غير الذين كانوا يحيطون بالامين والمأمون ، وأنت تعلم أن الشعر نفسه تطور فكان فى القرن الثالث غيره فى القرن الثاني من وجوه مختلفة ، ولكن

شاعرنا قد استطاع أن يعاشر هؤلاء الخلفاء ويمدحهم وينشدهم من شعره الهزل والجد دون أن يغير من شخصيته شيئا وهل كان من اليسير عليه أن يغير شخصية قوية كشخصيته ؟

وقد يكون من الخير وقد عرضنا لشخصية الحسين بن الضحاك أن نجتهد فى وصفها وأن نعطيك منها صورة ما لتعرف مكانه من الشعراء الذين عاصروه . وقد سبقنا القدماء الى هذا فتصوروا هذا الشاعر تصوراً مقاربا ولكن ينقصه شيء من الدقة . شبهوه بأبى نواس ، أو قل خلطوا بينه وبين أبي نواس ، وأسرفوا فى هذا الخلط أحيانا حتى رووا لكل منهما شعر صاحبه ، وفى الحق انك تجد فى ديوان أبى نواس شعراً هو أشبه بالحسين ، وتجد فى أخبار الحسين شعراً هو أشبه بأبى نواس ، ولم يكن القدماء من الدقة وقوة البحث بحيث يصلون الى التفرقة بين هذين الرجلين اللذين اشتد بينهما التشابه حتى اصبحت التفرقة بينهما عسيرة على أشد الناس مهارة فى النقد وتعمقا فى البحث الادبى . وكان الحسين نفسه يعلم أنه يشبه أبا نواس ، وكان ابو نواس يعلم أن الحسين يشبهه ، وكانت بينهما مودة ولكن كان بينهما تنافس شديد ، تنافس شديد ادبى لم ينته بهما الى شر فيما نعلم ، وانما انتهى بهما الى الخصام والى التنابذ أحيانا دون أن يتصل بينهما الهجاء ودون أن يوقع احدهما بصاحبه ، وكان الحسين لا يخلو من حمق وسرعة الى الغضب وضيق الصدر ، لم يكن فيلسوفا وانما كان يلهو ويعبث فى غير فلسفة ومذهب . أما ابو نواس فقد رأينا أنه لم يكن يخلو من فلسفة ، وان فلسفته كانت تقوم على ازدراء الناس والسخر منهم والعبث بهم وبما يتصل

بحياتهم من أصول وعقائد ومن نظم وقواعد ، فكان يعبث بالحسين صديقه ويسخر منه ويغيظه لا يخفي ذلك ولا يتكلفه وانما يعلنه اعلانا ، ويعلنه الى الحسين نفسه وكان الحسين يغتاظ . ولكنه لا يجد شفاء لنفسه الا أن يشتم أبا نواس في وجهه أقبح الشتم ويتحدث الى الناس بذلك . ولم يكن أبو نواس يستبيح العبث في الدين والاخلاق والحياة المادية وحدها ، بل كان يستبيح العبث في الادب والشعر أيضا ، كان يؤثر نفسه بالخير في كل شيء ، وكان يرى انه شاعر مجيد واذا كان شاعرا مجيدا فهو خليق أن يسبق الشعراء جميعا الى آيات الشعر في المجون ووصف الخمر ، وكان يسبقهم جميعا الا الحسين ، فقد كانت للحسين في الخمر معان والفاظ جياد يتمنى أبو نواس لو ظفر بها وسبق اليها ولكن الحسين كان هو الظافر السابق ، وكان ينشدها أبا نواس وغير أبي نواس فكان أبو نواس اذا سمع شيئا من هذا فاستحسنه حسد الحسين عليه وزعم أنه أحق بهذا الشعر من الحسين : وان هذا الشعر لم يخلق الا ليقوله هو ، ثم ينصرف عن الحسين ويعود اليه وقد أخذ معناه وصاغه في لفظ له ، فاذا اظهر الحسين غضبا ضحك أبو نواس وقال « دع عنك هذا فو الله لا يروى لك شيء في الخمر وانا حيّ » .. وربما أراح ابو نواس نفسه من عناء النقل والسرقة فزعم القصيدة برمتها لنفسه وصدقه الناس وتناقلوا القصيدة على انها له . تحدث الرواة من هذا بالشيء الكثير وهو يمثل لنا ما كان للحسين وابي نواس من لين الخلق وما كان يجمع بينهما من حسن العشرة ومن الاخاء في الادب واللهو ، ولكنه يمثل لنا شيئا آخر هو الذي يعنينا من وجهة البحث الادبي ، يمثل لنا هذا التشابه الذي كان بين طبيعة

الرجلين وشعريهما فقد كان الرجلان مسرفين فى المجون متهالكين على الخمر مشغوفين بوصفها وذكر آلائها وكان مذهبهما فى ذلك واحدا أو مقاربا . ولم لا ؟ ألم يتأثروا جميعا باستاذ واحد هو الوليد بن يزيد ؟ ألم يعدوا جميعا على شعر هذا الملك الذى ظلم فى السياسة وظلم فى الادب ايضا ؟ ثم ألم يتأثرا جميعا بهذه الحياة البغدادية وهذا اللهو البغدادي ؛ ثم ألم يتصلا جميعا بالامين وقصور الامراء والوزراء ؟ ومع ذلك فالفرق بين الرجلين ظاهر لمن أراد أن يحقق ، ظاهر فى اللفظ وظاهر فى المعنى وظاهر فى الطبع أيضا . كان ابو نواس كالحسين ماجنا شاربا وصافا للخمر محبا للغلمان ، ولكنه كان من جهة مستهترا متهتكا يتمدح بالاستهتار والتهتك ويتخذهما مذهبا ودينا ، وكان من جهة أخرى بحكم هذا الاستهتار والتهتك متسفلا فى شعره لا يتكلف الاجادة اللفظية والمعنوية فى كل وقت ، كان يتكلف الاجادة اذا تحدث الى الخلفاء والامراء وأشراف الناس ، وكان يرسل نفسه على سجيتها اذا تحدث الى الشعراء والادباء وأوساط الناس ، ولكنه كان يتحدث الى الدهماء والى طبقات من الرقيق وغلمان الحانات والأديرة فكان يتبسط اذا تحدث الى هؤلاء وكان كثيرا ما يقول الشعر وهو سكران ، فلم يكن يستطيع الحرص على الاجادة اللفظية ، ثم كان أبو نواس ساخرا شديد السخر فكان يتعمد الاساءة الى اهل اللغة وأصحاب النحو فيحرف عليهم قواعدهم ويسخر لهم من اصولهم وهو مع ذلك لا يتجاوز اللغة ولا وجه الصواب فيها . أما الحسين فكان طول حياته متصلا بالامراء والخلفاء والوزراء والكتاب مقصوراً عليهم لا يكاد ينظم الشعر الا لهم او بحضر منهم ، فكان بمعزل

عما كان يضطر اليه أبو نواس من التحدث الى العامة ودهماء الناس وسفلة الرقيق ، وكان الحسين بحكم منزلتـه من القصور مضطرا الى أن يصطنع هذه اللغة المختارة النقية التى تصاح للارستقراطية ، فقل الفحش جدا فى شعره وغلبت المتانة والرصانة على ألفاظه وأساليبه وغلبت الجودة معانيه ، ثم لم يكن الحسين يتخذ السخرية مذهبا ولم يكن يعنيه أن يغيظ أهل الدين ورجال الصلاح ، ولم يكن يعنيه أن يغيظ أئمة اللغة وأصحاب النحو ، فكان فى شعره هـدوء واطمئنان خلا منهما شعر أبي نواس ، ولم يكن أقل من أبي نواس صدقا ولا استرسالا مع الطبيعة والسجية ، لذلك لا نجد فى شعره هـذا الاحتشام المتكلف الذي يصطنعه المنافقون من الفساق ، وانما كان الرجـل فاسقا لا يجرد فسقه ولا يظهره للناس عاريا كأبي نواس كأنه لم يكن يحليه ولا يزينه فيخلع عليه أثواب الورع والدين . كذلك كان الحسين وله الى هذا كله ميزة ربما لم يعظم منها حظ أبي نواس ، وهى مفهومة جدا . كان يعاشر الامراء والخلفاء وكان ينشيء لهم الشعر ليتغني لهم فيه المغنون ، وقد أكثر من ذلك حتى أثر فى شعره وأصبح شعره كله موسيقيا وقل أن تجد للحسين شعرا لم يتغن فيه المغنون ، وقل أن تجد له شعرا لا يصلح للغناء ، لا لجودة لفظه ومعناه فحسب بل لهما ولهذا التنسيق الموسيقى الذى لا تكاد تجده عند غيره . ومن هنا آثر أو كاد يؤثر دائما القصار من بحور الشعر ، ومن هنا اجتهد فى أن يضيف الى هذه الأوزان الشعرية العروضية أوزانا أخرى موسيقية . فانظر الى هذا البيت فهو يمثل ما أريد تمثيلا صحيحا :

قد غاب لا آب من يراقبنا   ونام لاقام سـامر الخـدم

فانظر الى قوله « قد غاب لا آب » والى قوله « ونام لا قام » تجد الى جودة المعنى وظهور حرص الشاعر على لذته هذا النغم الموسيقى الذى زاوج بين غاب وآب ، وبين نام وقام ، وهذا النحو من الموسيقى كثير فى شعر الحسين . وجملة القول فى شخصية هذا الشاعر أنه كان كأبي نواس ولـكنه أتقى من أبى نواس لفظا وأعف منه لسانا ، وأحرص منه على اختيار المتين من الـكلام ولم يكن يعدل أبا نواس فى خفة الروح وحلاوة المجون ، ولم يكن يبلغ أبا نواس فى الاستهتار والتهتك ، ولم يكن أقل من أبى نواس حرارة فى العاطفة وصدقا فى اللهجة ، ولـكنه كان يمتاز بشىء من الرجولة والوفاء لم يكن لأبى نواس منـه حظ عظيم . وكان يمتاز على أبى نواس بشىء آخر وهو انه لم يكن سريع التنقل فى اهوائه ولذاته ، وانما كان وفيا فى حبه كما كان وفيا فى صداقته ، وكانت قصة الحسين التى استأثرت بحياته الغرامية فى شبابه ، ان صح هذا التعبير ، هي هذا الغرام المتصل بينه وبين غلام من غلمان الامراء هو « يسر » غلام أبى عيسى بن الرشـيد . وكان « يسر » هذا جميلا خلابا فتن به صالح بن الرشيد نفسه وتلطف له واجتهد فى الحظوة عنده فوجد فى ذلك عناء شديدا ولم يظفر به الا بعد مشقة وبذل لمقادير ضخمة من المال . وكان هذا الغلام رسول اللهو بين الاخوين فأحبه الحسين نديم صالح كما أحبه صالح نفسه : وتثاقل يسر على الحسين وازدراه ولـكن الحسين تلطف واحتال وبالغ فى التلطف والحيلة حتى وجـد من قلب الغلام مكانا ، ولعل الذى انتهى به الى هذا المكان من قلب يسر انما هو

شعره الجيد الكثير الذى قاله فيه ، ولست أريد أن أقص عليك أخباره مع يسر ، ولست أريد أن أروى لك شعره فى يسر ، فهذا كثير لا تسعه هذه الصحيفة ، وانما أروى لك من هذا الشعر نموذجا حسنا يمثله تمثيلا صحيحا ، وهى هذه القصيدة التي قالها بعد ليلة لهو كانت بينه وبين يسر .

تيسرى للمام من أمم ولا تراعى حماية الحرم
قد غاب لا آب من يراقبنا ونام لا قام سامر الخدم
فاستصحبي مسعدا يفاوضنا اذا خلونا فى كل مكتتم
تبذلى بذلة تقر بها العـ ين ولا تحصرى وتحتشمى
ليت نجوم السماء راكدة على دجى ليلنا فلم ترم
ما لسرورى بالشك ممتزج حتى كأنى أراه فى حلم
فرحت حتى استخفني فرحى وشبت عين اليقين بالتهم
أمسح عينى مستثبتا نظرى أخالني نائما ولم أنم
سقيا لليل أفنيت مدته ببارد الريق طيب النسم
أبيض مرتجة روادفه ما عيب من فرقه الى القدم
اذ قصبات العراش تجمعنا حتي تجلت أواخر الظلم
وليلة بتها مسرة محفوفة بالظنون والتهم
سقيا لقيطونها ومخدعها كم من لمام به ومن لمم
وليلة القمص ان سألت بها كانت شفاء لعلة السقم
بات أنيسى صريع خمرته وتلك احدي مصارع الكرم
وبت عن موعد سبقت به الثم درا مفلجا بفم

أباحنى نفسه ووسدنى | يمنى يديه وبات ملتزمى
حتى اذا اهتاجت النواقس فى سحـ | ـرة أحوى أحم كالحمم
وقلت هيا يا صاحبي ونبهـ | ـت أبانا فهب كالزلم
فاستنها كالشهاب ضاحكة | عن بارق فى الاناء مبتسم
صفراء زيتية موشحة | بارجوان ملمع ضرم
أخذت ريحانة أراح لها | دب سرورى بها دبيب دمى
فراجع العذر إن بدا لك فى الـ | ـعذر وان عدت لاثما فلم

فانظر الى هذه القصيدة على طولها كيف جادت ألفاظها ومعانيها ؛ وانظر الى حذر الشاعر واشفاقه وانتظاره وفاء صاحبه بالوعد ثم شكه فى هذا الوفاء ، وهو يستمتع بلذاته لشدة حرصه عليه واكباره له ؛ ثم انظر اليه كيف يأخذ فى تفصيل لذته متبسطا واذا هو يدنو من الفحش قليلا قليلا حتى اذا لم يبق بينه وبين بلوغه الا قيد أصبع انصرف عنه وقد ألم به إلماما وخيله اليك تخييلا ، فاذا لم يكن بد من التصريح ففى لفظ لا يروع التقى ولا ينبو عنه سمع الرجل الناسك . . .

أترى الى أبى نواس فى مثل هذا الموضع ؟ أكان يعفيك من تصريح بشع ؟ أم كان يدخل عليك بلفظ مكروه ؟ بلى ، لو وقف أبو نواس هذا الموقف لتعمد الافحاش والاساءة ، لان أبا نواس لا يفكر وهو يقول مثل هذا الشعر فى الشعر وحده ، وانما يفكر فى خصومه الذين ينكرون عليه لذته ، فيريد أن يغيظهم ويكبتهم فيمضى فى الفحش الى غير حد .

وانظر الى هذه الابيات الاخرى التى تمثل لك رقة الحسين ولطفه فى الغزل :

لا وحبيك لا أصا فح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استرا ح وان كان موجعا
كبدى من هواك اسـ ـقم من أن تقطعا
لم تدع سورة الضنا فىّ للسقم موضعا

وما أظن التفسير والتعليق الا مفسدين لجمال هذا الشعر ! وكم نحب أن نسمع متغنيا يتغنى فيه كما تغنى فيه القدماء ببغداد : ولقد فتن ثعلب بهذا الشعر حتى قال لاصحابه ما بقى من يحسن أن يقول مثل هذا . . .

ولقد أريد أن أمثل لك شيئا من عبث الحسين ، فهو كثير ولكنى متحير لا أدرى ماذا اختار منه . فلأكتف من هذا بهذه القصة التى لا تمثل الحسين وحده ، وانما تمثل معه عاملين من أعلام الحياة السياسية أيام الواثق . شك الناس فى رمضان وأمر الواثق بالافطار فكتب الحسن ابن رجاء الى الحسين :

هززتك للصبوح وقد نهاني أمير المؤمنين عن الصيام
وعندى من قيان المصر عشر تطيب بهن عاتقة المدام
ومن أمثالهن اذا انتشينا ترانا نجتنى ثمر الغرام
فكن أنت الجواب فليس شىء أحب إلى من حذف الكلام

قال الحسين فوردت على رقعته وقد سبقه الى محمد بن الحرث بن بشخير ووجه الى بغلام نظيف الوجه . ومعه ثلاثة غلمة أقران حسان الوجوه ، ومعهم رقعة قد كتبها الى كما تكتب المناشير ، وختمها فى أسفلها وكتب فيها يقول :

سر على اسم الله يا أشـــكل من غصن لجين
فى ثلاث من بني الرو م الى دار حسين
أشخص الكهل الى مو لاك يا قرة عيني
أره العنف اذا استعـصى وطالبه بدين
ودع اللفظ وخاطـبه بغمز الحاجبين
واحذر الرجعة من وجـهك فى خفي حنين

قال فمضيت معهم وكتبت الى الحسن بن رجاء جواب رقعته

دعوت الى مماحكة الصيام وأعمال الملاهى والمدام
ولو سبق الرسول لكان سعيي اليك ينوب عن طول الكلام
وما شوقى اليك بدون شوق الى زمن التصابى والغرام
ولكن حل فى نفر عسوف بمنشور محل المستهام
حسين فاستباح له حريما بطرف باعث سبب الحمام
وأظهر نخوة وسطا وأبدى فظاظته بترك للسلام
وأزعجني بألفاظ غلاظ وقد أعطيته طرفى زمامى
ولو خالفته لم يخش قتلى وقنعني سريعا بالحسام

ولست أروى لك خبره مع الحسن بن سهل ولا قصته فى أمر مقمم ولادهاءه فى أمر الشامى وعشيقته « بصبص » فأنت تستطيع أن تقرأ هذا كله وأكثر منه في الاغانى . وأحسب انى قد أسرفت فى الاطالة فاختم هذه الصحيفة بهذه الابيات التى قالها الحسين وقد بلغ التسعين أو كاد ، وكان قد نادم المتوكل ثم شقت عليه الخدمة فاعتـذر ووشى به الناس الى

الخليفة فكتب اليه هـذه الابيات التى تمثل شعره وهو شيخ قد أدركه الفناء فلا تظهر السن فى هذا الشعر ضعفا ولا وهنا كما أنها لا تظهر فيه شبابا ولا قوة :

أما فى ثمانين وفيتها	عذير وان أنا لم أعتذر
فكيف وقد جزتها صاعدا	مع الصاعدين بتسع أخر
وقد رفع الله أقلامه	عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أصر على فتنة	وألحد فى دينه أو كفر
وان لمن أسرار الاله	فى الارض نسب صروف القدر
فان يقض لى عملا صالحا	أثاب وان يقض شرا غفر
فلا تلح فى كبر هدنى	فلا ذنب لى ان بلغت الكبر
هو الشيب حل بعقب الشباب	فأعقبني خورا من أشر
وقد بسط الله لى عذره	فمن ذا يلوم اذا ما عذر
وانى لفى كنف مغدق	وعز بنصر أبى المنتصر
يباري الرياح بفضل السما	ح حتى تلبد أو تنحسر
له أكد الوحى ميراثه	ومن ذا يخالف وحى السور
وما للحسود وأشياعه	ومن كذب الحق الا الحجر

*

بشار ابن برد(١)

ليس بذلك الوجه المشرق الجذاب الذي يستميلك ويستهويك ، وانما هو فيما أعتقد رجل ثقيل الظل ، له من الفن حظه الموفور ولكن روحه فى حاجة شديدة الى الخفة ، ولست أدرى أتشاركني فى هذا الرأى أم تخالفني فيه ، فأنا أعتقد أن من الشعراء والكتاب من تحبهم وتعجب بهم ، ومنهم من تحبهم ولا تعجب بهم ، ومنهم من يظفرون بالاعجاب وحده دون الحب ، أى أنا أعتقد أن الشاعر ليس محببا الى النفس لانه مجيد ليس غير ، وانما يجب أن يجمع الى هذه الاجادة خلالا أخرى تدنى منك شخصيته وتقارب ما بينها وبين نفسك حتى تحبه وتميل اليه . ولم يرزق الله بشارا من هذه الخلال شيئا ، أو لم يكد يرزقه منها شيئا ، وانما منحه من القوة الفنية والاجادة فى الشعر حظا موفورا ولكنه الى التنفير أقرب منه الى الترغيب وايجاد العطف . وقد كان من المعقول أن تكون هذه الآفة التى ابتلى الله بها بشارا مصدرا لحب الناس اياه وعطفهم عليه ورفقهم به لو أن بشارا عرف كيف يتلقى هذه الآفة وكيف يحتملها وكيف يعرف مكانته منها ، ولكن من البائسين من يجعل الله البؤس مصدر النقمة منهم والسخط عليهم ، لانهم يسيئون احتمال هذا البؤس أو يضعونه فى غير موضعه . فكم سخطت على معدم وكان من حقك أن ترحمه لانه لم يعرف

---

(١) نشرت بالسياسه فى ٢٦ رمضان سنة ١٣٤٢ — ٣٠ ابريل سنة ١٩٢٤

كيف يكون معدما أو فقيرا ، كذلك أصاب الله بشارا بهذه الآفة فسلبه البصر وكان الى ذلك نابغة فى الشعر يكاد ينعدم نظيره فى قوة الذكاء وحدة الذهن ، ولكنه أساء احتمال آفته كما أساء الانتفاع بذكائه وحدة ذهنه ، فأصبح بغيضا الى الناس مذمما عندهم ثقيلا عليهم حتى روى الرواة ان عامة أهل البصرة ابتهجوا لموته واستبشروا به كأن الله قد ازاح عنهم ضرا .

ربما لم تعرف آداب العرب فى اسلامهم شاعرين كبشار وأبي العلاء ، وكلاهما كان قد أصيب بهذه الآفة فاسدلت الظلمة بينه وبين العالم وما فيه من جميل أو قبيح . ولكن الفرق بين هذين الرجلين عظيم جدا ، لا أقول من الوجهة الادبية أو الشعرية ، فليس المقارنة بينهما من سبيل ، وانما اقول من هذه الوجهة التي تحبب اليك الرجل أو تبغضه اليك ، كلاهما كان مكفوف البصر ، وكلاهما كان سيء الظن بالناس مسرفا فى سوء الظن لانه كان مكفوف البصر ، ولكن احدهما استطاع أن يحمل مصابه راضيا مطمئنا ، وأن يكون لهذا المصاب نفسه خيراً خفيف الظل جذابا محببا الى النفس يكاد يكون كله حبا ، وهو أبو العلاء . أما الآخر فقد احتمل مصابه شر احتمال ، ماذا أقول ؟ بل هو لم يحتمل هذا المصاب وأكاد أحسب انه لم يفترضه ولم يشعر بوجوده ، بل أكاد أعتقد أنه اتخذ من هذا المصاب وسيلة الى الفخر والتمدح وأسرف فى ذلك اسرافا شديدا ، فكان يحمد الله على العمى لانه يحول بينه وبين رؤية الناس الذين كان يكرههم ويتبرم بهم تبرما شديدا ، وليس هذا شيئا ، فقد يستطيع الانسان فهمه وتأويله والاعتذار عنه ، ولكن بشارا تجاوز الحد فى ذلك فلم يكتف بحمد الله

على العمى ، بل اتخذ العمى فخرا وزعم أن ذكاءه النادر ونبوغه الفذ انما هما أثر من آثار هذه المحنة ، وقال فى ذلك كلاما كثيرا . وكان من اليسير أيضا أن يفهم الناس ذلك ويحتملوه ويجدوا وسيلة الى الاعتذار عنه ، فليس من الهين على رجل كبشار قد منحه الله قوة العقل وشدة الذكاء وحدة الذهن ونفاذ البصيرة ومنحه الى ذلك قوة الجسم ودقة الحس ولطفه ، ومنحه الى هـذا وذاك نفسا ثائرة مضطربة شرهة الى اللذة لا تقنع منها بالقليل ولا تظفر منها بحظ الا استزادته وطمعت فيما هو أعظم منه ، أقول ليس من الهين على رجل كبشار قد منحه الله هذا كله أن يحتمل آفة العمى راضيا بها مطمئنا اليها ، وانما المعقول أن يحدث ذلك فى نفسه سخطا شديدا على الحياة والاحياء لما يجر عليه ذلك من حرمان ... أضف الى هـذا أن حياة بشار تدلنا على أن أهل عصره لم يكونوا أرقاء ولا حريصين على الرفق وحسن الادب ، وانما كانوا يسخرون من بشار ويعبثون به ويسرفون فى ذلك حتى يبلغوا إعناته ويخرجوا به عن طوره . فكان هذا كله مصدراً لما نجده فى هذا الرجل من سوء الخلق وشدة البغض للناس والموجدة عليهم واضمار الشر لهم والاسراف فى السخرية منهم . وماذا تقول فى رجل لم يخلص لانسان؟ وما نحسب ان انساناً أخلص له ، وانما كان سيء الظن بالناس جميعا منطلق اللسان فى الناس جميعا ، يمدح ثم لا يلبث أن يهجو وربما مدح وهو يضمر الهجاء ، بل لعله لم يمدح الا وهو يزدرى ممدوحه ، وكان مخلصا اذا هجا لانه كان يزدرى الناس ويسرف فى بغضهم وقد عظمت فى نفسه هذه الخلة حتى استأثرت به وسيطرت عليه وأصبحت مقياس حياته وقانون

ما بينه وبين الناس من معاملة وانتهى أمره الى ان الناس انما كانوا يصلونه ويمنحونه الجوائز لا اعجابا به ولا رحمة له، ولا عطفا عليه بل اشفاقا منه واتقاء لأذاه. وعرف هو منهم ذلك فنالهم من حيث ينال الضعيف، مدحهم ولم يكره أن ينذر وهو يمدح، وربما أعرض عن المدح واكتفى بالانذار، وربما أعرض عن المدح والانذار جميعا وسلك أقصر الطرق وهجا بالبيت أو البيتين فيشفق المهجو من المزيد فينزل عند ما أراد. ثم انتهى به الامر الى أن أصبح يقينا عنده فاصبح بشار من أشد الناس ايثاراً لنفسه. يرى أن الخير يجب أن يكون موقوفا عليه وأن الشر يجب أن يعدوه الى غيره. ولم لا؟ أليس يرى انه أذكى الناس وأشعر الناس وأعلم الناس؛ واذن فيجب على الناس أن يؤمنوا له ويذعنوا لهواه، فان فعلوا فذلك والا ففي لسانه تثقيف لاعوجاجهم واصلاح لما فيهم من فساد... ولهذا لم يعرف هذا العصر رجلا أطول منه لسانا ولا أسرع منه الى شر، ولا أشد منه امعانا فى الفحش اذ هجا ولا أقل منه احتفالا بالعدل أو الظلم.

واخرى من خلال هذا الرجل هى انه أسرف فى بغض الناس وازدرائهم فاسرف لذلك فى ايثار نفسه عليهم؛ ومن اتصف بالايثار فقد اتصف بالجبن لان الايثار فى حقيقة الامر شكل من أشكال الجبن ولون من ألوانه، فليس شجاعا ذلك الرجل الذى يعجز عن أن يأخذ نفسه بما لا تحب، وانما الشجاع حقا هو من بدأ بنفسه فاخذها بالخير وحال بينها وبين الشر حتى اذا فرغ من نفسه عني بالناس. وكان بشار أشد الناس فى عصره جبنا وفرقا، كان طويل اللسان سفيها مسرفا فى الهجاء الا أن يبدو له ما يخيفه.

فاذا بدا له فى ذلك فهو ذليل منكسر . وكان يخاف كل شيء ، كان يخاف السيف وكان يخاف السوط وكان يخاف اللسان وكان يخاف غير هذا كله ، وله فى ذلك أحاديث . زعموا أنه طلب الى رجل مصور أن يتخذ له جاما ويرسم فيه طيرا ففعل الرجل وأقبل اليه بالجام فوصفه له فلم يرض ، وقال كان يجب أن ترسم فيه طيرا جارحا يصيد هذه الطيور ، ولكنك عرفت انى أعمى فاستخففت بى فلأهجونك ، قال صاحبه لا تفعل فانت نادم ان ان فعلت ، قال أتنذرنى ؟ قال نعم ، قال وبم ؟ قال أصورك على صورتك واجعل من ورائك قردا . ... وأضع ذلك على بابى ، فقهقه بشار وصفق بيديه وقال : قاتله الله . أمازحه فيأبى الا الجد . فانظر اليه أشفق من هذه الصورة ، ولو لم ينذره بها المصور لهجاه . وزعموا أنه طلب الى صديق له تاجر ثيابا بنسيئة فلم يوفق الرجل الى ما أراد فغضب بشار وكتب اليه بيتين من أقبح الشعر ولم يكن هذا الرجل شاعرا ولكنه اغتاظ لهذين البيتين فرد عليهما بشر منهما فانكسر بشار وأقسم لا يهجو مثله من سفلة الناس . قالوا وهجا بشار روح بن حاتم فجاءه منه التنذير فلم يحفل وألح فى الهجاء فاقسم روح لئن رآيته لاضربنه بالسيف ولو كان بين يدى الخليفة ، قالوا فلما انتهى ذلك الى بشار نهض من فوره فدخل على المهدى وعاذ به فاعاذه وأرسل فى طلب روح فكلمه فى ذلك فابى وقال انه أقسم ، فان رأى أمير المؤمنين أن يحتمل يمينى ، فدعا فأحضر المهدى الفقهاء ليتأولوا له مخرجا فافتوا بان يضرب به على جسمه بعرض السيف ، وكان بشار وراء ستار فأخرج واستل روح سيفه وضربه بعرضه ، قالوا فلما أحس بشار السيف جزع وصاح

أوه باسم الله ! فتضاحك المهدى : وأحاديث بشار فى الجبن والجزع من الهجاء كثيرة لا تحصى :

وخصلة أخرى تتميز بها شخصيته وهى انه اذ كان أثراً شديد الاشفاق فقد كان مسرفا فى النفاق أيضا : وليس يتمثل اسرافه فى النفاق من مكانه من الزنادقة ورأيه فيهم وسيرته معهم ، كان من أشد الناس الحاداً فى الدين وتهالكاً على اللذة وربما لم يكن كغيره من الشعراء الذين قدمنا الحديث عنهم يحب المجون واللذة على غير عقيدة ولا مذهب فلسفى ، وانما كان رجلا له رأى وبصيرة : يفكر ويناظر ويحاج عن رأيه : وكان صديقا لواصل بن عطاء ونفر من اصحاب الكلام فى البصرة فكانوا يتناظرون فى الدين ثم افترقوا : فاما واصل فمضى فى الاعتزال . وأما غيره فذهبوا مذاهب مختلفة فى الكلام : ومنهم من ألحد ولم يخف إلحاده : وانما ترك البصرة فرارا من أميرها ومخافة أن يدل أصحابه ومناظروه ، أما بشار فانه لم يعان شيئا خاصا وانما مضى فى سيرته يخيل للناس انه رأى الجماعة ويضمر الزندقة والالحاد ويزدرى رأى الجماعة ، وكان الناس يعلمون منه ذلك وكان واصل يعلمه ، وكان واصل ينكر عليه ذلك ويهتف به فهجاه بشار وأسرف فى هجائه حتى سكت عنه واصل : وكذلك كان يفعل مع كل من يخشى منه شرا ، ثم لم يكن يكتفى بهذا وانما كان يدفع عن نفسه تهمة الزندقة بهذه الطريق التى يسلكها الجبناء وانذال الناس فيهم بها غيره من خصومه ومن أصدقائه أيضا : وقد مر لك فى أحاديثنا الماضية شىء من سيرته مع حماد عجرد فقد أسرف فى اتهامه بالزندقة ، وما نشك فى أن حظ حماد من الاجادة كان بعيدا عن أن يبلغ

حظ بشار .

كانت زندقة بشار عامية ان صح هذا التعبير أو قل كان لزندقته وجهان أحدهما عامي نظري فيه ذكر لمذهبه ودفع عنه وحوار دونه ، والآخر عملي أدبي يشارك فيه حمادا ومطيعا وغيرهما من المجان . فكان بشار يدين بالرجعة ويكفر الامة كلها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم لانها حادث عن طريق الدين ، فلما سئل عن علي رضي الله عنه تمثل بقول عمرو بن كلثوم :

وما شر الثلاثة أم عمرو   بصاحبك الذى لا تصبحينا

وكان يؤثر النار على الطين ويفضل النور عن الظلمة فكان من هذه الناحية فارسى الزندقة ، ثم كان فى حقيقة الامر فارسيا فى كل شيء ، كان فارسيا فى زندقته يقدم النار التى يعبدها الفرس وكان فارسيا فى اهوائه وميوله السياسية ، فلم يكن يحب العرب ولا يرتاح اليهم وانما كان يحتملهم احتمالا ، وكان ينكر الولاء ويحث الموالى على ان ينكروه ، وكان يرى ان الفرس ليسوا اقل كرامة ولا شرفا ولا حرية من العرب ، ولم يكن يكره ان ينتسب الى آبائه من الفرس وربما فاخر بنسبه الفارسى ، ويقولون انه اجترأ على ذلك بين يدى المهدى ، ويقولون إن رجلا من أشراف العرب فى البصرة أقبل عليه يعاتبه لانه يفسد الموالى على العرب ، فهجاه واضطر الرجل الى ان يسكت عنه

كان بشار اذن زنديقا ممعنا فى الزندقة وكان شعوبيا متشددا فى الشعوبية ، وكان يحتمى بالنفاق أيضا كما قدمنا فقد كان يمدح الخلفاء والامراء واشراف الناس ايام بني أمية ، وايام العباسيين ، يطالب منهم المال ويطلب منهم المال

ويطلب منهم الجاه ايضا: ولكنه لم يكن مخلصاً فى شيء من ذلك وكان الممدوحون يعرفون منه هذا النفاق ويصبرون عليه أو يتغاضون عنه حلماً مرة وعفواً مرة أخري واشفاقا فى أكثر الاحيان

فاذا أردت أن تتمم شخصيته من حيث هو رجل فينبغى أن تضيف الى كل ما قدمنا خصلة أخرى ، وهى انه كان شديد الولع بالنساء مسرفا فى التشبيب مفتناً فيه فنوناً لم يسبق اليها وكأنه لم يلحق فيها أيضاً . كان شعره كله اغراء بالفجور وحثاً على الفسوق وافساداً حتى لأشد النساء حرصاً على الشرف وأوفرهن حظاً من الاحصان ، وقد جزع لذلك الناس فى البصرة فسعى اليه وعاظهم وأهل الصلاح منهم ينهونه وهتف به خطباؤهم والمتكلمون فيهم ولكن شيئاً من ذلك لم يؤثر فيه ولم يردعه ، بل مضى فى نسيبه وتشبيبه وفى استهتاره وتهتكه ، وأكثر نساء البصرة وفتياتها من رواية شعره والاستهتار به كما اكثرن من الاختلاف اليه ومجاذبته الحديث وكانت له معهن سيرة مرذولة فشكى الناس الى المهدى فنهاه المهدى وانذره بالموت ان لم يكف عن التشبيب ، وفى ذلك يقول :

يا منظراً حسناً رأيته	من وجه جارية فديته
بعثت الى تسومنى	برد الشباب وقد طويته
والله رب محمد	ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربما	عرض البلاء وما ابتغيته
ان الخليفة قد أبى	واذا أبى شيئاً أبيته
ومخضب رخص البنا	ن بكى على وما بكيته

ويشـوقني بيت الحبيب اذا ادكرت وأين بيتـه
قام الخليفـة دونه فصبرت عنـه وما قليتـه
ونهـاني الملك الهمام عن النسـاء وما عصيتـه
لا بل وفيت فلم أضـع عهـداً ولا رأياً رأيتـه

قالوا ووفد بشار على المهدى فاشترط الحاجب عليه الا ينشد الخليفة غزلا فلما دخل عليه انشده هذه الابيات ثم أنشده مدحا لا غزل فيه فحرمه المهدي ولم يجزه ، وقال الناس لبشار انما حرمك لانه لم يستحسن شعرك فقال (وهذا يمثل اعجابه بنفسه) لقد مدحته بشعر لو قيل فى الدهر لأمن الناس صروفه ولكنه كذب أملي لاني كذبت فى القول ، ثم قال هـذه الابيات :

خليلى ان العسر سوف يفيق وان يسـارا فى غـد لخليق
وما كنت الا كالزمان اذا صحا صحوت وان ماق الزمان أموق
أأدماء لا استطيع فى قلة الثرى خزوزاً ووشياً والقليل محيق
خذى من يدى ما قل ان زماننا شموس ومعروف الرجال رقيق
لقد كنت لا أرضي بأدنى معيشة ولا يشتكى بخـلا على رفيق
خليلى ان المال ليس بنافع اذا لم ينل منه أخ وصـديق
وكنت اذا ضاقت على محـلة تيممت أخري ما على تضيق
وما خاب بين الله والناس عامل له فى التقى أو فى المحامد سوق
ولا ضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق

فاذا أضفت الى هذا كله أنه كان اقبح الناس وجهاً ، وأنه كان عظيم

الجسم ضخم الخلق وكان مع هذا كله يزعم أنه جميل وأنه خلاب للنساء وكان مع هذا يجرؤ على أن يقول :

ان فى بردىَ جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

أقول اذا أضفت هذا الى ما قدمنا تبينت صورة ليست بعيدة ولا كاذبة من هذا الرجل الذي لم يكن جذابا ولا خلابا لا من الوجهة المعنوية ولا من الوجهة المادية . ومع هذا فقد كان شاعرا مجيدا أجمع العلماء والرواة فى عصره على أنه أشعر اهل هذا العصر وزعم هو لنا ذلك فتحدث ذات يوم أن له اثني عشر الف بيت من جيد الشعر فلما سئل عن ذلك قال إن له اثني عشر الف قصيدة فويل له اذا لم يكن فى كل قصيدة بيت جيد . قالوا ولم يجتمع لأحد من الشعراء مثل هـذا المقدار من جيد الشعر وقد يكون هذا حقا ، ولكننا فى حاجة شديدة الى أن نظفر من هذا المقدار الضخم بجزء قليل نتخذه مقياسا لاجادة بشار ، وقد أراد سوء الحظ الا نظفر من شعر بشار بشىء يذكر . ومهما يكن من شىء فأنا أشك فى قيمة هذا الاجماع الذى انعقد على تقديم بشار وايثاره بالاجادة والتفوق ، وأزعم ان شيئا من هذا الاجماع يعود الى سفه بشار . فقد كان بشار يخيف العلماء ويهجوهم ، هجا سيبويه لأنه أنكر عليه كلمات فاضطر سيبويه الى أن يستشهد بشعره ، وتملقه الأخفش لشىء كهذا ، وتملقه يونس بن حبيب وكان مع ذلك يكرهه كرها شديداً ، ويقال انه هو الذى وشى به عند المهدى واتهمه بالزندقة ، وتملقه الاصمعى من غير شك . فقد كان بشار يهجو باهلة

والاصمعى باهلى . وبعض هذا الاجماع يعود الى ان بشارا كان اذا جد متين اللفظ رصين الاسلوب مؤثرا لنحو أهل البادية فى الفاظهم وأساليبهم ، وكان لا يكره استعمال الغريب ولا يعيبه وكيف لا يحب علماء اللغة رجلا يذهب هذا المذهب . ثم يعود بعض هذا الاجماع الى ان الناس اطبقوا على خوف بشار والاشفاق منه فكانت له مهابة لم تكن لغيره من الشعراء ، ثم تعامت عليه طائفة من الشعراء تقدمت فى عصرها ، ثم اكثر من الغزل ورق فيه فاحبه الظرفاء وأصحاب الخلاعة وتغني فيه المغنون وتحدث الرواة ان نساء البصرة كن يلجأ اليه اذا احتجن الى شعر ينحن فيه ، فهذا كله مصدر هذا الاجماع الذي يقدم بشارا على غيره من الناس

ونحن الآن آمنون من بشار ومن هجائه غير متأثرين بما كان يتأثر به المعاصرون له . فنحن أقدر على أن نحكم عليه حكما صادقا لو أتيح لنا الشرط الأساسى لهذا الحكم وهو مقدار ضخم من شعره . على اني أشارك الرجل الواحد الذى استطاع فى ذلك العصر الا يعجب بشعر بشار وأن يشدد النكير عليه وهو اسحق الموصلى . أشاركه ، لا فى اسرافه فقد تعصب على بشار كما تعصب غيره لبشار ، وأري أن بشارا لم يكن كما ظن القدماء، ذلك الشاعر الذى لا يشق له غبار ، وانما كان شاعرا كغيره من الشعراء له الجيد وله الردىء ، وربما قدمت على بشار رجلا كابى نواس أو كالحسين ابن الضحاك

غير انى لو أخذت افصل هذا الحكم وأستدل عليه لم أفرغ منه فى هذا الفصل فالخير أن أرجىء ذلك الى فصل خاص فى الاسبوع الآتى.

شعر بشار [1]

قلت فى الحديث عن بشار إن القدماء من الادباء والنقاد وأهل العلم باللغة مجمعون على تقديمه وايثاره على غيره من الشعراء اللذين عاصروه ، وخالفتهم فى هذا الرأى وزعمت أنهم لم يكونوا فيه مخلصين ، وانما تأثروا بمؤثرات كثيرة اشرت اليها . ثم قلت انى أرى فى بشار رأى الرجل الوحيد من القدماء الذى استطاع أن ينكر ما كان من تقديم بشار والاسراف فى ايثاره ، وهو اسحق بن ابراهيم الموصلى ، فقد كان اسحق فيما يظهر شديد الجحود لبشار غاليا فى السخط عليه والازدراء له ، وكان من النقاد وأهل الأدب من يحاجه فى ذلك فيظهر عليه . غير أنى لا أوافق اسحق بن ابراهيم الموصلى فى ما اندفع اليه من غلو واسراف ، فانا لا ازعم أن بشاراً لم يكن شيئاً ، ولا ازعم أن الجيد فى شعره قليل ، وانما أزعم أن بشارا كان شاعراً موفور الحظ من الاجادة ، ولكنه لم يكن أشعر أهل عصره ، وكان من أهل عصره من يجب أن يتقدم عليه كأبى نواس ، وهنا أخالف اسحق بن ابراهيم الموصلى أيضاً ، فقد كان ازدراؤه لأبى نواس أشد من ازدرائه لبشار ، كان لا يعتد بأبى نواس ، وقد نتحدث فى يوم من الأيام عن اسحق ابن ابراهيم فنحاول أن نتفهم مصدر هذه الآراء الغريبة التى كان يراها فى بشار وأبي نواس وغيرهما من الشعراء ولكننا اليوم نتحدث عن بشار ،

(١) نشرت بالسياسة فى ١٧ شوال سنة ١٣٤٢ ﻫ ٢١ مايو سنة ١٩٢٤ م

فانحرص على ألا نتجاوزه الى غيره

كان اسحق بن ابراهيم يرى أن بشارا مختلف الشعر مضطربه وان الغث فى شعره لا يعدله غث ولا ردئ ، وكان يقول ان الذى يقول هذا الشعر لا يمكن أن يكون شاعراً مجيداً ، وينشد

انما عظم سليمى قصب   قصب السكر لاعظم الجمل
فاذا أدنيت منها بصلا   غلب المسك على ريح البصل

وفي الحق أن فى هذا الشعر من السخف والفجاجة شيئاً كثيراً ، ولكن أين الشاعر الذى يستطيع أن يبرأ من قول فج أو لفظ سخيف ؟ ثم أليس من التحكم بل من السخف أن تزعم أن قائل هذين البيتين لا يمكن أن يجيد الشعر لانه قال هذين البيتين ؟ وأنت تعلم أنه قال شعراً آخر كثيراً ، منه الذى بلغ من الجودة منزلة رفيعة ، فدونك الشاعر وشعره فاقرأ هذا الشعر وانقده واحكم على جيده بالجودة وعلى رديئه بالرداءة واجتهد فى أن تتبين الاسباب التى أتاحت للشاعر أن يجيد والاسباب التى اضطرته الى أن يسف . ولا تقل ان من قال هذا الشعر الردىء لايستطيع أن يقول جيداً من الشعر . فلخصمك أن يجيب بأن من قال هذا الشعر الجيد لا يستطيع أن يقول رديئاً من الشعر ، واذا انتهى بكما الحوار الى هذا الحد فلستما منتهيين الى خير ولا بالغين حجة ، وانما أنتما متعصبان قد أسرف كل منكما فى تعصبه حتى أصبح انتظار الخير منكما عبثا وأصبح من الحق أن تتركا وما أنتما فيه . . .

نعم ، اسراف أن تحكم على الشاعر ببيت أو بيتين ، واسراف أن تحكم

له ببيت أو بيتين بل اسراف أن تحكم للشاعر المكثر أو عليه بقصيدة أو قصيدتين أو قصائد ، بل لا ينبغي أن تسلك هذه السبيل في النقد ، فهي عتيقة معوجة لا تنتهي الى نتيجة صحيحة ولا مقنعة ولا سيما في هذا العصر وانما السبيل أن تتبين روح الشاعر وشخصيته وتحكم عليه أوله بما تتبين منها ، ولست أدري أين قرأت أن رجلا من نوابغ الموسيقى الغربية أراد أن يحكم على شاب موسيقى فاستمع اليه وهو يوقع فلما سمعه يوقع ألحانا مختلفة قال الآن عرفت صوت نفسك . كذلك يجب أن نتبين أصوات نفوس الشعراء لنحكم لهم أو عليهم . وأحسب أن صوت نفس بشار ليس بالرخيم ولا بالرقيق ، كما أنه ليس بهذا الصوت الضخم الذى لا يخلو على ضخامته من حلاوة ولين ، وانما هو صوت لا حظ له من الحلاوة ، ولعله يخيفك أكثر مما يستهويك ، ولعله ينفرك أكثر مما يرغبك ، ومهما تكن لبشار الاشعار الجياد البارعة فانا لا أحبه ولا أميل اليه . والغريب ان كل ما حفظ لنا عن بشار لا يحببه الينا ولا يعطفنا عليه ، فهو ثقيل حتى حين يضحك ، وهو ثقيل حتى حين يريد أن يضحكك ويرضيك ، وهو مر في جميع مواقفه ، يأتي بالنادرة المضحكة فتضحك ولكنك لا تضحك ضحكا صريحا خاليا من كل شائبة ، وانما تضحك وأنت مستشعر شيئا من الألم محس شيئا من المرارة . ومصدر ذلك أن هذا الشاعر كان له مزاج حاد أبغض الناس بغضا شديداً فاصبح اليهم بغيضا وانقطعت بينه وبينهم صلة المودة والعطف ولم يبق بينه وبينهم الا صلة الخوف والتهيب يستغلها هو ويتيحون له هم أن يسرف في استغلالها ، ولقد تقرأ أن بشارا عند ما ضربه

المهدى الضرب الذى أماته لم يبق شريف من أشراف البصرة الا تلطف له وأرسل اليه الهدايا . ثم نقرأ أنه مات وأخرجت جنازته فلم يتبعها من أهل البصرة أحد الا جارية له سوداء سندية عجماء تصيح : واسيداه ! واسيداه : فأين هؤلاء الاشراف الذين تلطفوا له واستبقوا الى ارسال الهدايا اليه قبل أن يموت ؟ وما بالهم لم يشيعوه بعد أن مات ؟ لم يتلطفوا له حبا ولا عطفا وانما تلطفوا له تملقا واشفاقا فلما أمنوا شره انصرفوا عنه ظاهراً كما كانت نفوسهم منصرفة عنه باطنا . غير أنى أخشى أن أتهم بالاسراف في بغض بشار وتشويه شخصيته ، والله يعلم أنى ما أحب بشاراً ولا أكرهه ولا يعنيني أن تكون شخصيته جذابة أو منفرة .

أنا أخشى أن أتهم بالاسراف ، فلا جتهد فى أن أحملك على أن تشاركنى فى هذا الرأى الذى أراه ، وعلى أن تحس معى أن بشاراً كان بغيضاً حتى حين كان يتندر ويريد أن يضحك . قالوا كان بشار بين يدى المهدى ينشده شعرا فدخل يزيد بن منصور الحميرى خال المهدي وكانت فيه غفلة ، فلما فرغ بشار من انشاده أقبل عليه يزيد وسأله ما صناعته ؟ فأجابه بشار أثقب اللؤلؤ ! ولست أشك فى أن جواب بشار بديع مضحك مفحم أيضاً ، ولهذا لم يستطع المهدى أن يمتنع عن الضحك . ولكني لا أشك فى أن هذا الجواب قاس يدل على حدة المزاج ومرارة الطبع وغضب المهدي : فشتم بشارا أو قل لام بشارا على أن تندر على خاله . فلم يكن جواب بشار على لوم المهدى أقل شدة من جوابه على سؤال يزيد اذ أجاب : وماذا أصنع به يري رجلا أعمى بين يدى الخليفة ينشده شعراً

فيسأله ما صناعته ؟ . . . قالوا ومر بشار بقاضي البصرة فسمعه يقول فى قصصه من صام رجب وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً فى الجنة صحنه ألف فرسخ فى مثلها وعلوه ألف فرسخ وكل باب من أبواب بيوته ومقاصيره عشرة فراسخ فى مثلها فالتفت بشار الى قائده — بئست والله الدار هذه فى كانون الثاني ! . . . وتحدث رجل من أهل البصرة انه خلا الى امرأة فى علو بيت وبشار تحته أو فى أسفل البيت وبشار فوقه فنهق حمار فى الطريق فاجابه حمار فى الجيران وحمار فى الدار فارتجت الناحية بنهيقها وضرب الحمار الذى فى الدار الارض برجله وجعل يدقها بها دقاً شديدا فسمعت بشارا يقول لامرأة نفخ يعلم الله فى الصور وقامت القيامة أما تسمعين كيف يدق على أهل القبور حتى يخرجوا منها ولم يلبث أن فزعت شاة كانت فى السطح فقطعت حبلها وعدت فالقت طبقا وغدارة الى الدار فانكسرا وتطاير حمام ودجاج كن فى الدار لصوت الغدارة وبكى صبي فى الدار فقال بشار صح والله الخبر ونشر أهل القبور من قبورهم . ازفت يشهد الله الآزفة وزلزلت الارض زلزالها ، فقال البصرى فعجبت من كلامه وغاظنى ذلك فسألت من المتكلم فقيل لى بشار . فقلت قد علمت انه لا يتكلم بمثل هذا غير بشار . . . ومر بشار برجل رمحته بغلة وهو يقول الحمد لله شكرا فقال بشار : استزده يزدك . . . ومثل هذا ما تحدثوا به من أنه حين ضرب الضرب الذى مات له كان كلما اوجعه السوط قال : حس ، وهى كلمة تألم . فقال بعض الحاضرين أنظروا اليه لا يقول باسم الله فقال بشار ويلك أثريد هو فاسمى عليه ؟ . . . ثم زعموا أن قوما مروا به يحملون

جنازة وهم يسرعون المشى بها فقال بشار مالهم مسرعين أتراهم سرقوه فهم يخافون ان يلحقوا فيؤخذ منهم : . . . قالوا وتوفى له ابن فجزع عليه فقيل له : أجر قدمته وفرط افترطته وذخر احرزته. فقال ولد دفنته وثكل تعجلته وغيب وعدته فانتظرته : والله لئن لم اجزع للنقص لا افرح للزيادة : . . .
وتحدث ابن رزين (وأنا اعتذر من رواية هذا الحديث ولكنه يمثل بشاراً أصدق تمثيل) قال اتينا بشاراً فاذن لنا والمائدة موضوعة بين يديه فلم يدعنا الى طعامه فلما أكل دعا بطست فكشف عن سوأته فبال ثم حضرت الظهر والعصر فلم يصل فدنونا منه فقلنا أنت أستاذنا وقد رأينا منك أشياء أنكرناها ، قال وما هى : قلنا دخلنا والطعام بين يديك فلم تدعنا اليه فقال انما اذنت لكم أن تأكلوا ولو لم أرد أن تأكلوا لما أذنت لكم . قال ثم ماذا؟ قلنا ودعوت بطست ونحن حضور فبلت ونحن نراك . فقال أنا مكفوف وأنتم بصراء وانتم المأمورون بغض الابصار ثم قال : ومه قلنا حضرت الظهر والعصر والمغرب فلم تصل فقال إن الذى يقبلها تفاريق يقبلها جملة!.

اعتقد ان هذه الاحاديث التى تمثل ابتسام بشار وتندره وما كان الله قد وهب له من ظرف وخفة روح لا تعطى من بشار صورة الرجل الظريف ولا ذى الروح الخفيف وانما تعطى منه صورة قاسية ، صورة رجل قد كره الناس وازدراهم ولعله قد كره كل شىء وازدراه فهو لا يحب الا نفسه ولا يعجب الا بنفسه ولا يترك فرصة تتيح له السخر من الحياة والأحياء الا انتهزها ولم يكن فى سخريته هينا ولا رفيقاً ، وانما كان غليظاً فظا قاسياً . ثم ان هذه الاحاديث وما قدمت لك فى الفصل الماضى

من أخبار بشار تمثله منافقا فى سيرته يدارى الناس ويتقيهم ليعيش ثم ينذرهم ويخيفهم لينعم بعيشته ثم يسخر منهم متى اتيح له ذلك .

واذن فهو أقل الناس حظا من صدق اللهجة والعاطفة ، واذا قرأت شعر بشار فلا ينبغى ان تبحث فيه عن شعوره وعواطفه ولا عما يحس أو يؤمل فيما بينه وبين نفسه وإنما ينبغى ان تبحث فيه عما يريد ان يظهر أو عما يريد ان يتكلف للناس من العواطف والشعور والميل . ليس شعره شفافا كشعر أبى نواس والحسين بن الضحاك ومطيع وحماد عجرد ، وانما هو شعر كثيف صفيق لا يدل من نفس صاحبه على شىء ، وهو كاذب أبداً لا يحفل بالكذب ويغضب حين يلفته الناس اليه . قلت إنه كان ضخما فاحش الضخامة قويا شديد القوة ثم لم يستح ان يقول

ان فى بردى جسما ناحلا　　لو توكأت عليه لانهدم

هو اذن ليس بالشاعر المخلص ولا الصادق حين يمدح ولا حين يتغزل ولا حين يرثى ولعله ان صدق انما يصدق فى موضوعين اثنين من شعره يصدق حين يهجو ، لا أريد أنه يصف الناس بما فيهم ويضع يده على مواضع العيب من أخلاقهم وسيرتهم وانما أريد أنه يصدق حين يهجو لأنه يصف نفسه ويمثل سخطه على الناس وما يضطره اليه هذا السخط الشديد من الوان الاسراف والظلم وضروب الاعتداء . ويصدق حين يذكر نفسه وسوء مكانه من الناس وبنوع خاص حين يذكر حرمان الذين مدحهم اياه وبخلهم عليه بما كان ينتظر ، هو فى هذا الموضع من شعره صادق وقد يبلغ التأثير أحيانا ، وما احسب انك تخالفنى فى استحسان هذه الابيات وصدق

الشاعر فيها وهى التى قالها حين مدح المهدى وألح فى مدحه فحرمه المهدى وألح فى حرمانه :

خليلى إن العسر سوف يفيق ... وان يساراً فى غد لخليق
وما كنت الا كالزمان اذا صحا ... صحوت وان ماق الزمان اموق
أأدماء لا اسطيع فى قلة الثرى ... خزوزاً ووشياً والقليل محيق
خذى من يدى ما قل ان زماننا ... شموس ومعروف الرجال رقيق
لقد كنت لا أرضى بأدنى معيشة ... ولا يشتكى بخلا علىَّ رفيق
خليلى إن المال ليس بنافع ... اذا لم ينل منه أخ وصديق
وكنت اذا ضاقت على محلة ... تيممت أخرى ما على تضيق
وما خاب بين الله والناس عامل ... له فى التقى أو فى المحامد سوق
ولا ضاق فضل الله عن متعفف ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

ألست تحس معى أن الشاعر صادق متأثر وان تأثره هذا مؤثر أيضا؟ ولا تقل إنه يتكلف الكرم فى هذه الابيات فلم يكن بشار بخيلا ولا محبًا للبخلاء وانما كان كريما ، لا لأنه يحب الناس ويعطف عليهم بكرمه وجوده بل لانه يزدري المال كما يزدرى الناس وله أخبار فى الكرم لابأس بها ، فقد كان له اخوة ليسوا بالميسورين فكان يبيح لهم ماله وكانوا يسرفون فى الانتفاع بذلك حتى لقد كانوا يعدون على ثيابه فيلبسونها وكانوا يتعاطون مهنا لا ينظف صاحبها فكانوا يتركون فى هذه الثياب روائح لاتطيب وكان بشار يكره ذلك ويتبرم به ولكنه لم يزجر اخوته وانما احتمل منهم ذلك. وزعموا أنه لبس فى يوم من الايام ثوبًا من هذه الثياب وكان أخ له قد ترك

فيه رائحة لا تحب فانكر بعض الناس ذلك على بشار فقال انما ذلك صلة الرحم !.... وقد نستطيع أن نذكر من كرم بشار ما كان بينه وبين أبي الشمقمق من صلة فقد كان بشار عوده أن يمنحه مقدرا من المال فى كل عام وطمع أبو الشمقمق فى ذلك حتى عده دينا ، ولعل كرم بشار على أبى الشمقمق لم يكن برئيا ولا خالصا لوجه الله فقد كان بشار جبانا كما قلنا وكان أبو الشمقمق سيء الهجاء فكان بشار يخافه ويتقيه بالمال وله فى ذلك نوادر كثيرة . ويحدث بعض الناس انه دخل على بشار فوجد بين يديه دنانير فقال له بشار خذ منها ما شئت وقص عليه قصتها وهى ان ابياتا من شعره اعانت شابا على حب فحمل اليه مائة دينار . لم يكن بشار بخيلا اذن وهو لا يتكلف الكرم فى هذه الابيات التى قدمناها ، وهو صادق حين يشكو وحين يظهر انه لا يحتمل ضيق الحياة فقد كان واسع العيش مترفا منعما فى البصرة وانما كان هذا كله يأتيه من الشعر ومدحه به اشراف الناس وهجائه به اشراف الناس أيضا ، فليس غريبا أن يسوءه حرمان المهدى اياه وليس غريبا أن يحزنه هذا الحرمان فقد كان بشار لنفسه مكبراً ولم يكن يهون عليه أن يصغره غيره مهما يكن . ويروون أن الناس قالوا لبشار حين حرمه المهدى انه لم يستحسن ما قلت فيه فأجاب لا والله لقد قلت فيه كلاما لو قيل فى الدهر لأمن الناس صرفه ولكنه كذب أملى لانى كذبت القول فيه ! فانظر اليه كيف أبى أن يفترض الآن أن يكون شعره قد أعجب المهدي وكيف اكبر نفسه على هذا فازدري المهدى ولام نفسه لانه مدحه بما ليس فيه .

على ان صدق بشار قليل نادر كما قلنا وهو ان أخطأه الصدق والاخلاص

فلن يخطئه الفن وحسن الصناعة ، فهو شاعر يعمل شعره ولا يصدر الشعر عنه عفواً ، نريد الشعر الجيد الذى يستحق أن يروى ويبقى ، فاما غير ذلك فقد كان يصدر عن بشار فى غير تكلف ولا عناء وكأن فطنته كانت كهذه الارض الرخوة التى امتلأت بالماء كأنها اسفنجة يكفى ان تمسها لينبجس منها الماء ولكن هذا الماء لم يكن عذبا فى كل وقت فقد كان لا يخلو من مرارة وخاجة وربما لم يخل من نتن أيضاً ، ومن هنا كثر شعر بشار كثرة فاحشة حتى استطاع بشار نفسه أن يزعم ان شعره الجيد لا يقل عن اثنى عشر الف بيت وأنه غير مسرف فى ذلك لأن له اثني عشر الف قصيدة فيجب ان يكون فى كل قصيدة بيت جيد . وقد حدثنى قوم ان ديوان بشار موجود الآن فى تونس أو فى بلد غير تونس وان من الادباء من يعمل فى نشره فان كان هذا الخبر صحيحا فسنستطيع أن ندرس بشارا ونحكم عليه من كثب وأنا لهذا أحتفظ بحكمى عليه وأستبيح لنفسى تغيير رأيى فيه اذا ظهر هذا الديوان وان كنت أستبعد كل الاستبعاد أن يضطرنى ديوان بشار الى أن أغير رأيى فى بشار وشعره . فليس بين يدى من شعره مقدار عظيم ولكن هذا المقدار القليل الذى أدرسه وأنقده يكفيني لأمثله وأحكم عليه وسنرى يوم يظهر الديوان أمخطىء أنا أم مصيب .

بين يدى غزل لبشار ليس بالكثير ولكنه ليس بالقليل أيضاً وهو سواء كان قليلا أم كثيراً لا يمثل عاطفة ولا شعوراً صادقا وإنما يمثل أمرين اثنين . يمثل تهالكا على اللذة والحاشا فى هذا التهالك وافتنانا فيه أيضاً دون أن يراقب الشاعر فى ذلك خلقاً أو ادباً أو ديناً ويكفى أن تعلم ان علماء

البصرة من أهل الدين والوعظ والكلام ومن بينهم واصل بن عطاء والحسن البصرى ومالك بن دينار جميعا قد هتفوا به وشكوه بعد ان وعظوه ونصحوا له ، وعثل رغبة فى الفساد واذاعة السوء ، فلم يكن بشار يكتفى بأن يكون من أصحاب اللذة المتهالكين عليها ولهذا كان يتخير اذا تغزل أيسر الالفاظ والاساليب وأدناها وأشدها شيوعا فى النساء وفتيات الهوى كأنه كان يريد ان يفهمه النساء والفتيات وان يتأثرن به ، والغريب انك لا تجد بشاراً يسف فى اللفظ اذا مدح أو تعرض لفن من فنون الشعر الا الغزل والهجاء ، وهذا واضح فهو اذا تغزل أراد ان يفهمه النساء وان يكون شعره ذائعاً يتناقله الشبان وأهل الخلاعة وهو اذا هجا فقد كان يريد أن يؤذى من يهجو وانما يؤذيه اذا كان هجاؤه فاحشا مقذعا ، وكان مع ذلك سهلا يمكن فهمه وروايته . ولست أشك فى أن المهدى لم يكن جائرا ولا مسرفا حين نهى بشارا عن الغزل وحين أنذره بالموت ان عاد اليه ويكفى أن أروى لك هذه القصيدة التى غضب لها المهدى لتعلم ان غزل بشار لم يكن من الجودة والطهر بحيث يؤسف عليه .

قد لامني فى خليلتى عمر	واللوم فى غير كنهه ضجر
قال أفق قلت لا فقال بلى	قد شاع فى الناس منكما الخبر
قلت واذ شاع ما اعتذارك مما	ليس لى فيه عندهم عذر
ماذا عليهم ومالهم خرسوا	لو أنهم فى عيوبهم نظروا
اعشق وحدى ويؤخذون به	كالترك تغزو فتؤخذ الخزر
يا عجبا للخلاف يا عجبا	بفي الذى لام فى الهوى الحجر

حسبي وحسب الذى كلفت به ... مني ومنه الحديث والنظر

أو قبلة فى خلال ذاك وما ... يأس اذا . : . . . .

أو عضة في ذراعها ولها ... فوق ذراعى من عضها أثر

أو لمسة دون مرطها بيدى ... والباب قد حال دونه الستر

والساق براقة مخلخلها ... أو مص ريق وقد علا البهر

واسترخت الكف للعراك وقا ... لت ايه عنى والدمع منحدر

انهض فما انت كالذى زعموا ... أنت وربى مغازل أشر

قد غابت اليوم عنك حاضنتى ... والله لى منك فيك ينتصر

يارب خذ لى فقد ترى ضرعى ... من فاسق جاء مابه سكر

أهوى الى معضدى فرضضه ... ذو قوة ما يطاق مقتدر

ألصق بي لحية له خشنت ... ذات سواد كأنها الابر

اقسم بالله لا نجوت بها ... فاذهب فانت المساور الظفر

كيف بامى اذا رأت شفتى ... أم كيف انشاع منك ذا الخبر

قد كنت أخشى الذى ابتليت به ... منك فماذا أقول يا عبر

قلت لها عند ذاك ياسكنى ... لا بأس انى مجرب خبر

قولى لها بقة لها ظفر ... ان كان فى البق ماله ظفر

روى شيء من هذه القصيدة لمطيع ولكن هذا من خطأ الرواة وأنت تقرأ هذه القصيدة فاذا أولها جيد متين مستقيم لا نكير فيه ولكن الشاعر لايكاد يبدأ هذه القصة الخليعة حتى يفحش لا فى اللفظ فليس فى اللفظ فحش كثير بل فى المعنى فالمعنى كله فحش . ولست أزيد أن الفتك

إلا الى بيتين اثنين من هذه القصيدة أحدهما يبين مهارة بشار فى محاكاة النساء أو نوع من النساء حين يتفجعن فى تهالك ولذة وهي قوله

قد كنت اخشى الذى ابتليت به   منك فماذا أقول يا عبر

وانظر الى قوله (يا عبر) • الثانى يمثل النفس الفاتكة الشيطانية التى تعبث بالناس وتسخر منهم فى عنف وقسوة ، وأنا اعتقد ان نفس بشار وخلقه وقلبه كل هذا مختصر فى هذا البيت

قولى لها بقة لها ظفر   ان كان فى البق ماله ظفر

ولست أروى لك غير هـذه القصيدة من خلاعة بشار فهى تكفى وأظن أنها تقوم عـذراً المهدى فى نهيه بشاراً عن ذكر النساء وللوعاظ وللعلماء فى سعيهم بيشار الى السلطان . ولا سيما ولم يكن أمر بشار قد وقف عند قول هذا الكلام الفاحش واذاعته وانما كان النساء يترددن اليه ويشاركنه فى اللهو وكان هو يطلب اليهن المواعيد فمنهن من كانت تسايره صادقة وفية ومنهن من كانت تعبث به عبثاً منكراً ،واخبار ذلك فى الاغانى كثيرة وهى لا تشرف بشاراً ولا تدل على انه كان يكرم نفسه ويتأدب بالآداب التى كانت تفرضها عليه آفته واقلها الحياء والوقار ، ولكنه كان فاجراً مفطوراً على الفجور .

هل احب بشار حباً صادقاً ؟ هذا سؤال احاول ان ألتمس الجواب عليه فى شعر بشار فلا اجـد الى ذلك سبيلا ، فقد قلت لك ان شعره كثيف صفيق لا يدل على عاطفة وان الكذب فيه كثير والتكلف فيه لاحد له ، اريد تكلف المعانى وانا أعلم أن بشاراً مشغوف بعبـدة وقل فيها

شعراً كثيراً جداً تغنى فيه المغنون وأعلم أن عبدة مالت اليه وكان بينها وبينه مودة ، ولكني اقرأ ما بقي لنا من شعر بشار في عبدة فلا أجد فيه شيئا يمثل الحب الصادق القوى حقاً ، وقد أقرأ هذه الابيات فاعجب بها واتأثر لها واحسب الشاعر صادقا ولكنى لا ألبث أن أضحك لانى أعلم ان الشاعر كاذب وان صاحبته تعلم منه هذا الكذب وما أشك في انها كانت تضحك منه أيضاً وتقبله لجودته الفنية ليس غير ، وهذه الابيات مشهورة يحفظها الناس جميعاً لبشار وهي .

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم
رفهي يا عبد عنى واعلمى انني يا عبد من لحم ودم
ان في بردى جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم
واذا قلت لها جودى لنا خرجت بالصمت عن لا ونعم

ولولا هذا البيت الثالث وما نعلم من ضخامة بشار لخدعنا الرجل عن نفسه فصدقناه وخيل الينا انه كان لحب عبدة لا ينام ، ولكن من يدرينا انه لم يكن ينام أهدأ النوم وألذه ثم يزعم السهر والارق كما كان يزعم النحافة والنحول .

وله أبيات زعموا أن الوليد بن يزيد بكى لها وهي لا تخلو من جودة، وأنا أرويها لان قصتها لا تخلو من عجب

ايها الساقيان صبا شرابي واسقياني من ريق بيضاء رُود
ان دائي الظما وان دوائى شربة من رضاب ثغر برود
ولها مضحك كغر الأقاحى وحديث كالوشى وشى البرود

نزلت فى السواد من حبة القلـ ب ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت نلقاك بعـد ليال والليالى يبلين كل جـديد
عندها الصبر عن لقائي وعندى زفرات يأكلن قلب الحديد

قالوا فطرب الوليـد وقال من لى بمزاج كأسى هـذه من ريق سلمى فيروى ظمئ وتطفأ غلتى ثم بكى حتى مزج كأسه بدمعه وقال ان فاتنا ذاك فهذا.

فى هذا الشعر متانة وجودة ورقة ولكني لا أحب أوله وربما استخفته ولست أدرى كيف يستطيع الساقيان أن يسقيا بشاراً من ريق صاحبته؟.. وأحسب ان هذه ليست صناعة السقاة. واذا كانت هذه القصة صحيحة فهى انما تمثل رقة هذا الشاعر الذى أحبه وأعطف عليه وهو الوليد بن يزيد الذى فاته ريق سلمى فمزج كأسه بالدمع يسفحه البكاء عليها. ولنترك غزل بشار وننتقل الى شيء آخر من فنون شعره ولكن فى ايجاز فقد أطلنا.

لبشار قصيدتان اشتهرتا بين الرواة اشتهاراً عظيما احداهما ميمية قدمها أبو عبيدة على ميميات جرير والفرزدق وفتن بها الاصمعى وتناقلها أهل بغداد وأعجبوا بها اعجابا عظيما ولهذه القصيدة قصة تمثل انا نفس بشار أيضاً. قالها لابراهيم بن عبد الله بن الحسن يمدحه بها ويحرضه فيها على المنصور ويهجو فيها المنصور. فلما قمعت ثورة ابراهيم وقتل خاف بشار فحول القصيدة كانه لم يمدح بها ابراهيم ولم يهج بها المنصور وكأنه هجا بها أبا مسلم الخراسانى فوضع أبا مسلم موضع أبي جعفر وحذف من أبيات

القصيدة ما لم يكن سبيل الى تحويله وهي :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ... ولا سالم عما قليل بسالم

على الملك الجبار يقتحم الردى ... ويصرعه فى المأزق المتلاحم

كأنك لم تسمع بقتل متوج ... عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم

تقسم كسري رهطه بسيوفهم ... وأمسى أبو العباس أحلام نائم

وقد كان لا يخشى انقلاب مكيدة ... عليه ولا جرى النحوس الأشائم

مقيما على اللذات حتى بدت له ... وجوه المنايا حاسرات العمائم

وقد ترد الايام غراً وربما ... وردن كلوحا باديات الشكائم

ومروان قد دارت على رأسه الرحى ... وكان لما اجرمت نزر الجرائم

فاصبحت تجرى سادراً فى طريقهم ... ولا تتقى أشباه تلك النقائم

تجردت للاسلام تعفو سبيله ... وتعرى مطاه لليوث الضراغم

فما زلت حتى استنصر الدين أهله ... عليك فعاذوا بالسيوف الصوارم

فرم وزرا ينجيك يا ابن سلامة ... فلست بناج من مضيم وضائم

لحى الله قوما رأسوك عليهم ... وما زلت مرءوساً خبيث المطاعم

أقوم لبسام عليه جلالة ... غداً أريحياً عاشقاً للمكارم

من الفاطميين الدعاة الى الهدى ... جهاراً ومن يهديك مثل ابن فاطم

سراج لعين المستضىء وتارة ... يكون ظلاما للعدو المزاحم

اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... برأى نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشوري عليك غضاضة ... فريش الخوافى قوة للقوادم

وما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم

وخل الهوينا للضعيف ولا تكن نؤما فان الحزم ليس بنائم
وحارب اذا لم تعط الا ظلامة شبا الحرب خير من قبول المظالم

القصيدة جيدة ، ولعلها من أجود ماقال بشار ، وهو صادق العاطفة فيها والناس صادقون حين استحسنوها ، هو صادق لأنه كان يكره بني العباس كرهاً شديداً ويؤثر بني على ايثاراً شديداً ، ولم يكن يكره بني أمية ولعله آسف على دولتهم ، فليس عجيبا أن يفرح لثورة العلويين ويغريهم بالعباسيين فى هذه الابيات المضطرمة المتأججة ، وكان هؤلاء العلماء الذين أحبوا هذه القصيدة متشيعين أيضاً كعامة أهل العراق يظهرون لبني العباس غير ما يضمرون ثم كان الناس جميعاً ينقمون من بني العباس ظلماً واستبدادا بالأمر وازدراء للزعماء من العرب ومن الموالى أيضاً . فليس عجيبا أن يحبوا شعر بشار وأبياته فى الشورى . فهذا الحب وهذا الاعجاب يمثلان قبل كل شيء ما تضمر الشعوب للملوك المبغضين اليها . على أن صدق بشار ليس وحده الذى يحلى هذه القصيدة ، فلفظها متين كما ترى ومعانيها جياد وان كانت ليست من العمق والندرة بحيث تكفل البقاء لقصيدة من القصائد ، ولكن فيها قوة غير مألوفة . أما القصيدة الأخرى فهى البائية التى مدح بها ابن هبيرة وقال فيها

اذا الملك الجبار صعر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

وفيها هذا البيت المشهور الذى أعجب به الناس اعجاباً شديداً واستكثروه على شاعر ضرير وهو :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وليس البيت كثيراً على بشار فبشار نفسه ينبئنا بأنه قلد فيه قول امرىء القيس .

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

فاما تشبيه السيوف بالكواكب وتشبيه مثار النقع بالليل فشىء مألوف تحدث عنه الشعراء كثيراً وليس لبشار فيه الا هذه الصورة الشعرية التى لم يخترعها كلها وانما تأثر فيها شاعراً قديماً كما ترى

وجملة القول فى بشار أنه كان شاعراً غزير المادة جداً ولكن الجيد فى هذه المادة لم يكن صادقا فى شعره ولا مخلصاً ، وانما كان يتكلف المعانى فى أكثر الاوقات وكان يتكلف الالفاظ والاوصاف أيضاً ولم يكن محبباً ولا جذابا ولا لينا رقيق الطبع والحاشية وانما كان قويا جبارا مبغضاً الى الناس مبغضاً لهم . واذا أردت أن تعرف الفن الذى برع فيه بشار حقا فهو فن الهجاء وقد علمنا هذا . وفى الحق انه قتل الهجاء وأن الهجاء قتله أيضاً فقد كان فاسقاً بل كان زنديقا ولم ينفعه تستره ولا تكتمه ولكن الزندقة لم تقتله وانما اتخذت وسيلة الى قتله . والذى قتله انما هو هجاؤه للمهدي بشعر لا أستطيع أن أرويه لك ، وهجاؤه لداود بن يعقوب وزير المهدى ولاخيه صالح بن داود . قال الرواة إن بشاراً وجد على المهدى وجداً شديداً حين حرمه وأعطي غيره من الشعراء فذهب ذات يوم الى حلقة يونس ابن حبيب النحوى فسأل هل هنا من يحتشم فقيل لا فانشد بيتين شنيعين فى المهدى ، لم يلبث يونس وأصحابه أن حملوها الى يعقوب ، ولم يلبث هذا أن حملها الى المهدى فى تحفظ وتملق واغراء . قالوا فغضب المهدى غضباً

شديداً وقال له يعقوب انه زنديق قد قامت عندى البينة عليه فأمر المهدى أن يضرب ضرب التلف فضرب سبعين سوطا مات لها . قالوا وقد وجد فى بيته طومار أثبت للمهدي انه لم يكن زنديقا ولا كافرا فندم المهدى لقتله . وسواء أصح هذا الخبر أم لم يصح فالهجاء وحده هو الذى قتل هذا الشاعر ، ولم يكن من الميسور أن تترك الحرية والحياة لشاعر كبشار يعلن فى المجامع العامة مثل ما كان يعلن عن الخلفاء ووزراء الخلفاء .

*

والبة بن الحباب[1]

ابان بن عبد الحميد

كنت أريد أن أحدثك عن شاعر لا أشك في انه كان أبعد الشعراء أثرا في عصره ، ولا أشك في أنه كان من أنبههم ذكرا ، ولا أشك في أنه كان من أشد امعانا في المجون واسرافا في الفسق والفجور وهو والبة بن الحباب . ولكنى مع الاسف لا أستطيع أن أحدثك عنه بشىء ذى غناء ، لان الله لم يقدر لشعره البقاء ولا لاخباره وسيرته أن يتناقلها الرواة، فذهبت حياته كما ذهب أدبه دون ان تكون لنا الى درسهما سبيل الا ان تكشف الايام في خزانة من خزائن الكتب عن سفر من الاسفار فيه طرف من اخبار هذا الرجل وأشعاره . ونحن مضطرون الى أن نعرض عن درسه الآن ونكتفى بتسجيل اسمه بين أسماء هذا النفر من الشعراء العابثين الذين ندرسهم في هذه الفصول . نسجل اسمه بين اسماء هذا النفر لاننا واثقون بأنه قد كان منهم ومن زعمائهم ، بل كان أستاذاً من أساتذتهم في القول والعمل ايضاً ، فقد كان والبة بن الحباب أستاذاً لابى نواس تولى تأديبه وتعليمه ألوان الشعر والمجون ولما يتجاوز ابو نواس سن الغلمان ، ويظهر أنه قد كانت بين الاستاذ وتلميذه عشرة سيئة لم يتحرج من روايتها ابو الفرج ولم يتحرج من روايتها ابو نواس نفسه ولعل والبة هو الذى مهد لابى نواس

(١) نشرت بالسياسه في ٢٥ شوال سنة ١٣٤٢ — ٢٩ مايو سنة ١٩٢٤

هذه السبيل المنكرة التي سلكها طول حياته فجعلته مبغضاً وجعلته محبباً الى الناس . جعلته مبغضاً لسوء سيرته وجعلته محبباً لحسن شعره وشدة ظرفه وتقدمه في الأدب الى حد لم يبلغه كثير من معاصريه .

كان والبة بن الحباب هذا عربياً صميماً من بني أسد وكنا نود لهذا السبب نفسه ان تكثر لدينا أخباره واشعاره لنعرف كيف كان بلاء العرب الصريحين في الزندقة والمجون وهذا اللون من ألوان العبث ، فلم احدثك الى الآن بعد الوليد بن يزيد الا عن الموالى او من يشك في عربيتهم . اما والبة فلم يكن مولى ولم يكن نسبه موضع شك . ومع ذلك فنحن مضطرون الى ان نكتفي بهذه الاخبار القصيرة المبتورة التي نقلها الينا ابو الفرج عن والبة . وهذه الاخبار لا تمثل لنا والبة اقل فجورا وعبثا من ابي نواس ولا من مطيع ولا من حماد . وربما كان اشد منهم صراحة في القول واسرافا في الفحش ، فالناس يتحدثون ان المهدى أو الرشيد كره اقصاءه ومنادمته لبيتين قالهما فجعل منادمته شرا على كل نديم . اما شعره فلا نستطيع أن نحكم عليه لانا لا نحفظ منه الا ابياتا ولكن ابا الفرج يحدثنا انه كان بارعا في وصف الخمر وما يتصل به من العبث والغزل والمجون . واذا ذكرنا الغزل فانما نذكر الغزل بالغلمان ، ويحدثنا انه لم يبرع في غير هذا الفن من فنون الشعر وانه حاول ان يهاجى ابا العتاهية فلم يستطع أن ينال منه شيئا بل لم يستطع أن يثبت في بغداد وانما اضطر الى أن ينصرف عنها هاربا أو كالهارب فلندع والبة اذن ولننصرف الى غيره من شعراء هذا العصر والى من ننصرف ؟ ننصرف الى ابان بن عبد الحميد اللاحقى . فهو خليق أن نقف

عنده حيناً لا لأنه يمكن أن يقرن الى بشار أو الى مطيع أو الى أبى نواس فهو أقصر باعا وأضيق ذراعا من أن يثبت لرجل من هؤلاء فى الشعر وقوته واختلاف فنونه وحسن لفظه ورقة معانيه وصدق لهجته، لا يستطيع أبان أن يثبت لواحد من هؤلاء فى هذه الخلال ولكنه مع ذلك يستطيع أن يثبت لهم فى خلال أخرى ويفوقهم فى بعضها وله نواح تستحق العناية وتدعو الى التفكير .

لم يكن خفيف الظل ولا محبباً الى الناس وانما كان فيه شيء من الثقل ينفر منه ويصرف عنه وكان الذين يحبونه قليلين ، ولن يكون حظه من حبنا نحن بأوفر من حظه من حب معاصريه . قلنا انه يثبت لهؤلاء الشعراء فى خلال غير التى ذكرناها ، يثبت لهم فى الزندقة . فلم يكن أقل منهم عبثاً ولا مجوناً أو قل لعله كان أقل منهم عبثاً ومجوناً فى اللفظ ولكن سيرته لم تكن أقل من سيرتهم ولعل ضميره كان أقبح من ضمائرهم ، ولعله من أولئك الزنادقة الذين كانوا زنادقة حقاً والذين كانوا يكفرون عن يقين وعقيدة لا عن شك أو رغبة فى اللذة والذين كانوا يتخذون لحياتهم العامة قاعدة تؤلف شخصيتهم من رجلين مختلفين أحدهما يكره العرب ودينهم ويزدريهم ويزدري دينهم ويضمر لهم ولدينهم حقداً شديداً ، والآخر يظهر الاسلام ويتكلفه ويتمدح به ويحرص على أن يحس رأى الناس فيه ، من هذه الناحية هو قريب من بشار ولكن بشارا غلبت عليه صناعة الشعر وعبثه فكان الى العبث اللفظى ، وكان الى اللذة والهوى أقرب منه الى هذا الكفر والجحود يقومان على عقيدة ثابتة وعلى رأى سياسى بعينه

كان ابان يكره العرب ويزدريهم ولكنه كان فى الوقت نفسه يتملقهم ويتقرب اليهم ويستفيد من هذا الخلاف الذى شجر بينهم لينعم على حسابهم بالحياة ولذتها ، كان فارسيا قبل كل شيء يريد أن يثأر للفرس ويعيد سلطانهم الى الارض ، ولكنه لم يكن محمقاً ولا قصير النظر بل كان يعلم حق العلم أن ذلك غير ميسور فى العصر الذى كان يعيش فيه من طريق مباشرة ، كما يقول أهل هذا العصر ، كان يعلم حق العلم أن لا سبيل الى أن يزول سلطان العرب ويقوم مكانه سلطان فارسى فلم يكن يطمع فى ذلك ولا يسمو اليه ، وكان يعلم أن هناك وسيلة أبلغ فى الانتقام للفرس ورد السلطان الفعلى اليهم ، اذا أخطأهم السلطان الشرعى واللفظى ، وهى التقرب الى الخلفاء وأخذهم من مواضع الضعف والسيطرة عليهم حتى يترك الخلفاء لهم تدبير الامور ويعتمدون عليهم فى ذلك فيتركون السلطان الفعلى للفرس ويحتفظون لانفسهم بظاهر القوة واسمها ومقامها العالى . وكان هذا المذهب هو المذهب الوحيد المعقول فى ذلك العصر بعد أن فشلت تجربة أبي مسلم ولم تنتج لصاحبها الا الموت ولا لحزبه الا الشر كله وكان زعماء هذا المذهب من الفرس هم البرامكة الذين فطنوا للأمر فطنة حسنة ، فاحسنوا العمل والتدبير وتصرفوا تصرف الماهر ذى الحيلة الواسعة والامل البعيد يسعى اليه فى رفق وثبات حتى بلغوا من ذلك ما أرادوا ثم أصابهم من الغرور والعجلة ما أفقدهم الرفق وحسن الحيلة فتعرضوا لنفس ما تعرض له أبو مسلم وأصابتهم تلك النكبة التى كانت أعظم وقعاً وأبعد أثراً من نكبة أبي مسلم . وكان أبان صديقاً للبرامكة متصلا بهم أشد اتصال يستشيرونه

ويعتمدون عليه فى تدبير أمورهم جدها وهزلها، صعبها وهينها، وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمى وبالغوا فى ذلك حتى جعلوا اليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلات ، فغضب الشعراء لذلك وكان أشدهم غضباً أبو نواس الذى كان يكره البرامكة كرهاً شديداً كما قلت لك حينما كنت أدرس أبا نواس . غضب الشعراء وغضب أبو نواس خاصة وكانت بينه وبين أبان مهاجاة تستحق أن نقف عندها حيناً لأنها تظهر لنا دين أبان ومذهبه ولا سيما وقد عجز أبان عن أن يرد على أبى نواس بنحو ما هجاه به أبو نواس ؛ فقد هجاه أبو نواس فاتهمه بالكفر والزندقة اتهاماً صريحاً منكراً لا يخلو من فحش ، ولم يستطع أبان أن يرد على خصمه من هذه الناحية فرد رد الضعفاء فشتم أبا نواس وناله فى أمه وأبيه ... ولكن هذا الشتم لا يدفع تهمة ولا يعفى من اثم ، واليك القصيدة التى قالها أبو نواس يهجو بها ابان بن عبد الحميد ، وهى تمثل رأى ابان حقاً

شهدت يوما ابانا	لا در در أبان
ونحن حضر رواق الا	مير بالنهروان
حتى اذا ما صلاة الا	ولى دنت لاوان
فقام منذر ربى	بالبر والاحسان
وكلما قال قلنا	الى انقضاء الاذان
فقال كيف شهدتم	بذا بغير عيان
لا اشهد الدهر حتى	تعاين العينان
فقلت سبحان ربى	فقال سبحان مانى

فقلت عيسى رسول فقال من شيطان
فقلت موسى نجى المهيمن المنان
فقال ربك ذو مقلة اذن ولسان
أنفسه خلقته أم من فقمت مكانى
وقلت ربى ذو رحمة وذو غفران
وقت أسحب ذيلى عن هازل بالقران
عن كافر يتحرى بالكفر بالرحمن
يريد أن يتساوى بالعصبة المجان
بعجرد وعباد والوالبى الهجان
وابن الاياس الذى نا ح نخاتى حلوان
وابن الخليع على ريحانة الندمان
انى وانت . . . .

فهذه القصيدة تمثل لا رأى ابان وحده بل رأى هذه الطائفة من الفرس الذين أظهروا الاسلام دينا ورفضوه فيما بينهم وبين أنفسهم ورفضوا معه المسيحية واليهودية أيضا وأبوا أن يؤمنوا الا بما هو فارسى لانهم اتخذوا ذلك سياسة ومذهبا فى السياسة . ثم هى تمثل فى الوقت نفسه رأى أبي نواس فى أبان من الوجهة الادبية ، فهو يكره أن يقرنه الى مطيع وحماد والحسين ابن الضحاك الخليع ووالبة بن الحباب ، وفى الحق أنه لا يقرن الى هؤلاء من الوجهة الادبية كما قلنا ولكنه يفوقهم فى الزندقة والالحاد لانه كان يتخذ الكفر رأيا لا وسيلة الى اللذة . ولست أروي لك رد ابان على ابي نواس

فهو فحش كله وتستطيع أن ترجع اليه فى الاغانى ان شئت على أنه لا يدفع حجة ولا يبرىء من تهمة . وانظر الى هـذه الابيات التى قالها أبو نواس فى هجاء أبان دون أن يعرض لدينه أو رأيه ، وانما اراد ان يجزى شتما بشتم وسباً بسب . ولست أرويها كلها وانما أترك منها ما فيه فحش :

صحفت أمك اذ سمـ تك فى المهد ابانا

صيرت باء مكان التـ ـاء تصحيفاً عيانا

قد علمنـا ما أرادت لم ترد الا أتانا

. . . .

على أن من الخير أن أعطيك من أبان صورته التى أعطاها من نفسه حين أراد أن يتصل بالبرامكة فكتب اليهم هذه القصيدة وستقرؤها فترى أن الرجل معجب بنفسه يدل بعلمه وأدبه ، تياه لاحد لتيهه وغروره وهى :

أنا من بغية الامير وكنز من كنوز الامير ذو ارباح

كاتب حاسب خطيب أديب ناصح راجح على النصاح

شاعر مفلق أخف من الريـ ـشة مما تكون تحت الجناح

لى فى النحـو فطنـة وانقـاد . . . .

ثم أروى من ابن سيرين للعلـ ـم بقول منـور الافصـاح

ثم أروى من ابن سيرين للشـ ـعر وقول النسيب والامداح

وظريف الحديث من كل فن وبصير بترهاب الملاح

كم وكم قد خبأت عندي حديثاً هو عند الملوك كالتفاح

فبمثلى تخلو الملوك وتلهو وتناحى فى المشكل الفداح

أعن الناس طائرا يوم صيد لغـدو دعيت أو لرواح
ابصر الناس بالجوارح والخيـ ـيل وبالخرد الحسان الصباح
كل ذا قد جمعت والحمد لله على انني ظريف المزاح
لست بالناسك المشمر ثوبيـ ـه ولا الماجن الخليع الوقاح
لورمى بى الامير أصلحه اللـ ـه رماحاً ثلمت حد الرماح
ما انا واهن ولا مستكين لسوى أمر سيدى ذى السماح
لست بالضخم يا أمير ولا الفد م ولا بالجحدر الدحداح
لحية جعدة ووجه صبيح واتقاد كشعلة المصباح
ان دعاني الامير عاين مني شمريا كالبابلي الصياح

أرأيت شاعراً أشد غرورا وافتتانا بنفسه من هذا الشاعر . على أنه لم يلبث فيما ذكر الرواة أن أخذ يسعى بابى نواس عند البرامكة فاغتاظ ابو نواس ونقض عليه قصيدته هذه فقال :

انت أولى بقلة الحظ مني يا مسمي بالبلبل الصياح
قد رأوا منه حين غنى لديهم أخرس الصوت غير ذى افصاح
ثم بالريش شبه النفس بالخفة مما يكون تحت الجناح
فاذا الشم من شماريخ رضوي عنده خفة نوى المسباح
لم يكن فيك من صفاتك شيء غير خلق مجحدر دحداح
لحيـة نطـة ووجـه قبيـح وانثناء عن النهى والصلاح
فيك ما يحمل الملوك على الخر ق ويزرى بالسيد الجحجاح
فيك تيه وفيك عجب شديد وطماح يفوق كل طماح

بارد الطرف مظلم الكذب ذو خر ف معيد الحديث نزر المزاح

فالذي قلت فيك باق صحيح والذى قلت ذاهب فى الرياح

كان أبان اذن مسرفا فى حب نفسه والاعجاب بها ، وكان لذلك هجاء قبيح اللسان اتصل الهجاء بينه وبين أبى نواس كما اتصل بينه وبين رجل آخر كان صديقاً له وهو المعذل ، ولكن هجاءه قبيح ليس منه ما يصلح للرواية ، على أن المتانة تنقصه وهو من هذا الهجاء الذى تسمعه فتنفر من قائله لا ممن قيل فيه . ولم يكن أبان مغروراً ولا مفتوناً بنفسه ولا قبيح اللسان فحسب ، بل كان شريراً قاسياً يؤثر الشر ، ويجد فيه لذة . وقد روى له أبو الفرج قصتين كلتاهما تمثل نصيبه من القسوة وحب الشر كما أن كلتيهما تعطينا صورة من شعره ومن الحياة فى عصره . قالوا كان يقيم بالقرب من أبان رجل ثقفى يقال له محمد بن خالد وكان عدواً لابان ؛ فتزوج محمد هذا ثقفية معروفة هى عمارة بنت عبد الوهاب مولاة جنان التى كلف بها أبو نواس واكثر فيها الشعر ، وكانت عمارة غنية موفورة الثروة فاغتاظ أبان لهذا الزواج وقال هذه القصيدة التى بلغت عمارة فافسدت زواجها :

لما رأيت البز والشارة والفرش قد ضاقت به الحارة

واللوز والسكر يرمى به من فوق ذى الدار وذى الدارة

وأحضروا الملهين لم يتركوا طبلا ولا صاحب زمارة

قلت لماذا قيل أعجوبة محمد زوج عمارة

لا عمر الله بها بيته ولا رأته مدركا ثاره

ماذا رأت فيه وماذا رجت　　وهى من النسوان مختارة
اسود كالسفود ينسى لدي　　التنور بل محراك قيثارة
يجرى على أولاده خمسة　　أرغفة كالريش طياره
وأهله فى الارض من خوفه　　ان أفرطوا فى الاكل سيارة
ويحك فرى وأعصي ذاك بى　　فهذه أختك فراره
اذا غفا بالليل فاستيقظى　　ثم اطفرى انك طفاره

فلما وصل الشعر الى عمارة فرت واضاف ابان الى قصيدته هذه الابيات :

فصعدت نائلة سلما　　تخاف أن تعمده القاره
سرور غرتها فلا أفلحت　　فانها للخناء غراره
لو نلت ما أبعدت من ريقها　　ان لها نفثة سحاره

أما القصة الاخرى فاشد من هذه قسوة ونكرا وأقبح منها عاقبة وأثرا . قالوا كان لابان جار وكان يعاديه فاعتل علة طويلة وأرجف ابان بموته ثم صح من علته وخرج فجلس على بابه فكانت علته من السل وكان يكني أبا الاطول فقال له ابان :

أبا الاطول طولت　　وما ينجيك تطويل
بك السل ولا والله　　ما يبرأ مسلول
فلا يغررك من ظنك　　أقوال أباطيل
أري فيك علامات　　وللأشياء تأويل
هزالا قد برى جسمـ　　ـك والمسلول مهزول

وذبانا حواليك فوقوذ ومقتول
وحمى منك فى العظم فأنت الدهر مملول
واعلا ما سوى ذاك تواريها السراويل
ولو بالفيل مما بـ ـك عشر ما نجا الفيل
فما هذا على فيك قلاع أو دماميل
ومال بال مناجيك يولى وهو معلول
فان كان من الخوف فقد سال بك النيل
وذا داء يزجيك فلا قال ولا قيل

فلما أنشده هذا الشعر أرعد واضطرب ودخل منزله فما خرج منه بعد ذلك حتى مات . قلت إن أبان بن عبد الحميد لايثبت للشعراء المعروفين فى فنون الشعر التى اعتادها الشعراء ولكنه يفوقهم فى شىء نحسب أنه هو الذي سبق اليه ، فهو إمام طائفة عظيمة الخطر من الناظمين ، نعنى انه ابتكر فى الادب العربى فناً لم يتعاطه أحد من قبله وهو فن الشعر التعليمى وهو فن ليس له فى نفسه قيمة أدبية ولا سيما فى العصور المتحضرة كعصر العباسيين وانما قيمته فى تلك العصور التى لاحظ لها من علم ولا من حضارة والتى لا تنتشر فيها الكتابة ولا يسهل فيها تسجيل العلم وتدوينه ففى مثل هذه العصور ينفع الشعر التعليمى ويفيد لأنه أيسر حفظاً من النثر ولعل أول من سبق الى هذا الفن هو الشاعر اليونانى « هسيود » الذى عاش فى القرن الثامن قبل المسيح ونظم طائفة من القصائد فيها جمال شعرى لا بأس به ولكنه قصد بها الى تقييد طائفة — مما كان اليونان يرونه علما

فى ذلك الوقت ، فقد نظم تاريخ الآلهـة وأحاديثهم كما نظم هذه القصيدة المشهورة التى تعرف بالاعمال والايام ، والتى بين فيها فصول السـنة وما يلائمها من ضروب الزراعة وما يحتاج اليه الزارع من أداة وجهد وفن الى غير ذلك مما تجده فى هذه القصيدة الجميلة .

الى هذا الفن سبق أبان بن عبد الحميد فى الأدب العربى فانشأ كثيراً من الشعر التعليمى طرق فيه فنوناً مختلفة من العلم والحكمة والدين . وقد تحدث أبو الفرج انه نظم للبرامكة كتاب « كليلة ودمنة » ليسهل عليهم حفظه فاعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضـل بن يحيى خمسـة آلاف واكتفى جعفر بأن يكون راويته ، وروى أبو الفرج أبياتا اربعة من هذا النظم ، ولكن صديقاً لى دلنى على كتاب أو قطعة من كتاب مخطوط توجد فى دار الكتب المصرية وهو كتاب الاوراق للصولى وفى هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبان لكليلة ودمنة ، ولست أريد أن أروى لك منه الا شيئاً قليلا جداً فهو لا يستحق الرواية ولا العناية فى مثل هذا الحديث الذى نعنى فيـه بالأدب والفن أكثر مما نعني بالكلام المنظوم وهذا أول النظم .

هـذا كتاب أدب ومحنه وهو الذى يدعى كليله دمنـه

فيـه ضلالات وفيـه رشـد وهو كتاب وضعته الهند

فوصـفوا آداب كل عالم حكاية عن ألسن البهـائم

فالحكماء يعرفون فضـله والسخفاء يشتهون هزله

وهو على ذاك يسير الحفظ　　لذّ على اللسان عند اللفظ

وانظر كيف افتتح باب الاسد والثور

وان من كان دنيء النفس　　يرضى من الارفع بالاخس

كمثل الكلب الشقى البائس　　يفرح بالعظم العتيق اليابس

وان أهل الفضل لا يرضيهم　　شيء اذا ما كان لا يغنيهم

كالاسد الذى يصيد الارنبا　　ثم يرى العير المجد هربا

فيرسل الارنب من أظفاره　　ويتبع العير على أدباره

والكلب من دقته ترضيه　　بلقمة تقذفها فى فيه

وعلى هذا النحو العادى الذى لا جمال فيه الا أنه برىء من الركة يمضى أبان في نظم كتابه . على انه فى هذا ناظم لكتاب معروف ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة الى تأليف كتب منظومة فنظم قصيدة طويلة فى الصوم والزكاة روى منها الصولى طرفا وهذا أولها :

هذا كتاب الصوم وهو جامع　　لكل ما قامت به الشرائع

من ذلك المنزل فى القرآن　　فضلا على ما كان ذا بيان

ومنه ما جاء عن النبى　　من عهده المتبع المرضى

صلى الاله وعليه سلما　　كما هدى الله به وعلما

وبعضه على اختلاف الناس　　من أثر ماض ومن قياس

والجامع الذى اليه صاروا　　رأى أبي يوسف مما اختاروا

قال أبو يوسف أما المفترض　　فرمضان صومه اذا عرض

والصوم فى كفارة الايمان　　من حنث ما جري على اللسان

ومعه الحج وفى الظهار　　الصوم لا يدفع بالانكار
وخطأ القتل وحلق المحرم　　لرأسه فيه الصيام فافهم
فرمضان شهره معروف　　وصومه مفترض موطوف
والصوم فى الظهار ان لم تعدد　　مظاهر يوما على محدد
والقتل ان لم يك عمدا قتله　　فان ذاك فى الصيام مثله
شهران فى العدة كاملان　　متصلان لا مفرقان
والحنث فى رواية مقبولة　　ثلاثة أيامها موصولة
ومثلها فى العدة الايام　　للمحرم الحالق فى الاحرام
ثلاثة يصومها ان حلقا　　لا بأس ان تابعها أو فرقا

ولكننا قد بعدنا عن الادب وجماله وأمعنا فى الفقه إمعانا وكأننا نروى هذه المنظومات التى حفظناها فى الازهر أيام الصبا . ولم يقف نظم أبان عند هذين الموضوعين بل يحدثنا أبو الفرج انه نظم قصيدة طويلة سماها دات الحلل تناول فيها تاريخ الخليقة وغير ذلك من موضوعات العلم وانتهى فيها الى المنطق فألم به ، ولم يرو لنا من هذه القصيدة شىء

وأحسب أن مكانه من البرامكة هو الذى حمله على اختراع هذا الفن . فقد كان مكانه منهم مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم ، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العلم تسهيلا . وليس من شك فى أن هذه الأموال التى أصابها من البرامكة حينما نظم كليلة ودمنة قد أطمعته فنظم القصائد الاخرى ليصيب مثل ما أصاب .

وكان أبان شديد الحرص على المال يضحى فى سبيله باشياء كثيرة

منها العقيدة والرأى . وكان يحسد مروان بن أبي حفصة لمكانه من الرشيد ولظفره بالصلات الضخمة والجوائز السنية ، فقد انتهى الامر بنى العباس مع مروان بن أبى حفصة الى أن كانوا يمنحونه بالبيت الف درهم فغاظ ذلك أبان بن عبد الحميد وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان . قال الرواة فعاتب البرامكة وأنكر عليهم تقصيرهم فى الانتهاء به الى الرشيد حتى يصيب من عطائه مثل ما يصيب مروان فقالوا له يجب أن تذهب مذهب مروان فتذم آل على ، فقال والله ما أستحل ذلك ثم أصبح فاستحله وقال قصيدة طويلة آثر بها بنى العباس على بنى أبى طالب وأثبت فيها حق بنى العباس فى وراثة الخلافة دون بنى على ودفعها الى الفضل بن يحيى فركب بها الى الرشيد فنالته صلاته وجوائزه . وهذا أول هذه القصيدة التى ذهب فيها مذهب الفقهاء وأصحاب المناظرة فلم تكن كلها شيئاً الى جانب هذا البيت من شعر مروان :

أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثة الاعمام

وأول القصيدة :

نشدت بحق الله من كان مسلما ... أعم بما قد قلته العجم والعرب
أعم رسول الله أقرب زلفة ... لديه أم ابن العم فى رتبة النسب
وأيهما أولى به وبعهده ... ومن ذا له حق التراث بما وجب
فان كان عباس أحق بتلكم ... وكان على بعد ذاك على سبب
فابناء عباس هم يرثونه ... كما العم لابن العم فى الارث قد حجب

وهى طويلة ولكنها تخلو من كل جمال أدبى ، وقد أجازها الرشيد

مع ذلك فأحسن جائزتها لانه لم يجز الادب وانما أجاز السياسة

وقد انتهى بنا القول فى أبان الى السياسة ولا بد لنا من أن نعرض لشاعرين خليقين بالعناية كلها من هـذه الناحية ،أحدهما مروان بن أبى حفصة الشاعر السياسى لبنى العباس خاصة ، والثانى السـيد الحميرى وهو الشاعر السياسى لبني على خاصة وان كان قد مدح بنى العباس وظفر بجوائزهم . واذا درسنا هؤلاء الشعراء الثلاثة من هذه الناحية السياسية فسننتهى الى هذه النتيجة : وهى ان أبان بن عبدالحميد أشدهم نفاقاً وأكثرهم اتجاراً برأيه ودينه . كان كالبرامكة يتشيع للعلويين ثم طمع فى أموال الرشيد فانكر العلويين وآثر عليهم بني العباس وهو يقسم ما يستحل ذلك ! . . وفى الحق أنه لم يكن يحب آل على ولا بنى العباس وانما كان كغيره من هؤلاء الفرس الذين يذهبون مذهب البرامكة يتخذ التشيع للعلويين لونا سياسيا يخفي اطماعه ومآربه الفارسية . أما مروان بن أبى حفصة فأسرته كلها من أتباع بنى أمية وأنصارهم والغلاة فى مدحهم وتأييدهم ولـكن الله أدال من بنى أمية لبني العباس فدار مع الايام ووجد فى ذلك مغنما فاندفع فيه ما اندفع بنو العباس فى العطاء . وأما السيد الحميرى فعلوى المذهب صادق فى علويته مسرف فيها اسرافا لا يعدله اسراف ولـكن الله ادال من بنى أميـة لبنى هاشم وكان السيد كغيره من الناس يحسبون أن الامر سيؤول الى العلويين ، فلما آل الأمر الى العباسيين دون العلويين انقسمت شيعة العلويين . فنهم من أعلن حقده وسخطه على بنى العباس فاشترك فى فتن العلويين وثوراتهم

ومنهم من اتقى بحفظ الود لآل على وجامل العباسيين وأخذ أموالهم ، ومن هؤلاء السيد الحميرى ولكن هذا بحث يحتاج الى عناية وتحقيق وروية ونحسب أن الخير فى ارجائه الى الاسبوع الآتى

مروان بن أبى حفصة (١)

السيد الحميرى

جمعت هذين الشاعرين الى أبان بن عبد الحميد فى آخر حديث الاربعاء الماضى ولم أجمعهما اليه عبثاً ، وانما جمعتهما اليه لان بين هؤلاء الشعراء الثلاثة صلة تجعل التفكير فى أحدهم وسيلة الى التفكير فى الآخرين . وليست هذه الصلة شعرية فهم يتفاوتون فى الشعر تفاوتاً شديداً ، لكل منهم فيه مذهبه وسبيله كما سنرى . وليست هذه الصلة مجونا ولا عبثا ولا زندقة . فقد كان ابان بن عبد الحميد من أهل المجون والعبث والزندقة . يستر ذلك ويخفيه حتى خدع الناس عن نفسه وحتى غضب يونس بن حبيب وقد ذكر أصحابه كفر ابان ، ولم يكن مروان بن أبى حفصه ماجناً ولا عابثاً ولا زنديقاً وانما كان أشد الناس انصرافا عن اللهو والعبث ، وأشد الناس حرصاً على الجد وحسن السيرة لاسباب سنبينها بعد حين . أما السيد الحميرى فلم يكن من المسرفين فى الاستهتار والتهتك ولا من الذين يتخذون العبث واللهو سيرة ودينا ، وانما كان رجلا كغيره من الشعراء الذين عاشوا فى العصر الجاهلى والأموى يأخذ بحظه من لذات الحياة ، لا متجاوزاً فى ذلك حداً ولا مستهتراً فيه ولا متحديا غيره من أهل التقى والدين . كان يشرب الخمر كما كان يشربها جرير والفرزدق والاعشى ولكنه لم يكن يعكف

(١) نشرت بالسياسة فى ١ ذو القعدة سنة ١٣٤٢ — ٤ يونيو سنة ١٩٢٤

عليها عكوف أبي نواس ، ولم يكن يتغناها أو يشيد بذكرها ، كانت سيرته في ذلك سيرة الشعراء من العرب لا من الموالي . فسنرى في غير هذا الحديث أن هنالك فروقا جلية بين شعراء العرب وشعراء الموالي تفسر لنا هذا المجون الكثير الذي نجده في صدر الدولة العباسية .

ليست الصلة اذن بين هؤلاء الشعراء الثلاثة مجوناً ولا عبثاً ولا زندقة ولا تشابها في المذهب الشعري والادبي ، وانما الصلة بينهم سياسية ، الصلة بينهم هذا المذهب السياسي الذي ذهبوه جميعاً دون أن يكونوا فيه جميعاً مخلصين ، فكلهم مدح بني العباس وتقرب اليهم وأفاد من أموالهم ، وكلهم كان هواه مع غير بني العباس ، ولا بد من توضيح ذلك بشيء من التفصيل .

رأينا في الحديث الماضي ان ابان بن عبد الحميد لم يكن مخلصاً لبني العباس ولكنه كان مخلصاً لمال بني العباس ، يشتهيه ويحرص عليه فعاتب البرامكة لانهم لم يقدموه الى الرشيد ، فلما قال له البرامكة إن الحق عليه في ذلك أن يهجو العلويين ويؤثر عليهم بني العباس أظهر تردداً وقال إنه لا يستحل ذلك ثم اصبح فاستحله كما قلنا وانشأ قصيدته المعروفة يثبت فيها ان بني العباس أحق بوراثة الخلافة من بني علي ، ولم يكن أبان علوياً مخلصاً وانما كان قبل كل شيء فارسياً مخلصاً وكان كغيره من هؤلاء الفرس يتخذ التشيع لعلي وآل بيته لوناً سياسياً ، اذ كانوا قد وثقوا بأن من المستحيل ان يسترد الفرس في ذلك الوقت استقلالهم السياسي وحريتهم الدينية على نحو ما كانت عليه قبل الاسلام ، فلم يكن لهم بد من ان يصلوا الى السلطان من طريق الاسلام ومن طريق السياسة الحزبية الاسلامية فنصروا الضعيف

المضطهد من هذه الاحزاب وهو حزب العلويين . وكان هذا الحزب ضعيفاً ايام عثمان مضطهداً اقبح الاضطهاد طوال ايام بني أمية . فأيده الفرس وناصروه حتى وصلوا به الى السلطان . ولكنهم لم يصلوا بالعلويين الى السلطان ؛ لان ظروفاً سياسية خاصة تدرس فى التأريخ لافى هذه الصحيفة الادبية دعت الى ان يستأثر بنو العباس بالحكم دون بني على ، فلان الفرس ومرنوا وآزروا بنى العباس ليصلوا معهم الى السلطان وتشددمنهم فى مذهبهم العلوى قوم لقوافى سبيل هذا المذهب مناياهم ، ومن هؤلاء ابو مسلم ومنهم البرامكة ايضاً ؛ وقد حدث فى ذلك الوقت شيء يشبه كل الشبه ما حدث فى فرنسا ايام الثورة التي ظهرت سنة ١٨٣٠ فقد قام الجمهوريون بالثورة وهيئوا اسبابها وانتهوا بها الى الفوز حتى ازالوا سلطان «بوربون» ولكن ظروفا سياسية خاصة حادت بالحكم عن الجمهوريين الى آل «اورليان» فقام ملك « لويس فيليب » وانقسم الثائرون المنتصرون الى قسمين متنازعين : قسم الجمهوريين الذين عملوا وضحوا وفازوا ثم قسم أنصار « اورليان » الذين اجتنوا ثمار الفوز وكان الجمهوريون يقولون إن خصومهم قداختلسوا الجمهورية Esacmoter la Républiq e وانقسم هؤلاء الجمهوريون فيما بينهم وبين أنفسهم ، فمنهم من مال الى الدولة الفائزة فانصرف من الحكم الجمهورى الى الحكم الملكى الحر ، ومنهم من تشدد فى مذهبه الجمهورى ومضي يأتمر ويدبر الثورات ، حدث هذا أو شيء قريب منه جداً حين قامت الدعوة الهاشمية لنقض السلطان الاموى . فقد كان سواد الناس يدعو للعلويين وينصرهم حتى اذا تم الفوز لهذه الدعوة الجديدة لم ينتصر العلويون وانما

انتصر بنو هاشم جملة على بنى امية واستأثر بالحكم من بني هاشم آل العباس، دون آل على. فانقسم الهاشميون على أنفسهم: منهم من أيد العباسيين تأييداً ظاهراً خالصاً ومنهم من أيد العلويين فمضى يأتمر ويثور، ثم انقسم العلويون فيما بينهم وبين أنفسهم ايضاً فاطمأن بعضهم الى السلطان القائم وأرجأ الثورة الى سنوح الفرصة، وابي بعضهم الا أن يثور. وعلى هذا كان مقام العلويين من العباسيين فى ذلك الوقت مقام الجمهوريين من أنصار «اورليان» سنة ١٨٣٠: اما الفرس فقد ذهبوا نفس هذا المذهب وانقسموا نفس هذا الانقسام، وكان ابان بن عبد الحميد من الذين اعتدلوا فى الحكم فأبوا أن يظهروا النصر لبنى العباس كما ابوا أن يظهروا السخط عليهم، ثم رأى هذه الاموال الضخمة التى يفيدها مروان بن ابى حفصة من خلفاء العباسيين فطمع وعدل عن مذهبه السياسى. فلم يبق علويا معتدلا بل أصبح عباسيا متطرفا — هذا هو ابان بن عبد الحميد. اما السيد الحميرى فقد استطاع أن يكون علويا متطرفا وعباسياً معتدلا، واستطاع ذلك فى وقت واحد. فكان من اشد الناس اخلاصاً لآل على يجهر بذلك ويعلنه ولا يتحرج منه. وكان فى الوقت نفسه مسروراً بفوز بنى العباس، لا لانهم فازوا على العلويين بل لانهم يمثلون بنى هاشم الذين فازوا على الامويين، كان يجمعه الي أنصار بنى العباس الفرح بسقوط الامويين وكان يعلن هذا الفرح وينتظر أن يأتى يوم آل على، وهو لا ينتظر هادئاً ولا صامتاً وانما كان يبث الدعوة لآل على ويبذل فى ذلك من الجهد والقوة ما استطاع ثم لم يكن فرحه بسقوط الامويين وحده هو الذى يدنيه من بنى العباس،

وانما كان هناك شيء آخر يدنيه منهم وهو الرغبة والرهبة ، كان يطمع فى أموال بنى العباس ويفيد منها غير قليل ، وكان يخشى بطشهم فيتقيه بالقصيدة تمدح بها آل العباس بين القصائد الطوال الكثيرة يشيد فيها بآل على . أما مروان بن أبى حفصة فكان شيئاً غير هذا كله ، وكان رجلا يخالف هذين أشد الخلاف ، ولا يتفق معهما الا فى شيء واحد هو مدح بنى العباس وتأييدهم . كانت أسرة مروان بن أبى حفصة منذ عرفها الادب والتاريخ متصلة ببنى أمية محسوبة عليهم ، ان قبلت هذا التعبير ، فقد كان أبو حفصة جده الاعلى عبداً فارسياً لمروان بن الحكم شهد معه حصار عثمان فى داره ، وأبلى فى الدفاع عن الخليفة بلاء حسناً ، وأظهر شجاعة ومكراً فى حماية مولاه مروان وانقاذه من الموت ، ثم شهد مع مروان جميع مواقفه السياسية والحربية المشهورة ، وكان يعينه فيما تولى من الاعمال قبل خلافته ونشأت عن ذلك صلة من صلات الموالاة القوية المتينة بين آل أبى حفصة وبين آل مروان ، حتى لقد كان الخلفاء من بنى مروان يؤثرون آل ابى حفصة على العرب وعلى أشراف العرب أيضا ، وحتى لقد أبى خليفة مروانى أن يسمع لنفر من أشراف العرب أقبلوا يشكون اليه أن رجلا من آل أبى حفصة قد أصهر الى العرب وخالف الحكم الشرعى الذي لا يبيح لموالى تزوج العربيات ، أبى الخليفة أن يسمع لهذه الشكوى بل زجر الشاكين زجراً شديداً واضطر الحفصي الى أن يسعى لدى الخليفة فى الرفق بهم والعطف عليهم ، وكان من آل أبى حفصة شعراء ناصروا الامويين مناصرة شديدة حتى أن أحدهم ندم على عصر الحجاج وزعم فى شعر له ان الدين قد تعرض

للخطر من حادث الحجاج فاضطربت أمور العراق وظهر فيه الثائرون، كل هذا يبين لك شدة هذه الصلة التي كانت بين الامويين وبين آل أبي حفصة وهو في الوقت نفسه يبين لك شيئاً آخر هو الذي نقصد اليه في هذا الحديث وهو خلق مروان بن أبي حفصة

فما كاد الحظ يديل من بني أمية لبني العباس حتى انتفض مروان بن أبي حفصة فاذا هو شاعر بني العباس ولسانهم السياسي، واذا هو أشد الناس انتصاراً لهم وأبلغ الناس دفاعا عنهم، واذا هو الشاعر الذي نستطيع أن نقول فيه إنه نظم الدفاع عن نظرية العباسيين في وراثة الملك وصاغها في هذه الصيغة الفقهية الشعرية معاً فقال .

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الاعمام

يريد أن العباسيين أحق بوراثة النبي لأن أباهم العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وهو أحق بوراثة ابن أخيه من الأسباط وذلك بحكم الفقه والميراث ، وقد وقع هذا البيت على العلويين وأنصارهم موقع الصاعقة فاضطربوا له اضطرابا شديدا واشتد سخطهم على مروان وأضمروا له الشر وأظهروا له اللعنة وما زالوا به حتى قتلوه كما سنرى . أما موقع البيت من العباسيين فقد كان أجمل وقع وأحسنه حتى كان مروان شاعر الحزب العباسي حقاً ، وكان أثيراً عند المهدى والهادى والرشيد وكان مروان أول شاعر أخذ من العباسيين مئة الف درهم مرة واحدة، ثم كانت له عليهم دالة وكانت له عندهم عادات فتقرر في ديوان الخلافة ان جائزة مروان يجب أن تكون ألوفا تعدل أبيات قصيدته عدداً ، فكان اذا بلغ بقصيدته المئة بلغت

جائزته مئة الف . وهذا هو الذى غاظ أبان بن عبد الحميد فكان منه ما كان ، على ان أبان بن عبد الحميد حين اراد أن يقلد مروان بن أبي حفصة لم يستطع أن يكون شاعراً وانما كان فقيهاً يناضل عن رأى فى الفقة ففصل النظرية العباسية تفصيلا ودافع عن كلياتها وجزئياتها كما يقول أصحاب المنطق دفاع الفقيه . فكيف استطاع مروان ابن أبى حفصة أن ينكر ماضيه وماضى اسرته وأن يجحد ولاء الامويين وينتفض فاذا هو عباسى أكثر من العباسيين ؟ سؤال ليس الجواب عليه عسيراً ولا فى حاجة الى بحث وتدقيق . فقد كان مروان بن أبى حفصة محباً للمال شرهاً اليه لايشبع منه ولا يقنعه منه الكثير . كان محباً للمال ، هذا التعبير ضعيف لايصف مروان ولا خلقه وإنما كان مروان يعبد المال عبادة ويقدسه تقديساً . وكان فيما بينه وبين نفسه يزدرى الامويين والعباسيين والعلويين ، وكان فيما بينه وبين نفسه مقتنعاً بانه يفوز باموال العباسيين فلو أدل الله منهم للامويين أو للعلويين لسار مع الدولة الجديدة سيرته مع الدولة القديمة ليظفر منها بهذا المال الذي يعبده ويقدسه . لم يكن اذن عباسياً مخلصا بل لم يكن شاعراً من شعراء الاحزاب بالمعنى الصحيح ألم يكن من هذه الالسنة السياسية الحزبية التى هى مرآة لقلوب أصحابها والتى تمثل الايمان الصادق والعقيدة الراسخة التى لا تؤثر المال على الرأى ولا تضن بالنفس على الموت فى سبيل الرأى السياسى. لم يكن مروان من هؤلاء وانما كان شاعراً مجيداً يستطيع أن يكسب المال بشعره وقد رأى فرصة سانحة فاحسن انتهازها وقدر له التوفيق فجمع من المال ما لم يجمعه شاعر من قبله . وأمثال مروان

ابن أبي حفصة كثيرون في عصور الثورات والاضطراب السياسي والجهاد العنيف بين الاحزاب ، تجدهم في كل مكان وفي كل زمان ولكن الذين يبلغون من الاجادة الفنية بين هؤلاء ما بلغه مروان قليلون جداً ... كان مروان شرها الى المال ولكن الغريب من أمره انه لم ينتفع بهذا المال ولم يستمتع بشيء منه وانما عاش عيشة بؤس وحرمان فكان من ابخل الناس وتستطيع أن تقول انه كان ابخل شاعر عرفته العرب الى ذلك الوقت ، وكان الناس يضربون الامثال ببخل مروان ويتندرون به في مجالسهم واحاديثهم ، فهم يقولون مثلا انه كان اذا قدم بغداد ليمدح خليفة من الخلفاء ويظفر بجائزته لم يأكل الا الرأس يبعث غلامه فيشتري له رأساً فيعيش عليه حيناً وقد كلم في ذلك فأجاب جواباً بديعاً ، أجاب بأن الرأس لا يكلفه طبخاً ولا تهيئة فهو مهيء وهو اذن يكفيه بعض المؤونة ، ثم انه لا يحتمل زيادة ولا نقصا فلا يستطيع الغلام أن يخونه فيه فهو ان أكل أذناً أو عيناً أو نحو ذلك ظهر سيده على ما أكل ، ثم ان له في الرأس مرافق فهو يتخذ منه ألوانا مختلفة دون أن يتكلف لذلك الأثمان التي يتكلفها الذين يريدون أن يتخذوا من الطعام ألوانا مختلفة ، فهو يأكل الاذنين لونا والعينين لونا آخر والغلصمة لونا آخر وعلى هذا النحو ، وزعم ناس من الرواة انهم مروا بمروان فنزلوا عنده في اليمامة فأطعمهم لحما فلما فرغوا من طعامهم دفع الى غلامه فلساً وآنية ليشتري له شيئاً من الزيت يطعم منه فذهب الغلام وعاد بالزيت ولكن مروان أتهمه بالسرقة والخيانة فجعل الغلام يسأله كيف اخونك في فلس واحد ، وجعل مروان يجيب أخذت الفلس واستوهبت

الزيت . . . ثم يتحدثون عن مروان نفسه انه قال ما فرحت لشيء قط كما فرحت يوما وقد أجازني المهدي بمئة الف درهم فوزنتها فزادت درهما فاشتريت به لحما .... ويقولون إنه مر بامرأة فأضافته فلما أراد الانصراف وعدها ان بلغت جائزته مئة الف أن يهبها درهما فلم تبلغ جائزته الا ستين الفا وكان يريد معن ابن زائدة فوهب المرأة اربعة دوانق وهو شيء لا يكاد يبلغ ثلثي الدرهم ، كما أن الجائزة لم تبلغ ثلثي المئة الف . . . وأحاديث مروان في البخل والحرص كثيرة روينا لك منها هذا الطرف لنصور لك حبه للمال تصويراً كافيا ، على أن هذا التصوير في حاجة إلى أن نتمه ونكمله بقصة رواها أبو الفرج ولها قيمتها ، لانها تمس شعر مروان وهي انه مر ذات يوم برجل من باهلة وهو ينشد جماعة قصيدة له كان قد أنشأها في مدح مروان بن محمد الاموي ثم كانت نكبة الامويين قبل أن يبلغ هذا الشاعر الخليفة بقصيدته فاستمع مروان لهذه القصيدة فأعجبته وكان أولها

مروان يا ابن محمد انت الذي زيدت به شرفا بنو مروان

فلما فرغ الشاعر من انشاد قصيدته تبعه صاحبنا الى بيته وقال له : انك لم تظفر من هذه القصيدة بما كنت تريد فقد قتل مروان وذهبت دولته فبعني هذه القصيدة لانتحلها لنفسي وتفوز انت بشيء من المال ، قال الرجل : قد فعلت فساومه مروان وانتهيا الى ثلاثمئة درهم ثم استحلف مروان صاحبه بالطلاق والايمان المحرجة الا يذكر هذه القصيدة ولا يرويها ولا ينسبها الى نفسه فحلف الرجل وانصرف مروان الى بيته فغير

القصيدة وزاد فيها ونقص منها وحولها الى معن ابن زائدة فقال :

معن ابن زائدة الذى زيدت به شرفا الى شرف بنو شيبان

ووفد بها على معن فملأ يديه وأقام عنده مدة حتى أثرى .

على اننا نستطيع أن نعرف كيف اتصال مروان بن أبى حفصة ببني العباس فبلغ عندهم من الحظوة ما بلغ وظفر منهم بما كان يطمع فيه من مال. يظهر أنه فى أول أمره لم يكن يفكر فى الاتصال بهم ولا فى الارتقاء الى هذه المنزلة منزلة الشعراء الذى يبلغون قصور الخلفاء وينشدونهم فيها الشعر وكأنه كان قد ترك ذلك لاهل العراق واكتفى بحظه من معن بن زائدة وقد كان هذا الحظ عظيما موفوراً ، فجود معن معروف وقد عرف مروان كيف يستغل هذا الجود ويستثمره . لكن معنا مات فحزن عليه مروان ورثاه رثاء كثيراً جيداً منه هذان البيتان :

أقمنا باليمامة بعد معن مقاما لا نريد به زوالا

وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

ثم بداله فوفد على المهدى فيمن وفد عليه من الشعراء وكان اسمه وشعره قد سبقاه الى المهدى كما سبقاه الى المنصور من قبل ، ولعل اسم معن هو الذى رفع مروان حتى انتهى به الى قصور الخلفاء ، وفد على المهدي فأنشده قصيدة يمدحه فيها فسأله المهدى من انت ؟ قال شاعرك وعبدك مروان ابن أبي حفصة ، ، قال المهدى الست القائل ، وذكر البيتين السابقين ثم قال لقد ذهب النوال فيما زعمت فلا نوال لك عندنا ، ثم أمر به فسحب برجله حتى أخرج . ومن قبل المهدى وجد المنصور على مروان لانه أحسن

مدح معن ووجد على معن لانه اكثر العطاء لمروان حتى انه لام معنا فى فى ذلك،ولكن معنا عرف كيف يخلص من لوم المنصور . كان المهدى اذن واجداً على مروان حاسداً لمعن بن زائدة ولهذا حرم مروان واهانه وكان مروان قد فهم هذا وكأنه قداستفاد من رحلته هذه فعرف الميول السياسية حول الخليفة واستفاد مما عرف . فأقام عامه فى بلده اليمامة ثم استأنف الرحلة فدخل على المهدى مع الشعراء وانشده وكان الخامس اوالسادس بين المنشدين ، وأنشده قصيدة يظهر أنها خلبت أهل عصره وكان من حقها أن تخلبهم فانها آية من آيات الشعر السياسى وآية من آيات الجودة فى اللفظ والمعنى وصفاء الاسلوب ورقته فى غير ضعف ولا ركة ولا تبذل ومطلعها

طرقتك زائرة فحى خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها قاد القلوب الى الصبا فأمالها

فلم يكد يبدأ فى انشاده حتى أخذ على الناس أهواءهم فاستمعوا له معجبين وبلغ بهم ذلك انهم كانوا كأنما تعلقوا بشفتى الشاعر حتى اذا هجم على الموضوع السياسى وأخذ يحاج العلويين ويخاصمهم عن حق بنى العباس فى وراثة الخلافة أخذ المهدى يزحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط اعجابا بما يسمع . واليك هذه الابيات التى استخفت المهدى وأحسب انها ما تزال تستخف من له علم بالحياة السياسية يومئذ .

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة عن ربكم جبريل بلغها النبى فقالها

شهدت من الأنفال آخر آية   بتراثهم فاردتم ابطالها

فلما فرغ من انشاده سأل المهدى عن القصيدة كم هى قال مروان مائة بيت فامر له بمئة الف درهم ، وكانت هذه أول مئة الف درهم نالها شاعر من خلفاء بني العباس . قال الفضل بن الربيع وهو الذى شهد هذه القصة فلما كانت أيام الرشيد دخل عليه مروان فانشده قصيدة يمدحه فيها فسأله ومن أنت قال شاعرك وعبدك مروان بن أبى حفصة فذكر له ذينك البيتين اللذين رثا بهما معن بن زائدة وقال له مثل مقالة المهدى وأمر به فأخرج ، قال الفضل بن الربيع فلما كانت أيام تلطف مروان حتى دخل على الرشيد فانشده قصيدته التى أولها :

لعمرك ما أنسى غداة المحصب   اشارة سلمى بالبنان المخضب

وقد صدر الحجاج الا أقلهم   مصادر شتى موكباً بعد موكب

طرب الرشيد وسأله عن قصيدته كم هي قال ستون أو سبعون فأمر له بعدد أبياتها ألوفا وكان ذلك رسم مروان فى القصر حتى مات

لعلك تريد الآن أن تعرف شيئاً عن شعر مروان ، وأنا آسف الأسف كله لانا لا نستطيع أن نتحدث فى ذلك عن علم ولا عن بصيرة اذ لم يحفظ لنا الرواة من شعر مروان الا أبياتا قليلة متفرقة . ومع ذلك فنستطيع أن نصور شعر مروان تصويراً مقاربا ان لم يكن صحيحاً ، وأكبر الظن انه صحيح . لم يكن مروان متصرفا فى فنون الشعر ، ولعله لم يعد منها فناً أو فنين ، فلسنا نعرف له غزلا الا هذا الغزل الذى تعود الشعراء أن يبدءوا به مدائحهم ، ولسنا نعرف له هجاء الا هذا النحو من

الهجاء الذى يضطر اليـه الشعراء السياسيون حين يدافعون عن مذهبهم ويهاجمون خصومهم . على أن موقف مروان كان فى هذا دقيقا جداً فهو لم يكن ينصر بني العباس على بنى أميـة فيبلغ منهم ما يريد ، ويهجوهم فى حرية ، وانما كان السيف هو الذى انتصر للعباسيين من بني أميـة ، وكان العباسيون فى حاجـة الى من ينصرهم على العلويين وأتباعهم من بني هاشم ولم يكن هجاء العلويين يسيرا . كان الدين يأباه فى ذلك الوقت وكانت كرامة الخلافة العباسـية نفسها تأباه أيضاً فالعلويون من بنى هاشم وهجاؤهم هجاء للعباسيين ، ومن هنا سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسـيين الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين مسلك الدفاع والمناظرة الشريفة البريئة من الشتم والقذف فكان دفاعهم أبلغ وكانت مناظراتهم أحسن وقعاً من هجاء اولئك الشتامين المسرفين فى الشتم ، ثم لا نعرف لمروان مجونا ولا عبثا ، فلم يكن كما قلنا ماجنـا ولا عابثا وانما كان بخيلا ، والبخل والعبث شيئان لا يتفقان ومن ضن على نفسه باللحم وطيبات الطعام لم يستبح لنفسه خمراً ولا ما تستتبعه الخمر . ثم لا نعرف لمروان فخراً وما نحسب انه فاخر أو مال الى الفخر ، فقد كان رجلا عمليا يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة وكان يضن بوقته وجهده على الفخر الذى لا يفيـد . لم يعرض اذن الا لفنين اثنين : المدح والرثاء ، وهو فى المدح أشعر منه فى الرثاء وهذا طبعى ، فهو راغب حين يمدح يطلب المال ويحرص على أن يظفر به ، فمعقول أن يجيـد وأن يبلغ من الاجادة حظاً عظيما ، أما فى الرثاء فهو لا يرغب ولا يطلب مالا وانما يقى بعهد ويشكر صنيعه . ومعقول أن موقفه هذا لا يدفعه الى

الاجادة الا أن يكون حساسا دقيق الشعور راقى النفس ، ولم يكن مروان من هذا كله في شيء ، وانما كان كما قلت لك رجلا عمليا يريد المال . على أن رثاءه لمعن ليس بالردىء وكذلك رثاؤه للمهدى ، وهل نستطيع أن نعد رثاءه للمهدى رثاء ، هو مدح لانه عزاء للخليفة الجديد ففيه ذكر للخليفة الراحل والثناء على وارثه وفيه المثوبة والعطاء . فهو الى المدح أقرب منه الى الرثاء . أما مدح مروان فمن آيات المدح العربي ، ونحن لا نحفظ منه الا متفرقات قليلة ولكنها تكفى لنحكم أن مروان كان قد أتقن المدح وبرع فيه ، بل نحسب انه تفوق فى هذا الفن على غيره من المعاصرين ، ولكن مدح مروان ينقسم الى قسمين متمايزين ، أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف وهو موجه لمعن بن زائدة فهو يفتن فى وصف معن بالجود والكرم والشجاعة والحب ثم يفتن فى مدح بني شيبان الذين ينتمى اليهم معن ، وهو لا يخرج فى مدحه هذا عن سنة الشعراء من قبله ولكنه جيد المعانى منتقاها حسن الالفاظ صافيها . وأما القسم الثانى فهو هذا المدح السياسى الذى كان ينشده الخلفاء من بنى العباس ، وهو مدح ان شئت ولكنه يمتاز عن المدح المعروف بما فيه من هذا النضال السياسى الذى كان يحتاج الى مهارة وفطنة ودقة وخفة ، والذى كان يضطر صاحبه الى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهم ، والى أن ينصر العباسيين دون أن يزدرى خصومهم. وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد فقد أغضب العلويين لا لانه آذاهم أو هجاهم فيما نعتقد ، بل لانه كان خصما قويا عنيداً ماهراً في الخصام وقد رأيت فيما قدمنا أمثلة من خصومته وقوة حجته فى الخصومة . ثم

هناك شيئان لا بد من الاشارة اليهما ليكمل رأينا فى مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكما معللا ان صح هـذا التعبير . الأول ان مروان لم يكن عراقيا ولم يرض الاقامة فى العراق ولم يطل عشرة العراقيين من أهل المجون والعبث ، وانما كان من أهل اليمامة أقام فيها لا يبرحها إلا وافدا على أمير أو وزير أو خليفة ، فاذا أنشد قصيدته وظفر بجائزته عاد الي اليمامـة وأقام فيها عامه ثم استأنف الرحلة . ولهذا أثره فى شعر مروان : فهو أقرب الى شعر الجاهليين والاسلاميين منه الى شعر المحدثين من شعراء الحضارة العباسية ، تقرؤه فتجد عليه هذه المسحة التى تخلو أو تـكاد تخلو من الدعابة والخفـة ، وتمتاز بشىء من الجلال والرصانة يمثل البادية تمثيلا صحيحا ، ولهذا أثره من وجهة أخرى ، فقـد رضى علماء اللغة جميعا عن مروان وأحبوه من هذه الناحية ، وما أشك أنا فى أنهم كانوا يودون لو استطاعوا إيثاره على بشـار وأبى نواس ، لانه كان أقرب منهما الى الاسلوب البدوى القديم ولـكن أبى لهم ذلك وقد سلط الله عليهم لسان بشـار وأبى نواس فاضطروا الى أن يحابوا هـذين الشاعرين ويتملقوهما وأجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديم بشار وايثاره على مروان . ومع ذلك فليس الى المقارنة سبيل بين الشاعرين اذا اتخذنا وجهة البحث والنقـد ، هذه الوجهة التى كان يعنى بها علماء اللغـة وهى وجهة المتانة والرصانة فى اللفظ والاسلوب ، لا يقاس الى مروان فى هذا أحد من شعراء العراق ، أما اذا اتخذنا وجهة أخرى للنقد ، اذا اتخذنا اختلاف الفنون التى طرقها الشاعر وقرب المأخذ والدنو من أذهان الناس والقـدرة على تمثيل حياتهم

فليس مروان يقاس الى بشار ولا الى أبى نواس بنوع خاص، على أن من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعا شريفا فى فنه لا يخاف ولا يهاب فصدق نفسه وصدق الناس وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين، وهذا العالم اللغوى هو ابن الاعرابى الذي ختم الشعر بمروان وأبى أن يدون لاحد من المحدثين بعده والذى كان ينشد مع الاعجاب الشديد هذه الابيات الجيدة من شعر مروان وهى :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم ... أسود لها فى بطن خفان أشبل

هم يمنعون الجار حتى كأنما ... لجارهم بين السماكين منزل

لهاميم فى الاسلام سادوا ولم يكن ... كأولهم فى الجاهلية أول

هم القوم ان قالوا أصابوا وان دعوا ... اجابوا وان أعطوا اطابوا واجزلوا

ولا يستطيع الفاعلون فعالهم ... وان أحسنوا فى النائبات واجملوا

وكان ابن الاعرابى يقول لو أن معنا أعطى مروان كل ما يملك بهذه الابيات لما بلغ حقه . الثانى أن مروان لم يكن سريعاً فى الشعر ولا متعجلا ولا مسترسلا مع الطبع وانما كان بطيئاً متمهلا . كان يجيد الشعر لانه كان يجوده . كان يسلك هذه الطريقة التى يزعم الرواة أن زهيراً كان يسلكها فى هذه القصائد التى يسمونها الحوليات ، كان ينفق أشهراً فى انشاء القصيدة واشهراً فى اصلاحها واشهرا فى عرضها حتى اذا استقام له هذا كله أنشد قصيدته لممدوحه خليفة كان أو وزيرا أو أميراً ، فليس عجيبا مع هذه الاناة أن يخلو شعره مما يستنكر وأن يبرأ من الضعف والوحشية معاً . ولقد يحدثنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع اللغويين والشعراء

الذين كان يعرض عليهم شعره قبل أن ينشده الخلفاء . ولست أشير الا الى سيرته مع بشار فلها معناها . كان مروان يعرض القصيدة على بشار ويسأله رأيه فيها فلا يجيبه بشار بأنها جيدة أو بأنها رديئة ، بل يقدر له قيمة القصيدة ماليا فيقول سيعطونك عليها كذا وكذا ... وقد صدق بشار مرتين فاظهر له مروان العجب من ذلك فقال بشار : ألم أقل لك انى أعلم الغيب ؟ ولم يكن يعلم الغيب وانما كان يفهم مروان ويفهم الخلفاء ويفهم الميول السياسية التى كان من شأنها أن تجزل حظ مروان من العطاء

كان مروان متناقضا ولكنه تناقض مفهوم ، كانشديد الحرص على الاجادة فكان يشك فى شعره ويستشير فيه الشعراء والنحاة ولكنه كان مع ذلك معجبا بنفسه لا يقدم عليها أحداً بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الاخطل والفرزدق وجرير . واسمع رأيه فيهم وفى نفسه فقد عقده شعراً ليثبت كما يقول .

ذهب الفرزدق بالفخار وانما	حلو القريض ومره لجرير
ولقد هجا فأمض أخطل تغلب	وحوى اللهى ببيانه المشهور
كل الثلاثة قد أجاد فمدحه	وهجاؤه قد سار كل مسير
ولقد جريت ففت غير مهلل	بجراء لا قرف ولا مبهور
انى لآنف ان احبر مدحة	أبداً لغير خليفة ووزير
ما ضرنى حسد اللئام ولم يزل	ذوالفضل يحسده ذووا التقصير

أما رأي مروان فى النقد فبديع ، كان ينشد الشعر لامرئ القيس ويقول هو أشعر الناس ، ثم ينشد شعر الاعشى : ويقول هو اشعر الناس

ثم ينشد شعر زهير ويقول هو اشعر الناس ، حتى اذا انشد لطائفة كثيرة من الشعراء فرآهم جميعاً اشعر الناس ، قال ضاحكا الناس اشعر الناس ... ولست اعرف رأيا كهذا الرأى يمثل الشك فى نقد الناقدين المعاصرين والسخرية بهذا النقد .

أظن انى قد صورت لك مروان بن ابى حفصة تصويرا مقاربا ان لم يكن صحيحا وكنت اريد ان اتحدث معه عن السيد الحميري كما ترى فى عنوان هذا الحديث ولكني اطلت فأرجىء السيد الى الحديث الآتى واختم هذا الفصل بموت مروان يقصه قاتله . روي صاحب الاغانى عن رجل يقال له صالح بن عطية الاصجم انه قال :

لما قال مروان:

انى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الاعمام

لزمته وعاهدت الله ان أغتاله فاقتله اى وقت امكنني وما زلت ألاطفه وأبره وا كتب اشعاره حتى خصصت به فأنس بي جدا ، وعرفت ذلك بنو حفصه جميعا فأنسوا بى ولم أزل اطاب غرة حتى مرض من حمى اصابته فلم ازل اظهر له الجزع عليه وألازمه وألاطفه حتى خلالى البيت يوما فوثبت عليه فاخذت بحلقه فما فارقته حتى مات فخرجت وتركته فخرج اليه اهله بعد ساعة فوجدوه ميتا وارتفعت الصيحة فحضرت وتباكيت واظهرت الجزع عليه حتى دفن وما فطن بما فعلت احد ولا اتهمني به

السيد الحميري [1]

علويون وعباسيون

اضطرنا ذكر ابان بن عبد الحميد الى أن نعرض للشعر السياسي في صدر ايام العباسيين ، فذكرنا ابان بن عبد الحميد نفسه ورأينا مذهبه وكيف كان يتخذ التشيع للعلويين لوناً سياسياً كسادته البرامكة ، ثم كيف لم يمنعه هذا أن يكون حرباً على العلويين كسادته البرامكة أيضاً . ثم ذكرنا هذا الشاعر الذي قصر شعره السياسي على بني العباس فدافع عنهم وناضل حتى حتى قتله رجل من شيعة العلويين غيلة وهو مروان بن أبي حفصة الذي كان خليقاً أن يكون أموي النزعة ولكن حبه المال وتهالكه عليه قطع الصلة بينه وبين قدمه وحمله على أن يقف شعره على من كان بيدهم المال والسلطان .

ونريد اليوم أن نرى شاعراً سياسياً ثالثاً يختلف كل الاختلاف عن هذين الرجلين اللذين رأيناهما ، فهو لم يكن فارسيا ولا ميالا الى الفرس ولا متصلا بزعمائهم ولا متأثراً بحضارتهم تأثراً خاصاً ؟ وانما هو رجل عربي خالص لأمه وأبيه ، وهو من عرب اليمن ، أبوه من حمير وامه من الأزد ، وهو اسمعيل بن محمد المعروف بالسيد الحميري .

ليس فارسياً ولا متصلا بأحد من زعماء الفرس ، واذن فلم يكن

(١) نشرت بالسياسة في ٢٢ ذو القعدة سنة ١٣٤٢ — ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٤

تشيعه طلاء سياسياً كاذبا يستر الشعوبية و بغض العرب : ولم يكن اموى النزعة بل لم تكن بين أسرته و بين الامويين صلة مودة كما كانت الحال بين آل أبي حفصة والمراونيـة ، وانما كان الامر على عكس ذلك بالقياس الى السيد الحميري ، فان جده يزيد بن مفرغ هجا زيادا وآل زياد وعرف سجن عبيد الله بن زياد . وكان ابو السيد وامـه من الخوارج الاباضيـة ، فكانا يكرهان الامويين كما كانا يكرهان بني هاشم ، وكانا يشتمان معاوية كما كانا يشتمان علياً ، ومع ذلك فقـد كان السيد الحميرى شيعة لعلي وابنائه ، ولعل شيعة العلويين لم يظفروا بشاعر مثله فى حياتهم السياسية كلها وقف عليهم عمره وجهده وكاد يقف عليهم مدحـه وثناءه مخلصاً فى ذلك كله اخلاصاً لا يشبهه اخلاص ، ولم يكن السيد الحميرى نفسه يعرف كيف وصل التشيع اليه ، بل كان اذا سئل عن ذلك قال غاصت رحمة الله على غوصاً ، وكان يسمع ابويه يشتمان عليا ، ويبالغان فى شتمه فـكان يكره ذلك ثم صح له مذهبه فى التشيع وظهر منه أبواه على هذا الرأي فيقال انهما هما بقتله فاستجار منهما بعقبة ابن سلم فأجاره حتى ماتا وتم له ميراثهما .

هو اذن يخالف ابان بن عبد الحميد فى أنه لم يكن فارسياً ولا ميالاً الى الفرس ، ويخالف مروان بن أبي حفصة فى أنه لم يكن امويا ولا ميالاً الى بنى أميـة ، ولكنه مع ذلك يوافق الرجلين فى أنه لم يعف عن أموال بني العباس بل تقرب اليهم وأثني عليهم وأنشدهم شعره وأخـذ من أموالهم ما استطاع مع انه لم يكن يحبهم ولا يهواهم وانما كان هواه مع قوم آخرين هم آل علي .

على أن امر السيد الحميرى يخالف أمر صاحبيه من هذه الناحية أيضاً، فهو فيما بينه وبين نفسه لم يأثم حين مدح العباسيين وظفر بجوائزهم، وهو لم يقل كما قال ابان بن عبد الحميد لا أستحل ذلك ثم استحله، وانما كان السيد الحميرى يستحل ذلك، كان يستحل أن يظهر غير ما يضمر وأن يمدح بني العباس بلسانه ويلعنهم فى قلبه فيظفر بمالهم ويتقى شرهم، كان يستحل ذلك كما كانت تستحله عامة الشيعة الذين كانوا يقولون بمذهب التقية ويستبيحون لانفسهم أن يروا فى السياسة والدين رأيين، رأيا تجاريا ان صح هذا التعبير، يصطنعونه فيما بينهم وبين الناس ليعيشوا ويأمنوا ويستمتعوا بلذات الحياة والأمن، ورأيا آخر يخفونه على الناس جميعاً الا أنصارهم وأولياءهم وهو الرأى الذى يصطنعونه فيما بينهم وبين الله، وعلى هذه السيرة سارت الشيعة العلوية أيام الامويين وعليها سارت أيضا أيام العباسيين، وهى معقولة ممكنة التفسير، فقد لقيت شيعة على من الاضطهاد وألوان المحن أيام بني أمية مالم يلقه حزب سياسى آخر اذا استثنينا الخوارج ؛ على أن المقارنة بينهم وبين الخوارج من هذه الناحية لا معنى لها، وكانت شيعة على من وجوه الناس وأشرافهم وذوى الثروة والمكانة فيهم، فلم يكن لهم بد من أن يداروا الناس ويتقوهم ليحتفظوا بثرائهم ومكانتهم حتى اذا سنحت لهم فرصة أو برقت لهم بارقة أمل نهضوا لحقهم فطالبوا به ودافعوا عنه، وعلى هذا النحو استطاع الكميت بن سعدون وهو الشاعر الذى يمكن أن يقرن الى السيد الحميري أن يمدح بنى أمية ويفيد من أموالهم وعلى هذا النحو استطاع «كثير» أيضاً أن يمدح الامويين ويصيب من جوائزهم بل على

هذا النحو استطاع الفرزدق أن يضمر ميله الى العلويين ويكتمه كتمانا وأن يقصر مدحه أو يكاد يقصره على الخلفاء من بنى أمية .

فليس غريبا أن نرى السيد الحميري يمدح بنى العباس ويتقرب اليهم مع أنه كان من غلاة العلويين الذين أسرفوا فى علويتهم حتى تجاوزوا بها كل حد . كان السيد الحميرى علويا غاليا وكان من الرافضة وقد جنى عليه غلوه ورفضه هذان جناية عظيمة هى التى تعنينا وان كانت لم تعنه ولم تنل منه ، ذلك أنه عاش عيشة هادئة مطمئنة فلم ينله أذي ولم يتعرض لخطر بل استمتع من نعيم الحياة بكثير ولكن رفضه وغلوه بغضا شعره الى الناس وحملاهم على أن يعرضوا عنه الاعراض كله ، إما انهم كانوا يكرهون أن يرووا شتم أبي بكر وعمر وغيرهما من أصحاب النبي وأزواجه . وإما لانهم كانوا يخشون السلطان إن رووا ذلك أو تناقلوه ، ومهما يكن من شيء فقد كان السيد الحميري أحد الشعراء الذين عرفوا بكثرة الشعر ولم يتقدمهم فى ذلك أحد فى جاهلية أو اسلام . وهم بشار وأبو العتاهية والسيد . فاما بشار فقد ذهب شعره لما كان فيه من زندقة ومجون وكفر ، وأما أبو العتاهية فقد حفظ له ديوانه لما كان فيه من زهد وورع ودين ، وأما السيد فقد ذهب شعره لما كان فيه من شتم السلف والطعن عليهم والاسراف فى الزراية بهم ، ولقد احتاط أبو الفرج احتياطاً شديداً وتحرج تحرجا عظيما فى رواية ماروى من أخباره وأشعاره القليلة ولو استطاع لأعرض عن ذلك اعراضاً ، وكان الرواة وأئمة اللغة يتحرجون من شعر ويختلسون الفرص اختلاساً يتلون فيها شيئاً من شعره خفية دون أن

يظهر عليهم الناس وكان منهم من يأسف ويأسى لانه فيما بينه وبين نفسه يكبر هذا الشاعر ويقدر شعره ولكنه لا يستطيع لخوف أو لدين أن ينزله منزلته الصحيحة من الشعراء. كان الاصمعى يقدمـه على طبقته لولا اسرافه فى شتم السلف ، وكذلك كان أبو عبيدة وكذلك كان غيرهما من الرواة الذين عاصروهما

ولعلك تتساءل عن مصدر هذا الخوف العظيم الذى كان يشتمل على الناس اذا ذكر السـيد الحميري أو شعره والذى كان يحمل أصدقاء الشاعر والمعجبين به على أن يتناقلوا شعره سراً فيما بينهم ، فمصدر هـذا الخوف شيئان : أحدهما الدين والآخر السياسة . وما رأيك فى رجل لم يدع نقيصة من النقائص ولا مأثمة من المآثم ولا لونا من الوان العيب إلا رمى بها خـيرة المسلمين وسلفهم الصالح ، لا يستثني من هـؤلاء جميعاً الا بنى هاشم وشيعتهم ، فاما أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم من اصحاب النبي مهاجرين وانصاراً فلم يسلموا من لسانه ، ولم يأمنوا من ذمه ونعيه . أفتظن أن أولئك المسلمين الذين كانوا يعيشون ايام المنصور والمهـدى على قرب عهدهم بالسلف وشدة حرصهم على تكريمه وتعظيمه كانوا يستطيعون أن يرووا هذا الشعر أو يسمعوه دون أن يأخذهم الالم وينالهم الاشمئزاز ويصيبهم شىء من الحرج فى دينهم يصرفهم عن هذا الشعر صرفاً عنيفاً أما السياسة فقد أريد أن أنتهز هذه الفرصة لابين لك مقدار البغض والعداء اللذين كانا يفصلان بين آل العباس وآل على أيام السـيد الحميرى ، وليس أدل على ذلك ولا أنطق به ولا أبلغ فى وصفه من هاتين الرسالتين اللتين

تبادلها المنصور ومحمد بن عبد الله بن الحسين العلوى حين خرج بالمدينة .
هاتان الرسالتان اللتان أرويها على طولها تصفان لك هـذا العداء الشديد الذى كان يقسم بنى هاشم قسمين : قسما يوالى العباسيين وقسما يوالى العلويين وهما على هذا يبينان لك شيئاً آخر أشرت اليه فى فصل مضى وهو النظرية السياسية والدينية التى كان يعتمد عليها العباسيون فى إقامـة ملكهم والتى دافع عنها مروان بن أبى حفصة ودافع عنها أبان بن عبد الحميد ، والنظرية السياسية الدينية التى كان يعتمد عليها العلويون فى المطالبة بحقهم والتى قامت عليها الثورات وسفكت من أجلها الدماء واستغلها الفرس لاهوائهم وشهواتهم السياسية .

لما خرج محمد بن عبد الله بالمدينة كتب اليه المنصور يرغبه ويرهبه ويخوفه عاقبة الخروج والبغى ويبذل له الامان ان تاب وعاد الى رأى الجماعة فكتب اليه محمد بن عبد الله هذا الكتاب .

« بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله المهدى الى عبد الله بن محمد . (طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وأنا أعرض عليك من الامان مثل الذى عرضت على فان الحق حقنا وانما ادعيتم هذا الامر بنا وخرجتم له بشيعتنا وحظيتم

بفضلنا وان أبانا علياً كان الوصى وكان الامام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ثم قد علمت انه لم يطلب هذا الامر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا ، لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء وليس يمت أحد من بني هاشم بمثل الذى نمت به من القرابة والسابقة والفضل وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية وبنو بنته فاطمة فى الاسلام . دونكم ان الله اختارنا واختار لنا . فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ومن السلف أولهم اسلاما على ، ومن الازواج أفضلهن خديجة الطاهرة وأول من صلى القبلة ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ومن المولودين فى الاسلام حسن وحسين سيد شباب أهل الجنة وان هاشما ولد عليا مرتين وان عبد المطلب ولد حسنا مرتين وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين وانى أوسط بنى هاشم نسباً وأصرحهم أباً ، لم تعرق فى العجم ولم تتنازع فى أمهات الاولاد . فما زال الله يختار لى الآباء والامهات فى الجاهلية والاسلام حتى اختار لى فى النار فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة وأهونهم عذابا فى النار وأنا ابن خير الاخيار وابن خير الاشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار ولك الله على إن دخلت فى طاعتى وأجبت دعوتى أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته الا حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم أومعاهد . فقد علمت ما يلزمك من ذلك وأنا أولى بالامر منك وأوفى بالعهد لانك أعطيتنى من العهد والامان ما أعطيته رجالا قبلى . فأى الامانات تعطينى ؟ أمان بن هبيرة أم أمان عمك عبد الله

ابن على أم أمان أبى مسلم . »

فانظر الى هـذا الـكتاب كيف عرض فيـه محمد بن عبد الله نظرية العلويين السياسية والدينية وهى أنهم ورثوا الخلافة عن النبي لأن أباهم كان وصى النبي ولأن أمهم بنت النبي وما كان لغيرهم أن يلى الخلافة وهم أحياء ثم انظر كيف افتخر بمكانه من النبي فى الاسلام والجاهلية وبهذه الكرامة التى خص الله بها أهل البيت . وكيف ذكر انه ابن خير الاخيار وخير الاشرار وخير أهل الجنة وخير أهل النار ، يريد أباطالب الذي مات ولم يسلم فيروى انه أقل أهل النار عذاباً ، ثم انظر كيف ختم كتابه بهذا التعبير يصف فيه المنصور لأنه نقض العهد وخان الذمة مع قوم آمنوه فقتل منهم من قتل وسجن منهم من سجن . وكان وقع هذا الـكتاب شديداً فى قصر المنصور فقد انتدب الـكتاب والامراء للرد عليه وأبي المنصور الا أن يرد بنفسه فكتب هذا الـكتاب .

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فقد بلغنى كلامك وقرأت كتابك فاذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجناة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة والاباء ولا كالعصبة والاولياء . لأن الله جعل العم أباًوبدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن كانت آمنة أقربهن رحماً وأعظمهن حقاً وأول من يدخل الجنة غداً ولـكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم واصطفائه لهم . وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها فان الله لم يرزق أحداً رزق الاسلام لابنتاً ولا ابناً ولو ان أحداً رزق الاسلام بالقرابة رزقه عبد الله أولاهم

بكل خير فى الدنيا والآخرة ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء .
قال الله عز وجل انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء
وهو أعلم بالمهتدين . ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عمومة أربعة فأنزل
الله عز وجل : وأنذر عشيرتك الأقربين ـ فأنذرهم ودعاهم فأجاب اثنان
أحدهما أبى ، وأبى اثنان أحدهما أبوك فقطع الله ولايتهما منه ولم يجعل
بينه وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثاً . وزعمت انك ابن أخف أهل النار عذابا
وابن خير الاشرار وليس فى الكفر بالله صغير ولا فى عذاب الله خفيف
ولا يسير ، وليس فى الشر خيار ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار .
وسترد فتعلم . وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . أما ما فخرت به
من فاطمة أم على وأن هاشما ولده مرتين ومن فاطمة أم حسن وأن
عبد المطلب ولده مرتين وأن النبى صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين فخير
الاولين والآخرين رسول الله (صلعم) لم يلده هاشم الامرة ولا عبد المطلب
الامرة وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً واصرحهم أما وأبا وأنه لم
تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الاولاد فقد رأيتك فخرت على بنى
هاشم طراً وانظر ويحك أين أنت من الله غداً فانك قد تعديت طورك
وفخرت على من هو خير منك نفساً وأباً وأولا وآخراً ابراهيم بن رسول
الله (صلعم) وعلى ولد ولده وما خيار بنى أبيك خاصة وأهل الفضل منهم
الا بنو أمهات أولاد وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله (صلعم) أفضل
من على بن حسين وهو لأم ولد ولهو خير من جدك حسين بن حسن وما
كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن على وجدته أم ولد ولهو خير من أبيك

ولا مثل ابنه جعفر وجدته أم ولد ولهو خير منك . أما قولك انكم بنو رسول الله (صلعم) فان الله تعالى يقول فى كتابه ما كان محمد أبا أحد من رجالكم . ولكنكم بنو ابنته وانها لقرابة قريبة ولكنها لاتحوز الميراث ولا ترث الولاية ولا تجوز لها الامامة فكيف تورث بها ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها نهاراً ومرضها سراً ودفنها ليلا فأبى الناس الا الشيخين وتفضيلهما ولقد جاءت السنة التى لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الام والخال والخالة لا يرثون ، وأما ما فخرت به من على وسابقته فقد حضرت رسول الله (صلعم) الوفاة فأمر غيره بالصلاة ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها ولم يروا له حقاً فيها أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان وقتل عثمان وهو له متهم وقاتله طلحة والزبير وأبى سعد بيعته . وأغلق دونه بابه ثم بايع معاوية بعده ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها وتفرق عنه أصحابه وشك فيه شيعته قبل الحكومة ثم حكم حكمين رضى بهما وأعطاهما عهده وميثاقه فاجتمعا على خلعه ثم كان حسن فباعها من معاويه بخرق ودراهم ولحق بالحجاز واسلم شيعته بيد معاوية ودفع الامر الى غير أهله واخذ مالا من غير ولائه ولا حله . فان كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه ثم خرج عمك حسين بن على على ابن مرجانة فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه اليه ، ثم خرجتم على بنى أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان حتى قتل يحي بن زيد بخراسان وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء وحملوهم بلاوطاء من المحامل كالصبي المجلوب الى

الشام حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم وأورثنا كم أرضهم وديارهم وسنينا سلفكم وفضلناه فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا ذكرنا أباك وفضلناه لتقدمة مناله على حمزة والعباس وجعفر وليس ذلك كما ظننت ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين متسلماً منهم مجتمعاً عليهم بالفضل وابتلى أبوك بالقتال والحرب وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة فاحتججنا له وذكرناهم فضله وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه . ولقد علمت ان مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الاعظم وولاية زمزم فصارت للعباس من بين اخوته فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر فما نزل عنها في الجاهلية والاسلام ولقد قحط أهل المدينة فلم يتوسل عمر الى ربه ولم يتقرب اليه الا بأبينا حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث وابوك حاضر لم يتوسل به ، ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطالب بعد النبي (صلعم) غيره فكان وارثه من عمومته ثم طالب هذا الامر غير واحد من بني هاشم فلم ينله الا ولده فالسقاية سقايته وميراث النبي له والخلافة في ولده فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا اسلام في دنيا ولا آخرة الا والعباس وارثه ومورثه واما ما ذكرت من بدر فان الاسلام جاء والعباس يمون ابا طالب وعياله وينفق عليهم للأزمة التي اصابته ، ولولا ان العباس أخرج الى بدر كرها لمات طالب وعقيل جوعا وللحق جفان عتبة وشيبة ولكنه كان من المطعمين فأذهب عنكم العار والسبة وكفاكم النفقة والمؤونة ثم فدى عقيلا يوم بدر فكيف تفخر علينا وقد علنا كم في الكفر وفدينا كم من الاسر وحزنا عليكم مكارم الآباء وورثنادونكم خاتم

الانبياء وطلبنا بثأركم فادركنا منه ما عجزتم عنه ولم تدركوا الا نفسكم والسلام عليك ورحمة الله » (الطبرى جزء تاسع)

اترى الى المنصور كيف استطاع أن يهدم مفاخر ابن عمه ، وأن يقيم على انقاضها مفاخر العباسيين ؟ ثم اترى الى نظرية العباسيين فى خلافتهم هذه التى تقوم على أن العم احق بالوراثة من البنت وعلى أن العباس قد ورث النبى فابناؤه يرثونه وعلى أن بنى على قد نزلوا عن حقهم فى الخلافة حين باعها الحسن من معاوية بخرق ودراهم ، وهو نفس الكلام الذى كان يردده مروان بن ابى حفصة وابان بن عبد الحميد وغيرهما من الشعراء السياسيين لبنى العباس ، فالمنصور هو الذى وضع هذه النظرية واحتج لها بالفقه والسنة ، وجعلها مذهباً سياسياً ودينيا ناضل عنه الشعراء .

ثم انظر اليه كيف عير العلويين نكرانهم للجميل وكفرهم للنعمة فقد نهض بنو العباس يثأرون لهم ويطلبون بدمائهم حتى ادركوا الثأر ومحوا العار واذلوا دولة بنى امية، فلم يروا من ابناء عمهم الا عقوقا وجحودا.

ولسنا نريد أن نحكم بين العباسيين والعلويين فى هذه القضية فذلك شىء لا يعنينا الآن ، وانما نريد أن نمثل العداء الذى كان بين هاتين الأسرتين ونحسب أن هذين الكتابين يمثلانه تمثيلا قويا وأنت تعلم ان الحرب اتصلت بين المنصور ومحمد هذا حتى قتل محمد فى المدينة وقتل أخوه ابراهيم فى البصرة ، وكل هذا يبين لك الى أى حد كان الناس يخافون من رواية الشعر الذى يدافع عن العلويين ويؤثرهم على غيرهم بالخلافة فى ظل رجل قوى كالمنصور

على ان شاعرنا السيد الحميرى لم يكن من أنصار الحسن والحسين أو بعبارة أصح لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين ، وانما كان من الكيسانية الذين كانوا ينصرون الابن الثالث من ابناء على محمد بن خولة الحنفية والذين كانوا يدينون بأنه لم يمت وانما تغيب عن الناس واحتجب عنهم حيناً وسيعود فيملأ الارض عدلا كما ملئت جوراً فلم يكن على السيد الحميري بأس أن يمدح بني العباس ويتقرب منهم ما دام صاحبه محمد ابن الحنفية لم يعد من غيبته بعد . ثم نستطيع أن نميز هذا الشاعر بخصلة لم نرها فى شاعر من الذين تحدثنا عنهم قبل اليوم وهى انه كان سخيفاً ضعيف العقل شديد الايمان بالخرافات والاوهام ، ويظهر ان هذه الخصله جاءته من مذهبه نفسه فى الرجعة ، فقد أسرف فى هذا المذهب كما أسرف فى مدح العلويين والايمان بهم حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يقبل وما لا يقبل، فكان كل خير يمكن أن ينسب الى العلويين رضيه العقل أم لم يرضه، وكان كل شر يمكن أن ينسب الى خصوم العلويين رضيه العقل أم لم يرضه ، وكان يكفى أن يسمع رجلا من أهل القصص ورواة الاساطير يروى كرامة من الكرامات يضيفها الى أحد العلويين حتى ينظم فيها قصيدة طويلة جيدة ويتخذ هذه القصيدة وسيلة الى ذم السلف والنعى عليه . وخصلة أخرى تقربه من الزنادقة الذين عاصروه ولكنها تجعل الصلة بينه وبينهم ضعيفة واهية فى الوقت نفسه ، وهى انه كان يستبيح ضروبا من اللهو المنكر ويسرف فى شرب الخمر وغير ذلك من ألوان العبث لا لأنه كان يجحد الدين أو يزدريه بل لانه كان يدل على صاحب الدين . كان يحب

النبي وآله ويمنحهم مودته ونصره ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك وسيشفعون
له في ذنوبه وآثامه لما قدم بين يديه من مدح العلويين ونصرهم على خصومهم
وكان بنو هاشم وبنو علي خاصة يطمعونه في ذلك ويعترفون له به فاذا ذكر
لهم انه يلهو ويشرب الخمر قالوا واى ذنب يعظم على الله أن يغفره لرجل من
أنصار أهل البيت بل قال أحدهم ان من احب آل علي لم تزل له قدم الا
ثبتت له أخرى . وعلى هذا كان السيد الحميرى يلهو آمنا في دينه ودنياه ،
يعتمد في دينه على العلويين ويعتمد في دنياه على العباسيين ، يقدر أن
العلويين سيشفعون له عند الله ويعلم ان العباسيين يتقون شره ويؤثرون
مدحه على هجائه . وكان من معاصريه من يكره ذلك ويمقته كل المقت
ويضمر للسيد عداء وحقداً لا يعد لهما عداء ولا حقد . ومن هؤلاء سوار
بن عبد الله العنبري قاضي البصرة للمنصور فقد كان العداء بينه وبين السيد
شديداً وكان قد أجمع ألا يقبل للسيد شهادة ، وكان قد سعى بالسيد عند
المنصور غير مرة وكان السيد قد هجاه فاسرف في هجائه فشكا ذلك الى المنصور
فنهاه المنصور عنه وأمره أن يذهب الى القاضي فيعتذر اليه وأبى القاضى
أن يقبل معذرته فاستأنف السيد الهجاء وألح فيه . ويقال إن سواراً أعد
شهوداً يشهدون على السيد بالسرقة ليقطع يده فعلم السيد ذلك فجزع
وفزع الى المنصور فعزل المنصور سواراً من القضاء للسيد أو عليه ولم يلبث
سوار ان مات فتبعه السيد بعدائه وبغضه وهجائه . وتستطيع أن تقرأ هجاء
السيد لسوار في الاغانى فهو كثير لا أروى منه شيئاً لانى قد أطلت بل
لست أروى من شعر السيد الا ابياتاً تمثل لك مذهبه الشعرى . على أنى

أعتقد أن السيد لا يمتاز عن غيره من الشعراء من الوجهة الفنية الا بشيئين اثنين، أحدهما الاكثار الذي لم يشاركه فيه الا بشار وأبو العتاهية ، فقد زعم الرواة ان قصائده فى آل علي كادت تبلغ الثلاثة آلاف ،

الثاني انه كان سهلا مطبوعا شديد النفرة من الغريب وقد سئل عن ذلك فأجاب بأنه يؤثر أن يقول كلاماً يفهمه الناس على أن يقول كلاما يعجب به الرواة ، وهذا طبيعي بالقياس الى شاعر سياسي يدافع عن حزب مضطهد كالسيد الحميري فهو لا ينظم شعره للخاصة وحدهم وانما ينظمه للعامة الذين يريد ان يتخذ منهم انصاراً

وانظر الى هذه الابيات يذكر فيها قبر الحسين :

امرر على جدث الحسين	فقل لاعظمه الزكيه
آ أعظما لازلت من	وطفاء ساكبة رويه
واذا مررت بقبره	فأطل به وقف المطيه
وابك المطهر للمطهر	والمطهرة النقية
كبكاء معولة أتت	يوما لواحدها المنية

وانظر الى هذه الابيات التى بعث بها الى المهدى يسأله الا يعطى آل ابى بكر وعمر من مال الدولة

قل لابن عباس سمى محمد	لا تعطين بنى عدى درهما
احرم بني تيم بن مرة انهم	شر البرية آخراً ومقدماً
ان تعطهم لن يشكروا لك نعمة	ويكافئون بان تذم وتشتما
وان ائتمنتهم أو استعملتهم	خانوك واتخذوا خراجك مغنما

ولئن منعتهم لقد بدءوكم بالمنع اذ ملكوا وكانوا اظلما

منعوا تراث محمد اعمامه وبنيه وابنته عديلة مريما

وتآمروا من غير أن يستخلفوا وكفى بما فعلوا هنالك مأثما

لم يشكروا لمحمد انعامه أفيشكرون لغيره ان انعما

والله من عليهموا بمحمد وهداهم وكسا الجنوب واطعما

ثم انبروا لوصيه ووليه بالمنكرات فجرعوه العلقما

وانظر إلى هذه الابيات يهنىء بها أبا العباس السفاح :

دونكموها يا بنى هاشم فجددوا من عهدها الدارسا

دونكموها الاعلا كعب من كان عليكم ملكها نافساً

دونكموها فالبسوا تاجها لا تعدموا منكم له لابساً

لو خير المنبر فرسانه ما اختار الا منكم فارساً

قد ساسها قبلكم ساسة لم يتركوا رطباً ولا يابساً

والآن وقد فرغنا من شعراء المجون والسياسة فى هذا العصر فسنحدثك عن شعراء آخرين لم يسلكوا فى شعرهم مجوناً ولا سياسة وانما ذهبوا مذهب غيرهم من الشعراء

القديم والجديد (١)

تقرأ فى الرسائل الفارسية « لمنتسكيو » رسالة لا تخلو من فكاهة ولذة ، تتناول فيها بالعبث والمزاح خصومه الادباء الذين كانوا يتنازعون فى عصره حول القديم والجديد وحول القدماء والمحدثين . تجد فى الرسالة أن الباريسيين يحبون القهوة ويكلفون بها . قد ظهر حبهم اياها وكلفهم بها حتى انشئت أندية خاصة يختلف اليها الناس يقرأون الصحف ويتناقلون الاخبار فى بعضها ويلعبون الشطرنج فى بعضها الآخر وتقدم اليهم كؤوس القهوة أثناء القراءة واللعب ، ومن بين هذه الاندية ناد خاص يظهر أن للقهوة فيه فضلا على غيرها من القهوات التى تقدم فى الاندية الاخرى كأن فيها شيئا يشحذ العقل وينبه الخاطر ويزيد البصيرة نفوذا والذكاء توقدا والالسنة انطلاقا ، فالذين يختلفون الى هذا النادى ويتناولون القهوة التى تقدم فيه أفصح الناس لسانا وأعذبهم بيانا وأقدرهم على التصرف فى فنون السحر وأبرعهم فى اصطناع ضروب الجدال ، فهم يتحدثون ويتناقشون ويتجادلون ، وهم يتقاذفون ويتشاتمون ، كأعنف ما يتقاذف الناس وأقبح ما يتشاتمون ، كل ذلك فى ألفاظ مختارة منتقاة تقع وقع الصواعق وتنفذ نفوذ السهام ، وكل هذه المناقشة وكل هذا العنف وكل هذا الجدال انما يدور حول شاعر يونانى عاش أو لم يعش منذ الفى سنة يكبره بعضهم حتى يبلغ به منزلة لا تعدلها منزلة ، ويحقره بعضهم حتى يبلغ به من الخسة دركا

(١) نشرت بالسياسة فى ١ رجب سنة ١٣٤٢ — ٦ فبراير سنة ١٩٢٤

ليس دونه درك ، وهم يختصمون ويتنابذون ويقتتلون دفاعا عن هذا الشاعر أو هجوما عليه ويغتبط الكاتب بانه ليس هـذا الشاعر ، ويحمد الكاتب الظروف التى اماتت هذا الشاعر قبل أن تقوم هذه المعركة العنيفة حول اسمه ومكانته فلو قد أدركها اقتلته أو لنالته بشر من الموت ان كان هناك شر من الموت

على هذا النحو يتحدث « منتسكيو » عن أدباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون فى القرن الثامن عشر حول القدماء والمحدثين ويظهر أن عبث غير « منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصمين وأن عبث غير « منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصمين لم يصرفاهم عن الخصومة ولم يلهياهم عن القديم والجديد ، فظلوا يختصمون فى القرن الثامن عشر كما كانوا يختصمون فى القرن السابع عشر وكما اختصموا من قبل ذلك وكما اختصموا من بعده حتى انتصر جديد على قديم ثم اصبح هذا الجديد قديما واختصم الناس حوله وحول جديد آخر فما زالت الخصومة حتى انتصر هذا الجديد على ذلك القديم ويظهر ان هذه الخصومة ستستمر أبدا فى كل لغة وفى كل جيل وحول كل ادب على شرط ان يكون للغة والادب والجيل الذى يتصرف فيهما حظ من الحياة . وقد تأخذ الخصومة حول القديم والجديد اشكالا مختلفة وصورا متباينة تمثل العصر الذى تنشأ فيه والظروف التى تحيط بها ولكنها مهما تختلف أشكالها وتتباين صورها ومهما تختلف العصور التى تنشأ فيها والظروف التى تحيط بها خصومة بين القديم والجديد . لا مصدر لها الا الحياة من حيث هى حياة ولا منصرف عنها لانها الحياة

نقول هذا كله بعد أن فرغنا من قراءة فصل فى مجلة « الهلال » التى صدرت أول هذا الشهر وكاتب هذا الفصل الذى نسجل مسرورين أنه ممتع هو الاستاذ مصطفى صادق الرافعى كتبه يدافع به عن المذهب القديم فى الادب لان كاتبا آخر هو الاستاذ سلامة موسى كتب فى مجلة « الهلال » التى صدرت فى الشهر الماضى فصلا عن الاستاذ الرافعى هاجم فيه المذهب القديم فى الادب مهاجمة عنيفة وجعل فيه الاستاذ مصطفى الرافعى زعيما من زعماء هذا المذهب القديم ، فلم يكن بد للاستاذ من أن يدفع هذا الهجوم العنيف دفعا عنيفا ولم يكن بد لقارىء « الهلال » من أن يقرأ هذين الفصلين العنيفين ثم تساءل فيم يختصم الكاتبان وما أصل هذا العنف فى خصومتهما وهل لهذه الخصومة نتيجة أو أثر فى الادب القديم أو فى الادب الجديد

الحق ان ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة « الهلال » وان أبطال هذه الخصومة أكثر من الاستاذين سلامة موسى ومصطفى الرافعى واذا كان لنا ألا نسرف فى استقصاء التاريخ والا نذهب بالقارىء الى ما بعد به العهد فقد يكون لنا ان نذكر القارىء بان مصدر هذه الخصومة فى هذه الايام الاخيرة انما هى صحيفة الادب فى « السياسة » ، ففى الصيف الماضى اشتدت الخصومة بين الاستاذ الرافعى وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له بعث بها الى « السياسة » تحت عنوان « اسلوب فى العتب » وذهب فيها مذهب المتكلفين من بعض الكتاب القدماء فأنكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الاسلوب ، وكانت حول هذا الانكار

خصومة طويلة انتهت الى الشتم والتنابذ ثم لم تكد تنتهى السنة الماضية حتى نشرت « السياسة » لكاتب اديب من كتاب فلسطين هو الأستاذ خليل السكاكيني رسالة حول الاسلوب القديم والاسلوب الجديد وحول الايجاز والاطناب تناول فيها بالنقد كاتبا اديبا من كتاب سورية هو الامير شكيب ارسلان ، فرد عليه الامير ردا طويلا واشتدت المناقشة بين الكاتبين حتى انتهت الى شيء من العنف ليس بقليل . ثم عرض الاستاذ سلامه موسى للاستاذ الرافعى فى مجلة « الهلال » فعده مع الامير شكيب ارسلان من زعماء المذهب القديم وأشار الى الكاتب الاديب خليل افندى السكاكيني على أنه من أنصار المذهب الحديث .

هذا هو التاريخ القريب لهذه الخصومة بين القديم والجديد فى الادب ، ويخطيء من يظن ان هذه الخصومة ستنتهى غداً أو بعد غد ، ويخطيء من يسأل نفسه عن قيمة هذه الخصومة وعن آثارها الحسنة أو السيئة ، فستستمر هـذه الخصومة فى الادب العربى كما استمرت فى الآداب الاخرى وكما استمرت فى الادب العربي القديم نفسه ، وستنتج نتائجها التى أنتجتها فى كل زمان وفى كل مكان فينتصر قديم على جديد ثم يصبح هذا الجديد قديما وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر ينتصر متى آن له الانتصار ، وستظل الحال كذلك ما دام للغة العربية والادب العربي حظ من حياة .

هذه الخصومة اذن مشروعة ، سواء أكانت نافعة أم لم تكن ، فليس الأدب العربى بدعا من الآداب وليس الادب العربى العصرى بدعا من الآداب العربية المختلفة . فليختصم الاستاذ سلامه موسى ومصطفى صادق

الرافعي ، وليختصم الاديبان خليل السكاكيني وشكيب أرسلان ، ولكنا نظن أن من حقنا نحن القراء على هؤلاء المختصمين أن نسألهم : فيم يختصمون ، وأن نطلب اليهم في رفق ولين أن يتفضلوا فيحددوا لنا موضوع الخصومة حتى نتبعهم فيها على بصيرة من أمرها ومن أمرنا فقد ظهر لنا الى الآن أن هؤلاء المختصمين يختلفون في أشياء لم يستطيعوا بعد أن يحددوها ، وآية ذلك أنك تقرأ مقال الاستاذ الرافعي فتجده يسأل ما « المذهب الجديد » وما « المذهب القديم » ويحاول أن يتبين هذين المذهبين وما بينهما من فروق . ولو كانت الخصومة بينه وبين صاحبه واضحة الموضوع بينة الحدود لما كلف نفسه هذا السؤال ولما احتاج الى أن يكتب كل هذا الفصل الطويل . وقل مثل هذا في الخصومة بين الاديبين خليل السكاكيني وشكيب أرسلان ، فهما يختلفان في الايجاز والاطناب والمساواة ، يرى احدهما أن الاطناب خصلة من خصال اللغة العربية قد عمد اليها أكبر الكتاب وأرفعهم قدرا منذ كان النثر العربي الى الآن ، فمن الحق أن نتبع طريقهم في ذلك . ويرى الآخر أن الاطناب خصلة من خصال اللغة العربية ولكن له مقامه فلا ينبغي أن يعمد اليه الكاتب ولا سيما في هذا العصر الا بمقدار والا حين تدعو اليه الحاجة الادبية . ويدور المختصمون جميعاً حول الذوق دون أن يحددوا هذا الذوق : أليس من حقنا أن نسألهم عن هذا الذوق ما هو وما حده وما الذي يريدون منه ؟ ولا تقل إن الاستاذ الرافعي قد اجاب على هذا السؤال ، فنحن نعترف بأن جوابه أدق من أن نفهمه وأشد غموضاً من أن نظهر عليه وانظر الى ما يقول في الذوق .

« وأنت تعلم أن الذوق الأدبي في شيء انما هو فهمه وأن الحكم على شيء انما هو أثر الذوق فيه وأن النقد انما هو الذوق والفهم جميعاً . . » نعترف باننا لا نفهم هذا الكلام، بل نعترف بانا نعتقد أن هذا الكلام ليس من شأنه أن يفهم . فاذا كان الذوق الادبي في شيء انما هو فهمه واذا كان الحكم على شيء إنما هو اثر الذوق فيه فكيف نستطيع أن نفهم أن النقد انما هو الفهم والذوق جميعا ؛ ذلك أن الجملة الاولى صريحة في أن الذوق هو الفهم واذن فالذوق والفهم لفظان يدلان على معنى واحد ، واذن فليسا شيئين وانما هما شيء واحد هو الفهم ، واذن فالنقد والفهم والحكم والذوق كل اولئك شيء واحد تدل عليه الفاظ مختلفة ... نعترف كما قلنا باننا لم نفهم هذه الجملة ولم نذقها ، واذن فنحن لا نستطيع أن نعتقدها ولا نحكم فيها لان الذوق هو الفهم ، والفهم هو الحكم ، والنقد هو الذوق والفهم معا وتستطيع أن تدور في ذلك ماشاء الله ان تدور ... فما زال الاستاذ الرافعي مطالبا بان يوضح لنا نظريته هذه في الذوق ونحسبه يحتاج في توضيحها الى عناء كثير ، ذلك انه يخيل الينا ان الذوق شيء والفهم شيء آخر وأن من الاسراف أن تقول إن الذوق هو الفهم ؛ فقد نفهم أشياء كثيرة دون أن نذوقها ، وآية ذلك انا نفهم كثيراً من كلام الاستاذ الرافعي دون أن نذوقه أو نعجب به . وربما كان لنا أن نذهب الى أكثر من هذا فنزعم اننا قد نذوق أشياء كثيرة دون أن نفهمها . واثبات ذلك ليس بالشيء العسير ، فما نظن أن الذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها يفهمونها جميعاً ، بل نعتقد أن الكثرة المطلقة من الذين يسمعون الموسيقي فيطربون ويتأثرون وينتهي بهم ذلك

الى شيء يشبه الذهول لا يفهمون الموسيقى كما يفهمها الموسيقيون الاخصائيون.
فأنت ترى أن الذوق والفهم شيئان مختلفان قد يجتمعان حينما تفهم قصيدة من الشعر أو فصلا من النثر وتعجب بهما وحينما تفهم قطعة من الموسيقى وتطرب لها، ولكنهما قد يفترقان حينما تقرأ فصلا من فصول الكتاب المتكلفين أو قصيدة من نظم الشعراء المتكلفين فتفهم النظم وتفهم النثر ولكنك تكرههما وتسخط عليهما السخط الشديد، وحينما تسمع قطعة من الموسيقى فتعجب وتطرب دون أن تفهم ما أراد الموسيقى. وللاستاذ الرافعى فى فصله هذا آراء كهذا الرأى محتاجة الى شيء من المناقشة، ومنها ما كان يحتاج الى شيء من التواضع قبل أن ينشر ويعلن الى الناس. انظر اليه مثلا يزعم أن المذهب الجديد فى الادب ليس فى حقيقة الامر الا نتيجة لضعف في اللغة والادب العربي وقوة فى اللغة والادب الاجنبي... وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديد انما هم قوم أضاعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم وأخذوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم، فكانت قوتهم فى هذه اللغات والآداب وضعفهم فى اللغة العربية وآدابها مصدر تورطهم فى فنون سخيفة من القول، وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد وانكارهم للمذهب القديم ضربا من الاعتذار لانفسهم ولونا من الوان الغرور بانفسهم أيضا!... نعتقد أن الاستاذ الرافعى مسرف فى هذا الحكم ولعل مصدر اسرافه في هذا الحكم، ان صحت نظريته السابقة، أنه أخطأ فهم ما يكتب أنصار المذهب الجديد، وهو انما أخطأ الفهم لانه أخطأ الذوق أو هو انما أخطأ الذوق لانه أخطأ الفهم، وتستطيع أن تدور مع الاستاذ

الرافعى حول الذوق لذى هو الفهم أو حول الذوق الذى ليس هو الفهم حتى تتعبا فتسقطا معا وقد بلغ منكما الكلال والاعياء ، ولكن الاستاذ الرافعى معذور على كل حال فما كان له أن يحكم فيحسن الحكم دون أن يفهم ويذوق وهو قد يخطئه الفهم والذوق أحيانا فتخطئه الاصابة فى الحكم .
ونظن أن للاستاذ الرافعى حظا من الانصاف وأنه يرى معنا أن بعض أنصار المذهب الجديد قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا بأس به ، وأن قوتهم فى اللغة الاجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وادابها ، فهم يستطيعون أن يفهموا الجاحظ كما يستطيعون أن يفهموا « فولتير » . واذن فانتصار هؤلاء لمذهب جديد ليس ضعفا وليس اعتذاراً لانفسهم وليس تعصبا للادب الاجنبي الذى تفوقوا فيه . وما نظن ان الاستاذ ينكر على خصمه سلامه موسى انه يفهم الادب العربى كما يفهم الادب الانكليزى ، ويستطيع ان يحكم فيهما عن فهم هو الذوق أو ذوق هو الفهم أو فهم ليس ذوقا أو ذوق ليس فهما :.وما نظن أن الاستاذ ينكر علينا نحن انا نستطيع أن نفهم الادب العربى وأن نفهم الادب الفرنسى وان نحكم فيهما احيانا عن ذوق وفهم ، أو عن فهم دون ذوق ، أو عن ذوق دون فهم .. ثم هب سلامه موسى وغيره من خصوم الاستاذ الرافعى وانصار المذهب الجديد ضعافا فى اللغة العربية وآدابها فهناك قوم ينصرون المذهب الجديد وليس لهم من اللغات الاجنبية وادابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وادابها موفور تدل عليه آثارهم وما ينشرون ، فما رأى الاستاذ فى هؤلاء ، وما أصل مذهبهم الجديد وهم يجهلون اللغات الاجنبية ولا

يتعصبون لها ؟ ثم ما لنا نذهب بالاستاذ بعيـدا عن الموضوع الذى أتقنه وبرع فيه . فلسنا نشك فى أن الاستاذ أتقن الادب العربى وأحسن روايته وفهمه وتقليده وأسرف فى هذا التقليد وهو يناقض نفسه بعض المناقضة فيصرح بأن العرب عرفوا القديم والجديد فكان القرآن الكريم جديداً وكانت الآداب العباسية جـديدة من بعض وجوهها وتجددت الآداب العربية غير مرة ، يصرح بهذا ولكنه فى الوقت نفسه يزعم أن أحداً من العرب وأدبائهم لم يذكر مذهبا جديدا ولا قديما ، واذن فقـد تجددت الآداب العربية غير مرة دون أن يشعر العرب بهذا التجدد أو شعر العرب بهذا التجدد دون أن يذكروه ، والحق أن الآداب تجددت غير مرة وان العرب شعروا بهذا التجدد وانهم ذكروه واختصموا فيه كما يختصم فيـه الاستاذ الرافعى وأصحابه الآن ، وقد كتبنا فى هذا المكان من (السياسة) فصولا طوالا في العام الماضى فصلنا فيها بعض ما كان من الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الجديد أيام بنى العباس . واذا كان العرب لم يصطنعوا لفظة « المذهب الجديد » و « المذهب القديم » فليس ذلك دليلا على أنهم لم يعرفوا القديم والجديد ولم يذكروهما ولم يختصموا حولهما . وما معنى لفظ « البديع » ؟ وهل كان البديع جديداً أم هل كان قديما ؟ وهل اختصم الناس حول البديع أم هل قبلوه دون مناقشة ولا جدال؟وهل امتاز بالبديع من الكتاب والشعراء قوم غلوا فيه فرضى عنهم قوم وانكرهم آخرون ، أم هل قبله الناس جميعاً وأخذوا منه بحظوظ متساوية ؟ واذا كان الإستاذ لا ينكر ان العرب اختصموا حول القديم والجديد في الشعر وفى النثر فهل

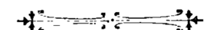
يستطيع أن يعلل لنا هذا الاختصام ؟ فليس من شك فى ان أنصار الجديد من العباسيين مثلا لم يكونوا ضعافا فى اللغة العربية وآدابها ولم يعتذروا لانفسهم عن هذا الضعف بتعلقهم بالجديد وغلوهم فيه . أ كان أبو نواس ضعيفا فى اللغة العربية وادابها ؟ أ كان ابو تمام ضعيفا فى اللغةالعربية وآدابها أ كان المتنبي ضعيفا فى اللغة العربية وآدابها ؟ ومع ذلك فقد جدد أبو نواس وانتصر للجديد، وقد جدد ابو تمام وانتصر للجديد، وقد جدد المتنبى وانتصر للجديد ، وقد اختصم الناس حول هؤلاء الشعراء وتجديدهم فانتصر لهم قوم وسخط عليهم قوم آخرون . ونستطيع أن نؤكد للاستاذ الرافعي أن الادباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون حول القديم والجديد كانوا يفهمون اللاتينية واليونانية وآدابهما كما يفهمون الفرنسية وآدابها وكان منهم مع ذلك من يؤثر اللاتينية واليونانية ومنهم من يؤثر الفرنسية وكان منهم من يؤثر مذهب القدماء ومنهم من يؤثر مذهب المحدثين ، فليس المذهب الجديد قائما على جهل أو ضعف أو تعصب وانما هو قائم على شيء آخر غير هذا كله قائم على الفهم قبل كل شيء .قائم على ان الذين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون مالا يحسه انصار المذهب القديم ويرون ما لا يراه انصار المذهب القديم ويشعرون بأنهم يحيون فيريدون ان يأخذوا بحظهم من الحياة ، يريدون ان يفهموا الناس وان يفهمهم الناس ، يعيشون من الجيل الذى هم فيه دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الاجيال الماضية . ورأى آخر للاستاذ الرافعى يحسن أن نناقشه ولو قليلا . فهو يرى ان من الخير لانصار المذهب الجديد ان يولدوا من جديد وان يتعلموا الادب العربى من جديد ليأخذوا منه

بالحظ الموفور فيسلكوا فيه سبيل القدماء ذلك خير لهم من أن ينتحلوا مذهبهم الجديد ولغتهم الجديدة فيدخلوا فى اللغة والادب ما ليس من حقهم أن يد خلوه ، ذلك لان اللغة موروثة وهي ملك الملايين من الاعمار ولطائفة طويلة من العصور فيجب ان نقبلها كما ورثناها دون أن ندخل فيها شيئا من عندنا أنفسنا

ونحن نعترف باننا نخالف الاستاذ كل المخالفة فى هذا الرأى ونسمح لانفسنا بان نراه عقما ونسمح لانفسنا بان نزعم أن لنا فى هذه اللغة التى نتكلمها ونتخذها أداة للفهم والافهام حظا يجعلها ملكا لنا ويجعل من الحق علينا أن نضيف اليها ونزيد فيها كلما دعت الى ذلك الحاجة أوقضت ضرورة الفهم والافهام أو كلما دعا اليه الظرف الفنى . لا يقيدنا فى ذلك الا قواعد اللغة العامة التى تفسد اللغة اذا تجاوزناها . فليس لاحد أن يمنعك أو يمنعني أن نضيف الى اللغة لفظاً جديداً أو ندخل فيها أسلوبا جديداً ما دام هذا اللفظ أو هذا الاسلوب ليس من شأنهما ان يفسدا أصلا من أصول اللغة أو يخرجا بها عن طريقها المألوفة، ولولا هذا وان اللغة ملك لابنائها يضيفون اليها ويدخلون فيها لما نمت اللغة ولما شاعت ولما استطاعت أن تفى بحاجات أهلها التى تتجدد وتتنوع بتجدد الازمنة وتبدل الظروف . والكتاب والشعراء فى كل عصر وفى كل مكان يضيفون الى لغاتهم ويدخلون فيها ويجددونها فمنهم من يسعده الحظ فتروج ألفاظه وأساليبه ويقبلها الناس ويتهالكون عليها حتى تشيع وتصبح جزءاً من اللغة المألوفة ، ومنهم من يخطئه هذا الحظ فلا يحفل الناس بما ادخل ولا بما اضاف

ومما يحسن أن ينبه اليه الاستاذ الرافعي فى رفق ولين أيضاً انه يسرف فى سوء الظن باوروبا وأمريكا وفى سوء الحكم عليها ، ولعل مصدر ذلك أنه يقرأ لغة أوروبا ومريكا ولا يفهمها ولا يذوقها فهو يخطىء فى الحكم على أوروبا وأمريكا وهو مسرف حين يظن « أن فى أوروبا وأمريكا من الغفلة مذهباً ومن الرقاعة مذهباً ومن تسفل الشهوات مذهباً ومن الجنون مذهباً ومن كل شذوذ مذهباً ومن غير المذهب مذهباً . . . » هو مسرف فى ذلك فليست أوروبا وأمريكا من السوء بحيث يظن ولو قد بلغتا من السوء هذا الحد لما كان لهما التفوق على غيرهما من بلاد الله . ثم ان اختلاف المذاهب وتنوعها في أوروبا وأمريكا ليس شيئا جديداً وانما هو شيء عرفه الانسان منذ تحضر ومنذ فكر . ويسوءنا ان نقول ان الانسان قد عرف الديانات منذ تحضر ومنذ فكر أيضاً فما استطاعت الديانات ان تقضى على اختلاف المذاهب ولا استطاع اختلاف المذاهب أن يقضى على الديانات وانما الانسان انسان فيه الخير وفيه الشر ، فيه الايمان وفيه الالحاد ، فيه الفضيلة وفيه الرذيلة ، فيه الاباحة التى لا حد لها وفيه التحرج الشديد . والاستاذ الرافعى كغيره من انصار المذهب القديم مشفق كل الاشفاق على القرآن الكريم وعلى الاسلام أن يصيبهما من المذهب الجديد شر أو ينالهما ضيم ونظن من السخف والاطالة التى لا تجدى أن نهون على الاستاذ ونهدىء من روعه فليس ما يدعو الى الاشفاق ونظن اننا ونحن من أنصار المذهب الجديد المتشددين في نصره نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ونذوقه كما يفهمه الاستاذ وأصحابه ويذوقونه . ذلك أن مذهبنا الجديد لا يقتل اللغة ولا

يصرف الناس عنها ولا يغير من أصولها وقواعدها وانما يريد أن تكون اللغة حية نامية ومن ذكر الحياة والنمو فقد ذكر التطور ومن ذكر التطور وآمن به فهو من أنصار المذهب الجديد سواء أرضى ذلك أم أنكره



*

فهرس

(كتب أخرى للمؤلف)

١ ذكرى أبى العلاء
٢ فلسفة ابن خلدون الاجتماعيه
٣ نظام الأتينيين (تعريب)
٤ صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان
٥ قصص تمثيليه
٦ روح التربية (تعريب)
٧ قادة الفكر « تحت الطبع »

*



تأليف

طه حسين

أستاذ الآداب العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية

الجزء الثاني

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م

(حقــوق الطبع محفــوظة)

الى الأستاذ الجليـــل

أحمد لطفى السيد بك

مدير الجامعـة المصرية

صديق الأستاذ الجليل

فى مثل هـذه الأيام من السنة المـاضية قدّمت اليك طرفا من هـذا الحديث ، فأْذن لى فى أن أقدّم اليك الآن بقيته مع تجلة التلميذ المخلص وتحية الصديق الوفىّ ؟

طه حسين

٢٢ مارس سنة ١٩٢٦

*

فهـــــرس

الجزء الثـانى من حديث الأربعاء

صفحة

حديث الأربعاء

الجـــــزء الثانى

*

الغــــزلون[1]

قيس بن الملوّح، أو مجنون بنى عامر، أو مجنون ليلى

أعلم أنى مدين لك بطـائفة من أحاديث الأربعاء شغلتنى عنها هذه الرحلة التى انصرفت اليها عن القراءة والكتابة، بل عن التفكير حينا طويلا . ولكنى أعلم أنك تبيح لمن تكلف عناء القراءة والكتابة والتفكير سنة وبعض سنة فى غير راحة ولا ترفيه على النفس أن يستريح شهرا وبعض شهر . وأنا مع ذلك مجتهد فى أن أعوّض عليك ما فقدت من هــذه الأحاديث، وأرجو أن أبلغ من ذلك ما تريد وما أريد . وأعلم أنى أغضبت طائفة من أدبائنا الذين أجلهم وأكبرهم وأقدر رأيهم فى الأدب العربى حين كتبت عن بشّار فلم أحبــه ولم أمل اليه ووصفته بشىء من ثقل الروح ولؤم الطبع وشدّة الغرور والافتتان بالنفس . أعلم ذلك، وأرانى مع الأسف الشديد مضطرا الى أن أغضب هؤلاء الأدباء مرة أخرى . وأؤكد لهم أنى لا أتعمد ذلك ولا أرغب فيه، وانما يضطرنى اليه البحث اضطرارا وتكرهنى عليه مناهج النقد إكراها . وما زلت منــذ بدأت أحاديث الأربعاء أغضب طبقات من الناس حتى أصبحت لا أدرى أى الطبقات يرضى عما أكتب ويطمئن اليه . أولئك يغضبون لأنى أصف العصر العباسى بالمجون والشدّة، وهؤلاء يغضبون لأنى أقدّم أبا نُوَاس والحسين بن الضحّاك على بشار . وسيغضب قوم آخرون لأنى سأنكر وجود طائفة من الشعراء، أو سأجحد شخصيتهم، وسأزعم أن هؤلاء الشعراء بين اثنتين : إما أن يكونوا أثرا من آثار الخيال قد اخترعهم اختراعا، وإما ألا تكون لهم شخصية بارزة ولا خطر عظيم ، وانما عظّم الخيال أمرهم وأضاف اليهم ما لم يقولوا وما لم يعملوا، واخترع حولهم من القصص

---

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

ألوانا وأشكالا جعلت لهم فى الأدب العربى هـذا الشأن العظيم الذى لا يكاد يقوم على شىء .

نعم ، سأنكر طائفة من الشعراء أو سأنكر شخصيتهم ، وأنا أعلم أن فريقـا غير قليل من الذين يعنون بالأدب لا يحبون هـذا النحو من البحث الذى ينتهى الى الإنكار أو الى الشك ، وانمـا يريدون أن يكون البحث كله إثباتا و يقينا وأن ينتهى البحث كله الى إثبات ويقين . وليس الباحث الماهر عند هؤلاء أن ينتهى البحث به الى إنكار المجنون أو الشك فيه ، فهذا الباحث هادم للمجد العربى معتد على الأدب العربى ، وانمـا الباحث المـاهر حقا عند هؤلاء هو الذى يسلك كل سبيل و ينتهج كل طريق و يتكلف كل حيلة ليثبت وجود المجنون و يزيل أسباب الشك فيــه ، ليضيف الى المجد العربى مجدا وليثبت أن الأدب العربى يمتاز بالألوان الفنية التى لا تحصى .

إن أردت أن ترضى هؤلاء الناس فتملّق حبهم للعرب و إسرافهم فى هذا الحب ، وأضف الى العرب ما قالوا وما لم يقولوا وما عملوا وما لم يعملوا ، واجعل أمتهم أشرف الأمم ولغتهم أشرف اللغات وأدبهم أرقى الآداب ، لا تحسب فى ذلك حسابا ولا تنتهى فيه الى مقدار ، ولا تعترف للأمم الحديثة بشىء الا أن تكون قد ورثته عن العرب ونقلته عنها نقلا . أسلك فى الأدب لترضى هؤلاء النـاس مسلك قوم فى السياسة ، واتخذ الحقائق الأدبية موضوعا للتضليل كما يتخذون المنافع السياسية ، تفز بمـا شئت من تصفيق و إعجاب ، و بما أحببت من حمد وثناء ، ولكنك تسىء الى العلم وتعتدى عليه . فاختر بين رضا العلم و رضا الجماهير .

أما أنا فأعترف — لسوء الحظ أو لحسنه — أنى أُوثر رضا العـلم والضمير على رضا الناس و إعجابهم وتصفيقهم . ولهذا أتقدّم بهذه النظرية فى غير تلطف ولا احتيال ، فأزعُم أن هذه الطائفة من الشعراء الذيـــن أسميهم « الغزلين » لم يكن لهم فى تاريخ الأدب العربى من الشأن ما يظنــه النــاس الى الآن ، وانمـا هم فى حقيقة الأمر

ينقسمون الى قسمين متمايزين لى فى كل منهما رأى : الأول الشعراء « العذريون » لا لأنهم ينتسبون الى «عذرة» بل لأنهم يتخذون هذا الغزل العذرى مذهبا فى الشعر، ومنهم المجنون، وقيس بن ذُرَيْح، وعُرْوة بن حِزَام، وجميل بن مَعْمَر. والثانى « المحققون » أريد بهم هؤلاء الشعراء الذين انقطعوا للغزل أو كادوا ينقطعون له ولكنهم لم يلتمسوا الحب فى السحاب، ولم يتخذوا العفة المطلقة مثلهم الأعلى، وانما عبثوا ولَهَوْا واستمتعوا بالحياة، وتغنّوا هذا العبث واللهو وقصروا شعرهم عليهما أو جاوزوهما الى فنون أخرى من الشعر، ولكنهم لم يبلغوا منها ما بلغوا من الغزل. وزعيم هؤلاء الشعراء عمر بن أبى ربيعة ومعه نفر آخرون قد أحدثك عنهم بعد أن أفرغ من العذريين .

لست أشك فى أن عمر بن أبى ربيعة شخص تاريخى، وفى أن أكثر الشعر المنسوب اليه صحيح صدر عنه حقا، وفى أن شخصيته كانت فى عصره كما نمثلها نحن الآن أو على نحو ما نمثلها الآن، وكذلك قل فى « كُثَيِّر » وكذلك قل فى عبيد الله ابن قيس الرقيّات . ولكنى أشك الشك كله فى أن يكون قيس بن الملوح شخصا تاريخيا وجد وعرفه الناس واستمعوا اليه، وفى أن يكون هذا الشعر المنسوب اليه صحيحا قد صدر عنه حقا . وأزعم أن قيس بن الملوح خاصة انما هو شخص من هؤلاء الأشخاص الخياليين الذين تخترعهم الشعوب تمثيل فكرة خاصة أو نحو خاص من أنحاء الحياة . بل ربما لم يكن قيس بن الملوح شخصا شعبيا « كجحى » وانما كان شخصا اخترعه نفر من الرواة وأصحاب القصص ليلهوا به الناس أو ليرضوا به حاجة أدبية أو خلقية سنعرض لها بعد قليل .

وهنا أعتذر الى الكاتب الأديب الذى خصص فى الشهر الماضى صحيفة من صحف «السياسة» لدرس المجنون وتحليل شعره والبحث عن عواطفه، فأحسن البحث وأجاد التحليل . أعتذر اليه — بعد الثناء عليه — من أن أقول إنه أجهد نفسه فى غير طائل . ولو أنه سلك مسلكا آخر فى البحث لأفاد وانتفع، ولاستطاع أن يكتب صحيفة من صحف «السياسة» يقصرها على المجنون ويثبت فيها لا أن المجنون

كان أرق الناس شعرا وأصدقهم حبا وأرقاهم عاطفة بل أنه كان رمزا لطائفة من الآراء وألوان من العواطف وفن من فنون الشعر والنثر ظهر فى العصر الأموى وكاد ينتهى الى غايته لولا أن العصر العباسى أقبل بلهوه وشكه ومجونه فأفسد على الناس كل شيء .

وقبــل أن نتعمق فى بسط هــذا الرأى و إثباته نريد أن نريح الكاتب الأديب وأصحابه الذين يؤمنون بالمجنون من هذه الخرافة ، ونبين لهم أن النقد الصحيح لا يستطيع أن يؤمن بوجود هــذا الشاعر . وماذا تقول فى رجل لا يتفق النــاس على اسمه ولا على نسـبه ولا على الخطوب التى امتلأت بها حياته ، وانمــا يختلفون فى ذلك الاختلاف كله ؟ بل ماذا تقول فى رجل لا يتفق الرواة على أنه وجد ولا يروون ما يضاف اليه من الأخبــار إلا متحفظين ؟ بل ماذا تقول فى رجل يريد أبو الفرج الأصبهانى أن يروى أخباره لأن شروط كتابه تضطره الى ذلك فيعلن ويبــالغ فى الإعلان أنه يخرج من عهدة هــذه الأخبار و يتبرأ منها و يضيف هــذه العهدة الى الرواة الذين ينقل عنهم . وأنت تعلم ان رواة العرب — لا نتحدث الآن عن رواة السنة وانمــا نذكر رواة القصص والسير — لم يكونوا يتشددون فى الاحتياط ولا يبالغون فى الحذر . وكثيرا ما كانوا يروون غير الصحيح و يثبتون غير الحق . فاذا كانوا على هــذا الإهمال والضعف ينكرون وجود قيس بن الملوح أو يشكون فيــه أو لا يتفقون على اسمه وصفته وصروف حياته ، أفلا يكون من الحق علينا أن نتحفظ كما تحفظوا ونشك على نحو ما شكوا ، اذا لم يكن من الحق علينا أن نتخذ تحفظهم وشكهم دليلا على أن أخبار قيس بن الملوح انمــا هى نوع من الأساطير !

الرواة يختلفون فى وجود قيس ، فأما الثقات منهم فقد أنكروا وجوده أو تحفظوا فيه . ولست أريد أن أطيل عليك فى هذا وانما أحيلك الى كتاب الأغانى فى جزئيه الأول والثانى لترى من ذلك ما يغنيك . ولقد بالغ بعض الرواة فى إنكار وجود قيس حتى زعموا أن بنى عامر أغلظ أكبادا من أن يعبث بهم الحب الى هذا الحد ، وانما ذلك شأن اليمانيــة الضعيفة قلوبهم ، السخيفة عقولهم ، أما النزارية فلا . وتحدث

راوية آخر أنه مرّ ببنى عامر بطنًا بطنًا وسألهم عن المجنون فأنكروه ولم يعرفوه . وتحدّث راوية آخر أنه سأل أعرابيا من بنى عامر عن المجنون فذكر طائفة كثيرة من المجانين وروى لكل واحد منهم شعرا إلا قيس بن الملوّح فانه أنكره ولم يعرفه .

ثم اختلف الرواة الذين آمنوا بوجود المجنون فى تسميته، فهو قيس عند بعضهم ومهدى عند بعضهم الآخر وهو الأقرع عند فريق والبحترى عند فريق آخر . ثم اختلفوا فى نسبه واسم أبيه . ثم اختلفوا فى أنه كان مجنونا حقا، فزعم ذلك منهم فريق وأنكره فريق آخر . وقال الأصمعى لم يكن مجنونا وانما كانت به لُوثة كلوثة أبى حَيَّة النُّمَيْرِى . ثم اختلفوا فى السبب الذى من أجله دعى المجنون، فزعم بعضهم أنه كان مجنونا حقا، وزعم بعضهم الآخر أنه دعى المجنون لشعر قاله وفيه لفظ المجنون، كما دعى النابغة بهذا الاسم لشعر قاله، وكما دعى فريق من الشعراء بأسماء وردت فى أشعارهم ولم تكن أسماءهم . ثم اختلفوا فى سبب جنونه، فزعم بعضهم أنه الحب، وزعم بعضهم الآخر أن الله انتقم منه لأنه اعترض على قضائه فى قوله :

قضاها لغيرى وابتلانى بحبها * فهلَّا بشىء غير ليلى ابتلانيا !

وزعم قوم أن هذا البيت لم يجرّ عليه الجنون وانما جرّ عليه البرص .

ثم أخذ الرواة يجتهدون فى تعليل هذه الأخبار التى تنسب الى المجنون فرووا فى ذلك أحاديث مختلفة، منها — وهو أهمها — ما ذكره ابن الكلبى من أن فتى من فتيان بنى أمية أحب فتاة من بنات أعمامه وقال فيها شعرا وكره أن يشتهر ذلك فاخترع شخص المجنون وصنع أخباره وأضاف اليه ما كان يقول من شعر .

وهناك قوم من الرواة لم تكن لهم صناعة إلا تلهية الناس والتسلية لهم ؛ فكانوا يصنعون لذلك الأخبار والأشعار ويذيعونها فى البصرة والكوفة وبغداد من أمصار المسلمين، وكانوا يفيدون بذلك مالا كثيرا . بل هناك طائفة من ثقات الرواة أو من الذين تعدّهم ثقات كانوا قد برعوا براعة لاحدّ لها فى انتحال الأشعار والأخبار، وكان الناس قد آمنوا لهم ووثقوا بهم فكانوا يأخذون عنهم ما يروون على أنه حق لا شك

فيه . ولم يكن يشك فى روايتهم إلا نفر قليلون قد علموا علمهم وشاركوهم فيما كانوا فيه من عبث ولهو . ولست أذكر من هؤلاء الرواة إلا اثنين: أحدهما حمّاد الراوية، والآخر خَلَف الأحمر . كلا هـذين الرجلين انتحل على العرب أخبارا وأشعارا لا تحصى ، وكلاهما كان يتكلم العربية و يجيدها خيرا مما يتكلمها و يجيدها الأعراب ، وكلاهما كان متّهما فى دينـه محبا للهو عاكفا على العبث . وكان من الشعراء المعاصرين لهما من يشاركهما فى اللهو والعبث والمجون فيضطلع بأسرارهما و يشـك فى صدقهما . ومن هنا كان كثيرا من الشعراء يلحّ على هذين الراويتين وأمثالهما فى أن يستشهدوا بشعرهما كما يستشهدون بشعر القدماء ، وكانوا يعلمون أن شعر القدماء هذا لم يكن من القدماء فى شىء ، وانما كان يصنعه الرواة صنعة و ينتحلونه انتحالا . وقل مثل ذلك فى الأنساب ، وقل مثل ذلك فى السير وأخبار الفتوح والغزوات . وانظر الى سيرة ابن هشام والى هذا الشعر الكثير الذى يروى فيها وصفًا للغزوات والذى يرويه ابن هشام حتى اذا فرغ منه أضاف اليه هذه الجملة «قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرون هذه القصيدة » .

(وجملة القول أن بين العرب والرومان من جهة و بين الفرس واليونان من جهة أخرى تشابها شديدا : انتصر العرب على الفرس انتصارا عسكريا ، وانتصر الفرس على العرب انتصارًا أدبيا، وكذلك انتصر الرومان على اليونان انتصارًا حربيا، وانتصر اليونان على الرومان انتصارًا أدبيا . وكان مظهر هذا الانتصار الأدبى فى روما وفى بغداد واحدا، وهو أن اليونان والفرس أخذوا الرومان والعرب بآدابهم وحضارتهم . ولم يكتفوا بذلك بل عبثوا بالآداب اللاتينية والعربية فأدخلوا فيها وأضافوا اليها مالم يكن لهـا به عهـد . وكذلك صنعوا بالأنساب ، وكذلك صنعوا بالتاريخ والسـير . اذن فمن الحق علينا أن نشك فى أخبار هؤلاء الرواة حين يروونها واثقين، وأن نبالغ فى الشك حين يروونها متحفّظين، وأن نشتدّ فى المبالغة حين نراهم يختلفون فيما بينهم اختلافهم فى أمر المجنون .)

وطريقة أخرى نثبت بها هذا الرأى ؛ ولكنها طريقة فنية ليست من التاريخ فى شىء . وهى طريقة أدبيـة خالصة نرجو أن يلتفت اليها القارئ وأن يجـد فيها مقنعا . نعتمد فى هذه الطريقة على شعر المجنون أو على الشعر الذى ينسب الى المجنون، فيثبت لنا الشعر نفسه إحدى اثنتين : إما أنه مصنوع متكلف قـد اختُرع اختراعا فهو لا يعبّر عن عاطفة صادقة ولا عن حب صحيح، و إما أنه قد صدر عن أشخاص مختلفين، ثم خلطه الرواة عمدا أو سهوا وأضافوه الى شاعر واحد هو المجنون . ولعل الجاحظ لم يخطئ حين قال : ماترك الناس شعرا فيه ليلى إلا نسبوه الى قيس بن الملوح ولا شعرا فيه لبنى الا نسبوه الى قيس بن ذريح . وفى الحق أن شعرا كثيرا ينسب الى المجنون وليس من المجنون فى شىء ، وانما قاله شعراء آخرون لم يكونوا مجانين ولم يعبث بهم الحب عبثه بهذا المجنون .

واذا أردت أن تدرس شاعرا من الشعراء فعلى أى قاعدة تعتمد فى هذا الدرس؟ على شخصية الشاعر قبل كل شىء . ذلك أن هـذا الشاعر يجب أن يتمثل فى شعره الى حد ما . فاذا كان شاعرا مجيدا حقا فشعره مرآة نفسه وعواطفه ومظهر شخصيته كلها بحيث تستطيع أن تقرأ قصائده المختلفة فتشعر فيها بروح واحد ونفس واحد وقوة واحدة . وقد يختلف هذا الشعر شدّة ولينا و يتباين عنفا ولطفا، ولكن شخصية الشاعر ظاهرة فيه محققة للوحدة الشاعرية التى تمكنك من أن تقول هـذا الشعر لفلان أو هو مصنوع على طريقة فلان . نظن أن هذه القاعدة لاتقبل الشك فى فن من فنون الأدب ولا سيما الشـعر الغنائى الذى هو مرآة النفس ومظهر العاطفة . فهل نستطيع أن نجد للمجنون شخصية ظاهرة بينة فى هـذه الأشعار الكثيرة المختلفة التى يرويها له أبو الفرج وغيره من الرواة ؟ أما أنا فأزعم أن ليس الى ذلك من سبيل . ولا أطيل فى إثبات هذا الرأى وانما ألخص لك خلاصة ما انتهيت إليه بعد البحث :

كل هذا الشعر الذى يضاف الى المجنون لا يخلو من أن يكون شعرا قد قاله شاعر معروف وأخطأ الرواة فأضافوه الى المجنون، أو قاله شاعر مجهول ووجد الرواة فيه ليلى

فأضافوه الى المجنون، أو انتحله الرواة أنفسهم، أو انتحله المغنّون وأصحاب الموسيقى وأضافوه الى المجنون . ولقد أجهدت نفسى فى البحث عن شخصية ظاهرة مشتركة تظهر فى هذا الشعر كله أو بعضه فلم أوفق من ذلك الى شىء .

وطريقة أخرى نثبت بها رأينا فى وجود المجنون، وهى اختلاف الرواة اختلافا شديدا فى هذه الصلة التى وجدت بين قيس بن الملوح و بين ليلى فنشأ عنها هذا الحب الذى ذهب بعقل قيس . يزعم قوم أنهما تعارفا طفلين وكانا يرعيان البَهْم فنشأت بينهما مودة استحالت مع السن حبا ، ثم شبّت الفتاة فحجبت عن الفتى ، فأصابه ما أصابه . و يزعم قوم آخرون أنهما لم يتعارفا طفلين ،وانما مرّ قيس ذات يوم بفتيات فسلم فرددن السلام ودعونه الى الحديث، فنزل وتحدّث وصنع صنيع امرئ القيس فعقر ناقته وأطعمهن، ولكن فتى آخر أقبـل مع المساء فتلاهين به عن قيس ؛ فانصرف قيس مغضبا وقال فى ذلك شعرا، ثم أصبح فتعرّض لهن فلم يجدهن وانمـا وجد ليلى فدعته الى الحديث فنزل وتحدّث وصنع كما صنع بالأمس ؛ وأظهرت ليلى إعراضها عنه فاغتمّ لذلك ، ورأت ليلى هذا منه فرفقت به وأعلنت اليه حبها فى شعر لم يسمعه حتى خرّ مغشيا عليـه . وزعم آخرون أن قيسا كان زِيرَ نساء ، وأن ليـلى كانت أملح النساء قدًّا وأجملهن منظرا وأحسنهن حديثا ،وأن فتيات الحىّ كن يختلفن اليها ويجاذبنها أطراف الحديث، فسمع بها قيس فاختلف الى مجلسها فكان الحب . ورووا غير ذلك من الروايات . ولكنى أكتفى بهـذه الروايات الثلاث لأرى منها أن شخصية ليـلى ليست أقـلّ اختلافا وتفاوتا من شخصية قيس ، فهى فى إحدى الروايات راعية، وهى فى رواية أخرى فتاة بدوية تتعرّض للشبان وتميل الى حديثهم، وهى فى الرواية الثالثة أديبة ذات مكانة وصوت يختلف اليها الفتيان كما كانوا يختلفون الى مجالس النساء الأديبات فى الحواضر العربيـة . ألا ترى أن هـذا الاختلاف وحده يكفى لحملك على الشـك فى شخصية ليلى، كما أن الاختلافات الأخرى تكفى لحملك على الشك فى شخصية قيس !

ثم لا يقف الأمر عند هـذا الحد، وانما هناك ألوان من السخف والتكلف تنتهى بنا الى هذا الرأى الذى أحاول إثباته . منها هـذه الرواية التى تزعم لنا أن أبا ليلى كره تزويج ابنته من عاشقها لا لشىء إلا لأنه أحبها وذكر ذلك فى شعره، فكره الرجل أن يفتضح وأن يفضح ابنته . ونلاحظ أننا نجد هذا المذهب فى أخبار طائفة من هؤلاء العشاق تختلف قبائلهم وأخبارهم وأوطانهم . و يقول الرواة لنا إن هـذه كانت خصلة من خصال العرب . ولست أدرى : أحق هذا؟ ولكنى أرجح أن هذا مذهب اخترعه الرواة ليخلقوا منه أشخاص القصص الغرامية التى كانوا يضعونها لتلهية الجمهور وتسليته، على نحو هذه المذاهب التى نجدها فى أحاديث العامة وأقاصيصهم . فقلما تقرأ أُحدوثة من هذه الأحاديث أو طائفة من هـذه الأحاديث إلا رأيت فيها مذهبا معيّنا منه اخترعت القصة . ولأضرب لك مثلا أمر الغول فى أحاديث هؤلاء الشبان الذين يرتحلون الرحلات الطويلة يسعون الى أمر عظيم فلا يكادون يجاوزون أوطان الناس حتى تعترضهم غول أو وحش يشبه الغول . وهلم جرا ...

ومن ذلك مايتحدّث به الرواة من أن السلطان أهدر دم قيس اذا تعرض لليلى بعد أن حجبت عنه . وهـذا مذهب نجده أيضا فى أخبار قيس بن ذريح وغيره من هؤلاء العشاق . ويحق لنا أن نتساءل : أكان الخلفاء قـد فرغوا من أعمالهم العامة المختلفة لهؤلاء العشاق يهدرون دمهم حينا ثم يعصمونه حينا آخر؟ وعلى أى نحو من أنحاء الشرع كانوا يعتمدون فى إهدار هـذه الدماء لا لشىء إلا لأن رجلا أحب فى عفة وتغنى حبه فى عفة؟ انما هو مذهب فى القصص الغرامى كهـذا المذهب الذى تقدّم . ومن ذلك مايذكرون من توحش قيس وإمعانه فى التوحش حتى ألف الظباء وألفته الظباء فعايشهن وعايشنه . واضطر مخترع هذه الأحدوثة الى أن يحتال حتى يبلغ أراكة كان قيس قد أنس فيها الى سرب من الظباء، فلما بلغ هذه الأراكة على غير حسّ من قيس ولا من سربه احتال حتى ارتقى واختفى بين أغصانها ثم أخذ يحدّث قيسا فنفرت الظباء وكاد ينفر قيس لولا أن محدثه ذكر اسم ليلى، فأنس له قيس ومضى فى حديثه حتى سنحت له ظبية فتبعها . كل هذا من سخف الرواة، مانحسب

أن له ظلا من الحق وانما هو ضرب من المبالغة فى تأثير الحب كان الرواة يحتاجون اليه حين تفرغ أحاديثهم المعقولة . وهو آية على أن المخترع ضعيف الحظ من القصص الغرامى يعييه المعقول فيلجأ الى المحال .

وعلى هذا النحو من النقــد استطاع مؤرخو الآداب اليونانيــة أن يفرقوا بين فصول «الإلياذة» وأناشيدها المختلفة . فمــا كان منها محالا مفعما بالمبالغات أضافوه الى شاعر ضعيف قليل الحيــلة ، وما كان منها معقولا أو كالمعقول لا يلتمس اللذة الفنية فى الإحالة والإغراق أضافوه الى شاعر بارع واسع الحيلة .

أظن أن هــذا كله يكفى للشك فى شخصية المجنون إن لم يكف لإنكار هــذه الشخصية . ولكن الشك والإنكار عقيمان بطبعهما . وليس من الخير أن ينتهى عندهما الباحث الا اذا اضطر الى ذلك اضطرارا . وبين يدينا أخبار وأحاديث تصف عاشقا آلمه العشق وأودى بعقله وحياته ، بل تصف عشاقا مختلفين عبث بهم الحب هذا العبث . وهذه الاخبار والأحاديث تشترك فى أشياء وتختلف فى أشياء . تشترك مثلا فى أن الأشخاص جميعا من أهل البادية ، وفى أن حبهم كان عفيفا بريئا ، وفى أنهم قد لقوا فى هــذا الحب جهدا عظيما ، وفى أنهم قد تغنوه فى الشعر الجيد ، وتتفق فى وصف هذا الحب وأساليبه والمصاعب التى قامت دونه وتدخُّل الخلفاء أو الولاة فيه الى حد ما . وتختلف فى أشخاص العشاق والعشيقات وقبائلهم وأساليبهم فى الحب والشعر وألوان العناء الذى تكلفوه ، كما تختلف فى انتهائها ، فمنها ماينتهى الى شر ومنها ماينتهى الى خير . فلا بد من أن يكون هناك مصدر لهذا الاتفاق ، ومصدر لهــذا الاختلاف ، ولا بد للباحث المحقق الذى ينتهى به البحث الى إنكار قيس ابن الملوح والغض من شخصية قيس بن ذريح من أن يقيم مكان هؤلاء الأشخاص أشخاصا آخرين أو أشياء أخرى ، وإلا كان بحثــه عقيما وكانت نتائجه أثرا من آثار التحكم الذى لاخير فيــه . وأنا أريد أن أقيم مكان قيس بن الملوح وقيس بن ذريح

وجميل بن مَعْمَر وعُروة بن حِزَام أشياء لا أشخاصا، أو بعبارة أدق : أريد أن أقيم مكانهم شيئا واحدا هو فن القصص الغرامى الذى أعتقد أنه ظهر أو على أقل تقدير قوى وعظم أمره أيام بنى أميــة، وأخذ ينظّم شيئا فشيئا حتى كاد يكون فنا مستقلا على نحو ما نرى من فنون القصص الغرامى فى الأدب الحــديث . فليس يعنينى أن يكون شخص قيس بن الملوح تاريخيا أو غير تاريخى، وانما الذى يعنينى أن هناك قصة غرامية هى قصة قيس بن الملوح، وقصة غرامية أخرى هى قصة قيس بن ذريح، وقصة غرامية ثالثــة هى قصة جميل بن معمر وهــلم جرا ... أنا اذن بإزاء قصص غرامية اخترعها الخيال لا بإزاء عشاق . فاذا أردتُ أن أبحث فلست أبحث عن هؤلاء العشاق فهم لا يعنوننى، وانما أبحث عن واضع هذه القصة وقيمته ومقدرته فى الشعر والنثر . أبحث عن هذا الفن الأدبى الذى لم يكن للعرب به عهد قبل الإسلام والحضارة الإسلامية، والذى ظهر بعــد الإسلام وحين أخذت الحضارة الإسلامية تزهر وتبسط سلطانها على العقول .

نعم ! أنا أعلم حق العلم أن هناك صعوبات كثيرة تحول بينى وبين إتقان هذا البحث . أوّل هذه الصعوبات أن هذه القصص الغرامية لاتنسب الى كاتب بعينه ولا الى كتّاب معروفين . فلسنا ندرى من واضع قصة المجنون، أو قصة قيس بن ذريح . وإذن فقد نتكلف كثيرا من العناء فى البحث عن شخصية هؤلاء القصاص دون أن ننتهى الى نتيجة . وقد يكون كل ماننتهى اليه أننــا أنكرنا أشخاصا معروفين دون أن نصل الى أشخاص آخرين . أنكرنا أشخاص الشعراء دون أن نصل الى أشخاص القصّاص . ومع ذلك فلِمَ نتكلف البحث عن أشخاص القصاص اذا لم يكن اليهم سبيل ؟ أليس يكفينا أن نثبت ما بين هذه القصص من التفاوت والاختلاف وما يمتاز به بعضها من بعض من الجودة والإتقان والمهارة القصصية والبراعة الشعرية ؟ أليس يكفينا أن نصل بوجه ما الى تحديد هذا الفن الأدبى وتبيين صفاته الخاصــة التى تميزه من غيره من الفنون ؟ ثم أليس يكفينا ما قد نوفّق اليه من إظهار الأسباب

الأدبية والخلقية والسياسية التى دعت الى ظهور هذا الفن أيام بنى أمية، ومن إظهار الأسباب الأخرى التى دعت الى ذبوله ثم الى فنائه أيام بنى العباس ؟ ألسنا إن وُفِّقنا الى هذا كله أو بعضه نكون قد استكشفنا فى الأدب العربى فنا كان الناس يجهلونه و يغفلون عنه؟ ثم ألسنا باستكشاف هذا الفن و وصفه و إظهار خصاله أنفع للأدب العربى ولمجد الأمة العربية من هؤلاء الذين يقصرون بحثهم على الأشخاص ولا يتخذون لبحثهم غاية إلا تملق أنفسهم وتملق الجمهور ؟ نعتقد أن فى هــذا النحو من البحث نفعا عظيما، ولهذا نريد أن نمضى فيه حتى نتمه فى الفصول الأخرى .

البوليجين، فى ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٤

---

*

*

الغزلون والغزل[1]

نشأته وأسبابها — فن القصص الغرامى

لذيذة جدا قراءة الأغانى فى أرض ما أحسب أنه قرئ فيها قبل اليوم، فى أقصى الغرب الفرنسى . نعم ! فقد اصطحبت معى هذا الكتاب وما قرأت فيه يوما إلا ذكرت قصة ذلك القديم الذى كان كلما ارتحل اصطحب أجمالا تحمل له ما يحتاج اليه من الكتب فى رحلته ، فلما ظهر كتاب الأغانى استغنى عن تلك الأجمال وما كانت تحمل من أسفار واكتفى باصطحاب هذا الكتاب . أذكر هذه القصة كلما قرأت فى كتاب الأغانى، وليس يعنينى أن تكون القصة صحيحة أو غير صحيحة، ولكنى أؤكد أن فى هذا الكتاب ما يغنى عن الأجمال وعما يمكن أن تحمل من أسفار ، وأن من اليسير جدا أن يستغنى به الباحث عن كثير من كتب الأدب والتاريخ . ولكن شأن الأغانى فى هذه الأيام كشأن غيره من كتب الأدب والتاريخ التى تركها لنا القدماء، فهو — كهذه الكتب — فى حاجة شديدة جدا الى أن يقرأ والى أن يفهم والى أن يستخلص منه العلم على النحو الذى يلائم العقول فى هذا العصر الذى نعيش فيه . ولقد يكون من الحق أن كثيرا من الشبان والشيوخ فى مصر وفى غيرها من البلاد الشرقية يستطيعون أن يقرءوا هذا الكتاب وغيره من كتب الأدب والتاريخ دون أن يستفيدوا منها فائدة قيمة، بل ربما كانت قراءة هذه الكتب بعيدة كل البعد عن أن تنفعهم أو تجدى عليهم . ذلك أن اختلاف العصور شديد الأثر فى العقول وفى حاجاتها وفى استعدادها للفهم والدرس، فقد كان القدماء يجدون فى أخبار أبى الفرج وفى أخبار الطبرى ما يكفيهم ويسد حاجتهم الى الحفظ والرواية، وكان

---

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

ما كتب أبو الفرج والطبرى وغيرهما من الأدباء والمؤرخين ملائما كل الملاءمة لعقول هؤلاء الناس الذين كانوا لا يبتغون من الأدب والتاريخ مثلما نبتغى نحن الآن، والذين كانوا يستطيعون أن يتركوا عقولهم ومنطقهم اذا عرضوا لقراءة مثل هذه الكتب، وألا يعتمدوا على هذه العقول ولا على هذا المنطق إلا اذا عرضوا للفلسفة أو الكلام أو الفقه أو نحو ذلك من العلوم التى تحتاج الى النظر وتدعو الى الجدال. كانوا يعتمدون فى قراءة الأدب والتاريخ على الرواية من جهة وعلى الذوق من جهة أخرى، وكانوا يرضون الرضا كله اذا رويت لهم الأخبار عن هؤلاء الثقات الذين اعتمد عليهم القدماء فى نقل السير والأخبار، كما كانوا يرضون الرضا كله اذا وقعت اليهم القصيدة الجيّدة أو المقطوعة المختارة فلاءمت أذواقهم ومثلهم الأعلى فى الفن.

أما نحن فأشدّ من هؤلاء القدماء طمعا وأكثر منهم تحفُّظا، لا تكفينا أسماء الثقات من الرواة ولا يكفينا جمال القصيدة وجودة المقطوعة، وانما نريد أن نتخذ كل شيء موضوعا للبحث والنقد والتحقيق والتحليل، ولا نكاد نفرق فى ذلك بين الأدب والعلم. ونحن محقون، لأننا لا نبتغى من الأدب والتاريخ رواية الأعاجيب والعظات ولا إرضاء الذوق والميل الفنى، وانما نتخذ الأدب والتاريخ مرآة للأمم وسبيلا الى فهم حياتها العقلية والشعرية والى فهم ماخضعت له من ألوان النظم المختلفة. واذن فنحن أشد طمعا من القدماء وأكثر منهم حرصا على التحقيق وميلا الى التحليل. واذن فليس يكفينا أن نقرأ الأغانى وتاريخ الطبرى، وانما نريد أن نفهم هذين الكتابين وأمثالهما على الوجه الذى يلائم طريقتنا فى الفهم ومنهجنا فى الدرس والتحليل. ومن هنا لا يجد القرّاء جميعا لذة ولا مقنعا فى قراءة كتب القدماء، لأنهم جميعا لا يملكون مناهج البحث القيّم عن آثار القدماء. ومن هنا كان من الحق أن نقول: إن كتاب الأغانى وتاريخ الطبرى وأمثالها ليست كتب أدب وتاريخ وانما هى مصادر للأدب والتاريخ. ومن هنا نستطيع أن نقول: إن اللغة العربيــة تخلو الى اليوم وستخلو من كتب الأدب والتاريخ الى أن يتيح لها الله كتبا فى هذين الفنين تلائم عقولنا الحديثة وتحقق أطماعنا الحديثة وترضى حاجاتنا العلمية والفنية.

ولكن مالى ولهذا النحو من الكلام وأنا انما ابتدأت هذا الفصل لأتحدث اليك عن الغزلين وأخبارهم، أو لأتحدث اليك عن القصص الغرامى أيام بنى أمية ! وكيف استبحت لنفسى أن أجاوز هذا الموضوع المحدّد الى هذا النحو من نقد كتب القدماء والحكم عليها أوْلها ! ذلك أنى أريد أن أنتقل من هذا النقد الى تفسير هذه المواقف المختلفة التى أقفها من كتب القدماء وآداب القدماء وأحكام القدماء، والتى يدهش لها كثير من المعاصرين ويسخط عليها كثير من المتعصّبين. فأنا لا أفهم الأدب العربى كما كان يفهمه القدماء وكما لا يزال يفهمه أنصار القديم من أدباء اليوم . وأنا لا أحكم على الظواهر الأدبية كما كان يحكم عليها القدماء وكما لا يزال يحكم عليها شيوخ الأدب فى أيامنا، وانما أفهم الأدب العربى وأحكم على ظواهره كما ينبغى أن يفهمه ويحكم على ظواهره رجل يعيش فى القرن العشرين، ويفهم كما يفهم أهل هذا القرن، ويطمع فى مثل مايطمع فيه أهل هذا القرن ، ويرى كيف يفهم الأوروبيون أدب اليونان والرومان وغيرهم من الأمم القديمة. وهو لا يقلدهم تقليدا ولا يتكلّف محاكاتهم، وانما كذلك فُطر وعلى هذا النحو وحده يستطيع أن يفهم. فليس عليه لوم ولا جناح اذا لم يستطع أن يأخذ روايات القدماء كلها على أنها نقد رائج كما يقول الفرنسيون، ولا أن يصدّق هذه الروايات، لا لشىء إلا لأن الثقات قد رووها . فهو يعتقد أن هؤلاء الثقات قد يخطئون فى الرواية وقد يخطئون فى الفهم . وقد يكون من الحق أنهم عاشوا فى عصرهم دون أن يفهموه ، كما يعيش كثير منا فى عصرنا دون أن يفهموه. واذن فمن حق عليك ألا تسرف فى لومى اذا رأيتنى أنكر ما يروى من أخبار المجنون وقيس بن ذريح وجميل وغيرهم من الغزلين ، بل الحق عليك أن تمضى معى فى هذه السبيل التى أنتهجها والتى ينبغى أن تكون سبيلك اذا أردت أن تعيش فى عصرك حتى ننتهى معا الى أقصاها ، فإما أن نتفق واذن فهو الخير، وإما أن نفترق واذن فلا بأس عليك ولا علىّ .

أنا اذن أرى فى العصر الأموى رأيا يخالف آراء الناس، كما رأيت فى العصر العباسى رأيا خالف آراء الناس . أرى أن الرواة والأدباء لم يفهموا عصر بنى أمية

على وجهه وانما تورّطوا بالقياس اليه فى ألوان من الخطأ مصدرها فى أكثر الأحيان أنهم لم يحكِّموا العقل والنقد ، وانما اكتفوا بالذوق وعدالة الرواة . ولست أريد أن أجاوز موضوع البحث الى أكثر من هذا الحدّ . فلنعد اذن الى حيث ابتدأنا من أمر الغزلين .

أذكر أنى عرضت فى السنة الماضية للغزل أيام بنى أمية فقسمته ثلاثة أقسام مختلفة ، أحدها غزل العذريين الذين كانوا يتغنون فى شعرهم هذا الحب الأفلاطونى العنيف ، كجميل وعروة وقيس بن ذريح والمجنون . والثانى غزل الإباحيين الذين أسميهم « المحققين » وهم الذين كانوا يتغنون الحب ولذاته العملية كما يفهمها الناس جميعا . وزعيم هؤلاء عمر بن أبى ربيعة . والثالث الغزل العادى الذى ليس هو فى حقيقة الأمر إلا استمرارًا للغزل القديم المألوف أيام الجاهليين ، أريد به الغزل الذى لا يقصد لذاته كما يقول أصحاب المنطق ، وانما يتخذ وسيلة الى غيره من فنون الشعر : الى المدح والهجاء والوصف ونحوها ، أريد به هذا الغزل الذى كان يبتدئ به الجاهليون قصائدهم والذى ظل يبتدئ الإسلاميون به قصائدهم الى اليوم ، وهو الغزل الذى نجده فى شعر جرير والفرزدق والراعى وغيلان وغيرهم من شعراء هذا العصر . وما أزال أحتفظ بهذا التقسيم دون أن أغير منه شيئا . ولكنى لست فى حاجة اليوم لأعرض لهذا الغزل العادى الموروث ، فقد يكون خضع للتطور فى العصر الاسلامى كما خضع للتطور غيره من فنون الشعر . وقد نعرض لهذا فى يوم من الأيام ، وانما أُعْنَى عناية خاصة بالقسمين الأولين : غزل « العذريين » من جهة ، وغزل « المحققين » من جهة أخرى . وأحاول أن ألتمس الأسباب المختلفة التى أنشأت هذين الفنين فى أيام بنى أمية . فألاحظ شيئا أحب أن يلتفت اليه القرّاء وهو أنا لا نجد هذين النوعين من الغزل فى الشام ولا فى العراق ولا فى مصر ، وانما نجدهما فى الحجاز وما يليه من البلاد العربية الخالصة . أما الشام والعراق وهما الإقليمان اللذان كانا مجتمع الحياة السياسية الأموية ، اذ كانت الشام مستقر الخلافة وكان العراق مستقر المعارضة ، أقول أما الشام والعراق فلا نجد فيهما إلا نوعين من الشعر :

أحدهما الشعر العادى من مدح وهجاء ووصف . والثانى الشعر السياسى الذى كانت تتناضل فيه الأحزاب . واذن فما تفسير هذه الظاهرة؟ وما بالنا لانجد الغزل بقسميه إلا فى الحجاز وما يليه من البادية ؟

ثم هناك ملاحظة أخرى أحب أن يلتفت اليها القرّاء أيضا ، وهى أن هذين القسمين من الغزل كانا متقاربين لا متجاورين ، أريد أن العذريين والإباحيين كانوا جميعا فى الحجاز وما يليه . ولكنهم لم يكونوا يعيشون فى بيئة واحدة وانما كان فريق منهم يتحضر وفريق منهم يبدو . فأما المحققون أو الإباحيون فكانوا يتحضرون يعيشون فى مكة والمدينة . وأما العذريون فكانوا يبدون يعيشون فى بادية الحجاز أو نجد . ((وفى الحق أن عمر بن أبى ربيعة كان مكيا قضى حياته كلها فى مكة ، وأن الأحوص ابن محمد كان مدنيا قضى حياته فى المدينة . وفى الحق أيضا أن جميلا كان بدويا يعيش فى وادى القرى ، وأن قيس بن ذريح كان بدويا يعيش فى بادية المدينة ، وأن المجنون — إن صحت أخباره — كان نجديا يعيش فى بادية نجد . واذن فالغزل بقسميه عربى خالص . ولست أريد بهذا اللفظ معناه العام ، وانما أريد معناه الجغرافى ، أى أن هذا الغزل بقسميه قد نشأ فى جزيرة العرب خاصة ؛ فاما عفيفه فكان فى البادية ، وأما القسم الآخر فكان فى الحاضرة .))

وملاحظة أخرى أحب أن يلتفت اليها القرّاء أيضا ، وهى أنا اذا درسنا أخبار الغزلين المحققين أو الإباحيين رأيناهم كلهم أو أكثرهم من أبناء المهاجرين والأنصار أو من المتصلين اتصالا قويا بأبناء المهاجرين والأنصار . واذا درسنا أخبار العذريين رأيناهم من قبائل أعرابية ليس لها شأن عظيم فى الإسلام ، وانما هى محتفظة احتفاظا شديدا ببداوتها القديمة وعاداتها الجاهلية الموروثة . أفلا نستطيع أن نستخلص من هذه الملاحظات كلها شيئا ؟ بلى ! ولكنى أريد أن أضيف اليها قبل الاستنتاج ملاحظة أخرى ، وهى أنا نجد فى الحجاز وفى مكة والمدينة خاصة فنا آخر نشأ مع هذا الغزل الإباحى وهو فن الغناء . ولست فى حاجة الى أن أثبت لك أن الغناء نشأ فى الحجاز وأنه أزهر فى مكة والمدينة وأنه لم يكن فى دمشق إلا غريبا ، كان يرتحل

اليها من الحجـاز حين كان يطلبه الخلفاء . فماذا نستطيع أن نستنتج من هـذا كله ؟ نستطيع أن نستنتج أن بلاد العرب ــ بعد أن تم الفتح للسلمين وبعد أن جاهدت فى الاحتفاظ بالسلطان السياسى وفشلت فى هذا الجهاد فشلا شـنيعا وانتقل مركز الحكم منها الى الشام كما انتقل مركز المعارضة منها الى العراق ــ انصرفت أو كادت تنصرف عن الاشتراك فى الحياة العـامة، وفرغت للحياة الخاصة فانكبت على نفسها وأحست شيئا من اليأس والحزن غير قليل . فهى كانت مهد الإسلام ومصدر قوته، ومنها انبعثت الجيوش الفاتحة التى أخضعت الأرض وأزالت الدول ، وفيها نشأت الخلافة، ومنها امتد سلطان الخلافة على الأرض . ثم هى ترى نفسها جردت من كل شىء،فانتقلت عاصمة الخلافة الى الشام،وانتقل جهاد الأحزاب السياسية الى العراق، وأساء خلفاء الشام ظنهم ببلاد العرب فعاملوها معاملة شديدة قاسية وأخذوها بألوان من الحكم لا تخلو من العنف .

ثم لم تكن هذه البلاد العربية خاضعة لليأس وحده،وانما كانت خاضعة لشىء آخر يناقض اليأس أشد المناقضة، أو قل يلائم اليأس أشدّ الملاءمة، نريد به الثراء ووفرة المـال (فقد كان أبناء المهاجرين والأنصار فى مكة والمدينة مثرين، وكانت أيديهم ممتلئة بما ورثوا من هذا الفىء الذى أفاءه الله على آبائهم أيام الفتح ، ثم كانوا يحتفظون بمكانتهم ويمثلون الأرستقراطية العربية، ثم كان الخلفاء يصانعونهـم وإن كانوا يعاملونهم معاملة قاسية، كانوا يكرمونهـم إكراما ماديا، كانوا يدرّون عليهـم الأموال ويوسعون عليهم فى العطاء مراعاة لمكانتهم واصطناعاً لهم، وكانوا فى الوقت نفسه يمسكونهم بمعزل عن الحياة السياسـية العملية . واذا اجتمع اليأس من الحياة العملية الى الثروة والغنى فماذا عسى أن ينتجا ؟ اللهو والإسراف فيه والعكوف عليه . وكذلك أنتج اليأس والثروة فى مكة والمدينة ، فلها هؤلاء الشبان الأشراف الأغنياء اليائسون، وأسرفوا فى اللهو وتعزّوا به عن هذه الخيبة التى أصابتهم فى الحياة العامة . ومن هنا نشأ عمر بن أبى ربيعة وأمثاله فى مكة ، ونشأ الأحوص بن محمد وأمثاله فى المدينة، ونشأت حولهم هذه الطوائف من المغنين وأهل المزاح .)

والى جانب اليأس والثروة وآثارهما فى مكة والمدينة نستطيع أن نضيف مؤثرا آخر عمل فى بادية الحجاز وما يليها من البلاد العربية . ونحن قبل أن نذكر هذا المؤثر نعلن أنه فى حاجة شديدة الى الدرس، وأنه قد أظهر آثاره فى مظاهر مختلفة ، وأنه قد يجد صعوبة شديدة من شيوخ الأدب فى هذه الأيام . وما نحسب أنهم يقرون رأينا فيـه ؛ ولكنه مع ذلك حق لا سبيل الى الشـك فيه ، وهو نتيجة اليأس مع الفقر، نريد به الزهد وشيئا يشبه التصوف .

كان أهل مكة والمدينة يائسين ولكنهم كانوا أغنياء،فلهَوْا كما يلهُو كل يائس . وكان أهل البادية الحجازية يائسين ولكنهم كانوا فقراء فلم يتح لهم اللهو ، وقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية، وقد تأثروا بالاسلام وبالقرآن خاصة، فنشأ فى نفوسهم شيء من التقوى ليس بالحضرى الخالص وليس بالبدوى الخالص ، ولكن فيـه سذاجة بدوية وفيه رقة إسلامية . وانصرف هؤلاء الناس عن حروبهـم وأسباب لهوهم الجاهلى كما انصرفوا عن الحيـاة العملية فى الإسلام الى أنفسهم فانكبوا عليها واستخلصوا منها نغمة لاتخلو من حزن، ولكنها نغمة زهد وتصوّف . وأنا أعلم أن لفظ التصوّف هنا لا يؤدّى معناه الذى أريده، فقل إنهم انصرفوا الى شيء من المثل الأعلى فى الحياة الخلقية . وظهر هذا الزهد أو هـذا الميل الى المثل الأعلى مظهرين مختلفين اختلافا شـديدا : أحدهما الزهد الدينى الخالص الذى قد تجد له صـدى فى أشعار هؤلاء الخوارج الذين كانوا يتركون هـذه البوادى لينضموا الى جيوش الخوارج فى بلاد الفرس، والذين يظهر فى شعرهم شيء من الزهد والتقوى وشدّة الإيمـان وسذاجته لانجده فى شعر غيرهم من الشعراء . والثانى هذا الغزل العفيف الذى هو فى حقيقة الأمر مرآة صادقة لطموح هذه البادية الى المثل الأعلى فى الحب من جهة ، ولبراءتها من ألوان الفساد التى كانت تغمر أهل مكة والمدينة من جهة أخرى . اذن فهذان القسمان من الغزل أثر من آثار الحياة السياسية فى أيام بنى أمية . اضطرت هذه الحياة السياسية أهل الحجاز الى الابتعاد عن العمل وأوقعت فى قلوبهم

اليأس ، ولكنها أغنت قوما فلهوا وفسقوا ، وأفقرت قوما آخرين فزهدوا وعفّوا وطمحوا الى المثل الأعلى . كذلك أفسّر ظهور هذين الفنين من الغزل .

ثم لاينبغى أن أنسى مؤثّرا آخر أثّر فى هذين الفنين تأثيرا عظيما وهو الغناء. فليس من شك فى أن المغنين كانوا يتخذون أشعار الإباحيين من أهل مكة والمدينة ، والعذريين من أهل البادية موضوعا للحن والغناء . ولكن هـذه الأشعار التى كانت تصدر صدورا طبيعيا عن الفريقين كانت بطبيعتها أقل من أن تكفى حاجة المغنين وهـذه الألوان المختلفة التى كانوا يتخذونها من اللحن والغناء . وإذن فقد كان هؤلاء المغنون أنفسهم يصطنعون ضروبا من الشعر الإباحى والعذرى يغنّون فيها . وربمـا كان هناك شعراء يصنعون لهم هذه الضروب من الشعر ويضيفونها الى أهل البادية حينا والى أهل الحاضرة حينا آخر . ومن هنا تجد فى هـذه الأشعار التى تضاف الى الفريقين من الغزلين ألوانا مختلفة من الشعر ، منها ما لا تشك فى أنه فطرى قد صدر عن الطبيعة دون تكلّف ولا تصنّع ، لأنه يصف عاطفة قوية أو يمثّل شعورا حادًّا أو يحتفظ ببـداوة لا تحتمل الشك . ومنها ماتظهر فيـه الصنعة ويلمس فيه التكلف لمسا، وتشعر حين تقرؤه أو تسمعه أنه قد عمل ليغنًّى فيه لا ليصف عاطفة ولا ليمثل شعورا .

نحسب أنا قد وصفنا مع ما تحتمله صحيفة سـيارة من الوضوح نشأة النسيب أيام بنى أمية والأسباب التى دعت اليها . وقد أطلنا فى هذا وتعمدنا الإطالة، لأنه سيعيننا على فهم الموضوع الذى ندرسه، وهو القصص الغرامى أيام بنى أمية .

نعتقد — ونرجو ألا يغضب المحافظون من الأدباء — أن القصص الغـرامى أثر من آثار الغزل بقسميه لا أن الغزل أثر من آثار هذا القصص . نعتقد أن الشعراء من أهل البادية والحاضرة فى البلاد العربية تأثروا بكل هذه المؤثرات التى ذكرناها، فقالوا ما قالوا من الشعر العفيف وغير العفيف وغنّى فيه المغنون ، ثم كثر هذا الشعر واحتاج الناس الى تفسيره ووصل بعضه ببعض؛ فنشأت لإرضاء هذه الحاجة هذه

الأقاصيص الغرامية التى يمتلئ بها كتاب الأغانى وغيره من كتب الأدب . وقد يميل الباحث الى أن يفترض عكس ماقدّمنا فيقدر أن هذه الأقاصيص أنشئت بادئ بدء لتلهية الناس وتسليتهم ، وأن القصّاص انتحلوا هذا الشعر الغرامى على اختلاف ألوانه تحليةً لقصصهم ومبالغة فى تعظيم شأنها . ولكن هذا الافتراض بعيد عن أن يلائم الحق . فهو يستلزم أن يكون كل شيء فى هذه القصص وفى هذا الشعر متكلفا مصنوعا . وقد قدّمنا أن هذا الشعر ظاهرة طبيعية فى البلاد العربية . والأشبه هو ماذهبنا اليه من نشأة الغزل بقسميه أوّلا، ثم نشأة القصص حول هذا الغزل ثانيا .

على أننا لاننكر أن كثيرا من هذا الشعر قد انتحله القصّاص وتكلفوه تحلية لقصصهم وتزيينا لها وتعليلا لما ورد فيها من الأخبار . ويكفى أن تقرأ أخبار هؤلاء الشعراء فى الأغانى وغيره لتتبيّن من هذا الشعر شيئا كثيرا .

وخلاصة القول فى هذا الموضوع أنا لانشك فى أن شعراء من أهل البادية والحاضرة فى الحجاز قد انقطعوا لهذين النوعين من الغزل فأجادوهما وأكثروا منهما . ثم نشأت حول أشعارهم قصص ليس لها غرض إلا تفسير هذه الأشعار ووصلها واتخاذها وسيلة الى تسلية الناس . واذن فلسنا ننكر وجود جميل ، بل لسنا ننكر أنه أحب بثينة . ولسنا ننكر وجود قيس بن ذريح، بل لسنا ننكر أنه تغزل فى لبنى . ولكنا نزعم أن هذه الأخبار التى تروى عن حب جميل وقيس لبثينة ولبنى مصنوعة متكلفة فى أكثر الأحيان، وأن تكلفها أحدث الى جانب هذين الفنين الشعريين اللذين ذكرناهما فنا نثريا جديدا هو فن القصص الغرامى .

والآن يحسن أن نتخذ هذه القصص أنفسها موضوعا للبحث فى فصل نقارن فيه بينها ونبيّن مالها من مزايا ومالها من عيوب، حتى اذا فرغنا من ذلك عمدنا الى الشعر الغزلى نفسه فاتخذناه موضوعا للبحث . وسيكون هذا كله موضوع الأحاديث المقبلة .

البوليجين، فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٤

*

الغزلون وأخبارهم(1)

تحدّث الأصمعيّ قال: « سألت أعرابيا من بني عامر بن صعصعة عن المجنون العامري فقال: عن أيهم تسألني؟ فقد كان فينا جماعة رُمُوا بالجنون فعن أيهم تسأل؟ فقلت: عن الذي يشبّب بليلى؛ فقال: كلهم كان يشبب بليلى؛ قلت: فأنشدني لبعضهم؛ فأنشدني لمزاحم بن الحارث المجنون:

ألا أيها القلب الذي لجّ هائمًا * وليدًا بليلى لم تُقَطَّعْ تمائمه
أَفِقْ قد أفاق العاشقون وقد أَنَى * لك اليوم أن تلقَ طبيبا تلائمه
أجدّك لا تنسيك ليلى ململمةٌ * تُلِمُّ ولا عهدٌ يطول تقادُمه

قلت: فأنشدني لغيره منهم؛ فأنشدني لمعاذ بن كليب المجنون:

ألا طالما لاعبتُ ليلى وقادني * إلى اللهو قلبٌ للحسان تَبُوعُ
وطال امتراء الشوق عَيْنَيَّ كلما * نزفت دموعًا تستجدّ دموع
فقد طال إمساكي على الكبد التي * بها من هوى ليلى الغداةَ صُدُوع

قلت: فأنشدني لغير هذين ممن ذكرت؛ فأنشدني لمهديّ بن الملوح:

لو انّ لك الدنيا وما عدلت به * سواها وليلى حائلٌ عنك بينُها
لكنت إلى ليلى فقيرا وإنما * يقود إليها وُدّ نفسك حَيْنُها

قلت له: فأنشدني لمن بقي من هؤلاء؛ فقال: حسبك! فوالله إن في واحد من هؤلاء لمن يوزن بعقلائكم اليوم!

ولو سأل الأصمعيّ أعرابيا آخر غير هذا الأعرابيّ من قبيلة أخرى غير قبيلة بني عامر عن شاعر من شعراء قومه نسب بليلى أو ببثينة أو بلبنى أو بعزّة أو بريّا، لأجابه

(1) نشرت بجريدة « السياسة » في 17 سبتمبر سنة 1924 م.

الأعرابيّ نفس هذا الجواب أو شيئا يشبهه ، ولأنشده شعرا كثيرا لشعراء كثيرين كلهم ينسب بفتاة من فتيات قومه وُجدت حقا أو آخترعها خياله آختراعا .

ذلك أن الأمر كما قلت لك فى الفصلين المـاضيين من أن عصرا قد مرّ على الحجازية بدوهم وحضرهم تأثّروا فيه بتلك المؤثرات التى فصلتها، فظهر فيهـم الغزل بقسميه : العفيف وغير العفيف . ومهما يقل القائلون فلن يستطيعوا أن يغيّروا رأيى فى هذا الأمر، وهو أن الكثرة من هؤلاء الشعراء ومن الفتيات اللاتى كانوا يتغزلون بهنّ إنما هم جميعا رموز لا حقائق . فقيس بن الملوّح أو المجنون مثل من أمثلة هؤلاء الشعراء الذين كانوا يتغزلون؛ لأن مؤثرات مختلفة عبثت بنفوسهم وعواطفهم فأحدثت فيها شيئا من الرقّة واللين لم يكن مألوفا، وأحسّت هـذه النفوس حاجتها الى الحب والى تَغَنِّى الحب فنطقت بهذا الشعر العذب الذى نسميه النسيب .

ولستُ أدرى، أَوُجدت ليلى العامرية حقا أم لم توجد ؟ ولكنى أعلم أن ليلى عند العرب فى ذلك العصر كانت شيئا يشبه " هيلانة " عند اليونان فى عصر الأبطال ، وكذلك قل فى لُبْنَى وبثينة وعزّة وريّا وغيرهنّ من النساء اللاتى ألهمن هؤلاء الشعراء المجهولين غزلهم ونسيبهم . على أنى مضطر أن ألاحظ حقيقتين متناقضتين ولكن فهمهما يسير :

(الأولى) أن هذا الشعر العذرى الذى وصفت لك أسباب ظهوره فى العصر الأمويّ جيـد فى جملته حقا يمتاز بخصلتين : إحداهمـا البداوة التى تكسب لفظه رصانة فى غير عنف ولا جفوة، وتكسب معناه سذاجة فى غير سخف ولا إسفاف. والثانية الصدق فى وصف العاطفة وتمثيلها، بحيث لا تكاد تقرأ هذا الشعر حتى تتأثر به ، وتقطع بأن قائله لم يكن متكلفا ولا متحلا، وإنما كان رجلا يألم حقا ويصف ألمه وصفا صادقا، أو قل : كان رجلا يألم وكان ألمه يصف نفسه . وانظر الى هذه الأبيـات :

ولم أر ليــلى بعــد موقف ساعةٍ * ببطن مِنًى ترمى جِمـارَ المُحَصَّبِ

ويبدي الحصى منها اذا قذفتْ به * من البُرْد أطرافَ البنان المخضَّب

فأصبحتُ من ليـلى الغداةَ كناظر * مع الصبح فى أعقاب نجم مُغَرِّب

ألا إنمـا غادرتِ يا أمّ مالك * صَدًى أينما تذهَبْ به الريح يذهب

وحدّثنى ، أتجد فى هـذا الشعر لفظا حُوشيًّا أو مبتذلا ؟ أتجد فيـه معنى جافا أو سخيفا؟ ألست تحسّ فى لفظه جلالا وفى معناه رقة ولينا وفى روحه ألمـا ولوعة؟ أُنظر الى هذا الشاعر كان يحج، وما أحسب أنه كان يعرف ليلى هذه أو يتعشّقها من قبل ، ولكنه ذهب يؤدّى الفريضة الدينية وفى نفسه ما تعلم ممـا وصفت لك من هذا الشوق الى الجمال، والطموح الى المثل الأعلى، والميل الذى أسميه تصوّفا؛ لأنى لا أجد لفظا آخر أطلقه عليه .

ذهب هـذا الشاعر الى الحج وكان المجتمع بمنى، فرأى فيمن رأى هذه المرأة الجميلة التى خلبته وصادفت هوى نفســه الى الجمـال وطموحها الى الأنس، ولكنه لم يستطع أن يدنو منها ، ولا أن يتحدّث اليها ، ولا أن يتبين من أمرها شيئا . ثم آنصرف النـاس فلم يبق فى نفسه من هذه المرأة أو قل من هـذا الأمل القوىّ الذى هزّ نفسه إلا ذكرى أعقبته يأسا ولوعة، وردّته الى ما كان فيه قبل أن يراها من غُلّة يتحرّق لها دون أن يستطيع لهـا شفاء . أليس هذا هو الذى تحسّه فى هذا الشعر ؟ ألست تعجب معى بهذا القصد فى اللفظ والمعنى ؟ لم ير ليلى بعـد موقف ساعة بمنى حين كانت ترمى الجمـار ، أو حين كانت حركاتها الحلوة الرقيقـة المحتشمة تعبث بنفســه ، حين كان رميها الجمار يظهر أطراف أصابعها الحسان ، وقد طمع فى هذه المرأة وطمحت نفسه اليها، ولكنها فاتته فليس له فيها أمل، فهو ينظر اليها كما ينظر الى النجم يهوى آخر الليـل وليس من سبيل الى إدراكه ، وقد وقع من نفسه اليأس موقعا شديدا فسلبها قوّتها وثباتها وقدرتها على المقاومة، فهى أداة تعبث بها الأهواء وتتنازعها العواطف والميول :

ألا إنمـا غادرت يا أم مالك * صدى أينما تذهب به الريح يذهب

وانظر معى الى هذه الأبيات :

وخبّرك الواشون أن لن أحبّكم * بلى وستور الله ذات المحارم

أصدّ وما الصدّ الذى تعلمينه * شفاءٌ لنا إلا اجتراعُ العلاقم

حياءً وبُقيا أن تشيع نميمة * بنا وبكم، أُفٍّ لأهل النمائم

فما تقول فى هذا اللفظ الجيد، وفى هذه العاطفة الصادقة، وفى هذا المعنى الذى برئ من كل إسراف، وفى هذه الصراحة التى برئت من كل نفاق ؟

زعموا لكِ أنى لا أحبّك لأنى لا أزورك ولا أصلك . كذبوا ، و إنك لتعلمين أنهم كاذبون، و إنك لتعلمين أنى أتكلف هذا الصدّ وأتجشّم فيه الأهوال إبقاء عليك وعلىّ وحرصا على شرفك ، فأفٍّ لأهل النمائم . مثل هذا الشعر لا يمكن أن يوصف بالكذب، ولا أن يعاب بالغموض أو الابتذال . ثم انظر الى هذا الشاعر نفسه يمضى فى قصيدته، تجد تصديق ما قدّمت لك من أن سلطان المرأة على نفوس هؤلاء الأعراب كان قد انتهى الى منزلة لا تعدلها منزلة :

وإنّ دمًا لو تعلمين جنيته * على الحىّ جانى مثله غيرُ سالم

أمَا أنه لو كان غيرَك أرقلتْ * اليه القنا بالراعفات اللهازم

ولكن لعمرُ الله ما كلّ مسلم * كغُرّ الثنايا واضحاتِ المعاصم

اذا هنّ ساقطن الحديث لذى الهوى * سِقاطَ حصى المرجان من كفّ ناظم

رمَين فأقصدنَ القلوب فلم تجد * دمًا مائرا إلّا جوًى فى الحيازم

أُنظر الى هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة التى يقسم فيها الشاعر ما أهدر دماء المسلمين شىء كما يهدرها الحب . وانظر الى هذين البيتين الأخيرين اللذين يمثّلان تأثير حديث النساء فى نفوس الفتيان : إذا تحدّثن الينا قتلننا بهذا الحديث الذى ينثرنه كما ينتثر اللؤلؤ من العقد، قتلننا ولكنهن لم يسفكن دماءنا، فأنت لا ترى هذه الدماء تسيل، وإنما أيقظن جوى يضطرم بين الضلوع .

ولو أنى أردت أن أضرب لك الأمثـال التى تثبت جمال هـذا الشعر وبهجته وروعته وصدقه لأطلت وأسرفت فى الإطالة . على أنى سأعود فأخصص له فصلا أو فصولا . وإنما ضربت ما ضربت من هذين المثلين لأثبت إحدى هاتين الحقيقتين اللتين ذكرتهما ووصفتهما بالتناقض منذ حين . قلت إن هذا الشعر العذرىّ جميل جيد . ولكن هناك حقيقة أخرى ، وهى أن أخبار العذريين أو القصص التى نسجت حول أشعارهم ليست شيئا يذكر بالقياس الى هذه الأشعار . فبينا تجد فى هذه الأشعار من صدق اللهجة وحرارة العاطفة وحدّة الشعور ما يملك عليك نفسك ، لاتجد فى هـذه الأخبار التى تروى حول هـذا الشعر إلا تكلّفا وتصنعا وإسرافا فى المبالغة وانتهاء الى السخف . فكيف تستطيع أن تفسر هذا ؟ كيف تستطيع أن تلائم بين سخف هـذه الأخبار وجودة هذا الشعر ؟ وهـل يمكن أن تلهم الحوادث السخيفة الفاترة شعرا جيدا حارّا ؟ كلا ! ... انما أنت مضطر الى أن تذهب مذهبي ، وهو أن هذا الشعر قد صدر صدورا طبيعيا عن قوم كانوا يشعرون ويألمون ، ويصفون آلامهم ويمثلون شعورهم ؛ وأن هـذه القصص قد أنشئت فيما بعد ، أنشأها رواة هادئون لم يكونوا يجدون فى أنفسهم ما كان يجد هؤلاء الشعراء من لوعة وأسى ومن ألم وحسرة على آمال يطمعون فيها ويطمحون اليها دون أن يظفروا منها بشىء . وبعبارة واضحة : كان شـعر هؤلاء الغزلين يصف نفوسهم ، وكانت أقاصيص هؤلاء الرواة لا تصـف شيئا إلا طمع أصحابهـا فى إرضاء الجماهير . ومع ذلك فإنا نجد بين هذه القصص ضروبا من الاختلاف وضروبا من التشابه ، لا بأس بالوقوف عندها حينا ، فقد نستفيد منها أشياء كثيرة .

وأحب أن ألاحظ قبل كل شىء أن هذه القصص جميعا تشـترك فى خصلة واحدة لا تمتاز بها عن غيرها من الأخبار ، وهو هذا الجمال الفنى اللفظى الذى تجده فى القصص وفى سياق الرواية . ولست أغلو إن قلت إنّ قطعا من هـذه الأخبار تصلح نمـاذج يحسن أن يتأثّرها الكتّاب الذين يحرصون على الإجادة . وسأروى لك من هـذا أمثالا . ولكني أعود فأقول : إن هذه ليست ميزة لهـذا النوع من

القصص، وانمـا هي لغة الرواة فى ذلك العصر كان لها حظ من الصفاء والجودة والسذاجة البدوية والخلو من التكلف اللفظى قلما تجـده عند الكتّاب المتأخرين . وأحسب أن من خير ما ينبغى أن يقرأ الكتّاب الذين يحرصون على الإجادة نثر هؤلاء الرواة فى الأغانى و فى تاريخ الطبرى وما يشبههما من كتب الأدب والتاريخ .

لا أعرض فى هذا الفصل إلا لثلاث من هذه القصص، قصة المجنون، وقصة قيس بن ذريح، وقصة جميل . و إذا أردت أن أحكم على هذه القصص فأنا مضطر الى أن أسجل أن أشدها سخفا وأكثرها غلوا و إحالة، وأخلاها من المغزى النافع أو المعنى المفيد قصة المجنون . فلست تجد فى هذه القصة شيئا يبين لك شخصية هذا الرجل الذى اتخذ لها بطلا ، بل كل ما تجـده ألوان من المبالغات وضروب من الإسراف .

⁂

قيس بن الملوح رجل أحب ليلى حين كانا طفلين، أو أحبها حين كانا على حظ من الشباب، ولكن هـذا الحب يظهر دائمـا مظاهر غريبة غير مألوفة ولا ملائمة للطبيعة الانسانية حتى طبيعة العشاق المدلَّهين . فلست أعرف عاشقا أُغمى عليه كما أُغمى على قيس بن الملوح . ولست أعرف عاشقا شهق وزفر كما شهق قيس بن الملوح وكما زفر . كان يكفى أن تتحدث اليه ليلى بحديث يشعره أنها تحبه ليسقط على وجهه مغشيا عليه . وكان يكفى أن يذكر له شىء عن ليلى يدل على أنها تحبه ، أو يدل على أنها تعرّضت لمكروه ليسقط على وجهه مغشيا عليه . بل كان يكفى أن تتحدّث اليه عن ليلى ليسقط على وجهه مغشيا عليه. كان يقضى حياته كلها أو أكثرها ساقطا على وجهه مغشيا عليه . أو قل إنه كان يقضى حياته كلها إما ساقطا على وجهه و إما هائما على وجهه ، فهو لم يعرف أو لم يكد يعرف الحياة الهادئة العاقلة، وانمـا حياته كلها اضطراب، حياته مقسمة بين إغماء وجنون .

هذه هى الصورة التى تستطيع أن تستخلصها من قصة المجنون. واذا كان المجنون قد أنفق حياته بين الجنون والإغماء، فليس يسيرا أن نتبين شخصيته ولون نفسه ولا

أن تميز عواطفه وخصاله . فليست له عاطفة ولا خصلة ، و إنما هو مريض إما مغشيّ عليه و إما مجنون؛ أو قل : إن الجنون والمرض هما اللونان اللذان يميزان نفسه ويحدّدان شخصيته . مثل هذا الشخص لا يمكن أن يكون حقيقة . و إن كان حقيقة فلا يمكن أن يصدر عنه شعر متقن كبعض هـذا الشعر الذى نقرؤه ، ولا يمكن أن يكون بطلا لقصـة صادقة ، و إنما هو رجل خليق بالبيمارستان؛ بل هو لا يصلح بطلا لقصة خيالية منتحلة . فمن الخير أن يخترع الكاتب وأن يتخيّل ، ولكن من الحق عليه أن يجتهد فى ألا يكون خياله سخفا وآختراعه محالا . ذلك أنه يتعرّض بهذا الى أن يكذبه الناس و يسخروا منه ومن خياله . وقد سخر الناس من واضع قصة المجنون وكذبوه ، فقد ذكرت لك فى غير هـذا الفصل أن الثقات من الرواة ينكرون وجود المجنون أو يشكون فيه أو يختلفون فى أمره اختلافا عظيما . والغريب ــ أو المعقول ــ أنهم لا ينكرون قيس بن ذريح ولا جميلا ولا يشكون فيهما ولا يكادون يختلفون فى أمرهما . فلم هذا؟ لأن قصة المجنون سخيفة ضعيفة مملوءة بالإحالة والمبالغة لا يستطيع الناس أن يؤمنوا لها أو يطمئنوا اليها مهما يكن حظهم من السذاجة . وكيف تريدنى على أن أومن لهـذا الخبر الذى يزعم أن المجنون وقف يتحدّث الى ليـلى وفى يده نار فأخذت النـار تحرق بُرده حتى أتت عليه ونالت من جسمه وهو لا يشعر ! ثم كيف تريدنى على أن أصدّق أن هـذا الرجل جُنّ وآنتهى به الجنون لا الى أن يهيم على وجهه ، بل الى أن يستأنس الوحش و يعيش معها كما كان يعيش مع الإنسان ! ... أما أن يؤثر هذا الوحش فقد نفهمه ، ولكن من فيلسوف لا من مجنون ؛ وأما أن تؤثره الوحش وتأنس اليه فشىء يحسن أن نسأل عنه علماء الحيوان . ومع هذا فأحب أن تقرأ من أخبار هـذا المجنون القصة التى يرويها رجل من بنى مُرّة و يصف فيها موت المجنون وأثر موته فى قومه . فستجد فى هـذه القصة لفظا عذبا وأسلوبا متينا ؛ وتجدها فى الجزء الثانى من الأغانى (صحيفة ١٤ جزء ثان طبعة بولاق) .

*
* *

أما قصة جميل فلست أدرى بم أصفها؟ فيها سخف كثير، وفيها إحالة كثيرة. وما أحسبها أصدق من قصة المجنون. ولكن جميلا رجل تاريخى وجد حقا وشعره واضح الدلالة على شخصيته، ولم يكن مجنونا ولا مذهو با به، بل لم يكن ذاهلا. ومن هنا خلت قصته من هذه الألوان التى ننكرها فى قصة المجنون؛ خلت من هذه الألوان وآمتلأت بألوان أخرى أقل ما توصف به أنها تناقض الحب العذرى، ولا تلائم هذا الهوى الذى يحزن النفس ويملأ القلوب حسرة. ولست أذكر لك من هذه الألوان إلا لونين آثنين: أحدهما يدل على أن واضع القصة كان رجلا متكلفا ميالا الى المحاجاة؛ فإنك تجد فى غير موضع من أخبار جميل ضروبا من الرمز والألغاز بين هذين العاشقين حين كانت تتصل بينهما الرسائل. وأرى أن أروى لك أحد هذه الألغاز لتشعر معى أنه متكلف من غير شك ولتغنينى عن الاستدلال. تحدث كُثَيِّر قال:

« لقينى مرة جميل فقال لى: من أين أقبلت؟ قلت: من عند أبى الحبيبة، أعنى بثينة؛ فقال: والى أين تمضى؟ قلت الى الحبيبة، أعنى عزة؛ فقال: لابدّ من أن ترجع عودك على بدئك فتستجدى لى موعدا من بثينة؛ فقلت: عهدى بها الساعة وأنا أستحيى أن أرجع؛ فقال: لابد من ذلك؛ فقلت له: فمتى عهدك ببثينة؟ فقال: فى أول الصيد وقد وقعت سحابة بأسفل وادى الدوم فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها فلما أبصرتنى أنكرتنى، فضربت بيديها الى ثوب فى الماء فالتحفت به، وعرفتنى الجارية فأعادت الثوب فى الماء، وتحدثنا حتى غابت الشمس؛ وسألتها الموعد فقالت: أهلى سائرون؛ وما وجدت أحدا آمنه فأرسله اليها؛ فقال له كثير: فهل لك فى أن آتى الحىّ فأتزع بأبيات من شعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوة بها؟ فقال: ذلك الصواب؛ فأرسله اليها فقال له: انتظرنى؛ ثم خرج كثير حتى أناخ بهم؛ فقال له أبوها: ماردّك؟ قال: ثلاثة أبيات عرضت لى فأحببت أنْ أعرضها عليك؛ قال: هاتها؛ قال كثيّر: فأنشدته وبثينة تسمع:

فقلت لها ياعزّ أُرسِــلُ صاحبي * اليك رسولا والموكّل مرســلُ
بأنـ تجعلى بينى وبينك موعدًا * وأن تأمريني ما الذى فيه أفعل
وآخرُ عهـدى منــك يوم لقيتِنى * بأسفل وادى الدوم والثوب يُغسَل

قال : فضربت بثينة جانب خدرها وقالت : اخسأ اخسأ ! فقال أبوها : مهيم[(١)] يابثينة ؟ قالت : كلب يأتينا اذا نوّم الناس من وراء الرابية ، ثم قالت للجارية : ابغينا من الدومات حطبا لنذبح لكثيّر شاة ونشويها له ؛ فقال كثيّر : أنا أعجل من ذلك . فراح الى جميل فأخبره ؛ فقال له جميل : الموعد الدومات ... ...» (الأغانى ص ٨٦ جزء ٧ طبعة بولاق) .

فما رأيك فى هذه القصة وفى هذه المصادفة البديعة التى أتاحت لكثيّر أن ينصرف من عند أبى حبيبة جميل الى حبيبته هو وأن يلقى جميلا فى هذه الساعة؟ ثم فى هذه الأبيات السخيفة المتكلفة؟ ثم فى جواب بثينة "كلب يأتينا اذا نوّم الناس من وراء الرابية"؟ جعلت صاحبها كلبا، ثم فى صمت أبى بثينة وانخداعه الى هذا الحدّ؟ أظن أنى لست فى حاجة الى أن أقول : إن هذه القصة نوع من هذه النوادر التى كان يتندّر بها الناس على الأعراب .

اللون الثانى : شيء من الغدر لا يمكن أن يصدر عن حبيب عذرى كما نفهمه ، ولا كما كان يفهمه القدماء . زعموا أن أهل بثينة أذاعوا فى الناس أن جميلا لا ينسب بابنتهم وانما ينسب بأمة لهم ، فغضب جميل لهذه القالة وأراد أن يكذبها ، فواعد بثينة والتقيا ذات ليلة فتحدّثا ، ثم عرض عليها جميــل أن تضطجع ، فمـانعت ثم قبلت فاضطجعت وأخذها النوم ، فلما استوثق جميــل من ذلك نهض الى راحلته فمضى وأصبح الناس فرأوا بثينة نائمة فى غير بيتها فلم يشكّوا فى أنها كانت مع جميل . وقال جميل فى ذلك شعرا . أتظن أن مثل هذا الخبر يمكن أن يكون حقا ، وأن رجلا كجميل كان يحب بثينة حبا كالذى نجده فى شعره يستطيع أن يعرّضها لمثل هذه الفضيحة ؟

---

(١) مهيم : كلمة يراد بها الاستفهام عن الحال ، فمعناها : ما الخبر ، أو ما وراءك .

وهناك لون آخر يحسن أن أشير اليه ، وهو أن صانع هذه القصة كان فيما يظهر متأثرا بشعر امرئ القيس من جهة، وعمر بن أبى ربيعة من جهة أخرى . فأنت تذكر قصيدة امرئ القيس التى أولها :

* ألا عِمْ صباحًا أيها الطللُ البالى *

وأنت تذكر أن امرأ القيس يحدّثنا فى هذه القصيدة بقصته مع صاحبته حين زارها فقضى معها الليل وذكر زوجها فسخر منه واعتز بسيفه وسهامه فقال :

يغُطُّ غطيط البَكْرِ شُدَّ خِناقُه * ليقتلنى والمـرء ليس بقتّالِ

أيقتلنى والمشرفىّ مضاجعى * ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنياب أغوال

وأنت تذكر قصيدة عمر بن أبى ربيعة التى أولها :

أَمِنْ آل نُعْمٍ أنت غادٍ فبكرُ * غداةَ غـدٍ أم رائحٌ فمهجّـرُ

والتى ذكر لنا فيها قصته حين زار صاحبته فقضى معها الليل ثم أسفر الصبح وأراد أن ينصرف فأشفقت عليه صاحبته من الحىّ فقال :

فقلت أُباديهـم فإمّا أفوتُهـم * وإما ينـالُ السيفُ ثأرًا فيثأرُ

ولكنها أشفقت عليه وكرهت هذه المخاطرة ودعت أختيها وتشاور القوم وانتهوا الى أن اقتنع عمر وخرج بينهن كأنه إحداهن وقال :

فكان مِجَنّى دون ما كنت أتقى * ثلاث شخوص كاعبان ومُعْصِرُ

كان واضع هذه القصة متأثرا بشعر هذين الرجلين، فهو يمثل لنا جميلا فى أكثر الأحيان عند بثينة ليلا ، ثم يسفر الصبح أو يكاد فتشفق بثينة وتأمر صاحبها أن ينصرف خوفا عليه، فيأبى معتزا بسيفه وسهامه ، ولكن بثينة تلح عليـه وتذكر أنها تخشى الفضيحة، وحينئذ ينصرف جميل .

والغريب أن جميلا مثّل فى هذه القصـة ما ذكره عمر بن أبى ربيعة ولكن فى صورة أشـدّ إنجالا وخزيا ممـا ذكره عمر . زعموا أنه لقى حىّ بثينـة فى بعض

سفرهم، وكان الليل قد تقدّم فرمى حصاة لينبه بثينة، فأصابت الحصاة صاحبة لهـا فاضطربت وجزعت وما شكّت فى أنه جنىّ، وأقرتها بثينة على ذلك وهى تعلم أن هذا الجنى هو جميل . فلما انصرفت هذه المرأة خلت بثينة الى جميل فتحدّثا ليلهما ثم اضطجعا فأخذهمـا النوم وأسفر الصبح وأقبل غلام زوجها يحمل اليها صبوحها من اللبن فرآها مضطجعة الى جانب جميل، فانصرف مذعورا يريد أن ينبىء سيّده، ولقيته صاحبـة لبثينة فاستوقفته وعلمت علمه — وكانت صديقة لبثينة شفيقة على حبها — فاحتجزت الغلام وتلطّفت فى إرسال جارية لهـا لبثينة تحذرها، وفعلت الجارية وأُتمرت بثينة وجميـل ماذا يصنعان . فأما جميل فأراد أن يلقى القوم واعتز بسيفه وسهامه . وأما بثينـة فأشفقت عليـه من سيوف قومها وخافت على نفسها الفضيحة، وما زالت به حتى أقنعته، فنام ووضعت عليه من الوسائد والأحمال ما أخفاه، ثم جاءت صاحبتها فاضطجعت الى جانبها وأظهرتا النوم وأقبل زوجها وأبوها وأخوها فلم يروا جميلا وانمـا رأوا امرأتين مضطجعتين فانصرفوا مستخذين؛ وقضى جميل يومه مع بثينة .

وأخبار جميل من هذا النحو كثيرة وهى لا تدل إلا على أن واضع هذه القصة كان مقـلّدا قليل البضاعة يلتمس أخباره حيث وجدها دون أن تكون له شخصية قـــوية .

وفى الحق أن قصة جميل تخلو خلوّا تاما من النفع والفائدة . أحب جميل بثينة وخطبها فأبوْها عليه وزوجوها غيره . واشتد هيامه بهـا وهيامها به فكانا يتواعدان ويلتقيان ، وأمضى هو حياة يقول فيها الشعر . وبطبيعة الحال تدخّلت الحكومة فى أمر جميل كما تدخلت فى أمر هؤلاء العشاق جميعا ، فأهدرت دمه ، فاضطر الى أن يضرب فى الأرض فذهب الى اليمن وذهب الى الشام وذهب الى مصر وفيها مات .

والغريب من أمر جميل أن الرواة يذكرون اتصاله بالخلفاء من بنى أمية، فيزعم بعضهم أنه اتصل بمروان بن الحكم، ويزعم آخرون أنه اتصل بالوليد بن عبد الملك،

ويقول قوم إن بثينة نفسها دخلت على عبد الملك وكان بينها و بينه مزاح . فكيف مع هـذه الصلات أهدر السلطان دم جميل حتى اضطر الى أن يهـرب فى أقطار الارض ويموت غريبا ! ...

كل هذه الأخبار متكلفة منتحلة قد وُصـل بعضها ببعض تفسيرا لشعرٍ جميل وتلهية للناس . ولكن هذه القصة كما قلت لاتدل كقصة المجنون على براعة صاحبها أو أصحابها . وانما هناك قصة أخرى هى خير هذه القصص ، لها قيمتها . وليست هذه القيمة قليلة ولا ضئيلة . وأحسب أن هـذه القصة هى خير ما حفظنا من القصص الغرامية أيام بنى أمية : أريد بها قصة ابن ذريح . ولكنى لا أحدثك عنها اليوم فربما احتاجت لفصل خاص .

*

*

الغزلون[1]

قصـــة قيس بن ذُرَيْح

أما هذه فقصة جيدة حقا ، لا ينبغى أن تقرن الى هذا السخف الذى تحدث الرواة به عن المجنون، ولا الى هذا الفتور الذى ذكروا به حب جميل .

وما أظن إلا أن واضع هذه القصة قد آمتاز من الذين وضعوا أنواع القصص الغرامية بشيء من الإجادة والبراعة لم يسبق اليه ولم يلحق فيه . فيها ما فى غيرها من القصص من هـذه الصفات المشتركة التى لا يكاد يخلو منها حب عذرى؛ فيها مثلا تدخُّل الحكومة بين العاشقين أو بين العاشق و بين حبيبته . وفيها هذه المبالغات التى لا بدّ منها والتى تشرف بالعاشق على الموت وتكلفه ألوانا من الخطوب وتعرضه لضروب من المرض . ثم فيها هـذه الأحاديث الكثيرة التى لا رأس لها ولا ذيل كما يقول الفرنسيون والتى إنمـا آخترعت آختراعا لتفسير شعرٍ جميـل وقع الى الراو ية فأراد أن يجـد له تأويلا فيها كل هذا . فهى من هـذه الناحية تشبه قصة المجنون وتشبه قصة جميل وتشبه غيرهما من القصص .

ولكن فيها شيئا تمتاز به وتستمد منه قيمتها ونفعها وآنفرادها بالجودة والإتقان، وهو أنها قصـة إنسانية؛ أريد أن الخيال لم يخترعها آختراعا و إنمـا ألفها تأليفا . والفرق بين الاختراع المطلق والتأليف واضح ، فقد يستطيع الكاتب أن يخترع أشياء يضيف بعضها الى بعض دون أن يكون لهذه الأشـياء أصل فى الحياة الواقعـة؛ وهو إذن سخيف حقا . وقد يستطيع أن يؤلف بين أشياء مختلفة يأخذها من الحياة الواقعة ولكنه لا يوفق إلى موضع الصلة بين هذه الأشـياء فتخطئه الإجادة

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

ويتورّط فى الخطأ أو سوء الذوق أو رداءة التأليف . وأنت تجد هذين النوعين فى قصة المجنون وفى قصة جميل .

أما هذه القصة التى نحن بإزائها فقد وفّق صاحبها الى حسن التأليف وحسن الذوق ، ووصف فيها أشياء تجدها فى الحياة اليومية الواقعة وأتقن وصفها ، حتى إن قصته لتجد فى نفسك صدًى قويا وتحملك على أن تقول : إن هذا لحق ، وإن هذا لجيّد . ذلك أنه لم يلتمس أخباره وحوادثه فى السماء ولا فى الهواء ، وإنما التمسها بين الناس فى حياتهم اليومية وفى صِلاتهم المألوفة وفى عواطفهم التى تمثل ما يجدون من حس وشعور .

وأىّ شىء غريب أو محال فى أن تنشأ العداوة بين آمرأة وزوج آبنها ! وأىّ شىء غريب أو محال فى أن تغضب الأم أشدّ الغضب لأن آبنها قد شُغل عنها بامرأته ! ثم أىّ شىء غريب أو محال فى أن تفتن هذه الأم المحزونة المحنَقة وتلتمس الوسائل المختلفة لتفسد الصلة بين آبنها وزوجه وتنغّص الحياة على هذه المرأة الغريبة التى أقبلت فآحتكرت الآبن آحتكارًا وصرفته عن أمه وأبيه وآختصت نفسها بوقته وصفوه وعنايته ! ثم أىّ شىء غريب أو محال فى أن يشتدّ حقد الأم وحنقها كلما أحست ضعفها وقصورها عن الإفساد بين الزوجين فيبعثها ذلك على أن تحتال فى قطع الصلة بينهما : تسلك إلى ذلك مااستطاعت من سبيل ، رفيقة حينا وعنيفة حينا آخر ، ناصحة مرة وغاشّة مرة أخرى ! ليس فى ذلك شىء من الغرابة ولا الإحالة ، وإنما هو أمر مألوف يسير الفهم والتفسير .

ونحن نعلم أن الخصومة قديمة عنيفة بين الأمهات وزوجات أبنائهم . فالأم بطبيعتها شديدة الميل الى أن تستأثر بحب آبنها ووده ، وحريصة كل الحرص على ألا ينازعها فى ذلك منازع . وهى تتردّد بين عاطفتين متناقضتين ، لا تكاد ترى آبنها شابا قويا يستقبل الأيام فى روعة شبابه وعنفوان قوته حتى تشعر بالميل الشديدّ إلى أن تراه زوجا وزعيم أسرة ، فتسعى فى تزويجه وتجدّ فيه ؛ وهى بذلك سعيدة حقا مغتبطة

أشدّ الاغتباط؛ حتى إذا تمّ لها ما تريد ورأت ابنها زوجا، وأحسّت أنه بهذه الحياة الجديدة سعيد، انتقلت من هـذه العاطفة الأولى الى عاطفة أخرى تنـاقضها أشدّ مناقضة؛ فندمت على ما كان من تزويج ابنها، وأسفت على ما فاتها من عطف هذا الابن ووده، وكرهت هذه المرأة الجديدة التي أقبلت فشاركتها فى حب ابنها وعطفه ومودته . ثم لا تلبث أن تحسّ الميل الى الخصومة وأن تجد فى سيرة هذه المرأة الجديدة ما تنكره عليها وتنقمه منها . و يجب أن ننصف الأم ، فهذه العاطفة عندها ليست قائمة على الأَثَرة وحدها و إنما هى قائمة على الإيثار أيضا . فالأم تريد أن تنفرد بحب ابنها والعطف عليه، تريد أن تكون هى الوحيدة التى ترأم ابنها وتحسن إليه. هى أَثِرة فى إيثارها . ثم يجب أن ننصفها من جهة أخرى، فليست الزوج أقل أَثَرةً من الأم، بل هى أشدّ منها أثرة وأقل منها إيثارا . ولا تكاد الزوجة تستقرّ فى حياتها الجديدة حتى تنزع بطبيعتها الى الاستئثار بزوجها والانفراد بحبه وعطفه، وحتى تجتهد — عالمة أو جاهلة — فى صرفه عن كل إنسان غيرها وعن كل شىء سواها . و إذن فليست الأم وحدها هى الراغبة فى الخصومة الميّالة اليها ، و إنمـا الزوج أيضا تعين على هذه الخصومة وتزيد نارها اضطراما .

كل هذا شىء مألوف لاينكره الناس ولايعجبون له ،و إنما يعجبون أن تحسن الصلة بين الأم وزوج ابنها، كما يعجبون أن تحسن الصلة بين الزوج وأم امرأته . فعـداوة الأحماء والأصهار شىء يوشك أن يكون طبيعيا . وهذا الشىء الذى يوشك أن يكون طبيعيا هو الذى اتخذه واضع هـذه القصة أساسا لقصته ، فأحسن وأجاد و بلغ من الإتقان حظًّا عظيما .

ثم يجب أن نلاحظ شيئا آخر وهو أن الرجال يختلفون فى مثـل هـذا الموقف اختلافا شديدا ، فمنهم الرجل القوىّ الأَشِر الذى لايفكر إلا فى نفسه وسعادته، والذى يستطيع أن يقاوم هـذا التنازع بين امرأتين مخلصتين فى حبـه، ولكنهما مختلفتان لإخلاصهما نفسه . يستطيع أن يقاوم فيعدل بين أمه وزوجه، وينصف هذه وتلك دون أن ينحاز الى إحداهما، ودون أن تستطيع إحداهما أن تأخذه من قِبَـل الحب

الزوجى فتصرفه عن أمه وتضطره إلى العقوق، ودون أن تستطيع الأخرى أن تأخذه من قِبَل الأمومة فتستغلّ ضعفه من هذه الناحية وتفسد عليه حياته المنزلية، وتضطره إما الى أن يسيء العشرة فى بيته و إما الى الطلاق . ولكن هذا الرجل ليس مثلا شائعا و إنما هو مثل نادر . والكثرة مع الأسف ضعيفة من إحدى الجهتين، فإما أن ينحاز الرجل الى زوجه فيتورط فى العقوق و يسيء إلى أبو يه مؤثرا المستقبل على الماضى ، مؤثرا نفسه على من منحه هذه النفس . و إما أن يضعف فينحاز الى أبو يه و يشقى بأسرته وتشقى به الأسرة .

وقد كان بطل هذه القصة من هؤلاء؛ فقد آستطاع أبواه أن يغلباه على أمره و يضطرّاه إلى الطلاق .

من هذا كله تتبين أن قصة قيس بن ذريح أبعد القصص عن الإحالة والمبالغة، وأنها قصة إنسانية كما قلت آنفا . ولكن هذه القصة تمتاز بما آختص به بطلها من عاطفة قو ية، وحب لا يعدله حب، وحرص على الوفاء شديد. وحول هذه العاطفة وهذا الحب وهذا الوفاء تدور القصة من أولها الى آخرها . فإذا أردنا أن نختصرها أو أن نتلمس لها صيغة تقوم عليها آستطعنا أن نقول: إنها جهاد بين البرّ والحب ... رجل يريد أن يكون برًّا بأبو يه ووفيًّا لزوجه، فيستحيل عليه التوفيق بين هاتين الخصلتين فيضحّي بإحداهما فى سبيل الأخرى . ولكن هذه التضحية تنغّص عليه حياته كلها، وتضطره إلى ألوان من الهول، وضروب من الألم لا تكاد تحصى. فقصتنا إذن قصة نفسية خلقية بالمعنى الحديث لهاتين الكلمتين .

تمتاز هذه القصة أيضا بأن أشخاصا ممتازين قد لعبوا فيها دورًا كما يقولون، فاكتسبت من هؤلاء الأشخاص شيئا من الجلال غير قليل، ثم آكتسبت من هؤلاء الأشخاص أيضا شيئا يحملك على أن تنزلها منزلتها الحقيقية ، وتعتقد أنها قصة خيالية مخترعة أكثر من أن تكون قصة حقيقية واقعة . فليس من اليسير أن نتصوّر تدخّل الحسين والحسن ابنى على رضي الله عنهم فى عشق فتى من فتيان البادية لفتاة من

فتيات البـادية . وليس من اليسير أن نتصوّر تدخّلهما مع نفـر من أشراف قريش في التفريق بين الزوجين ليرضوا عاشقا مُلتاعا .

* * *

أَحَبّ قيس بن ذريح لبنى لأنه رآها وتحدّث إليها في بعض أسفاره، وأراد أن يتخذها زوجا له فوجد من أبيه ممانعة شديدة ، لأن أباه هذا كان مثريا ، وكان يكره أن تنتقل الثروة من قومه إلى قوم آخرين،وكان يريد أن يُصهر ٱبنُه إلى شريف من أشراف قومه . فلما أيس منه قيس لجأ إلى الحسين بن علي — وكان أخاه في الرضاعة — فتوسّل اليه أن يتوسط بينه و بين أبي لُبْنَى في هذا الزواج،وقبل الحسين ذلك وأسرع إليه،فركب مع قيس إلى البادية حيث كان حيّ لبنى . فلما رأى الشيخ ٱبن رسول الله قد أقبل يزوره، أكرمه وٱحتفى به . وتحدّث الحسين اليه بهذه الخِطْبة، فقبل الشيخ ولكنه ذكر للحسين أنه عربي وأن للعرب عادات وأخلاقا ليس من اليسير تجاوزها، وأن الوجه في هذا الأمر أن يأتي أبو قيس فيخطب إليه ٱبنته، وأنه يكره أن يزوّج ٱبنته من هذا الفتى الغني الشريف على غير رضا من أبيه، فتتحدّث العرب بما لا يحب؛ وقبل الحسين من الشيخ هذا العذر فرجع أدراجه مع قيس ، ثم ٱرتحل مرة أخرى إلى البادية حيث كان يقيم حيّ قيس .

فلما رأى أبو قيس ٱبن رسول الله مقبلا اليه نهض فأكرمه وأجل مكانه . وتحدّث الحسين إليه بأمر هذه الخِطبة، فأذعن الشيخ وكره أن يردّ لٱبن رسول الله أمرا . وما هي إلا أن ٱرتحل إلى حيث أبو لبنى، فخطب إليه ٱبنته لٱبنه وكان الزواج .

وكان قيس بهذا الزواج سعيدا مغتبطا أحسن حظا من المجنون و جميل وغيرهما من أبطال هذه القصص الغرامية . ذلك أن الدهر قد أتاح له ما لم يُتح لهؤلاء الأبطال فلم يحـل بينه و بين حبه ، ولم يستطع أهل لبنى أن يقولوا مقالة أهل ليلى و بثينة، ولا أن ينكروا هذا الزواج مخافة العار . فأيّ الفريقين نصدّق ؟ أنصدق الذين كانوا يزعمون أن العرب كانوا من القسوة والغلظة في عاداتهم ونُظُمهم البدوية بحيث يحولون

بين المحبين إذا ظهر حبهما مخافة الفضيحة وسوء القالة ، أم نصدق الذين تحدثوا الينا أن حيّ لبنى لم يكره تزويج هذه الفتاة من حبيبها رغم هذا الحب الذى ظهر وتحدّث به الناس ؟ نعم ! إن هناك سبيلا للتوفيق بين هذين الوجهين المتناقضين ، وهو أن تدخّل الحسين بن على فى هذه الخطبة وفى هذا الزواج هو الذى أتاح لقيس سعادته ، وأكره أهل لبنى على أن يقبلوا هذا الزواج ويخالفوا ما توارث العرب من عادة ونظام .

ومهما يكن من شيء فإن واضع هذه القصة قد وفّق الى آختراع بديع حين آخترع تدخّل شخص عظيم المكانة كالحسين بن على فى هذا الزواج ليجتنب هذه العقبة الكؤود التى أقامها القصاص حتى أصبحت سنّة لا تبيح للعاشقين أن يلتقيا .

كان قيس بن ذريح سعيدا بهذا الزواج حقا، ولم تكن لبنى أقل منه سعادة وآغتباطا، فقد كان العشق بينهما مشتركا، كما كان مشتركا بين جميل وبثينة، وكما كان مشتركا بين قيس بن الملوّح وليلى العامرية .

ولست فى حاجة الى أن أحدثك بأن هذين العاشقين لم يكادا يلتقيان حتى آنصرفا إلى عشقهما عن كل إنسان وعن كل شيء . وقد ذكرت لك أن هذا الزواج قد وقع على كره من أهل قيس ، لأنهم كانوا يأبون أن تنتقل الثروة إلى حى أجنبى . فليس غريبا ألا يتلقوا لبنى لقاء حسنا . وليس غريبا أن تنزل منهم منزلة البغيض . وأنت تعلم الخصومة بين الأمهات وزوجات أبنائهن . فإذا أضفت إلى ذلك أن الزوجين كانا مسرفين فى حبهما منصرفين به عن كل شيء وعن كل إنسان فهمت فى سهولة ويسر ما تحدّث به الرواة من أن أم قيس نكرت ابنها ونقمت منه أنه أهملها وقصّر فى ذاتها ولم يمض فى ملاطفتها ومودّتها على ما كان عليه قبل الزواج، فوجدت على لبنى وأضمرت لها الشر . ولكنها آمرأة، وكيد النساء عظيم، وهى أمهر وأحذق وأشدّ فطنة من أن تجاهر آبنها بالأمر فتعاتبه وتلومه وتنكر عليه تقصيره فى ذاتها . فهى إن فعلت ذلك لم تصل إلا إلى إحدى آثنتين : فإما أن ينصفها فيعود الى برّها وملاطفتها ويمسك لبنى ، وهى لا تريد ذلك وإنما تريد

الطلاق . وإما أن يكون ابنها جافيا عاقّا، فلا يزيده عتاب أمه وتعللها إلا حبا للُبناه وحرصا عليها، وهى لا تريد ذلك وإنما تريد الطلاق . لهذا انصرفت الأم عن ابنها فلم تلمه ولم تتعال عليه ولم تظهر له شيئا، وإنما أقبلت إلى الشيخ والتزمت أذنه، فما زالت به تحرضه وتؤنبه حتى وصلت إلى ما كانت تريد. ولم يكن هذا عسيرا، فأنت تعلم أن الشيخ قد خطب هذه الفتاة كارها . وأنت تعلم أنه كان يضنّ بثروته الضخمة على حى لبنى، فأخذته زوجه من هــذه الناحية الضعيفة، وزيّنت له أن هذه المرأة عقيم، وأن قيسا إذا أمسكها وحدها فلن يعقب؛ وإذن فستنتقل الثروة بعــد قيس إلى لبنى وحيها، وسينقطع نسل الشيخ ويصبح وجوده عقيما لغوا لا خير فيــه، فإما أن يطلق لبنى ويتخذ له زوجا أخرى تعقب له؛ وإما أن يمسك قيس لبناه إذا كان يهواها إلى غير حدّ؛ ولكن على أن يتزوج أخرى تعقب له حتى لا ينقطع النسل ولا تنتقل الثروة .

وقبل الشيخ من الشيخة هذا الكلام واطمأن إليه . وكيف لا يقبله ولا يطمئن اليــه ! أليس طبيعيا أن يحرص الإنسان على الخلود واتصال النسل! أليس طبيعيا أن يحرص الإنسان على أن يحتفظ بثروته فى قومه ويكره انتقالهـا إلى قوم آخرين ! قبل الشيخ كلام امرأته ودعا ابنه وجمع له مشيخة قومه وتحدّث إليه بمـا أوحت به اليه امرأته. وكان قد انتهز لذلك فرصة صالحة؛ فقد كان قيس اعتل وأشرف على الموت، فلما برئ تحدّث إليه أبوه هذا الحديث بمحضر قومه : ذكر له علته وإشرافه على الموت وأنه لا عقب له وأن هذه المرأة غير ولود، وطلب إليه أن يتزوج امرأة أخرى لعل الله يرزقه منها ولدا يرثه ويرث ثروته؛ فأبى قيس عليه ذلك وكره أن يسوء امرأته أو يتخذ لها ضرّة؛ قال أبوه : فتسَرَّ بالإماء؛ فأبى قيس وكره أن يسوء امرأته بهذا النوع الآخر من الزواج . هنـالك غضب أبوه وانتهى من الأمر الى أقصاه، فأقسم على ابنه ليطلق امرأته وأبى عليه قيس ذلك . واشتدّ الخصام بينهما حتى أعلن الشاب إلى أبيه أنه يؤثر الموت على الطلاق . ثم أخذ يخيّر أباه بين خصال ثلاث :

عرض عليه أن يتزوج هو لعل الله أن يرزقه ولدا آخر يخلد اسمه ويرث ثروته ؛ قال

الشيخ : فما فىّ فضلة؛ فعرض عليه قيس أن يرتحل عنه ومعه لبنى، وأن يفترض هو أن ٱبنه قد مات فى علته التى برئ منها؛ قال الشيخ : لا أرضى؛ قال قيس : فأترك عندك لبنى وأرتحل وحدى لعلى أسلوها؛ فأبى الشيخ وأقسم لا يكنّه سقف بيت أبدا حتى يطلقها .

وهذا أول مظهر من مظاهر الجهاد العنيف بين البر والحب . أُنظر إلى قيس تتنازعه هاتان العاطفتان القويتان : حب زوجه والبر بأبيه .

وقد مثّل الرواة لنا هذا الجهاد قويا عنيفا حقا، فزعموا أن الشيخ كان إذا أضحى تعرّض للشمس لا يظلّه منها شيء، وأقبل ٱبنه فأظله بردائه وتلقّى هو حرّ الشمس، ولم يزل كذلك حتى يفيء الفيء؛ حينئذ ينصرف إلى لبنى فيعتنقان ويبكيان ويتبادلان ألفاظ التشجيع وتقول له لبنى : احذر يا قيس أن تطيع أباك فتهلك نفسك وتهلكنى؛ فيؤكد لها وفاءه وولاءه وصبره ومضيّه فى المقاومة .

كم أنفق قيس من الدهر فى هذا الجهاد وهذه المقاومة؟ يختلف الرواة . والغريب أن أبا الفرج ينكر أقرب الروايات إلى الحق وأدناها من المألوف . ذكر بعض الرواة أن قيسا قاوم أربعين يوما ثم ألقى السلاح . ولكن أبا الفرج لا يرضى، لأن أربعين يوما ليست شيئا يذكر وهو أميل إلى إحدى الروايتين الأخريين اللتين تزعمان أن قيسا قاوم سنة أو سبع سنين .

مهما يكن من شيء فإن البرّ ٱنتصر على الحب، ولم يستطع هذا الشاب أن يمضى فى عقوق أبيه . ولا تنس أن قيسا كان أخا الحسين فى الرضاعة، أى أنه كان يعيش فى أول عهد الناس بالإسلام، فكان شديد التأثر بالدين ووصاياه . وأمر الدين فى البر بالوالدين صريح قاطع لا يحتمل ترددا ولا التواء . فضحّى قيس بامرأته ٱبتغاء مرضاة أبيه . انتصر البر، ولكن انتصاره لم يكن كاملا، بل قل إنه لم يكن إلا هزيمة منكرة . فلم يكد قيس يطلق لبنى حتى طلق معها عقله وأمنه وسعادته وكاد يطلق الحياة . أصابه أول الأمر ذهول أو شيء يشبه الذهول،

فلم يصدق أنه طلق لبنى، وخيل اليه أنه لم ينطق بهذه الكلمة التى أراد الله أن تقطع أوثق الأسباب وأمتن العرى. فلما قضت لبنى عدتها وأقبل أهلها فاحتملوها أنكر قيس ذلك، وكأنه حاول ممانعة أهلها فرُدّ الى الصواب. ثم أخذ يتبع ركبها حتى أُنذر فوقف وأخذ يتبعها ببصره حتى غابت عنه. ثم عاد إلى بيتها وأخذ يتلمس آثارها فيقبّلها ويمرّغ خدّه فى ترابها ويسكب دموعه عليها وينشىء فى ذلك أجمل الشعر وأعذبه وأرقه.

من ذلك الوقت أخذت قصة قيس تشبه قصة المجنون، ولكن دون أن تبلغ السخف أو المحال. وتشبه قصة جميل، ولكن دون أن تبلغ التكلف أو الغدر أو الإلغاز الذى أشرت اليه فى الفصل الماضى، وإنما هى قصة إنسانية مؤلمة ينفطر لها القلب حزنا ولوعة؛ لأنها لاتبعث على عجب ولا تحمل على دهش، وإنما بين أيدينا إنسان أُكره على طلاق من يحب، ثم تبعت نفسه هواه وقد حيل بينه وبينه، فهو يبكيه ويتحسّر عليه ويلتاع له، وهو يجتهد كما يجتهد كل عاقل أريب فى أن يسلو ويتعزّى دون أن يجد إلى السلو أو العزاء سبيلا؛ بل كلما حاول سلوا أو عزاء ناله من الحب لون لم يكن يعرفه من قبل.

وانظر إلى هذه الأبيات ولا تقل: إنها مصنوعة متكلفة، فأنا أيضا أرى أنها مصنوعة متكلفة. ولكن ألم أقل لك إن القصة كلها موضوعة مصنوعة! وإذن فهذه الأبيات التى أرويها لك تمثل ما أشرت اليه من عجز قيس عن السلو، وافتنانه فى ألوان من الحب كلما قضى منها لونا أقبل عليه منها لون آخر. وهذه هى الأبيات:

أحبّك أصنافاً من الحبّ لم أجد * لها مَثَلاً فى سائر الناس يُوصَفُ
فمنهن حبٌّ للحبيب ورحمة * بمعرفتى منه بما يتكلّف
ومنهن ألّا يعرِضَ الدهرَ ذكرُها * على القلب إلا كادت النفس تتلَف
وحبٌّ بدا بالجسم واللون ظاهرٌ * وحبٌّ لدى نفسى من الروح ألطف

وقد عرض عليه أهله، كما عرض أهل المجنون على المجنون وأهل جميل على جميل، أن يتزوج فأبى، كما أبى المجنون وكما أبى جميل. وقد أصابه ما أصاب المجنون

من مرض لم يبلغ به الجنون ولكن أشرف به على الموت . واجتهد أهله كما اجتهد أهل المجنون فى تسليته وشفائه ، فأغروا به النساء والفتيات ودعوا إليـه الأطبّاء ، فعجز النساء والفتيات عن استصبائه ، وعجز الأطباء عن شفائه . ولم يبلغ منه وعظ أبيـه إياه شيئا . وقد اجتهد فى الرحلة والتسلّى عنها بالأسفار فلم يظفر من ذلك بشىء ، وإنما كان كما قال المجنون أو جميل أو كثيِّر أو هو :

أريد لأنسى ذكرَها فكأنمـا ٭ تَمَثَّـلُ لى ليلى بكل سبيلِ

ثم أخذ فيما كان قد أخذ فيه المجنون وجميل وغيرهما من العشاق من طلب ليلى والتعرض لحيها واختلاس الأوقات والفرص يخلص فيها اليها ؛ فكره أهلها ذلك كما كره ذلك أهل ليلى وأهل بثينة ، وشكوا ذلك إلى السلطان كما شكاه أهل ليلى وبثينة ، وتدخّل السلطان كما تدخّل فى أمر ليلى وبثينة ، فأهدر دم قيس بن ذريح كما أهـدر دم قيس بن الملوح ، وكما أهدر دم جميل .

ولكن القصة هنا تثب وثبة لم نألفها فى قصة جميل ولا فى قصة قيس بن الملوح ، فقد نجد فى هاتين القصتين وغيرهما أمرا عجيبا ، نجـد هؤلاء العشاق يكلفون بنساء يكلَفن بهم أيضا ، ولكن هؤلاء النسـاء قد خضعن لأهلهن فتزوجن وهنّ وفيّات لأزواجهن يصلنهـم ويُنلنهم ما يحترق عليه العاشقون حسرة ولوعة ؛ حتى كان أهل هؤلاء العاشقين يتخذونهم موضوعا للهزؤ والسخرية ، ويعيِّرونهم الحب والألم لنساء يخدعْنهم ويمنحن حبهن وودّهن لرجال آخرين ، وحتى استطاع المجنون أن يقول هذا البيت الذى يختصر هذه الحال العجيبة :

قضاها لغيرى وابتلانى بحبِّها ٭ فهلّا بشىء غير ليلى ابتـلانيا !

أما قصة قيس فلم يكن بدّ من أن تنتهى الى هذا الموقف الذى توارثته القصص الغرامية ، أى لم يكن بدّ من أن تتزوج لبنى رجلا غير قيس ، حتى يصبح قيس كجميل والمجنون هائما بامرأة يتسلّط عليها رجل آخر . ولكن واضع هـذه القصة امتاز من سعة الحيلة ولطف المدخل بمـا لم يمتز به أصحاب المجنون وجميـل . ذلك أنه تخيّل

هذه الحيلة، وهى أن معاوية أهدر دم قيس، فأخذ قيس يضرب فى الأرض يلتمس العزاء والسلوان، فمر بحى من بنى فزارة ورأى فتاة صبيحة وضيئة تشبه لبنى فتحدث اليها وسألها فإذا آسمها لبنى، فاضطرب لذلك وآلتاع له. وكان لهذه الفتاة أخ لم يلبث أن عرف قيسا فألح عليـه فى أن يتزوج أخته، وما زال به حتى ظفر منه بالرضا. وتزوج قيس هذه الفتاة متورطا من جهة، ومحاولا أن يجد فيها لبناه من جهة أخرى. ولكنه لم يكد يتم الزواج ويخلو الى آمرأته الجديدة حتى قامت لبناه القديمة بينه وبين زوجه، فلم يستطع أن ينظر اليها ولا أن يدنو منها. ثم آرتحل وتركها على أن يعود اليها ولكنه لم يعد.

أريد قبل أن أنتقل من هــذه الحيلة البديعة أن ألفتك الى أن هــذا الآختراع كثيرا ما تجده فى القصص الغرامى الحديث، وكثيرا ما تجد فى الفن الحديث عشاقا حيل بينهــم وبين عشيقاتهم، فأخذوا يلتمسونهن فى نساء أُخَر يشبهنهن شبها قليلا أوكثيرا. ومهما يكن من شيء فقد وصل خبر هذا الزواج الى لبنى، وكانت لبنى من الألم والوجد والحــرمان على مثل ما كان عليــه قيس، وكانت قد رفضت الزواج كما رفضه قيس، فامتازت بهذا من ليلى وبثينة.

قال الرواة: إن معاوية لمـا أهدر دم قيس أشار على أبى لبنى أن يزوج آبنتــه من رجل سماه له، وكانت لبنى تأبى الزواج. فلما بلغها ما كان من أمر قيس مع الفزارية أخذتها الغيرة والحنق فأرادت أن تجزيه بمثل خيانته فقبلت وتزوجت هذا الرجل، وآرتحلت معه الى المدينة فأقامت فيها. وبلغ الخبر قيسا فاضطرب له واعتل وأخذه من أجله حزن شديد.

فأنت ترى كيف تلطف واضــع القصــة فى الآنتهاء بقيس الى هــذا الموقف الموروث، موقف من يعشق آمرأة متزوجة. ومن ذلك الوقت تغير وجه قيس فأخذ لا يطلب لبنى فى البادية وإنمـا يطلبها فى المدينة.

وللرواة فى ذلك أحاديث لذيذة، منها قصة الناقة . فقد زعموا أن قيسا أراد أن يدنو من لبنى فاقتطع قطعة من إبل أبيه وزعم لأهله أنه مرتحل الى المدينة فبائع هذه الإبل فممتار لهم . وعرف أبوه دخيلة أمره فلامه ؛ ولكن قيسا لم يسمع له ، وذهب الى المدينة . فبينا هو يعرض إبله أقبل عليه رجل فساومه ناقة فاشتراها منه وواعده بيته ليقبض ثمنها، وقبل قيس ، وكان هذا المشترى زوج لبنى، وكان قيس لا يعرفه ولم يكن هو يعرف قيسا . فلما كان من الغد ذهب الى دار صاحبه يلتمس ثمن الناقة فصوّت بالخادم لتنبيء سيّدها بمكانه .

قال الرواة : وعرفت لبنى نغمته . فلما دخل أمرت الخادم أن تسأله ما باله أشعث أغبر؟ فأجاب قيس : هذه حال من فارق الأحبة وآختار الموت على الحياة؛ قالت لبنى للخادم : سليه يحدّثنا حديثه ؛ فأخذ قيس يقص قصصه؛ وما هى إلا أن رفعت لبنى سترها وقالت : حسبك قد عرفنا حديثك ! قالوا : فبُهِتَ قيس ، ثم آنفجر باكيا ونهض مسرعا فاغترز رحله ومضى لا يلوى على شىء ، وصاحب البيت يدعوه فلا يجيب . قالوا : فقالت لبنى لزوجها : ويحك! هذا قيس؛ قال : ما عرفته .

ومنها قصة هذه المرأة التى تسمى بريكة، والتى كانت زوجا لرجل من قريش شريف فى المدينة، فقصد اليها قيس وتوسّل اليها أن تصل بينه وبين لبنى؛فتلطفت فى ذلك حتى جمعت بينهما؛ فتحدّثا وتعاتبا وأقسم قيس لصاحبته أنه لم يملأ عينه من الفزارية ولا كانت بينه وبينها صلة ؛ ثم تركته على أن تعود إليه، ولكنها لم تفعل فانصرف عن المدينة .

وأخبارأخرى كثيرة تصف لنا حال قيس وحال لبنى لا أذكر منها إلا خبرا واحدا يمثل لنا وفاء لبنى لصاحبها بعد الزواج، كما كانت وفية له قبل الزواج . زعموا أن شعر قيس شاع وتناقله الناس وتغنّى فيه المغنون فى المدينة فأكثروا، وتأذّى لذلك زوج لبنى فتنكر لآمرأته ولامها . قال الرواة : فأجابته جوابا عنيفا ولفتته الى أنها لم تتزوجه

رغبة فيه ولا فيما عنده ، وإنما تزوجته حين أهدر السلطان دم قيس مخافة على قيس أن يعرض فيقتل. ثم ذكرت له أنها لم تخف عليه من أمرها شيئا وأنه يستطيع فراقها متى أحب. قالوا : فأخذ منذ ذلك الوقت يتلطف لها ، ويترضّاها ، وبالغ فى ذلك حتى لقد كان يُحضر الجوارى يغنّينها شعر قيس فيها .

كل ذلك يمثل لك ما تمتاز به قصة قيس بن ذريح من الجودة والإتقان والفائدة . فأولها قيم ، لأنه يعتمد على أساس متين . وسياقها كله قيم ، لأنه بعيد من المبالغة يكاد يخلو مما لا يقبله العقل . أما آخرها ففيه قولان، كما يقول الازهريون . ذلك أن من الناس من أراد أن تكون آخرة قيس بن ذريح كآخرة جميل والمجنون . وأنت تذكر أن المجنون وجد ميتا فى بعض الأودية، وأن جميلا مات غريبا فى مصر. كلاهما قتـله الحب، فيجب أن يقتل الحب قيس بن ذريح، كما قتل صاحبيه وكما قتل عروة بن حزام من قبله . ومنهم من أراد أن تنتهى هذه القصة انتهاء آخر، فيه انتصار الحب وظفر العـدل ، وفيه اطمئنان الإنسان إلى أن العشق الطاهر البرئ ليس كدا كله .

وقد اتفق أولئك وهؤلاء على أن قيسا بعـد أن لقى لبنى وتحدّث إليها انصرف عن المدينة فارتحل الى الشأم يريد أن يطلب إلى السـلطان إلغاء الأمر الذى أهدر به دمه . قالوا : فتلطف الى يزيد بن معاوية حتى لقيه وطلب اليـه ما كان يريد، فظفر له يزيد من أبيه بإلغاء هذا الأمر .

ومن الرواة من زعم أن يزيد بالغ فى الرفق بقيس حتى عرض عليه أن يكتب الى والى المدينة ليحمل زوج لبنى على تطليقها ، ولكن قيسا أبى ذلك . وقد ألغى السلطان إهدار دمه، وأباح له أن يذهب وأن يقيم حيث شاء .

وهنا يختلف الرواة، فأما أكثرهم فيزعم أن قيسا قضى بقية حياته يتتبّع لبنى فيدنو من المدّينــة حينا وينأى عنها حينا حتى ماتت لبنى وتبعها حزنا عليها أو مات قبلها . وأما غير هؤلاء فيزعمـون أن ابن أبى عتيق — ولا بد من أن نخصص فى يوم من

الأيام فصلا لآبن أبى عتيق — سعى بعد تأمين قيس الى الحسن والحسين وعبد الله ابن جعفر و جماعة من أشراف قريش فقال لهم : إن لى حاجة عند رجل أخشى أن يأباها علىّ وأريد أن أتوسّل إليه فيها بجاهكم وأموالكم ؛ قالوا : ذلك لك منا مبتذل ؛ فواعدهم يوما آجتمعوا اليه فيه . ثم ذهب معهم الى زوج لبنى وهم لا يعرفون ما يريد ، فتلقّاهم الرجل لقاء حسنا وقالوا له : إن هذا يتوسل بنا اليك فى حاجة له عندك ؛ قال : هى مقضية كائنة ما كانت ؛ فاستعاده آبن أبى عتيق ؛ فأعاد قوله ؛ قال آبن أبى عتيق : فحاجتى أن تطلق لبنى ؛ فطلق الرجل آمرأته وآستخزى هؤلاء الأشراف من قريش ، لأنهم ما كانوا يقدرون أن آبن أبى عتيق يتوسل بهم للتفرّق بين الزوجين .

وتزوّج قيس لبناه وقال يمدح آبن أبى عتيق :

جزى الرحمن أفضلَ ما يجازِى * على الإحسان خيراً من صديق
فقد جرّبتُ إخوانى جميعًا * فما ألفيتُ كآبن أبى عتيق
سعى فى جمع شَمْلِى بعد صدعٍ * ورأيٍ حدتُ فيه عن الطريق
وأطفأ لوعةً كانت بقلبى * أغصّتنى حرارتُها بريقى

فقال له آبن أبى عتيق : يا حبيبى ، أمسك عن هذا المديح ، فما يسمعه أحد إلا ظننى قوّادا .

*

شـعر الغزلين(١)

وانما أقصر حديث اليوم على هؤلاء الغزلين من أهل البادية لا أجاوزهم الى أولئك الغزلين من أهل الحاضرة كعمر بن أبى ربيعة والأحوص وغيرهما. بل لست أتناول فى هـذا الحديث طائفة من شعراء البادية قالوا الغزل وتأنّقوا فيـه وظفروا بإجادته و إتقانه. ولكنهم لم يكونوا عشّاقا أو لم يريدوا أن يكونوا عشاقا، كما كان جميل وقيس ابن ذريح والمجنون أو كما أرادوا أن يكونوا، وانما كانوا أصحاب لذة وعبث وأهل دعابة ومجون. فلم يقصر الله اللذة والعبث والدعابة والمجون على أهل الحاضرة، وانمـا وفر منها حظوظا مختلفة لأهل البادية. فاذا كان عمر بن أبى ربيعة ممثلا للهو شبان الحضر فى الحجاز فقد نرى فى يوم من الأيام أن يزيد بن الطثرية كان يمثل لهو شبان البدو.

وخلاصـة القول أنا نستطيع أن نقسم الغزل فى ذلك العصر الى ثلاثة أقسام: (الأول) هذا الغزل العفيف الذى يمثله شعر جميل وقيس بن ذريح والمجنون، والذى هو بدوى خالص، والذى نتخذه موضوعا لحديثنا اليوم. (الثانى) هذا الغزل الذى يمثل لهو الحضر وعبث أهله، والذى يمثله عمر والأحوص والعرجى وغيرهم من شعراء مكة والمدينة. (الثالث) هذا الغزل الذى ليس بالعفيف إلا فى لفظه والذى يمثل لهو أهل البادية وعبث شبابهم على نحو من البداوة والسذاجة يذكّر بالعصر الجاهلى ويخالف أشدّ المخالفة ما نجد فى مكة والمدينة بعد الإسلام. ومن زعماء هـذا الغزل يزيد بن الطَّثَرِيّة وغيره ممن سأحدثك عنهم فى غير هذا الفصل.

أما هـذا الفصل فقد قلت إنى أريد أن أقصره على شـعراء القسم الأول من الغزل، على العذريين وأصحاب النسيب العفيف. وفى الحق أن ليس من اليسير أن

(١) نشرت بجريدة «السياسة» فى أول أكتوبر سنة ١٩٢٤ م.

تتبين لهؤلاء الشعراء شخصيات ممتازة متباينة . فكلهم قد نسى نفسه أو فنى فى موضوعه فناء محا شخصيته وأخفاها على مؤرخى الآداب إخفاء تاما . ومن هنا اختلط أمرهم على الرواة اختلاطا شديدا ، فهم يضيفون الى المجنون شعر جميل وقيس بن ذريح ، وهم يضيفون الى قيس بن ذريح شعر جميل وشعر المجنون ، وهم يضيفون الى جميل شعر ابن ذريح وابن الملوح . ماذا أقول ! بل هم يضيفون الى كل واحد من هؤلاء الشعراء شعر كثير من أولئك الشعراء الذين لم يُتَحْ لأسمائهم الخلود ولم يعرف عنهم إلا بعض ما قالوا من الشعر . ولعلك تذكر مارويت لك فى حديث مضى عن الجاحظ من أنه كان يقول : ما ترك الناس شعرا مجهول القائل ذكرت فيه ليلى أو لبنى إلا نسبوه الى المجنون أو الى قيس بن ذريح . وتستطيع أن تقول أنت : ما ترك الناس شعرا مجهول القائل فيه ذكر بثينة أو عزة إلا نسبوه الى جميل أو الى كثيّر . بل تستطيع أن تقول : ما ترك الناس شعرا مجهول القائل فيه ذكر عفراء إلا نسبوه الى عروة بن حزام . وعلى هذا النحو تستطيع أن تمضى .

والحقيقة التى ما أحسب أنهـا تتعرض للشـك هى أن ليلى ولبنى وعزة وبثينة وعفراء وهندا ودعدا وسـعاد كل هذه أسماء ما أظن أنها تعيّن مسميات ممتازات ، وإنما هى أسماء نساء اتخذها الشعراء لهذا المثل الأعلى الذى كانوا يلتمسونه ويطمحون اليه حين كانوا يتغنون الحب سواء منهم فى ذلك الشـعراء المعروفون والشعراء المجهولون . ليلى ولبنى وبثينة بالقياس الى هذا النوع من الغزل أسماء تشبه «هيلانة» بالقياس الى القصّاص من شـعراء اليونان المتقدمين ، لسنا ندرى أُوجدت حقا ؛ بل أكبر الظن أنها لم توجد وانمـا هى المثـل الأعلى فى الجمال والحب واللين والرقة والدعة وغير ذلك من هذه الخصال التى يتغنّاها الغزلون .

هنالك حقيقة أخرى ما أحسب أنها تتعرض للشك أيضا وهى أن المجهولين من هؤلاء الشعراء الذين اصطنعوا الغزل العفيف وأكثروا القول فيــه وظفروا بإجادته وإتقانه أكثر من المعروفين . بل أكاد أعتقد أنهم لا يكادون يحصون . بل أكاد أعتقد أن الكثرة من شباب الأعراب فى ذلك العصر كانوا يصطنعون هذا النوع من الغزل فيتغنّون الحب وحسان العذارى . ولكن دواوين الرواة وذاكرتهم ضاقت

بهذه الأسماء الكثيرة التى لا يبلغها الإحصاء، فلم تثبت منها الا قليلا . وليس من شك أيضا فى أن هذا الفن الذى ظهر ظهورا طبيعيا فى هذا العصر؛ لأنه كان يترجم عن ميل عام وعواطف مشتركة لهؤلاء البدو؛ أقول ليس من شك فى أن هـذا الفن لم يكد يظهر ويُفْتَنُ به الناس حتى تخصص له شعراء قصروا حياتهم عليه واتخذوه لأنفسهم صناعة وحرفة . فهؤلاء الشعراء هم الذين أخفوا غيرهم من الأعراب المجهولين، وهم الذين بقيت أسماؤهم لحفظها الرواة واجتهدوا فى أن يخلقوا حولهـا من القصص والأحاديث ما كان موضوعا لبحثنا فى الفصول المـاضية . اذن لم يكن جميل وقيس ابن ذريح والمجنون وغيرهم من هؤلاء الشعراء عشّاقا بالمعنى الذى يريد الرواة أن يخيّلوه الينا، وانمـا كانوا شعراء، أو كان الذين وجدوا منهم شعراء قد اختصوا بهذا النوع من الشعر ووقفوا عليه حياتهم؛ لأنه كان فنا رائجا فى البادية حينئذ . اختصوا به كما اختص غيرهم بالهجاء لأن الحياة الاجتماعيــة كانت تدعو الى أن يختص به شعراء، وكما اختص غيرهم بالمدح لأن الحـاجة كانت تدعو الى أن يختص به شـعراء، وكما اختص غيرهم بالشعر السياسى وكما اختص غيرهم بوصف الخمر وهلم جرا .

ومن هنا كان من الحق أن نلاحظ أن الحياة الأدبية ليست من السهولة واليسر والسذاجة بحيث نظن أو بحيث كان يعتقــد الرواة، وانما هى معقدة أشدّ التعقيد، غامضة أشدّ الغموض، محتاجة الى ألوان من البحث والعناء فيه لنستخلص شيئا من حقائقها المجهولة . فمن الخطأ الفاحش أن نظن أن أكثر هذا الشعر الذى يروى لنا عن شعراء العصر الأموى والإسلامى قد صدر عن الفطرة والسليقة صدورا طبيعيا من غير تكلف ولا صنعة، كما يتفجّر الينبوع عن المـاء دون أن يكون للإنسان فى تفجيره عمل . ليس هــذا حقا، وانمـا الكثرة المطلقة من هؤلاء الشعراء كانوا عمالا صنّاعا يجــدّون فى فنونهم ويكدحون ويخضعون لمـا يخضع له غيرهم من العمال والصــناع وأهل الفن من هذه القوانين الطبيعية والاجتماعية المختلفة .

(ومهما يكن من شىء، فنحن مضطرون الى أن نقسم هذا الغزل العفيف نفسه الى قسمين : أحدهما هذا الغزل الذى قاله شعراء مجهولون ذهبت أسماؤهم، إما لأنهم

لم يكثروا من الشعر ولم يتخذوه صناعة، و إما لأن حظهم من الإجادة لم يكن كحظ غيرهم من هؤلاء الذين بقيت أسمـاؤهم . والثانى شعر هؤلاء الشعراء المعروفين الذين اتخذوا الغزل صناعة وفنا

ولا بد من أن نجتهد فى بيان الأسباب التى نشأ عنها هذا الفن فى البادية العربية . ولعلك لم تنس ما قدمناه فى غير هذا الفصل من حال هؤلاء الأعراب بعد أن استقر الأمر للمسلمين . فقد قلنا إنهم كانوا فى شىء من اليأس والفقر غير قليل، و إن هذا اليأس والفقر قد أحدثا فى البادية مثل ما أحدث اليأس والغنى فى الحاضرة من نشأة هذا الفن الشعرى . ولكن يأس البادية وفقرها أحدثا هذا الغزل العفيف حينما يأس الحاضرة وغناها قد أحدثا هذا الغزل العابث المـاجن .

يكفى أن تقارن بين حياة البدو بعد الإسلام وقبله ، لترى أن هناك فروقا عظيمة بين هـذين النوعين من الحياة . ولكن هذه الفروق تكاد تقتصر على الحياة المعنوية وحدها . فلم تكد الحياة المـادية تتغير عند هؤلاء الناس بعد الإسلام، وانما كانوا فى ظل الخلفاء كما كانوا فى عصر الجاهليـة : يخضعون لقوانين البداوة و يقاسون من شظفها وخشونتها مثل ما كانوا يقاسون فى العصر الجاهلى . وربمـا أتيح لهم شىء من سعة الحياة، ولكنه لم يكن كثيرا ولا موفورا . ذلك لأنهم لم يكونوا يشتركون فى الحيـاة السياسية . فإن فعلوا فلم يكونوا يحتفظون بالحياة البدوية . أريد أن البدويين الذين كانوا ينتظمون فى الجيش أو يتصلون بالخلفاء والأمراء والعمال لم يكونوا يحتفظون بحياة البداوة، وانما كانوا يتحضرون فيستقرون فى العراق أو الشأم أو مصر أو فارس أو غيرها من بلاد المسلمين . أما الذين كانوا يبقون فى الجزيرة العربيـة فقد كانوا لا يكادون يستمتعون بشىء من هذه الثروة الضخمة التى أفاءها الإسلام على المسلمين.

وربما كان من الحق أن نلاحظ أن هؤلاء الناس من أهل البادية كانوا قد احتملوا أعباء فى الإسلام لم يكونوا يحتملونها فى الجاهلية، أريد أعباء الصدقة والزكاة . فقد كانوا قبل الإسلام أحرارا لا يؤدون إتاوة ولا يخضعون لنظام إلا ما اصطنعوا

لأنفسهم من نظمهم الخاصة فيما بينهم. أما بعد الاسلام فقد ضُربت عليهم الضرائب وأُخذوا بالصدقات فى سائمتهـم . ولعل ما كانوا يظفرون به بعـد الكد من ثمرات الأرض لم يكن بمأمن من العشر . واذن فقـد ضيّقت الحياة الجديدة عليهـم بعض التضييق . أضف الى هذا شيئا آخر وهو أن الإسلام قد أخذ على هؤلاء النـاس شيئا من طرق الكسب التى كانت مألوفة فى الجاهلية، لأن الاسلام أقر السلام بين القبائل البدوية وحال بينها و بين ما كانت تتخذه مجـدا وشرفا ومكسبا من الغزو وضروب الإغارة . فلم يكن يُتاح للقبائل بعـد الإسلام أن تتغازى و يغير بعضها على بعض، كما كانت الحال فى الجاهلية . واذن فهذا نوع آخر من التضييق أحدثه الإسلام لهؤلاء النـاس . ثم لا تنس أن الإسلام قد أدخل النظام فى الحياة العربيـة فقيد حرية الفرد والجماعة بهذه القيود المعروفة . واذن فقد كانت الحياة المـادّية عند أهل البادية بعد الإسلام شرا مما كانت عليه قبل الإسلام . ولهذا لم تدم الحياة الإسلامية المنظمة فى البادية عصرا طويلا . ولم يكد يضعف سلطان الخلفاء أو لم يكد الخلفاء ينصرفون الى تدبير البـلاد المفتوحة حتى انتهز أهل البادية هـذه الفرصة فاستأنفوا ما كانوا فيه أيام الجاهلية من غزو و إغارة وحرب وخصومة . بل لم يدع أهل البادية فرصة تمكنهم من الفرار من أداء الصدقات والضرائب إلا انتهزوها واستفادوا منها . وربمـا كان من اللذيذ أن ندرس فى يوم من الأيام أثر هذا فى شعر أهل البادية .

لم تتغير إذن حياتهم المـادّية فى جملتها، بل ظلوا يلقون من الضيق و يقاسون من الشظف مثلما كانوا يلقون و يقاسون فى العصر الجاهلى . أما حياتهم العقلية والمعنوية بنوع خاص فقد تغيرت تغيرا شديدا . وحسبك أن تقارن حياة بدوية متأثرة بهذه الطائفة من الآراء التى كان يتأثرها الجاهليون، بحياة بدوية أخرى متأثرة بالقرآن الكريم وما فيه من دين وخلق وأدب وحكمة ونظام، لتشعر بالفرق بين نفسية البدوى المسلم فى أول عهد الناس بالإسلام ونفسية البدوى الجاهلى . كان هذا الفرق عظيما وكان التوازن مختلا بين الحياة العقلية والحياة المـادّية؛ تغيرت الأولى تغيرا تاما ولم تتغـير الثانية أو لم ينلها من التغير إلا شىء قليل .

ومن هنا نشأ فى نفوس هؤلاء الناس شىء من اليأس الذى أشرت اليه آنفا ووصفته وصفا مفصلا فى غير هذا الفصل : شىء من اليأس فى الحياة المادّية تبعه شىء من الأمل فى حياة أخرى ليس واضحا فى هذه النفوس الساذجة وضوحه فى نفوس أهل الحضر . ومن هذا اليأس والأمل تكوّن لهؤلاء البدو مزاج خاص لا هو بالبدوى الغليظ ولا هو بالحضرى الرقيق ، وانما هو شىء بين بين .

ولعل أوضح ما يمتاز به هــذا المزاج ميله إلى أن ينكبّ على نفســه انكبابا خاصا فيتعرّف أسرارها ودخائلها ، ويحاول أن يستكشف فيها هذه الحاجات الغريبة التى تشعر بها دون أن تستطيع لها إرضاء أو شفاء . لعل أوضح ما يمتاز به هذا المزاج شىء من الحزن الساذج المؤثم غير المحدود ولا البين ، هذا الحزن العام الغامض الذى نستطيع نحن بوجه من الوجوه أن نتبين أسبابه فى هذا اليأس وفى هذا الفقر وفى هذه العزلة التى كانت تحول بين هؤلاء الناس و بين العمل السياسى وغير السياسى . نستطيع نحن أن نتبين أسباب هذا الحزن فنفهمه و نفسره . أما أولئك الناس فلم يكونوا يتبينون هذه الأسباب ولا يشعرون بها . بل لعلهم لم يكونوا يشعرون بهذا الحزن نفسه ، مثلهم فى ذلك مثــل غيرهم من الشعوب المختلفة التى أحدثت أعظم الأحداث وخضعت لضروب من الثورات المــادّية والعقلية العنيفة حتى اذا هــدأت العاصفة وأخذت الأمور تستقر فى نصابها ، نظرت هــذه الشعوب فاذا هى لم تجن من هذه الثورات والاضطرابات العنيفة شيئا أو لم تكد تجنى منها شيئا . فــا أسرع ما يأخذها اليأس و يملكها الحزن وتنشأ فيها فنون أدبية جديدة ما كانت لتنشأ فيها لولا هذه الثورات وما أحيت من أمل قوىّ تبعه يأس قوى . وما لنا نذهب بعيدا والمثل قائم بين أيدينا لا تزال له حياته وقوته ، أريد الشعب الفرنسى بعد الثورة ، والأدب الفرنسى بعد أن فشلت الثورة والامبراطورية الأولى ، والعقل الفرنسى فى هذا العصر الذى يقع بين الامبراطورية الأولى والامبراطورية الثانية والذى أنتج هذا النوع من الأدب الحزين اليائس بل اليأس الذى نقرؤه فى (شاتو بريان) و (لا مارتين) و (موسيه) و (فينى) . أتظن أنا كنا نقرأ هذه الآثار المحزونة المؤلمة التى تركها هؤلاء الكتاب والشعراء لو لم

يُحدث الشعب الفرنسى هــذه الثورة العنيفة التى كانت على روعها وفظاعتها مفعمة بالآمال ثم انجلت عن « واترلو » ؟ كلا ! وما كنا لنقرأ شعر جميل والمجنون وابن ذريح لو لم تحدث الأمة العربية هذه الثورة العنيفة التى اضطرب لها العالم القديم وتغير لها فيــه كل شىء، والتى كانت مملوءة أملا والتى استتبعت ألوانا من الفظائع والآثام فيما أحدثت من فتن وما شبّت من حروب ، والتى انتهت بالقياس الى هؤلاء البدو الى ماوصفت لك من هذه الحياة الخاملة الضيقة الخشنة الغليظة التى كان يحياها الأعراب فى صحارى جزيرة العرب ، حينما كان الخلفاء والأمراء ومن اليهــم يستمتعون بالملك والمجد والثروة وألوان الترف .

إن الشبه لشديد جدا بين أثر الثورة الفرنسية فى نفوس هؤلاء الشعراء والكتّاب الذين ذكرتهم ، وأثر الثورة العربية فى نفوس جميل وقيس بن ذريح ومن اليهما من الشعراء الغزلين فى البــادية . الشبه شديد، ولكن على أن تلاحظ الفرق بين الأمة الفرنسية التى كانت متحضِّرة مترفة عالمة بارعة فى الفن حينما أحدثت ثورتها، والأمة العربية التى كانت بادية ساذجة جاهلة خشنة العيش حينما أحدثت ثورتها أيضا .

مهما يكن من شىء، فإن حركة عقلية وشعورية أنشأت فى أهل البادية من العرب بعد أن انتهت الفتوحات والفتن فنا أدبيا يشبه من بعض الوجوه هــذا الفن الذى أحدثتــه فى فرنسا هــذه الحركة العقليــة الشعورية التى نشأت بعــد فشل الثورة والامبراطورية الأولى . والغريب أنك تجد فى هذين الفنين العربى والفرنسى وجهين مختلفين فى مظهرهما متفقين فى أسبابهما ، تجــد عند العرب وعند الفرنسيين شعراء يئسوا فذكروا الحب وتغنّوه فى غير فجور ولا مجون ، وآخرين يئسوا فلهوا وأسرفوا فى اللهو وتغنوا لهوهم وإسرافهــم . ولو أن أولئك وهؤلاء وجدوا من الحياة العملية ما يحول بينهم وبين اليأس ويصرفهم عن أنفسهم الى الحياة وعقباتها ومصاعبها لمــا تركوا لنا من الآثار ما تركوا . أتظن أن جميلا وعمر بن أبى ربيعة — وهما يمثلان هذين اللونين من اليأس — كانا يقضيان حياتهما فى حزن عميق يمثله هذا الغزل العفيف أو هذا

اللهو المبتسم ، لو أنهما وجدا من الحياة العملية ما يصرفهما عن أنفسهما الى هـذا الجهاد الخصب المنتج الذى كان يمعن فيه أهل العراق والشأم ؟

أظن أن الأسـباب التى أثرت فى نشأة هذا الغزل واضحة جلية الآن . وأظن أننا نستطيع أن ننتقل منهـا الى شىء آخر : الى هذا الغزل نفســه والى خصائصه ومميـــزاته .

ولنلاحظ قبل كل شىء أن هذا الغزل كان يستطيع أن يكون أخصب وأغنى منه فى حقيقة الأمر لو لم تحط به هذه الظروف الخاصة التى أنشأته وأشرفت على حياته . أريد أن هذه البداوة وما استتبعته من سذاجة وجهل حالت بين هذا الغزل وبين أن يكون خصبا غنيا حقا ، وجعلت من اليسير أن تستغنى ببعضه عن بعض وأن تحكم ببعضه على بعض ، وحالت بين هؤلاء الشعراء و بين أن تكون لهم شخصيات قوية بارزة كهذه الشخصيات التى نجدها لشعراء الفرنسيين وكتابهم بين الأمبراطوريتين . فإنك تستطيع أن تستغنى بجميل عن قيس بن ذريح أو بقيس بن ذريح عن جميل، بل تستطيع أن تستغنى بواحد من هؤلاء الشعراء عن الشعراء الآخرين جميعا ، لأنهم طرقوا موضوعا بعينه هو الحب ، وتناولوه بأسلوب واحد وعلى نحو واحد من اللفظ . فما أسرع ما انتهوا الى أقصى ما كان يمكن أن يصلوا اليه ، وما أيسر ما تشابهت ألفاظهـم ومعانيهم وأساليبهم ، حتى إنك لتضيف الى أحدهم ما قاله غيره دون أن يحول بينك و بين ذلك حائل فنى ما . كلهم أحب امرأة أو زعم أنه أحب امرأة . وكلهم اتخذ هذه المرأة مثالا أعلى للجمال المـادّى والمعنوى . وكلهم وصفها بما يتصف به هـذا المثل الأعلى من صفات الحسن والكمال . وكلهم اعتمد فى تكوين هذا المثل الأعلى وفى وصفه على السنن الموروثة وألوان التشبيه التى سبقهم اليها الشعراء الأولون أو التى تواضع عليها الناس فيما بينهم . كلهم شبه صاحبته بالشمس والقمر . وكلهم وصف أجزاء صاحبته بما كان يصفها به غيرهم من الشعراء . وكلهم استعمل أو كاد يستعمل نفس الألفاظ ونفس المعانى التى كان يستعملها الشعراء من قبل :

فيم امتازوا من هؤلاء الشعراء؟ بشيئين اثنين فيما أعتقد : الأول أنهم قصروا حياتهم الفنية على الغزل . وكان الشعراء فى العصر الجاهلى يعنون بالغزل كما يعنون بغـيره من الفنون، وربما اتخذوه وسيلة فى أكثر الأحيان لا غاية . أما أصحابنا هؤلاء فقد اتخذوا الغزل غاية لا وسيلة . ولم نعرف أنهم مدحوا أو عُنُوا بفن آخر من فنون الشـعر إلا ما كان يضطرهم اليه الغزل . فنحن نعلم مثلا أن جميلا هجا وفاخر، ولكنا نعلم أنه لم يهج رغبة فى الهجاء ولم يفاخر رغبة فى الفخر، كما كان يفعل الأخطل والفرزدق وجرير؛ وانما هجا لأن غزله اضطره الى الهجاء، وفاخر لأن غزله اضطره الى الفخر. هجا قوما كانوا يعيبونه ويهجونه لغزله ونسيبـه، وفاخر هؤلاء القوم أنفسهم . ولو لم يعرضوا له لمـا فاخر ولا هجا . ونحن نعلم أن قيس بن ذريح لم يجاوز الغزل الى غيره من فنون الشعر. وقد أضيفت اليه أبيات مدح بها ابن أبى عتيق؛ ولكنا نعلم أن هذه الأبيات مصنوعة من جهة، وأنها — إن صحت — فلم يقلها قيس إلا لأن ابن أبى عتيق جد فى وصل الحبل بينه وبين لبنى .

الثانى أن غزل هؤلاء الشعراء الإسـلاميين أرقى بكثير من غزل الجاهليين من حيث إن غزل الجاهليين كان ماديا خالصا بينما كان فى غزل الإسلاميين شىء غير المـادة . وأظن أن هذا يحتاج الى شىء من الايضاح .

ما الذى كان يعنى به امرؤ القيس أو النابغة أو الأعشى اذا تغزلوا وذكروا النساء ؟ لم يكونوا يعنون بذكر الحب وتأثيره فى النفس ولا بهذه الآلام المختلفة التى تنشأ عنه، أى لم يكونوا يعنون بدخائل نفوسهم وانما كان الغزل عندهم ضربا من الوصف، كانوا يصفون النساء كما كانوا يصفون الإبل . وقلما تجد عندهم عناية بالعاطفة أو حرصا على تمثيلها. فان وجدت عندهم هذه العناية بالعاطفة لم تلبث أن تزدرى هذه العاطفة إزدراء؛ لأنها كانت عاطفة مادية غليظة إن صح هـذا التعبير . كانت عواطفهم تصـدر عن الشهوات و إيثار اللذة قبل كل شىء . ومن هنا تجد عند امرئ القيس والنابغة مثلا هذا الوصف المـادى الذى يتناول أجزاء المرأة فيصفها وصفا تفصيليا يختلف حظه من الصفة قوة وضعفا، ولكنه مادى قبل كل شىء . فاذا تركوا هذا الوصف وانصرفوا

الى أنفسهم يصفون ما تعانى من الحب وما تلق من آلامه، فهم يعرضون لذلك كما يعرضون لوصف اللذات وحاجتهم اليها ورغبتهم فيها، يصفون لذة الحب كما يصفون لذة الصـيد ولذة الحرب . ومن قبل ذلك قلنا إنهـم كانوا يصفون النساء كما كانوا يصفون الإبل . كذلك كان الغزل فى الجاهلية ، كان وسيلة وكان ماديا . أما غزل الإسلاميين فلم يكن وسيلة وانمـا كان غاية . ولسنا نستطيع أن نقول إنه برئ من المـادة وخلا منها خلوا تاما . فذلك غير صحيح . ولم يستطع الأدب العربى فى وقت من الأوقات أن يبرأ من المـادة . وإنا نستطيع أن نقول إن الغزل الإسلامى العذرى أضاف الى المـادة شيئا آخر جعـله قِوام الشـعر ، نريد به الحب نفســه وما يترك فى القلب من أثر، وما يبعث فى النفس من عاطفة، وما يسـبغ على المحب من كآبة وحزن، وما يحيى فيه من أمل ورجاء . لسنا نشك فى أن جميلا وقيس بن ذريح والمجنون قد وصفوا أجسام بثينة ولبنى وليلى، بل وصفوا هذه الأجسام وصفا مفصلا لا يخلو من دقة وتحقيق . ولكنا لانسـتطيع أن نشك فى أن هذا الوصف المـادّى لم يكن الغرض الذى كان يرمى اليه هؤلاء الشـعراء، انمـا كان وسـيلة الى الغرض الذى كانوا يرمون اليه، وهو وصف النفس وما تلق بالحب من شقاء أو سعادة ومن بؤس أو نعيم .

انتقل إذن موضوع الغزل فى الإسلام . كان فى الجاهلية جسم المرأة فأصبح فى الإسلام نفس العاشق . ومن هنا لم يكن العذريون المسلمون يصفون المرأة كما كانوا يصفون الإبل، ولم يكونوا يذكرون لذة الحب كما كانوا يذكرون لذة الصيد ، وإنمـا كانوا يصفون المرأة كما ينبغى أن يصفها إنسان يشعر ويحس ويمتاز بشىء من الشـعور والحس لا يخلو من رقة ورقىّ معا . لم تكن المرأة عنـد هؤلاء الشعراء حاجة تُطلب أو شيئا يطمع فيه ، وإنما كانت شطرا من النفس لا تطيب للنفس حياة إلا به . ولعلك تقرنا على أن هـذا رقىّ عظيم، وعلى أن العقل العربى والشعور العربى عند ما بلغا هـذا الطور من تصوّر المرأة والحكم عليها والميـل اليها كانا قد جاوزا كل المجاوزة طور الوحشـية التى كان يعيش فيها الجاهليون . وليس

غريبا أن يعظم الفرق بين هذين الطورين فقد كان بينهما القرآن . وأثر القرآن فى نفوس المسلمين عظيم .

وأريد أن أضرب لك أمثالا تشخّص هـذا التطور تشخيصا ظاهرا قويا ، فأبدأ بهذه الأبيات من شعر جميل وألفتك الى أنها مادية فى أولها لا تلبث أن تترك المادة الى المعنى ، وأن تتناول الصلة بين العاشقين فى رقة ولطف وحنان ما كان ليجدها قلب كقلب امرئ القيس . وأحب أن تلتفت الى أن هـذا الشعر كغيره من شعر جميل وأصحابه لا يخلو من أبيات مصنوعة دسّها المغنون ، ولكن شيئا من الفقه الأدبى يمكنك فى يسر من أن تفرق بين المطبوع والمصنوع :

وكأنّ طارقَها على عَلَلِ الكرى * والنجمُ وَهْنًا قد دنا لتغَوُّرِ
يستاق ريح مدامـةٍ معجونة * بذكىّ مسك أو سحيق العنبر
إنى لأحفظ غيبكم ويسرُّنى * إذ تذكرين بصالح أن تذكرى
ويكون يومٌ لا أرى لكِ مرسَلًا * أو نلتقى فيه علىّ كأشهر
يا ليتنى ألقى المنيّـةَ بغتـةً * إن كان يومُ لقائكم لم يُقْدَرِ
أو أستطيع تجلُّدًا عن ذكركم * فيُفيق بعضُ صبابتى وتفكرى
لو قد تُجَنّ كما أُجَنُّ من الهوى * لعذرت أو لظلمت إن لم تعذُر
والله ما للقلب من علمٍ بها * غيرَ الظنون وغيرَ قول المخبِرِ
لا تحسبى أنّى هجرتُكِ طائعًا * حَدَثٌ لعمرُك رائعٌ أن تُهْجَرِى
فلتبكِيَنّى الباكياتُ وإن أبُحْ * يوما بسرِّك معلنًا لم أُعْـذَر
بهواك ماعشتُ الفؤادُ فإن أمت * يتبعْ صداى صداك بين الأقبُر

فهل ترى ألذ من هذه النجوى وأعذب من هـذا الحديث! وهل تقـدر هذا الجمال الفنى الذى يمثله هـذا الالتفات من الغيبة الى الخطاب ثم من الخطاب الى الغيبة كلما دنا الى ذلك موضوع الحديث ! ثم هل تعلم أرق من هذا الكلام عاطفة وأرق منه شعورا !

وانظر الى هذه الأبيات التى قالها بعد أن حاول لقاء بثينة فلم يوفق اليه، فرجع كئيبا وأخذ نساء الحىّ يلمنه و يعرّضن له بحبهن ووصلهن :

أبُثَيْن إنكِ قــد ملكتِ فأسْجِحى * وخذى بحظّك من كريم واصل
فلربّ عارضةٍ علينــا وصــلَها * بالجدّ تخلطه بقــول الهــازل
فأجبتُهــا فى القول بعـــد تستّرٍ * حُبّى بثينــةَ عن وِصالكِ شاغلى
لو كان فى صــدرى كقدر قُلامةٍ * فضلًا وصلتُكِ أو أتتــكِ رسائلى
و يقلن إنك قد رضيتَ ببــاطل * منها فهل لك فى اجتناب الباطل!
ولَبَاطلٌ ممن أحبُّ حديثَــه * أشهى الىّ من البغيض البــاذل
ليُزالَ عنك هواى ثم يصِلْنَنى، * واذا هَويت فمــا هــواى بزائل
صــادت فؤادى يابثين حبالُكم * يوم الحَجُون وأخطأتك حبــائلى
مَنَّيْتِــنِى فلَوَيْتِ ما منيتِـــنى * وجعلتِ عاجلَ ما وعدتِ كآجل
وتثاقلت لمــا رأت كَلَفى بهــا * أَحْبِبْ إلَىّ بذاك من متثاقل
وأطعتِ فِىّ عواذِلًا فهجرتِنِى * وعصيتُ فيكِ وقد جَهَدْنَ عواذلى
حاوَلْنَنِى لأَبُتَّ حبـــلَ وصالكم * منى، ولستُ و إن جهدن بفاعل
فرددتُهن وقد سَعَيْن بهجركم * لمــا سـعين له بأفوق ناصـــل
يَعْضَضْنَ من غيظٍ عــلىّ أناملا * ووَددتُ لو يعضضن صُمَّ جنادل
و يقلن : إنك يا بثين بخيــلةٌ ، * نفسى فداؤك من ضَنينٍ باخل

رويت لك هــذه الأبيات على عِلّاتها فى رواية أبى الفرج مع تغيير قليل جدا فى ترتيب الأبيات الأولى لم يكن منه بدّ لاستقامة المعنى . ولست أشــك فى أن هــذه الأبيات وغيرها من شعر الغزلين تُروى فى كتاب الأغانى وقد فقــدت ترتيبها الطبيعى ؛ لأن أبا الفرج لا يلتفت إلا الى الغناء وأصوات المغنــين . فأما النظام الطبيعى للقصيدة فلا يحفل به . وعندى أن هذه الأبيات التى نحن بإزائها قد رويت معكوسة وأن آخرها يجب أن يقع فى أولها . وشىء من التأمل يقنعك بهذا . ولكن

لهذا البحث موضعا آخر . أما الآن فأنا ألفتك الى الأبيات الأولى من هذا الشعر والى لطف هذا التخلّص من تلك التى كانت تتبع جميلا وتطمعه تريد أن تصرفه عن صاحبته الى نفسها . ثم ألفتك أيضا الى هـذا الجمال الفنى الذى يمثّله الالتفات من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة، والى هذه الجمل المعترضة التى يأتى بها الشاعر إما للتأكيد و إما للتلطف فى حديث صاحبته . ثم ألفتك الى هذه السهولة فى اللفظ والمعنى . فكل هـذه الخلال التى تجدها فى أكثر شعرِ جميل تبعدك كل البعد عن شعر الجاهليين وغزلهم .

* * *

ولأنتقلْ بك من جميـل هذا البدوى المتحضّر فى شعره الى رجل آخر احتفظ فى شعره بالبداوة دون أن يخطئه الجمال الفنى أو يقلّ حظه من الرقة وشرف العاطفة وهو قيس بن ذريح . وأروى لك من شعره الجميل هذه الأبيات :

أقضّى نهارى بالحـديث وبالمُنَى * ويجمعنى والهمَّ بالليـل جامعُ
نهارى نهارُ النـاس حتى اذا بدا * لى الليـلُ هزّتنى اليكِ المضاجع
لقد رسختْ فى القلب منكِ مودّةٌ * كما رسخت فى الراحتين الأصابع
أحالَ علىّ الهمُّ من كل جانبٍ * ودامت فلم تبرَحْ علىّ الفواجع
ألا إنمـا أبكى لمـا هـو واقعٌ * فهل جَزَعِى من وَشْكِ ذلك نافع
وقد كنت أبكى والنوى مطمئنّةٌ * بنـا وبكم من علمِ ما البينُ صانع
وأهجركم هجـر البَغِيض وحبُّكم * على كبدى منـه شؤونٌ صوادع
وأعمِـد للأرض التى لا أريدها * لتَرْجِعَنى يومًا اليـك الرواجع
وأُشـفق من هِجْرانكم وتَرُوعنى * مخافة وشك البين والشمل جامع
فمـا كلَّ ما مَنَّتْكَ نفسك خاليًـا * تُلاقى، ولا كلَّ الهوى أنت تابع
لعمرى لَمَنْ أمسى ولُبْنَى ضجيعُه * من الناس ما آختيرت عليه المضاجع
فتلك لُبَيْنَى قـد تَرَاخَى مزارُها * وتلك نَوَاهـا غربةٌ ما تُطاوع

وليس لأمر حاول اللهُ جمعَـــه * مُشِتٌّ ولا ما فرّق اللهُ جامع
فلا تَبْكِيَنْ فى إثْرِ لُبْنَى ندامـــةً * وقد نزعتهـا من يديك النوازع

أما أنا فأرى أن هـذه القصيدة آية من آيات الغزل العربى ، فيها جمال اللفظ ورصانته ، وفيها جلال المعنى ومتانته ، وفيها جمال هـذه النفس التى تألم هذا الألم الشريف ، وتذعن لقضاء الله وقدره هذا الإذعان الشريف .

وأحب أن تقدر معى جمال هـذا البيت وما فيه من صدق وسـذاجة طبيعية وجودة للتشبيه :

لقد رسخت فى القلب منك مودة * كما رسخت فى الراحتين الأصابع

أُنظر اليه ، أراد أن يشبّه ثبوت حبه ومتانته ، فلم يلتمس التشبيه بعيدا من نفسه وإنما وجده فمد اليه يده أو لم يمدها ، وجده فى يده « كما رسخت فى الراحتين الأصابع » . ثم أُحب أن تلتفت الى هذا اليأس والإذعان اللذين ذكرتهما فى أوّل هذا الفصل . أحب أن تلتفت الى هذا البيت وتحدّثنى أيمثل اليأس والإذعان تمثيلا صحيحا :

وليس لأمر حاول الله جمعه * مشتٌّ ولا ما فرّق الله جامع

أحب أن تقرأ هذه القصيدة وتقرأها ؛ فإنك لا تجد فيها نفس الشاعر وحده إنمـا تجد فيها نفس هؤلاء الغزلين جميعا . بل تجد فيها نفس البادية العربية فى هذا العصر . أحب أن تقرأ هـذه القصيدة وتقرأها وأن تقرأ أمثالهـا من شعر قيس وجميل وغير قيس وجميـل ؛ فإنك ستجد فى هذا الشعر ما تسكت به هؤلاء الذين يزرون الأدب العربى ويجحدون مكانة الشعر العربى ويخدعون بجمال الشعر الأفرنجى ، والله يعـلم أنهم ما فهموه ولا ذاقوه ، فيزعمون أن العرب لم يُحدثوا شيئا ولم يفهموا الجمال ولم يقدروه . إنهم ليزعمون ذلك ، وإنهم ليتحدّثون به الى الشباب . وإنهم ليكتبونه فى الصحف والكتب ، والله يعلم ما زعموه ولا كتبوه ولا تحدّثوا به إلا عن جهل فاحش للأدب العربى والإفرنجى جميعا .

ولكنى أشعر بأنى أشطّ عن موضوع هذا البحث ، فلأعُدْ اليه ولأختمه بهذه الأبيات القليلة التى قالها مجهول ونسبت الى المجنون، والتى تمثل بداوة الغزل العربى ناصعة خلابة فى جمالها الساذج الطبيعى وهى :

تمرّ الصَّبا صفحا بساكن ذى الغَضَا * ويصدَع قلبى أن يهبّ هبوبُها
اذا هبّت الريح الشَّمالُ فإنما * جَوَاىَ بما تُهْدى إلى جَنُوبها
قريبة عهد بالحبيب، وإنما * هوى كلِّ نفس حيث كان حبيبها
وحسبُ الليالى أن طرحْنَك مَطْرَحًا * بدار قِلًى تُمسى وأنت غريبها
حَلالٌ لليلى شتمُها وانتقاصُها * هنيئا ، ومغفورٌ لليلى ذنوبها

ألفتك الى هذه البداوة فى قوله : «ويصدع قلبى أن يهب هبوبها» وفى قوله : « بدار قلى تمسى وأنت غريبها » يريد وأنت غريب فيها . ثم ألفتك الى هذه المعانى الساذجة الحلوة الخلابة لا لشىء إلا لأنها ساذجة . ألفتك الى هذا كله وأودّ لو تقرأ وتقرأ ما لم أستطع أن أرويه لك من شعر هؤلاء الغزلين ؛ وهو كثير ، كثير بحيث يمكننا من أن نتصور هذه النفس اليائسة البائسة الهائمة فى طلب المثل الأعلى وإن كان قليلا جدا بالقياس الى ما ذهبت به الأحداث .

والآن وقد ألممنا بالغزلين وأشعارهم وأخبارهم إلمامةً قصيرة ولكنها نافعة، فقد نستطيع أن ننتقل منهم الى طائفة أخرى من الشعراء فى الفصول المقبلة .

---

*

*

عـود الى الغزلين [1]

وَضّـاح اليمن

كنت أريد أن أنصرف عن الغزلين الى طائفة أخرى من شعراء العصر الأموى، ثم بَدَا لى، فآثرت العودة اليهم، لأتم البحث، ولأن هؤلاء الغزلين من الحضر ليسوا أقلّ حظا فى الإجادة من أولئك الغزلين من أهل البادية، بل ربما كان درس الغزلين الحاضرين أعظم نفعا وأشدّ غناء من درس الغزلين البادين. ذلك لأن الغزلين من أهل الحضر يمثّلون نحوا من أنحاء الحضارة التى عاشوا فيها. ومن الخير أن نلمّ بهذه الحضارة الإسلامية فى أول عهدها بالظهور والإزهار. وقد يعيننا درس هذا الغزل الحضرىّ وما يتصل به من ألوان الحياة فى أيام بنى أمية على أن نفهم هذا العبث الذى نجده مستأثرا بالحياة الأدبيـة أيام بنى العباس ؛ فإن السنة الشعرية لم تنقطع بين هذين العصرين : عصر دمشق وعصر بغداد.

ثم قد نجد من درس الغزلين الحاضرين أيام بنى أمية ما يمكننا من تحديد الفروق الفنية والنفسية بين هؤلاء الشعراء الأمويين الذين كانوا أشد تأثرا بالحياة العربية القديمة، وهؤلاء الشعراء العباسيين الذين كانوا أشد تأثرا بالحياة الفارسية الجديدة ولكل هـذا نفعه وقيمته. ثم إن هؤلاء الشعراء الحاضرين لهم شخصياتهم البـارزة وآثارهم القوية فى تكوين الأدب الإسلامىّ والنفس العربية الاسلامية، فلا بد من درسهم والإلمـام بأطرافهم من حياة وآثار. وكيف نستطيع بعد أن درسنا جميـلا وقيس بن ذريح والمجنون أن نهمل الأحوص والعرجى وعمر بن أبى ربيعة وعبيد الله ابن قيس الرقيات! على أنى لا أحدثك اليوم عن واحد من هؤلاء، وإنمـا أحدثك عن رجل آخر لست أدرى فى الحق أُوجد بالفعل أم لم يكـن إلا خيالا اخترعه

(١) نشرت بجريدة «السياسة» فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٤ م.

القصّاصون آختراعا وآنتحلوا شعره آنتحالا ونسجوا ما حوله من الأحاديث والأخبار ما فيه لذة ومتعة وما يدعو درسه الى تأمّل وتفكر ؟

أريد أن أحدّثك عن هــذا الشاعر الذى يلقبونه وضّاح اليمن، والذى فُتن به بعض أساتذة الأدب المحدَثين حتى خيّــل اليهم أنه آخترع الشــعر التمثيلى وأضافه الى تراثنا الأدبى القديم . اخترع الشــعر التمثيلى لا لأنه وضع قصة تمثيلية شعرية، ولا لأنه تصوّر شيئا يشبه القصص التمثيلية أو يقاربها ؛ بل لأن قصيدة من شــعره فيها شىء من الحوار، تخيّل الى هؤلاء الأدباء أنه قد آخترع التمثيل منذ أدخل الحوار فى الشعر، ونسوا أن الحوار ليس هو التمثيل ، وإنمــا هو أصل من أصول التمثيل . ونسوا أيضا أن هــذا الحوار الذى يجدونه فى شعر وضّاح والذى سأظهرك عليه بعد حين قد ســبق اليه الشعراء جميعا فى جاهليتهم و إســلامهم ، فحاور آمرؤ القيس عشيقاته ، وحاور ابن أبى ربيعة أخدانه ، وحاور جميل بثينة ، وحاور كثيّر عزّة ، وحاور ابن ذريح لبنى . ومهما يكن من شىء فليس عســيرا أن ننكر ما زعم هؤلاء الأساتذة المحدَثون لوضّاح اليمن من استكشاف التمثيل الشعرى، وأن نبيّن أن مصدر هذا الزعم إنمــا هو أن هؤلاء الأساتذة يجهلون التمثيل مــن جهة ، و يريدون أن يضيفوا الى الأدب العربى ما فيه وما ليس فيه، حتى لا يظهر فضل للأدب اليونانى أو الأدب الأوربى على أدبنا العربى .

الجهل من ناحية ، والغــرور من ناحية أخرى، هما اللذان أحدثا هذه الفكرة السخيفة فى نفس طائفة من أدبائنا .

إنما العسير حقا هو أن نقطع بشىء فى أمر هذا الشاعر : أوُجد أم لم يوجد؟ أقال هــذا الشعر أم لم يقله ؟ أوقعت له هذه الأخبار أم لم تقع ؟ مسائل عســيرة ولكن حلها ليس مستحيلا .

أنا أشك فى وجود هــذا الشاعر شكا قويّا . وحسبك أن رواته يختلفون فيه اختلافا كثيرا، فمنهم من يزعم أنه عربى حِمْيَرى . ومنهم من يزعم أنه من سلالة الفرس

الذين جاءوا اليمن مع سيف بن ذى يَزَن ليردّوا عنها غارة الحبشة . ومنهم من يحاول التوفيق بين هاتين الروايتين، فيزعم أنه عربى ولكن أباه مات عنه طفلا، فتزوجت أمه رجلا من سلالة هؤلاء الفرس الذين كانوا يسمون " الأبناء " وشبّ الطفل فى حجر هذا الفارسى . ثم جاءت عمومته تطلبه فادّعاه الفارسى . وكانت حول الغلام خصومة رفعت الى الحاكم فقضى للعرب على الفارسى . قالوا : وكان الغلام بارع الجمال فأُعجب به الحاكم فمسح على رأسه وقال له : أنت وضّاح اليمن ! فغلب عليه هذا اللقب .

غير أن هذه القصة المتكلفة وهذا التوفيق الغريب بين الروايتين لا يثبتان أمام شىء نجده فى أخبار وضّاح، وهو أنه بينما كان فى دمشق متصلا بقصر الوليد بن عبد الملك — كما سترى بعد حين — تلقّى كتابا من اليمن فيه نعى أبيه وأخيه، فرثاهما بقصيدة قافية طويلة يرويها أبو الفرج . واذن فلم يمت عنه أبوه وهو طفل، وإنما مات عنه وهو رجل فى عنفوان قوته قد سما به المجد حتى اتصل بقصور الخلفاء .

ثم لا يختلف الرواة فى أمر وضّاح وحده، بل يختلفون فى أمر عشيقته الأولى — فله عشيقتان — : أفارسية هى أم عربية .

فكل هذا الاضطراب لا يحمل على الاطمئنان الى وجود وضاح . ولكن هناك شيئا آخر يحمل على الشك فى وجود وضاح، وهو أن الغزليين الذين بَعُد صوتهم فى القرن الأوّل والثانى للهجرة مضريون كلهم أو أكثرهم، سواء فى ذلك منهم البادون والحاضرون . فمن كان من بينهم يمانيا كالأحوص الأنصارى ، فانما هو يمانى النسبة ليس غير، قد اشتدّ اتصاله بالمضرية عامة وقريش خاصة، حتى لم يأخذ بحظه من العصبية اليمانية التى كانت قاعدة الحياة السياسية وآفتها فى ذلك العصر . وقد حاولت اليمانية أن تدّعى جميلا ولكنها لم توفّق ، لأن النسّابين اشتدّ اختلافهم فى نسب قُضَاعة قبيلة جميل ، حتى إن جميلا نفسه كان يزعم ويعلن أنه من مَعَدّ .

كان الغزلون كلهم أو أكثرهم مضريين . وكانت العصبية بين المضرية واليمانية قد عظم أمرها وأخذت تحدث فى الحياة السياسية العربية آثارها المنكرة المعروفة . فكانت المضرية لا تفتخر بشيء إلا حاولت اليمانية أن تفتخر بما يعدله أو يفضله . وقد آفتخرت المضرية بالغزلين من شعرائها فى الإسلام، وكانت السنة المتصلة أن الغزل يمانى، لأن آمرأ القيس هو الذى مهـد طريقه فى الجاهلية، فلم يكن من اليسير على اليمانية أن تحتمل هـذا الخذلان وأن تسلّم للمضرية بهذا التفوّق الشعرى الذى آغتصبته آغتصابا وظفـرت به فى غير حق ولا وراثة . واذن فلا بدّ من أن يكون لليمانية شعراء غزلون تقفهم أمام الشعراء الغزلين من المضرية . وليس وضّاح هذا — فيما أرجح — إلا تجربة من هؤلاء الشعراء الذين كان اليمانيون يخترعونهم آختراعا فى القرن الثانى للهجرة ليفاخروا بهم المضريين .

اخترعت اليمانية وضّاحا وشعره — فيما أعتقد — حتى لا يقال إنها خلت من شاعر غزل فى الإسلام . وهبه قد وجد حقا وقال الشعر وآتصل بالخلفاء ووقعت له هذه الأخبـار المعروفة كلها أو بعضها ، فليس من سبيل الى الشك فى أن الكثرة المطلقة من هذا الشعر الذى يضاف اليه منتحلة مصنوعة لم يقلها ولم يعلم بها .

ولمـاذا ؟ لأن هذا الشعر الذى يضاف الى وضاح لا يمكن أن يكون قد صدر عن شاعر مات قبل أن ينتهى القرن الأوّل للهجرة .

أنت قد قرأت شـعر الغزلين من أهل البادية وعرفت أنه يمتـاز بمتانة اللفظ ورصانة الأسلوب . وهذه المسحة البدوية التى إن لم تكن شديدة الخشونة فليست شديدة النعومة . وأنت قد قرأت وستقرأ شـعر الغزلين من أهل الحاضرة، وسترى أن هذا الشعر اذا برئ من خشونة البادية قليلا أو كثيرا فهو عربى ، عربى برىء من الابتذال والسقوط وهـذا اللين الذى يحملك على أن تقسم ما قال هذا الشـعر عربى، وإنمـا هو صنعة مولّد ضعيف .

شعر وضّاح ليّن مسرف فى اللين ، سهل مفرط فى السهولة ، هو شعر مخنث إن أذنت لى باستعمال هـذا اللفظ . ثم هو على لينه وخنوثته لا يخلو من تكلف منكر قد يخرجه أحيانا عن أصول النحو . ثم هو على هـذا كله لا يخـلو من تكلف آخر فى القافية لم يكن يذهب اليه الشعراء الأولون . تراه يتكلف قافية شينية مثلا و يريد أن يطيل ، والقافية الشينية عزيزة تعسر عليـه ، فيضطر الى أن يصطنع جيّد اللفظ وسخيفه ، لأنه مفلس ، ولأنه يريد أن يظهر مظهر الموسر . وآنظر الى هذه القصيدة فقد تغنيك عن إطالة القول :

طرِب الفؤادُ لطيف روضةَ غاشى * والقوم بين أباطح وعِشاش
أنَّى آهتديتِ ودون أرضك سبسبٌ * قفرٌ وحـزنٌ فى دُجًى ورشاش
قالت تكاليف المحب كلفتها * إنّ المحب اذا أُخيف لماشى
أدعوكِ روضةُ رحبَ واسمكِ غيرُه * شفقًا وأخشى أن يشى بك واشى
قالت فزرنا قلت كيف أزوركم * وأنا آمرؤ لخروج سرّك خاشى
قالت فكن لعُمومتى سلما معا * والطف لإخـوتىَ الذين تُماشى
فتزورنا معهم زيارة آمن * والسـتر يا وضّاحُ ليس بفاشى
وافيتُها تمشى بأبطح مـرّةً * بخلاخل وبخـلّة أكياش
فظلِلْتُ معـمودا وبتُّ مسهّدا * ودموع عينى فى الرداء غَواش
ياروض حبكِ سلّ جسمى وآنتحى * فى العظم حتى قد بلغت مُشاشى

أترى الى هذه القصيدة فى ألفاظها ومعانيها وقوافيها؟ ولنبدأ فلنلاحظ أن معنى هذه القصيدة أقرب الى ما نجده فى حياة المدن أثناء العصور المتأخرة منه الى ما نعلم من أخلاق العرب فى العصور الأولى . فهذه المرأة التى تريد وضّاحا على أن يزورها ، فاذا ذكر لها عسر ذلك أغرته بأن يتلطف لأعمـامها وإخوتها حتى تكون الصداقة بينه و بينهم ، فتسهل عليه زيارتها معهم دون أن يتعرض لخطر أو أن يذاع سرهما .

أقول إن هذه المرأة أقرب الى أن تكون بغدادية من الطبقات المنحطة فى أهل بغداد منها الى أن تكون عربية يمانية أو مضرية قريبة عهد بأخلاق البادية وما فيها، لا أقول من عفة وطهارة، ففى البادية فحشها وفجورها، بل أقول من كرامة وسذاجة وترفّع عن مثل هذه الدنيات .

وأما القافية فقد لاحظت من غير شك مطلع القصيدة الذى يقول فيه : " طرب الفؤاد لطيف روضة غاشى" وما أحسبك فى حاجة الى أن أنبهك الى موضع "غاشى" من العسر والحرج، وفطنت الى قوله : "ان المحب اذا أخيف لماشى" ؛ وفطنت الى قوله : " وأشـفق أن يشى بك واشى " دون نصب الفعل ؛ وفطنت الى غير ذلك مما تشتمل عليه القصيدة من مهلهل اللفظ وردىء القافية .

ولست أريد أن أطيل برواية الكثير من شعر وضاح؛ فقد تجد ذلك فى كتاب الأغانى . وأنا أوصيك بالقافية التى يرثى بها أباه وأخاه . وأروى لك هــذه الأبيات التى يجزع فيها على أم البنين وقد أخذتها علّة :

حتّامَ نكتم حزننا حتّاما * وعلامَ نستبق الدموع علاما
إن الذى بى قد تفاقم وآعتلى * ونما وزاد وأورث الأسقاما
قد أصبحت أم البنين مريضة * نخشى ونشفق أن يكون حماما
يارب أمتعنى بطـول بقائها * وآجـبر بها الأرمال والأيتاما
وآجبر بها الرجل الغريب بأرضها * قد فارق الأخـوال والأعماما
كم راغبـين وراهبين وبُؤّس * عُصِموا بقرب جنابها إعصاما
بجناب ظاهرة الثنا محمـودة * لا يستطاع كلامُها إعظاما

فمن زعم أن هـذا الشعر عربى قد صـدر عن قائله فى القرن الأوّل للهجرة، فإنى أزعم أنه لم ينشأ فى القرن الأوّل ولا فى الثانى، وانما أنشأه ناظم جاهل لا حظ له من قوة ولا نصيب له من فنّ فى القرن الثالث أو الرابع للهجرة . ويحدثنا أبو الفرج أن كتابا غثًّا مصنوعا كان فى أيدى الناس عن الوضّاح وأنه كره أن ينقل منه شيئا .

و إذن فوضّاح اليمن هذا بطل غرامى من أبطال العامة لا من أبطال الخاصة كأولئك الذين درسنا أخبارهم فى الفصول الماضية .

على أن اللذيذ من أمر الوضّاح ليس شعره ولا نسبه ، و إنما هو هذه القصة الغرامية التى أنشئت حوله والتى اشتركت فى تكوينها عناصر مختلفة، منها السياسى ومنها العصبى ومنها المبالغات العامية، والتى ما زالت تصلح موضوعا لقصة غرامية موسيقية حديثة على نحو ما يسميه الفرنج بالأوبرا .

زعموا أن وضّاحا أحب فى أوّل أمره امرأة يقال لها روضة، يمانية أو فارسية، و زعموا أنها أحبته، و زعموا أن حبهما ذاع بين الناس . فلما خطبها أبى عليه أهلها ما أراد، على نحو ما هو معروف فى القصص الغرامية لذلك العهد . ولكن هذه القصة اختزلت اختزالا فلم يستطع الشاعر أن يحتفظ بغرامه و يتعرّض لأخطار الحب ، ولم يتح للسلطان إهدار دمه كما هى العادة فى القصص الغرامية . ذلك لأن "روضة" أصابها الجذام فلم تصبح أهلا للعشق ، وإنما أصبحت أهلا للرحمة، وقد رحمها الشاعر وعطف عليها . ومع أن أكثر شعر وضّاح إنما هو فى روضة هذه فإن قصته الحقيقية التى عبثت بحياته بل عصفت بها والتى أشرت اليها آنفا إنما هى سيرته مع أم البنين .

أم البنين هذه بنت عبد العزيز بن مروان وزوج الوليد بن عبد الملك . كانت جميلة فاتنة يشهد بذلك شعر عبد الله بن قيس الرقيّات فيها . وقد استأذنت زوجها فى الحج فأذن لها، فبلغت مكة فى جوار حسان لم ير أهل مكة مثلهن، وكن سافرات يتعرّضن للغزلين من أهل الحجاز . وكان الوليد قد توعّد الشعراء إن تغزلوا بالملكة أو إحدى وصائفها . ولكن الملكة كانت تريد أن يتغزل بها الشعراء كما تغزلوا بأخت زوجها فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر بن عبد العزيز، وكما تغزلوا بسكينة بنت الحسين، وكما تغزلوا ببنت معاوية من قبل، وكما كانوا يتغزلون بكل شريفة وردت مكة، لا يريدون بذلك إثما ولا نكرا، و إنما يذهبون فى ذلك مذهب المدح

والدعابة . فطلبت الى كثيِّر والى وضّاح أن يذكراها . فأما كثيّر فخاف الخليفة وأراد أن يرضى الملكة ، فذكر جارية لها يقال لها غاضرة . وأما وضّاح فتغزل بالملكة نفسها ، ولم ينقل الرواة الينا ما قال فيها ، ولكنه نمى الى الوليد فحنق عليه وآغتاله .

هذا ما يمكن أن يكون صحيحا من القصة ، وهو الموضوع الذى نسجت حوله هـذه القصة المتقنة التى سأوجزها فى أسطر والتى قلت إنهـا تصلح موضوعا لمأساة موسيقية حديثة .

زعَموا أن أم البنين أحبت وضّاحا وأحبها وضاح ، وكانت بينهما دعابة ثم جاوز الأمر الدعابة الى ما هو شر منها . قال : وأهدى الى الوليد جوهر أعجبه فأراد أن يهديه الى أم البنين ، فأرسله اليها مع خادم له ودخل الخادم على الملكة فرأى عندها وضاحا ، قال : فأسرعت الملكة الى صـندوق فأخفت فيـه صاحبها ، ثم أخذت الجوهر من الخادم وقد رأى ما صنعت فطمع فيها وأراد أن يستغل ما يعلم ، فطلب اليها أن تمنحه حجرا من هذا الجوهر ، قال : فأبت عليه ذلك وسبّته ، فآنصرف محنقا حتى بلغ الخليفة فأنبأه بما رأى ، فأظهر الخليفة تكذيبه وأمر به فقتل ، ثم نهض من فوره فدخل على الملكة فإذا هى تمتشط ، فجلس على الصندوق الذى وصفه له الخادم وأخذ يتحدّث الى الملكة فى ملاطفة حتى سألها أن تهدى اليه هذا الصندوق ، فلم تستطع ردّه ، فأمر بالصندوق فاحتمل الى مجلسه ، ثم أمر فاحتفرت بئر فى هذا المجلس ، ثم ألقى الصندوق فى البئر وهيل عليه التراب وسوّيت الأرض ورد البساط الى مكانه ، ولم يعرف أحد لوضاح خبرا ، ولم تنكر الملكة من زوجها شيئا .

قال أبو الفرج : إن هذه القصة مصنوعة وضعها أحد الشعوبية . وقد كانت بينه وبين "أحوى" ملاحاة أيام بنى العباس . وأكبر الظن أن هذه القصة موضوعة كلها ، ولكنها فى نفسها جيـدة مؤثرة صالحة كما قلت لأن تكون موضـوع مأساة موسيقية .

فأنت ترى أمر وضاح هـذا كله نكر فى نكر : فشخصه موضوع شك، وشعره متحول، وأخباره متكافئة . ومع ذلك فنحن نجد فى شعره شيئا لا يخلو من جودة . وأنا أوصيك باللاميتين اللتين مدح بهما الوليد .

وأختم هذا الحديث بهذه الأبيات التى أشرت اليها فى أول الفصل والتى خيلت الى بعض الأدباء المحـدثين أن وضّاحا قد استكشف الشعر التمثيلى . وإنما أروى هذه الأبيات لأن فيها سذاجة حلوة إن لم تمثل النفس العربيـة فهى تمثل النفس العامية البغدادية :

قالت أَلَا لا تَلِجَنْ دارنا * إن أبانا رجـل غائرُ
قلت فإنى طالبٌ غِـرّةً * منه وسيفى صارم باتر
قالت فإن القصر من دوننا * قلت فإنى فوقه ظاهر
قالت فإن البحر من دوننا * قلت فإنى سابح ماهر
قالت فحولى إخـوةٌ سبعة * قلت فإنى غالب قاهر
قالت فليثٌ رابض بيننا * قلت فإنى أسد عاقر
قالت فإن الله من فوقنا * قلت فربى راحم غافر
قالت لقد أعييتنا حجّةً * فأت اذا ما هجع السامر
فاسقُطْ علينا كسقوط الندى * ليلةَ لا ناهٍ ولا زاجر

—————

*

*

الغـــزلون (1)

العَـــرْجَىّ

أريد اليوم أن أحدّثك عن شاعر ظريف خفيف الروح محبب الى النفس . فيه خصال الرجل العربى حقا ، لا أريد عربى البادية ولا أريد الحضرى الفقير ، وانما أريد العربى الذى قضى الله له مولدا كريما وثروة ضخمة ومكانة ممتازة ، فاستمتع بهذا كله كما ينبغى أن يستمتع به ، وظفر من هذا كله بما يستتبع من الخلال الحسنة والسيئة . فأنت تجد عنـده مزايا الثروة ونقائصها ، وأنت تجده مصدرا لكل ما يصـدر عن الأورستقراطية من خير وشر . وأنت تجده مثلا صادقا لهـذه الطائفة من الشباب الحجازى الذى حدّثتك عنـه غير مرة ، وزعمت لك أنه كان حسن المولد ضخم الثروة قوى المروءة عظيم الحظ من الذكاء ، ولكنه كان مع ذلك أو قل كان لذلك نفسـه مبعدا عن الحياة السياسية العامة ، مضطرا الى أن ينفق أيامه فى اللهو واللعب و يبلى حياته فى العبث والمجون .

حدثتك عن هذا الشباب غير مرة ، وسأحدثك عنه غير مرة أيضا ؛ فإن حياة هؤلاء الشبان الذين كانوا زهرة الأورستقراطية الإسلامية سواء أكانت هذه الأورستقراطية معتمدة على الدين أم على المولد أم على الثروة أم على هذه الأشياء جميعا . أقول إن حياة هؤلاء الشبان خليقة بالدرس والعناية ؛ لأنه كان قد قُدِّر أن أبناء الذين أسسوا الدولة الإسلامية الأولى يجب أن يكون لهم أثر عظيم فى حياة المسلمين . فلو أن الخلفاء من بنى أمية أشركوهم فى حديث الأمر كما اشترك آباؤهم فى قديمه لتغيرت من غير شك وجهة الحياة السياسـية الإسلامية ، ولقامت دولة بنى أميـة على الشورى

---

(1) نشرت بجريدة « السياسة » فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤

لا على الأستبداد، ولحيل بين المسلمين وبين هذه الثورات التى مزّقت دولهم تمزيقا.
ذلك ان هذا الشباب القوى الذكى الخصب كان يستطيع أن يقيم شيئا من التوازن المتين
بين سلطة الخلفاء وسـلطة الزعماء يمنع هؤلاء الخلفاء من الظلم والإسراف فى الأنقياد
للعصبيات . ولكن الخلفاء فهموا هـذا حق الفهم وآستيقنوا أن اشـتراك الشباب
الحجازى فى أمور الدولة يقبض سلطانهم ويضطرهم الى شىء من الحكم الدسـتورى
مناف كل المنافاة لمـا كانوا يسمُون اليه من الحكم المطلق . فلم يروا بدا من إبعـاد
هـذا الشباب من أمور الدولة وآضطراره الى أرض الحجاز لا يجاوزها إلا بإذن
ولا يخرج منها الا فى حاجة ماسة .

ولقد جاهد هـذا الشباب الحجازى جهادا عنيفا فى سبيل الآحتفاظ بمنزلته التى
تركها له أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، فما كانت ثورة بن الزبير، وما كانت ثورة الحَرّة،
وما كان خروج الحسين بن على إلا مظاهر لهذا الجهاد . ولكن هذا الشباب الحجازى
لم يوفق وتمّت الكلمة للآستبداد الأموى . واضطرّ أبناء الصحابة والخلفاء الراشدين
الى هذه الحياة الفارغة يحيونها فى الحجاز . ولم يحل بينهم وبين الاشتراك فى أمور الدولة
فحسب، بل حيل بينهم وبين الحياة فى غير الحجاز من أقطار البلاد الإسلامية . وتخير
بنو أمية عمالهم أو كثرة هؤلاء العمال من غير هذه الأورستقراطية الحجازية . ورأينا أبناء
أبى بكر وعمر وعثمان وزهرة الشباب الهاشمى مضطرين الى أن يحيوا فى ضياعهم .
فأما أكثرهم فانصرف الى اللهو والمجون ، وأما أقلهم فانصرف الى الدين والتقى ،
ووقف فريق بين بين، يحتفظ بمكانته الدينية ويأخذ مع ذلك بحظه من متاع الحياة.

ولعلك تعلم أن هذا المـاجن الذى ازدان به الحجاز حينا وهو آبن أبى عتيق كان
من سلالة أبى بكر ، وأن العرجى الذى أريد أن أحدّثك عنـه اليوم كان من سلالة
عثمان . ولعلك تعلم مكانة عبد الله بن جعفر وهذا الجلال الدينى الذى كان يحيط به،
وأنه لم يكن يكره أن يسمع الغناء ولا أن يختلف الى مجالس المغنّيات . ليس لهذا كله
مصـدر فيما أعتقد إلا أن الخلفاء من بنى أمية حالوا بين هذه القوة العاملة وبين

العمل ، ففسدت لذلك أمور الدولة من جهة وأمور هذا الشباب الحجازى من جهة أخـــرى .

لم يكن بدٌّ من أن يكون لأبنـاء الذين أسسوا الدولة الإسلامية أثر فى الحيـاة الإسلامية . وقد أبى الخلفاء عليهم أن يؤثّروا فى السياسة فأثروا فى الأدب والحضارة . نعم! أثروا فيهما آثارا باقيـة ؛ فنحن مدينون لهم بالغزل ، ونحن مدينون لهم بالغناء ، ونحن مدينون لهم بكل هـذه الناحية الحلوة الظريفة من الحضارة الإسـلامية أيام بنى أمية .

وأحب أن تلاحظ معى أن هـذه الناحية الحلوة الظريفة من الأدب الأموى والحضارة الأموية ظلّت نقية طاهرة بريئة من الإثم والفحش الى حد ما ، احتفظ بها الحجاز وزهد فيها خلفاء الشام . فلما جاوزت الحجاز الى قصور دمشق ، ولما أراد الخلفاء أن يلهوا كما كان يلهو شباب الحجاز ، ولمـا انتقل الغزل والغناء والعبث من الأرض المقدسة الى قصور بنى أمية ظهر فيها هذا الفساد الذى ننكره حين نراه .

أليس مما يلفتك أنك لاتكاد تظفر بشىء من الفحش فى عبث هؤلاء الحجازيين ولهوهم ، بل أنك ترى الفقهاء والمحـدثين وأصحاب الزهد والنسك يسـتعذبون هذا الظَّرف الحجازى ويستحبونه ولا يتحرجون من الاستماع له بل من الاشتراك فيه ما ظلّ حجازيا ، حتى اذا انتقل الى الشأم ظهر النفور منه والسخط عليه .

رضى الفقهاء قليلا أو كثيرا عن ظرف ابن أبى ربيعة ، وعبث العرجى ، ومجون ابن أبى عتيق ، ولكنهم أنكروا لهو يزيد بن معاوية ، وسخطوا على عبث يزيد بن عبدالملك ، وكفّروا الوليد بن يزيد . ومصدر ذلك فيما أظن أن شباب الحجاز كان يلهو بمقدار ، وكانت مكانته الدينية والاجتماعية وخوفه من رقابة الخلفاء يعصمانه من مجاوزة الحدود . أما شباب بنى أمية فلم يكد يعرف اللهو حتى اندفع فيه الى غير حد ، لا يخشى مراقبة ولا يحفل بسلطان .

نحن مدينون لهذا الشباب الحجازى : بدوه وحضره بالغزل والغناء . وقد حدثتك عن غزل أهل البادية ، وأحدثك الآن عن غزل أهل الحاضرة ، وأبدأ بهذا العرجى الذى كان من سلالة أحد الخلفاء الراشدين .

كان عثمان جده الثانى . وكان كغيره من أبناء الخلفاء والصحابة غنيا ضخم الثروة يتردد بين مكة و إقطاع له قريب من الطائف يسمى العَرْج فنسب اليه . وقد حاول أن يكسب لنفسه منزلة تلائم مولده وثروته ، فأبلى فى الغزو بلاء حسنا مع مَسْلَمَة بن عبد الملك وأنفق فى سبيل الله أموالا ضخمة . تحدثوا أن ضائقة أصابت الجيش فوقف ثروته على إطعام المسلمين ووكل غلامين له بِقِدْره يقومان عليه طَوَالَ الليل . وتحدثوا أيضا أن ضائقة أصابت الجيش فى بعض غزواته فتقدم العرجى الى تجار أن يقضوا حاجات المسلمين وأن يرجعوا بذلك عليه ؛ فرجعوا عليه بعشرين ألف دينار ، وانتهى الأمر الى عمر بن العزيز فقال : بيت المال أحق بهذا . وأدى عن العرجى دينه من التجار . ومع ذلك لم ينفعه عند بنى أمية بلاؤه فى الحرب ولا سخاؤه بالمال ، كما لم ينفعه عندهم اتصاله بعثمان مع أن دولتهم قامت على الثأر لعثمان ؛ فلم يولوه عملا ولم يكلوا اليه أمرا . واضطر الى أن يعود الى الحجاز فيحيا فيه يائسا محزونا حياة غيره من أبناء الصحابة والخلفاء .

كان كريما اذن ، وكان شجاعا ، وكان — فيما ذكر الرواة — أرمى الناس بالسهم وأبراهم له ، كما كان فارسا شديد الحذق بالفروسية ، وكان ذكى القلب عزيز النفس قوى الفطنة ، وكان مع ذلك مبعدا عن الحياة العاملة . فلم يكن بد لهذه الملكات من أن تظهر وتؤتى ثمرها فى اللهو والعبث إذ حيل بينها وبين الجد . وقد أخذ العرجى بحظه من اللهو والعبث ، فنهج منهج ابن أبى ربيعة . ولكنه خالفه من وجهين : أحدهما أن ابن أبى ربيعة كان هادئا وادعا مطمئنا الى لين الحياة وخفض العيش وحديث النساء ، كان حمامة من حمام الحرم كل حظه من الحياة أن يحب وأن يتغنى فى الحب . ولهذا استطاع أن يهون على أخيه ؛ فقد حضرت الوفاة عمر بن أبى ربيعة

فجزع عليه أخوه الحارث إشـفاقا عليه من عذاب الله ، فاستطاع عمر أن يهوّن على أخيه وأن يقسم له ما أتى فاحشة قط .

أما العرجى فقد كان فيه فضل من قوة وعنف ، ولم يكن له بد من أن يصرف هذا الفضل . وقد حاول أن يصرفه فى سبيل الدولة ، فأبى عليه الخلفاء ذلك ، فصرفه فى سبيل نفسه . وكان أقرب الى الفاتكين منه الى أهل الدعة والهدوء . كان ينفق حياته فى الصيد والشرب . ولم يكن يكتفى من النساء بالحديث والغزل ، وانمـا كان يطالب البهن أكثر من هذا ، فكان اسمه خطرا أيضا .

وخالف عمر بن أبى ربيعة من وجه آخر ، وهو أن عمر كان قانعا فى حياته العامة كما كان قانعا فى حياته الخاصة ، فلم تكن له أطماع سياسية ولم يكن له أعداء سياسيون ، وكأنه كان يحتقر السياســة وأهلها ، فقصر شعره على النساء وصرفه عن الخلفاء ومن يتصل بهم فلم يمدح أحدا ولم يهج أحدا .

أما العرجى فقد حاول الحياة السياسية وأراد أن يكون له شأن فى أمور الدولة فلم يفلح . وأحسب أنه لم يتعزَّ عن هــذا الإخفاق ، فأضمر للخلفاء ومن اتصل بهم حقدا وبغضا . وكأن هذا الإخفاق قد أثّر فى نفسه تأثيرا قويا فأصبح سيء الخُلق فاحش اللسان قليل الرضا عن الناس ، ينصرف عنهم ماصرفه عنهم اللهو والعبث . فإذا اضطر الى مواجهتهم لم يجدوا منه خيرا ؛ ومن هنا هجا ناسا وعادى ناسا آخرين . وانتهى به عنفه فى حياته الخاصــة وسوء خلقه فى حياته العامة الى أن ضُرب وشهر وسجن حتى مات فى السجن .

ولا بد من ملاحظة هذين الأمرين لفهم شعر العرجى وما روى لنا من أخباره . فإلى عنفه وفتكه وتهالكه على اللذة يرجع قسم من شعره وأخباره ، والى سخطه السياسى وحقده على رجال الدولة يرجع القسم الآخر من هذا الشعر وهذه الأخبار .

ولعلك تريد الآن أن تعرف رأينا فى شعر العرجى . وقد قدّمنا هذا الرأى فى أول هذا الحديث حين قلنا إن العرجى كان ظريفا خفيف الروح محببا الى النفس ؛ فإنا

نجد هذه الخلال كلها فى شعر العرجى ، وستجدها أنت فيه أيضا . وقد اتفق رأينا فى هذه المرة مع رأى القدماء . فقد كان أهل الظرف والأدب منهم ، بل كان الفقهاء والنسّاك أيضا يحبون شعر العرجى و يكلفون به كلفا شديدا ، ولهم فى ذلك أحاديث لا تكاد تظفر بمثلها لشاعر آخر . ومن هـذه الأحاديث ما يضحك ومنها ما يرضى ويحمل على الإعجاب .

تحدّث مصعب بن عبد الله عن أبيه قال : أتانى أبو السائب المخزومى ليلةً بعد ما رقد السامر فأشرفت عليـه ، فقال : سهرت وذكرت أخًا لى أستمتع به فلم أجد سـواك ، فلو مضينا الى العقيق فتناشدنا وتحـدثنا ! فمضينا فأنشدته فى بعض ذلك بيتين للعرجى :

باتا بأنعـم ليـلةٍ حتى بدا * صبح تلوح كالأغرّ الأشـقرِ
فتلازَمَا عنـد الفراق صـبابةً * أَخْذَ الغريم بفضل ثوب المُعسِرِ

فقال : أعده على ، فأعدته ، فقال : أحسن والله ، امرأته طالق إن نطق بحرف غيره حتى يرجع الى بيته . قال : فلقينا عبد الله بن حسن بن حسن ، فلما صرنا اليه ، وقف بنا وهو منصرف من ماله يريد المدينة ، فسلّم ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب؟ فقال له :

فتلازما عنـد الفراق صـبابة * أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فالتفت الىّ فقال : متى أنكرت صاحبك ؟ فقلت : منذ الليلة ، فقال : إنا لله ! وأى كهل أصيبت منه قريش ! ثم مضينا فلقينا محمد بن عمران التيمى قاضى المدينة يريد مالا له على بغلة له ومعه غلام على عنقه مخلاة فيها قيد البغلة ، فسـلّم ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال :

فتلازما عنـد الفراق صـبابة * أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فالتفت الىّ فقال : متى أنكرت صاحبك ؟ قلت آنفا . فلما أراد المضىّ قلت أفتدعه هكذا ! والله ما آمن أن يتهوّر فى بعض آبار العقيق ، قال : صدقت ، ياغلام

قَيْدَ البغلة ، فأخذ القيد فوضعه فى رجله وهو ينشد البيت ويشير بيده اليه يريد أن يفهم عنه قصته . ثم نزل الشيخ فقال لغلامه ياغلام احمله على بغلتى وألحقه بأهله . فلما كان بحيث علمت أنه قد فاته أخبرته بخبره ، فقال قبحك الله ماجنا ! فضحت شيخا من قريش وغررتنى .

وتحدث داود الثقفى قال : كنا فى حلقة ٱبن جُرَيْج وهو يحدثنا وعنده جماعةفيهم عبد الله بن المبارك وعدة من العراقيين ، اذ مر به ٱبن تيزن المغنّى وقد ائتزر بمئزر على صدره ، وهى إزرة الشطّار عندنا ، فدعاه ٱبن جريج فقال له : أحب أن تسمعنى ؛ قال أنا مستعجل ؛ فألحّ عليه ، فقال : امرأته طالق إن غنّاك أكثر من ثلاثة أصوات ، فقال له ويحك ، ما أعجلك الى اليمين ! غنّنى الصوت الذى غنّاه بن سُرَيْج فى اليوم الثانى من أيام مِنًى على جَمْرة العَقَبة فقطع طريق الذاهب والجائى حتى تكسّرت المحامل ؛ فغنّاه «عوجى علىّ فسلّمى جبرُ» فقال له ٱبن جريج أحسنت والله ! ثلاث مرات ويحك أعده ! قال : من الثلاثة ، فإنى قد حلفت ، قال أعده فأعاده ، فقال أحسنت فأعده من الثلاثة فأعاده ، وقام ومضى ، وقال لولا مكان هؤلاء الثقلاء عندك لأطلت معك حتى تقضى وطرك . فالتفت ٱبن جريج الى أصحابه فقال : لعلكم أنكرتم ما فعلت ، فقالوا إنا لننكره عندنا بالعراق ونكرهه ، قال فما تقولون فى الرجز ؟ يعنى الحداء ، قالوا لا بأس به عندنا ، قال فما الفرق بينه وبين الغناء !

ولهذه الأبيات نفسها قصة أخرى مع عطاء وٱبن سريج ليست أقل من هذه القصة ظرفا . ولعلك تعلم قصة أبى حنيفة مع جاره الذى كان يسكر ويتغنّى فى كل ليلة بقول العرجى :

أضاعونى وأىَّ فتى أضاعوا * ليوم كريهةٍ وسِداد ثغرِ

ثم ٱنقطع الغناء عن أبى حنيفة ليلة فسأل عن جاره فعلم أن العسس قد أخذوه ، فجدّ أبو حنيفة حتى أطلقه من سجنه ، ثم قال له هل أضعناك يافتى ؟ قال لا والله ، قال أبو حنيفة : فعد الى ما كنت فيه من غناء فليس فيه بأس .

وأخبار أخرى تروى عن شعر العرجى ورواجه بين الظرفاء والفقهاء من أهل الحجاز، وتجدها فى كتاب الأغانى .

ولم يكن العرجى ظريفا فى شعره وحده، بل كان ظريفا فى سيرته أيضا ولا سيما مع النساء . ولست أروى لك من ظرفه هذا إلا قصة واحدة . قالوا : مر العرجى فى بعض نزهته بأم الأوقص (وهو محمد بن عبدالرحمن المخزومى القاضى)، وكان يتعرض لها فاذا رآها رمت بنفسها وتسترت منه، وهى امرأة من بنى تميم، فبصر بها فى نسوة جالسة وهن يتحدثن فعرفها وأحب أن يتأملها من قرب، فعدل عنها ولقى أعرابيا من بنى نصر على بكر له ومعه وطبا لبن، فدفع اليه دابته وثيابه، وأخذ قعوده ولبنه ولبس ثيابه، ثم أقبل على النسوة، فصحن به : يا أعرابى أمعك لبن ؟ قال نعم، ومال اليهن وجلس يتأمل أم الأوقص وتواثب من معها الى الوطبين، وجعل العرجى يلحظها وينظر أحيانا الى الأرض كأنه يطلب شيئا وهن يشربن من اللبن، فقالت له امرأة منهن : أى شىء تطلب يا أعرابى فى الأرض ؟ أضاع منك شىء ؟ قال نعم، قلبى ! فلما سمعت التميمية كلامه نظرت اليه وكان أزرق فعرفته فقالت : العرجى بن عمر ورب الكعبة ! ووثبت وسترها نساؤها وقلن انصرف عنا لا حاجة بنا الى لبنك، فمضى منصرفا وقال فى ذلك :

أقول لصاحبىّ ومثلُ ما بى * شكاه المرء ذو الوجد الأليمِ
إلى الأخوين مثلهما اذا ما * تَؤَوَّبه مؤرّقة الهموم
لِحَيْنِي والبلاءِ لقيتُ ظهرًا * بأعلى النقع أختَ بنى تميمِ
فلما أن رأت عيناى منها * أسيلَ الخدِّ فى خَلْقٍ عميم
وعينَىْ جؤذر خَرِقٍ وثغرًا * كلون الأقحوان وجيدَ ريم
حنا أترابُها دونى عليها * حُنُوَّ العائدات على السقيمِ

ولقد كنت أريد أن أروى لك قصة أخرى ظريفة قاسية للعرجى مع أمة يقال لها كلابة . ولكنى قد أطلت، ولست أريد أن أسرف فى الإطالة، ولست أكتب

هذه الأحاديث لأقول كل ما أريد، وانمـا قصاراىَ أن أحبب اليك قراءة الأدب العربى وارسم لك نهج هذه القراءة .

كان العرجى كما قلنا عفيفا شديد البغض لرجال الحكم . وقد قتله عنفه و بغضه هذان . زعموا أن هشام بن عبد الملك لما آستخلف ولّى على مكة خاله محمد بن هشام المخزومى . فاخذ العرجى يسرف فى هجاء محمـد بن هشام . ثم لم يكتف بالإسراف فى الهجاء فأخذ يتغزل بأم الوالى وزوجه ، ويدفع غزله الى المغنين . فما أسرع ما تنطلق به الألسنة ! قال فى أم الوالى هذه الأبيات المشهورة :

عُوجِى علينا ربّةَ الهـودجِ * إنك إلّا تفعـلى تحـرَجِى

إنى أُتيحتْ لى يمـانيـة * إحدى بنى الحارث من مَذْحِجِ

نلبث حـولّا كاملا كلَّه * لا نلتـقِ إلّا عـلى منهـج

فى الحج إن حَجّت،وما ذا مِنًى * وأهــلُه إنْ هى لم تَحجُجِ!

وقال فى زوجه جَبْرة :

عُـوجِى علىّ فسلِّمى جـبرُ * فِيمَ الصـدودُ وأنتم سَـفْرُ

ما نلتـقى إلّا ثلاثَ مِـنًى * حـتى يفـرِّق بيننا النَّفْـرُ

الحول بعـد الحول يتبعـه * ما الدهر إلا الحـول والشهر

فوجد عليه محمد بن هشام وجدا شديدا وأخذ يلتمس العلل للإيقاع به . فما أسرع ما وجد عليه سبيلا .

كان العرجى عنيفا فزعموا أنه خاصمه أحد الموالى فسبّه و بالغ فى سبه ، فرد المولى عليه ، فأمهله العرجى حتى اذا كان الليل هجم فى نفر من رجاله على دار المولى فأمر أصحابه فأوثقوه وفضحوا آمرأته أمامه ثم قتلوه وحرقوه ؛ فاستعدت المرأة عليه محمد آبن هشام ؛ فقبض عليه وضربه وحلق رأسه وصبّ عليه الزيت وعرضه للناس ثم سجنه . فظل فى السجن تسع سنين ولم يخرج منه إلا ميتا . ثم جاء الوليـد بن يزيد

فاتخـذ قصة العرجى علة للانتقام من خالى هشام فضربهما ثم أرسلهما الى يوسف ابن عمر فعذبهما واستصفى أموالها وأتلفهما ضربا .

ونختم هذا الحديث بهذه الأبيات التى قالها العرجى فى سجنه، والتى تمثل نفسيته السياسية قبل السجن وبعده :

أضاعونى وأىَّ فتًى أضاعوا * ليوم كريهةٍ وسِـــداد ثغرِ
وصـبرٍ عند معترك المنـايا * وقد شُرِعتْ أسِنَّتها بنحرى
أُجَرَّرُ فى الجـوامع كلَّ يومٍ * فيا للهِ مظلمتى وصـبرى
كأنى لم أكن فيهم وسيطًا * ولم تك نسبتى فى آل عمرو

*

*

الغزلون[1]

عبيد الله بن قيس الرُّقَيَّات

صاحبنا اليوم شاعر معروف بالغزل، يذكر مع أصحاب النسيب من قريش وأهل الحجاز عامة . ولكنه ليس كهؤلاء الغزلين الذين اتخذناهم موضعا لبحثنا الى اليوم، فهو لم يقصر جهوده الفنية على الغزل، وهو لم يقصر حياته على اللهو والعبث، وإنما تنوعت حياته وتنوع حظه من الفن الشعرى . فكان فى حياته العاملة صاحب لهو وجدّ ، وكان فى حياته الشاعرة صاحب غزل ومدح ووصف وفخر ونضال سياسى . ويظهر أن النضال السياسى وحده هو الذى ينبغى أن نتخذه وسيلة الى فهم هذا الشاعر فى حياته العملية والشعرية . فنحن اذن بعيدون كل البعد عن هؤلاء الشعراء الذين لم تخطر لهم السياسة على بال، أو الذين لم يحاولوا أن يأخذوا منها بحظ؛ لأنهم علموا مقدّما أن ليس لهم فيها نصيب، فوقفوا حياتهم على اللهو واللعب وذكر النساء .

نحن بعيدون عن عمر بن أبى ربيعة وعن جميل وأصحابه . بل نحن بعيدون عن هؤلاء الشعراء الذين حاولوا أن تكون لهم منزلة سياسية ، فلما أخفقوا فى ذلك اضطرهم اليأس من الحياة العاملة الى نوع من الحياة ملؤها اللهو والدعابة والمجون، كالعرجى الذى حدّثتك عنه فى الأسبوع الماضى . وانما نحن بإزاء شاعر آخر يخالف أولئك مخالفة شديدة . خطرت له السياسة وخلبت عقله فغرق فيها الى رأسه، واحتمل من آلامها وأثقالها شيئا كثيرا جدا . وأثّر ذلك فى شعره وفى حياته تأثيرا ظاهرا غلب على كل شىء من الأشياء التى يمكن أن تعمل فى حياة الشعراء .

---

(١) نشرت بجريدة «السياسة» فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٤

فهو الى الشعراء السياسيين أقرب منــه الى الشعراء الغزلين . ولكنه مع ذلك كان غزلا، ماهرا فى الغزل، أو قل متفوقا فيــه . ور بما صح أن يقدّم على العرجى والأحوص . بل قد استباح بعض المتقدّمين لنفسه أن يقرنه الى ابن أبى ر بيعة، بل قد استباح بعض المتقدّمين لنفسه أن يقدّمه على ابن أبى ر بيعة . وليس يعنينا الآن أن نثبت أنه أشعر مع ابن أبى ر بيعة أو دون ابن أبى ر بيعة فى الشعر، وانما الذى يعنينا قبل كل شىء هو أن نتبين شخصيته وما بينها و بين شعره من صلة : أى أن نتبين الخصائص التى يمتاز بها شعره . حتى اذا فرغنا من ذلك كان من اليسـير علينا أن نقدر هذا الشعر ونتزله متزلته من أدب الأمو يين .

وقد أراد الله أن يجعل هذا يسيرا ، فحفظ لنا مقدارا صالحا من شعر عبيد الله ابن قيس الرقيات يجمعه ديوان مخطوط فى دار الكتب المصرية طبعت منه نسخة فى «فيينا» . ونستطيع اذن أن نقرأ هذا الديوان ونحكم عليه .

وأنا أحب أن تقرأ أخبار هــذا الشاعر فى كتاب أبى الفرج ، فتشعر بشىء شعرت به، وهو أنه حلو النفس، خفيف الروح، عذب الشـعر، خصب الخيال قو يه . وستشعر بأن أبا الفرج قد قصّر فى ذات هذا الشاعر، فلم يرو من شـعره إلا أطرافا موجزة مقتضبة كل أثرها فى نفسك هو أن تستثير الإعجاب والأســف على أن ما حفظ من شعره قليل . ولكن هذا الأسف يزول حين تعلم أن له ديوانا محفوظا، وأنك تستطيع أن ترجع الى هذا الديوان . فاذا رجعت الى هذا الديوان فستشعر بشىء آخر شعرت به أيضا،وهو أن الجيد من شعر هذا الشاعر كثير أكثر مما ينبغى، إن جاز مثل هذا القول،وأن الردئ من شعره قليل أقل مما ينبغى، إن أبيح مثل هذا التعبير .

وأنا أستبيح لنفسى مثل هذا التعبير؛ لأنى أريد فى هذه الأحاديث أن أقدّم اليك صورة صادقة ولكنها موجزة من الشـعراء الذين أدرسهم . وقد أستطيع أن أقدم اليك صورة صادقة من صاحبنا هذا، ولكنى أجد مشقة شديدة فى الإيجاز . فليس

من اليسير أن تختار من شعره ، فكل شعره أو أكثره حرى أن يختـار . ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل أنت مضطر الى أن تروى له شعرا كثيرا أكثر مما يحتمل هذا الحديث .

وهنا ألاحظ شيئا يكاد يختص به عبيـد الله بن قيس الرقيات : وهو أنه كان صاحب لهو وسياسـة ، وأنه اتخذ الغزل وسيلة الى اللهو والسياسة . فكان يتغزل حينا ليلهو أو ليصف عواطف نفسه حقا ، وكان يتغزل حينا آخر لا للهو ولا لوصف حب صادق ، بل ليعبث بخصومه السياسيين ، إذ يذكر نساءهم بما يحسن وبما لا يحسن . وقد رأينا العرجى يتغزل بجيـداء أم محمد بن هشام وبجبرة زوج محمـد بن هشام ليغيظ محمد بن هشام هذا . وكذلك فعل عبيد الله بن قيس الرقيات قبل العرجى ، فسنّ له ولغيره هذه السنة . وبلغ من هذا الغزل الهجائى ما لم يبلغه أحد من شعراء العصر الأموى . فلم يكن يكتفى بالنسيب المألوف يذكر فيه المرأة التى يريد أن يهجو أهلها كما كان يفعل العرجى ، وإنمـا كان يتخيل القصص والأخبار فيقصها فى شعره مسرفا فى تفصيلها إسرافا شديدا .

لم يكن عبيد الله بن قيس الرقيات شرّيرا ولا سيئ الدخيلة ، وإنما كان — على رغم الخصومات السياسية التى اندفع فيها اندفاعا شديدا — محبا لقومه ، يؤثرهم على الناس جميعا ويحرص على كرامتهم أشدّ الحرص . ومن هنا تظهر فى غزله الهجائى خصلة جميـلة ، رقيقة مؤثرة ، لا نجدها عند غيره من الهجّائين السياسيين : وهى أنه كان يخاصم الرجال دون النساء ، وكان يتخذ النساء وسيلة الى حرب الرجال ، فكان يحرص الحرص كله على ألا يؤذيهن أو يذيع بينهن الفاحشة كذبا وزورا . بل كان يمضى الى أبعد من هذا ، كان يريد أن يتملّق هؤلاء النساء ، وأن يرضيهن عن نفسه ، وأن يحبب اليهن هذا الغزل الهجائى الذى كان يسوء أزواجهن وأبناءهن وعصبيتهن بوجه عام .

كان يخاصم بنى أمية فتغزل بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك وبنت عبد العزيز بن مروان ، يريد من غير شك أن يغيظ عبد الملك وابنـه الوليد وأخاه

عبد العزيز وغيرهم من رجالات بنى أميـة ، ولكنه لم يكن يريد أن يسوء أم البنين ولا أن يؤذيها ولا أن يعرّضها لمكروه تسمعه أو تلقاه ، بل كان يريد أن يتلطف لها ويتحبب اليها وأن ينزل شعره من نفسها منزلة الرضا والإعجاب . وأنت تعلم أن النساء فى ذلك العصر — ولا سيما نساء الأشراف والأسرة المالكة — كن يحببن الغزل ويكلفن به ويطلبنه الى الشعراء . فليس غريبا أن يطمع ابن قيس الرقيات فى إرضاء أم البنين وهو يخاصم أباها وعمها وزوجها . وسأروى لك بعد حين قصيدة ذكر فيها أم البنين ذكرا مفصلا تفصيلا من شأنه أن يؤذى ويسىء . ولكنه احتاط لنفسه ولأم البنين ، فزعم أن هذه القصة الطويلة المفصلة إنما وقعت له فى المنام ؛ فكرامة أم البنين موفورة . وهى خليقة أن تتيه بهذا الجمال الذى أحدث فى نفس الشاعر ما أحدث حتى ملك عليه يومه ونومه . واذن فليس على الشاعر نفسه لوم اذا أغرق فى الرقاد .

وقد وصل ابن قيس الرقيات من هـذا الغزل الهجائى الى كل ما كان يريد . فأحفظ بنى أمية عليه أشد إحفاظ حتى هدروا دمه وأبرءوا ذمتهم ممن آواه كما سترى . ولكنه أرضى أم البنين عن نفسه وبلغ منها مبلغا حسنا حتى شفعت له وكسبت له أمان عبد الملك .

هذا الغزل الهجائى الذى يكاد ابن قيس الرقيات يكون مبتدعه خليق بالعناية . فهو لون من الألوان الفنية الجديدة التى استحدثها الشعراء المسلمون . ولكنه شديد الخطر من جهة أخرى ؛ لأنه يلبس عليك أمر الشاعر ويجعل حكمك على عاطفته عسيرا جدا . فأنت لا تكاد تتبين أجادٌّ هو فى غزله أم لاعب؟ أمادحٌ هو صاحبته لأنه يحبها أم لأنه يكره أهلها ؟ وأنت مضطر الى أن تنظر الى هـذا الغزل من حيث هو فن مجرد من النفسية الصادقة للشاعر ومن عواطفه الحقيقية . وفى الحق أنك لا تكاد تجد له فرقا ما ، بل أنت لا تجد فرقا بين غزل ابن قيس الرقيات ؛ فهما تختلف موصوفاته فهو قوى ، رقيق ، خلاب ، شديد الحرارة ، سهل التناول ، سواء

أكان الشاعر يتغزل بأم البنين يهجو قومها، أم بإحدى هؤلاء الرقيّات اللائى كان يذكرهن حتى غلب عليه اسمهن، أم بأى آمرأة أخرى كان يحبها أو يرى فيها جمالا وروعة .

ولقد يكون من الحق أن نقول إن عبيـد الله بن قيس الرقيات لم يعرف هذا الحب العـذرى . بل لم يعرف الحب العادى الذى يقصر حياة الرجل أو شطرا من حياته على آمرأة واحدة تلائم هواه، وإنما كان يحب النساء جميعا، يحبهن حبا قويا راقيا يوشـك أن يكون طاهرا ؛ يحبهن لا ليلهو بهن بل ليتخذ منهن مثـله الأعلى فى الجمـال . ومن هنا نستطيع أن نقول إنه كان صادق اللهجة فى كل ما كان يقول من غزل ؛ لأنه كان يحمل فى نفسه صورة من جمال النساء يخلعها على من أراد أن يذكرها فى شعره لأى سبب . وكانت هـذه الصورة تسمى أم البنين حينا، ورُقَيّة بنت عبد الواحد حينا آخر، وكثيرة مرة ثالثة، وثُرَيّا مرة رابعة، وسعدة وسلامة، إلى غير ذلك من أسماء النساء اللاتى لم يكنّ خيالا متكلفا وإنما كنّ أشخاصا يستمتعن بالحياة حقا .

وقد أراد حظ آبن قيس الرقيات أن يحبه النساء كما أنه يحب النساء، وأن يحببنه لا للهو واللذة بل لميل بعيد من اللهو واللذة . وأراد حظه أن يكون مدينا بحياته لآمرأتين، آوته إحداهما بالكوفة حين أهدر الأمويون دمه فلبث عندها سنة كاملة وتركها وهو لا يعرف إلا اسمها ؛ وشفعت له الأخرى عند عبد الملك فظفرت له بالأمان . وكذلك أراد حظ قيس ألا يستطيع لهاتين المرأتين مكافأة إلا بالغزل والنسيب، فقـد تغزل بهما جميعا . ولسنا نشـك فى أنه تغزل بكثيرة ليشكرها على ما قدمت اليه من معروف .

وأكاد لا أعرف شاعرا أرق لهجة وأعذب لفظا وأحسن أدبا فى مخاطبة النساء وذكرهن من آبن قيس الرقيات حين يذكر كثيرة هذه . وانظر الى قوله فيها :

عَادَ له من كَثِيرَةَ الطربُ * فعينه بالدموع تنسكبُ
كوفيةٌ نازحٌ مَحَلّتها * لا أَمَمٌ دارُها ولا صَقَبُ

والله ما إن صبتْ إليّ ولا * إنْ كان بيني و بينها سببُ
إلا الذى أورثتْ كثيرةُ فى القلـ * ـب وللحب سَـورةٌ عجب
لا بارك الله فى الغوانى فما * يُصبحن إلا لهن مُطَّلَب
أبصرن شيبا علا الذؤابةَ فى الرأ * س حديثا كأنه العطب
فهنّ ينكرن ما رأين ولا * يُعْـرَفُ لى فى لِداتى اللعب

على أنى أريد أن أتم آبن قيس الرقيات قبل أن ألم بشعره. فلأوجز لك مذهبه السياسى أو قل حياته السياسية .

كان صاحبنا من أنصار عبد الله بن الزبير، وكان مغاليا فى نصر الزبيريين، يحبهم أشدّ الحب ويبغض خصومهم من بنى أمية بغضا شديدا، جاهد معهم بسيفه ولسانه أشد جهاد، ومدحهم أحسن مدح، حتى إن عبد الملك بعد أن عفا عنه لم يستطع أن يغفر له حسن قوله فى مُصْعَب آبن الزبير، وقد خرج مع مصعب هذا فى العراق على عبد الملك ولزمه حتى أحس مصعب أنه مقتول، فأذن له فى أن ينصرف وحباه مالا كثيرا . ولكن الشاعر أقسم لا يَرِيم حتى يعرف سبيل مصعب فما زال معه حتى قتل . ثم فرّ فبلغ الكوفة فلجأ الى أوّل دار لقيته، وفى هذه الدار صادف امرأة أنصارية آوته سنة كاملة، وكانت تغدو عليه كل يوم فتحييه وتسأله حاجته ولا تسأله عن آسمه وهو لا يسألها عن آسمها؛ حتى سمع ذات يوم الصائح العام ينادى ببراءة الذمة ممن يؤوى آبن قيس الرقيات، فنزل الى صاحبته فأنبأها باعتزام الرحلة؛ قالت لا يرعك هذا الصياح فنحن نسمعه منذ سنة، ولكنه أصرّ على الرحلة . فلما كان المساء قدّمت إليه راحلتين وزادا ووهبته عبدا، وآنصرف عنها وقد أبت أن تنبئه من هى ، وانما علم أن اسمها كثيرة وأنها خزرجية . فمضى حتى بلغ المدينة فاستجار بعبد الله بن جعفر، فأجاره وأحسن مثواه وكتب فيه الى أم البنين والى عبد العزيز آبن مروان أبيها ، فشفعت فيه عند عبد الملك وضمنت له الأمان . ثم دخل هو على عبد الملك فمدحه بهذه القصيدة التى قدّمت لك شيئا من غزلها وفيها يقول مادحا :

ما نَقَموا من بنى أميّـة إ * لا أنهم يحلُمـــون إن غَضبوا
وأنّهـم معدِنُ المـــلوك فلا * تصلُح إلا عليهمُ العـــرب
إن الفنيق الذى أبوه أبو العا * صى عليـه الوقارُ والحُجُب
خليفــة الله فوق منـــبره * جفّت بذلك الأقلام والكُتُب
يعتـــدل التاج فوق مَفْرِقه * على جبينٍ كأنه الذهب

ولكن عبد الملك أبى عليـه أن يأخذ عطاءه من بيت المـال . فشكا ذلك الى عبد الله بن جعفر فعوّضه أضعاف ما حرمه عبد الملك . ثم آتصل بعبد العزيز بن مروان وهو حينئذ أمير مصر من قبل أخيه ، فمدحه مدحا كثيرا جيدا ، فيه ذكر لبابليون وحُلْوان وللنيل وسـقائه . وكنت أريد أن أروى لك منه شيئا ولكنى أريد أن أجتنب الإطالة وأنصح لك بقراءته فى الديوان . ومدح عبيد الله بن قيس الرقيات عبد الله آبن جعفر مدحا جيدا آية فى الإتقان .

فأنت ترى أنه آتصل بأحزاب ثلاثة مختلفة ، اتصل بحزب الزبيريين وفيهم قال أجود مدحه ، وآتصل بالأمويين وفيهم قال الكثير الجيد ، وآتصل بالهاشميين وفيهم أحسن المدح وأجاده ؛ ولم يكن مع ذلك متلونا ولا فاسد الضمير .

وأحسب أنى أصيب الحق إن قلت إنه كان قرشيا قبل كل شىء ، وإن له مذهبا سياسيا لم يتغـير قط ، وهو أن السلطان الأعلى يجب أن يكون لقريش قولا وفعلا . فإذا كان قد كره بنى أمية فهو لم يكرههم لأنهم بنو أمية وإنما كرههم لأنهم آعتزوا على القرشية خاصة والمضرية عامة بالقبائل اليمانية .

شيئان آثنان يختصران الرأى السياسى لآبن قيس الرقيات : (الأول) أن السلطان يجب أن يكون لقريش وأن تعتز قريش فيه بمضر . (الثانى) أن من الإثم والخيانة أن تنقسم قريش على نفسها وأن تتفرق كلمتها هذا التفرق المنكر الذى كان بعد موت معاوية . وسأروى لك فى آخر هــذا الفصل قصيدة طويلة تختصر رأيه السياسى

هذا وتمثل عواطفه الوطنية القرشية تمثيلا قويا صادقا . ولكني شديد الحيرة فبين يدىّ ست عشرة قصيدة مختارة من شعر ابن قيس الرقيات، وأنا أرى أن ليس بد من إظهارها و إذاعتها لتظهر شخصية هذا الشاعر واضحة، ولتظهر الحياة السياسية فى قريش واضحة أيضا . ولكن من لى بالصحف التى أنشر فيها هذا الشعر الكثير، ومن لى بألا تغضب «السياسة» ولا يحتج أصحابها وكتابها على هذا الإحتلال الأدبى الذى يسرف فى العدوان . أنا إذن مضطر الى أن أشير إشارة الى هذه القصائد وألا أروى لك منها إلا أربعا .

أما إحداها ففى اللهو، وهى تمثل لك نفسية الشاعر وفهمه للحياة، كما أنها تمثل لك خفته الشعرية وميله الى العبث اللفظى . ولم أروها كلها ؛ يحسن أن أكتفى منها بهذه الأبيات :

بكرتْ علىّ عواذلى * يلحيْنَنِى وألومُهُنّهْ
ويقلن شيبٌ قد علَا * كَ وقد كبِرتَ فقلت إنّهْ
إنّ العواذل لُمْنَنِى * ولن أطيع أمورهنّه
فيما أفيد من الغنى * والله سوف يُبِينُهنّه
ولقد عصَيت الناهيا * ت الناشرات جيوبهنه
حتى ارعويت الى الرشا * د وما ارعويت لنهيهنه

والأخرى قصيدة يتوجّع فيها وقد جاءته أنباء الحرّة ومقتل نفر من إخوانه، وفيها هذا العبث اللفظى، وفيها سهولة تفطر القلب، وما أظن إلا أنها صنعت للنائحات :

ذهب الصبا وتركت غيّتيَهْ * ورأى الغوانى شيب لِمّتيَهْ
وهجرنَنى وهجرتهن وقد * عنّت كرائمها يطفن بيه
إذ لمتى سوداء ليس بها * وضح ولم أُفجع بإخوتيه
الحاملين لواء قومهمُ * والذائدين وراء عورتيه
إنّ الحوادث بالمدينة قد * أوجعننى وقرعن مروتيه

وجَبّبتنى جَبّ السَّنام فلم * يتركن ريشا فى مناكبيــه
وأتى كتاب من يزيد وقد * شُدّ الحــزامُ بسرج بغلتيه
ينعى بنى عبــد وإخوتَهم * حَلّ الهلاك على أقاربيه
ونعى أسامةَ لى وإخوتَه * فظَلِلْتُ مستَكًّا مسامعيــه
كالشارب النَّشْوان قَطّره * سَمَلُ الزِّقاق تفيض عبرتيه
سَدِمًا يعزِّينى الصحيح وقد * مرّ المنـــون على كريمتيه
كيف الرقادُ وكلما هجعتْ * عينى ألمّ خيالُ إخوتيــه
تبكى لهم أسمــاءُ معــولةً * وتقول ليلى وا رزيتيـــه
والله أبرح فى مقـــدّمة * أهدى الجيوش على شِكّتيه
حتى أفجِّعهم بإخوتهـــم * وأسوق نسوتهم بنسوتيه

ولندع الآن رثاءه وإن كان فيه أجود مما رويت لك، لننتقل الى هذه القصيدة التى ذكر فيها أم البنين والتى أشرت اليها آنفا . وأنا أترك للقصـــيدة وصف نفسها وهى مدح مصعب بن الزبير :

أَلَا هزأتْ بنــا قرشـــــية يهــــتزّ موكبها
رأت بى شيبةً فى الرأ * س منّى ما أُغيِّـــبها
فقالت أبن قيس ذا ؟ * وغير الشيب يعجبهـــا
رأتنى قد مضى منِّى * وغَضّاتٌ صـــواحبها
ومثلك قد لهوتُ بها * تمــامُ الحسن أعيبها
لها بعـــــل غيور قا * عد بالبــاب يحجبها
يرانى هكذا أمشى * فيوعـــدها ويضربها
ظللتُ على نمــارقها * أفدّيهــا وأخلبهــا
أحدّثهــا فتؤمن لى * فأصـــدُقها وأكذبها
فدع هــذا ولكن حا * جة قد كنت أطلبها

الى أم البنين متى * يقربها مقربها
أتتني في المنام فقلـ * ـت هذا حين أعقبها
فلما أن فرحت بها * ومال على أعذبها
شربت بريقها حتى * نهلت وبت أشربها
وبت ضجيعها جذلا * ن تعجبني وأعجبها
وأضحكها وأبكيها * وألبسها وأسلبها
أعالجها فتصرعني * فأرضيها وأغضبها
فكانت ليلة فى النو * م نسمرها ونلعبها
فأيقظنا مناد فى * صلاة الصبح يرقبها
فكان الطيف من جنـ * ـية لم يدر مذهبها
يؤرقنا اذا نمنا * ويبعد عنك مسربها

ثم يمضى بعد ذلك فى مدح مصعب. وما ذا تريد أن أقول لك فى هذا الشعر؟ وهل تعرف أعذب منه لفظا وأجود منه معنى وأخف منه روحا!

وبين يدى قصيدة كافية يتغزل فيها شاعرنا بإحدى زوجات عبدالملك. ولكنى أعدل عنها الى هذه القصيدة التى وعدتك بروايتها والتى قلت إنها تختصر مذهب ابن قيس فى السياسة، وهى فى مدح مصعب، وهى التى أحنقت عبد الملك على الشاعر. ولكنها أطول من أن تروى كلها فلأجتزئ منها بأبيات أختارها وإن كانت كلها مختارة:

حبذا العيش حين قومى جميع * لم تفرق أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل فى ملـ * ـك قريش وتشمت الأعداء
أيها المشتهى فناء قريش * بيد الله عمرها والفناء
إن تودع من البلاد قريش * لا يكن بعدهم لحى بقاء

ثم يمضى فى الفخر البديع بقريش لا يفرق بين أحزابها السياسية حتى يصل الى مصعب فيقول فيه هذه الأبيات التى غاظت عبد الملك :

إنما مُصْعَبٌ شهابٌ من اللـ ـه تجلّت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه * جَبَرُوتٌ ولا به كبرياء
يتقى الله فى الأمور وقد أفـ ـلح من كان همه الاتقاء

ولأدع هذه الآية الشعرية كارها فقد أسرفنا فى الإطالة. ولأختم هذا الحديث بهذه الأبيات الحلوة :

حبذا الإدلالُ والغنج * والتى فى طرفها دَعَجُ
التى إن حدّثت كذبت * والتى فى وصلها خلج
تلك إن جادت بنائلها * فابن قيس قلبه ثَلِج
وترى فى البيت صورتها * مثل ما فى البِيْعة السُّرُج
حدِّثونى هل على رجل * عاشق فى قُبْلة حَرَج

أعيد ما قلته غير مرة من أن فى الشعر العربى لهذا العصر كنوزا خليقة أن تستكشف وأن تدرس على وجهها، ولكن كثيرا من الناس لا يعلمون .

---

*

*

الغزلون[1]

الأحوص بن محمد الأنصارى

حدثتك فى بعض الفصول الماضية عن أصحاب الغزل من أهل الحاضرة الحجازية بعد أن حدثتك عن أصحاب الغزل من أهل البادية . ولكننى لم أتجاوز فيما كتبت الى الآن الغزلين من قريش وأهل مكة ، وسأعود اليهم حين أختم هذه الفصول بزعيم الغزل الحضرى فى عصر بنى أمية ، وهو عمر بن أبى ربيعة .

أما اليوم فأريد أن أحدثك عن رجل ليس قرشيا ولا مكيا، وانما هو أنصارى مدنى . وسترى من هذا الحديث أن هذا الرجل ليس أقل خطرا من شعراء قريش ، وأن جنسيته اليمنية لم تؤثر فى شعره قليلا ولا كثيرا ، كما أن الجنسية القرشية المضرية لم تؤثر فى شعر القرشيين قليلا ولا كثيرا ؛ لأن هذا الشعر تأثر فى حقيقة الأمر بأسباب ومؤثرات أخرى مخالفة كل المخالفة للجنسية وما اليها ؛ تأثر بتلك المؤثرات السياسية التى أكثرت ذكرها والإشارة اليها والتى سأكثر من ذكرها والإشارة اليها ؛ لأن الذين يدرسون الأدب العربى لم يقدروها قدرها بعد ، وهى خليقة أن تقدر ؛ إذ عليها وحدها تستطيع أن تعتمد فى فهم الشعر الاسلامى عامة ، وشعر هؤلاء الغزلين من أهل مكة والمدينة خاصة .

لعلك تذكر العرجى وما ذكرت من يأسه السياسى وما آضطره اليه هذا اليأس من حياة اللهو والعنف والسخط . ولعلك اذا درست الأحوص تشعر بشىء من الميل الى المقارنة بينه وبين العرجى . وقد كانا فى الحق صديقين وكان بينهما تشابه قوى من بعض الوجوه ، وكان بينهما آختلاف أيضا ؛ أصابتهما محن سياسية متشابهة ، فكلاهما ضُرب ، وكلاهما شهِّر ، وكلاهما أهين علنا ، وكلاهما حبس .

---

(١) نشرت بجريدة «السياسة» فى يوم ٥ نوفبر سنة ١٩٢٤

أما العرجى فقد حبس فى مكة. وأما الأحوص فقد نفى الى دهلك. وكلاهما كان صاحب لهو وعبث، وكلاهما كان صاحب غزل وذكر للنساء. ولكن لهو الأحوص كان أفحش من لهو العرجى، ولهو العرجى كان أعنف من لهو الأحوص. وكما أن التشابه بين هذين الرجلين يرجع الى مصادر واحدة هى السياسة، فكذلك الاختلاف بينهما يرجع الى مصدر واحد هو السياسة أيضا.

كان الشباب من أشراف مكة والمدينة مضطرا الى هذا اليأس السياسى الذى ذكرته. ولكن هذا اليأس قد كان متفاوتا أشدّ التفاوت، بالقياس الى شباب قريش والى شباب الأنصار. كان الملك فى قريش وكان الشباب القرشى يستطيع أن يعتز بهذا الملك وإن أُقصى عن مناصبه وحيل بينه وبين تصريف أموره. وكانت لهذا الشباب دالّة على الخلفاء من أبناء أعمامهم، وكان الخلفاء مضطرين الى أن يصانعوهم ويرفقوا بهم تكريما لصلة القرابة وللعصبية القرشية، ومداراة لهـذه الأطماع الخفية الظاهرة التى كانت توشك فى كل وقت أن تنفجر فتديل من دولة لأخرى.

أما شباب الأنصار فقد كان مضطرا الى يأس مظلم شديد الإظلام ليس له الى الأمل من سبيل قريبة أو بعيدة. لم يكن قرشيا ولم يكن الخلفاء فى حاجة الى إكرامه والرفق به ولا الى مداراته ومصانعتـه، وانمـا كانوا يخشونه ويكرهونه ويفتنّون فى ظلمه والقسوة عليه، لا يخشون فى ذلك حسيبا ولا رقيبا.

« منا أمير ومنكم أمير » كذلك قال الأنصار حين احتاج المسلمون الى خليفة، وكانوا مقتنعين بحقهم فى الخلافة، وكان كل شىء يبيح لهم هذا الاقتناع؛ فلم يكونوا أقل بلاء فى تأييد الإسلام من المهاجرين، وربما كانوا أحسن بلاء من المهاجرين؛ فهم آووا الإسلام ونزلوا للنبىّ وأصحابه من قريش عن ديارهم وأموالهم، وبذلوا فى نصر النبىّ وأصحابه من قريش نفوسهم ودماءهم. وعرف لهم النبىّ هذا كله فآخى بينهم وبين المهاجرين وآخى بين رجالهم، حتى وجد بين الفريقين حِلْف أو شىء يشبه الحلف كان من الحق أن يكون أساسا للحياة السياسية الإسلامية المقبلة. ومن يدرى

لعل المسلمين لو قبلوا رأى الأنصار فأقاموا أميرا قرشيا وآخر أنصاريا لعصموا الإسلام من الفتن ولأقاموا خلافة دينية حقا معتمدة على أساس من العدل معترة بشيء من التوازن يحول دون ظهور العصبيات التى أحدثت ما أحدثت من الشرّ فى تاريخ المسلمين .

الأنصار يمانية ، وقريش مضرية . فلو آستقام الأمر للأنصار والمهاجرين على أن يكون لكل من الفريقين أمير لأمكن إيجاد التوازن بين المضرية واليمانية من جهة ، ولقامت الخلافة المزدوجة على أساس صحيح من الدين يصرف عنها أطماع الطامعين ويؤخر آستحالتها الى ملك قيصرىّ أو كسروىّ .

أكان المسلمون بعد موت النبي يجهلون النظام الرومانى حقا أم كانوا يعلمونه بعض العلم ؟ أما أنا فأرجح أنهم كانوا يلمون به إلماما ما . ولا أستطيع أن أفهم هذين المذهبين اللذين ظهرا فى أول عهد المسلمين بالحياة السياسية إلا على أنهما محاولة لتقليد الرومان فى حياتهم السياسية . فقد كان مذهب الأنصار ميلا الى النظام الجمهورى القنصلى الذى كان فى عصر رقىّ الجمهورية الرومانية يقوم على آنتخاب قنصلين أحدهما يمثل الأرستوقراطية القديمة : أرستوقراطية المولد ، والآخر يمثل الأرستقراطية الجديدة : أرستوقراطية الثروة والجد والعمل . وقد كان مذهب المهاجرين ميلا للنظام الأمبراطورى ولا سيما فى العصر الأخير الذى كان يجمع السلطة كلها الى الامبراطور دون أن يجعله ملكا يورث الملك أبناءه من بعده .

كان مذهب الانصار أقرب الى الديموقراطية من جهة ؛ لأنه كان يقوم على المساواة والعدل ، وكان أقرب الى الثيُوقراطية من جهة أخرى ؛ لأنه كان يكل أمور الدين الى الذين آشتركوا فى إقامة الدين وتأييده .

أما مذهب المهاجرين فقد كان أقرب الى الأرستوقرطية والى الحكومة المدنية معا .

ومهما يكن من شيء فقد فشلت دعوة الأنصار وحيل بينهم و بين الخلافة ، وانتصرت العصبية على الفكرة الديمو قراطية الدينية ، وأجمع المسلمون أو كادوا يجمعون

على هذا المذهب الغريب المتناقض الذى يجعل الخلافة وراثية وغير وراثية . وراثية لأنها فى قريش، وغير وراثية لأنهم أبعدوا عنها بنى هاشم .

فشلت دعوة الأنصار، وظهر الأنصار فى ذلك مظهرا خليقا بالعطف والإعجاب، فأذعنوا فى غير ملل ولا ضيق صدر ، وطابت نفوسهم عن هذا الأمر الذى كان لهم فيــه حق ظاهر . ولم يمض منهم فى الإباء والمشادّة إلا رجل واحد هو : سعد بن عُبَادة الذى قتلته الجن فيما تزعم الأساطير، والذى قتلته السياسة غيلة فى حقيقة الأمر؛ لأن حياته كانت خطرا على النظام السياسى الجديد . وكان هذا الفشل الذى أصاب الأنصار أول عهدهم باليأس السياسى .

ولكن الدهر كان يدخر لهم ألوانا أخرى من اليأس . فقد ظهر أنهم لم يحرموا الخلافة وحدها، بل حرموا أن يكون لهم فيها رأى . وليس أدل على ذلك من عهد عمر بن الخطاب الى أهل الشورى . فأنت ترى أن هؤلاء النفر الذين عهد اليهم عمر فى آختيار الخليفة كانوا جميعا من المهاجرين : عبــد الرحمن بن عَوْف ، ســعد بن أبى وَقّاص، طَلْحة، الزبير، عثمان، على بن أبى طالب، كلهم قرشى .

ومهما تكن الأسباب الدينية التى أذيعت يومئذ لتعليل هذا الاختيار، فإن الحقيقة الواقعة تشهد بأن الأنصار أبعدوا عن الخلافة وعن المشورة فى أمرها، وأن الخلافة أصبحت شيئا قرشيا خالصا . ومع هذا فقد طابت نفس الأنصار عن المشورة فى أمر الخلافة كما طابت أنفسهم عن الخلافة وأذعنوا لرأى الستة؛ وكانوا ناصحين للخلفاء الراشــدين جميعا . ولكنهم كانوا منطقيين مع أنفسهم ، كانوا يحسون أنهــم مبعدون عن الأمر إبعادا، فكان هواهم مع بنى هاشم . أليست قريش قد آستأثرت بالأمر لأن النبى منها؟ فلم لا يستأثر بنو هاشم بالأمر وهم أهل النبى ورهطه الأدنون! .

على أن غيظ الأنصار لم يظهر حادا إلا حين آستحالت الخلافة الإسلامية الى ملك قيصرى أو كسروى، وحين ظهر الميل من بنى أمية الى أن يستأثروا بالأمر وحدهم دون قريش، ثم [illegible] ميل معاوية الى أن ينقل الأمر من بعده الى ابنه يزيد .

فى ذلك الوقت ظهر سخط الأنصار واضحا جليا، وأحسه بنو أمية وأرادوا أن يتقوه باللين والعنف ، واستأجروا الشعراء لهجاء الأنصار . ولعلك تذكر هذه الحملة التى حملها عليهم الأخطل فى قصيدته المشهورة التى يقول فيها :

ذهبت قريش بالمكارم كلها * واللؤم تحت عمائم الأنصار

ولعلك تذكر احتجاج النعمان بن بشير على هـذا البيت عند معاوية واضطراب معاوية لهذا الاحتجاج .

ظهرت معارضة الأنصار، ولكن معاوية استطاع أن ينتصر عليها كما انتصر على غيرها من ألوان المعارضة أثناء حياته . فلما صار الامر الى ابنه يزيد ظهرت كل هذه المعارضات عنيفة قوية . فأما الأنصار فأنكروا هذه القيصرية، وأما قريش فنازعت بنى أمية الأمر .

انتقض الأنصار فى المدينة وانتقضت قريش فى مكة بزعامة عبد الله بن الزبير، وانتقض بنو هاشم فى العراق بزعامة الحسين بن على . واعتزم بنو أمية أن يقمعوا هـذه المعارضات قمعا عنيفا . ولكنهم أسرفوا فى العنف بالأنصار و إرهاقهم إسرافا اضطر كثيرا منهـم الى المهاجرة ، فتركوا بلاد العرب ومضوا الى أفريقيا ، وأخذوا يتبعون فيها الفتح حتى انتهوا الى الأندلس . واشتد الخلفاء وعمالهم على من بقى منهم بالمدينة ؛ فقد كان العمال يأبون أن يتخذوا حرس المدينـة وشرطتها من أهل المدينة أنفسهم ، وكانوا يتخذون الشرطة من الأعراب الذين لا تصلهم بالمدينة صلة ما . و يكفى أن تقرأ أخبار الشعراء والظرفاء من أهل المدينة وأخبار الولاة والعمال الذين كانوا يرسلون الى المدينة لتستيقن أن الخلفاء من بنى أمية كانوا يكرهون الأنصار كرها شديدا، و يسرفون فى إساءة الظن بهم، و يأخذونهم من ضروب العنف والإذلال بما لم يكن يلائم قديمهم فى تأييد الإسلام، بل بما لم يكن يلائم مكانتهم من حيث هم مسلمون .

كانوا يحرمون شباب قريش مناصب الدولة و يمسكونهم فى الحجاز كما كان قياصرة الرومان فى أول الأمر يضيّقون على شباب الأرسطقراطية الرومانية و يمسكونهم فى ايطاليا . ولكنهم كانوا يذلّون شباب الأنصار إذلالا ، فانصرف هذا الشباب عن السياسة وعن المجد المألوف الى اللهو أو الى الفقه . وكان أهل المدينة ظرفاء وفقهاء ، فنفعوا الأدب العربىّ ونفعوا الاسلام نفسه فى محنتهم كما نفعوه حين كانوا أعزاء .

الآن تستطيع أن تفهم شيئين يوصف بهما الأحوص : أحدهما أنه كان شديد الكبرياء مزهوّا على الناس ، مزدريا لهم جميعا ، يهجوهم و يسرف فى هجائهم لا يفرق فى ذلك بين قومه الأنصار وقريش وغير قريش . أما الأنصار فقد كان يزدريهم و يكره منهم الإذعان والخشوع . وأما قريش فقد كان يحقد عليها وينقم منها ما هى فيه من سلطان وجبروت . وما أسرع ما اشتدّ تأثير ذلك فى نفسه فأصبح سفيها سبّابا يهجو حبا فى الهجاء . وقد انتهى به ذلك الى أن كانت له حادثة أعتقد أن الناس لم يفهموها بعد على وجهها . زعموا أنه كان عند سكينة بنت الحسين فأذّن المؤذن ، فلما انتهى الى قوله «أشهد أن محمدا رسول الله» قالت سكينة : هذا جدى ونخرت بالنبي ؛ ففاخرها الأحوص وذكر جده الذى حمته النحل من المشركين واحتمله السيل حتى لا يصلوا اليه ، وذكر خاله الذى غسلته الملائكة . قالوا : وغضبت سكينة وغضب غيرها وكفّروا الأحوص . واتخذ بنو أمية هذا وغيره وسيلة الى اهانته ونفيه . وقد أراد سوء الحظ ألا تبقى من هذه القصيدة إلا هذه الأبيات القليلة :

فخرتْ وانتمتْ فقلت ذريني * ليس جهلٌ أتيته ببديع
فأنا ابن الذى حمت لحمه الدبـ ـر قتيل اللّحْيان يوم الرجيع
غسلتْ خاليَ الملائكةَ الأبـ ـرار مَيْتاً طوبى له من صريع

لم يكن الأحوص مجنونا ولا سخيفا ، ولم يكن يريد أن يفاخر سكينة ولا أن يضع جدّه وخاله بإزاء النبىّ ، و إنما كان رجلا بائسا محزونا يريد أن يقول لسكينة : فيم هذا

الفخر والأمر فى هذه الأيام لقوم آخرين لم يبلوا فى الدين بلاء حسنا؟ فيم هذا الفخر؟ وهل عصمكم اتصالكم بالنبيّ من هـذه المنكرات التى جناها عليكم بنو أميـة؟ وهل حقن دماءكم ورد إليكم أمركم؟ ولم نذكر قديما ونحن نرى أبناء النبى وأبناء أصحابه وأنصاره يزدرون ويسامون ألوان الخسف. لم يرد أن يفاخر سكينة وانما رثى لها ولنفسـه وأمثالها وهجا بنى أمية. إذن فلم يكفر ولم يتجاوز حدود الأدب والدين، وانما كان شاعرا سياسيا لا أكثر ولا أقل.

هذه الأبيات التى أفهمها على هذا الوجه تمثل نفسية الأحوص كما تمثل نفسية الشباب الأنصارى والقرشى ذلك الوقت. وهى تفسر لنا هذا الشىء الثانى الذى كان يوصف به الأحوص وهو الإسراف فى اللهو والاندفاع فى المجون الى غير حدّ.

لاينبغى أن تطلب الى الناس جميعا أن يكونوا أصحاب زهد ونسك ودين. ولا ينبغى أن تطلب اليهـم جميعا أن يكونوا من قوة الإرادة بحيث يقاومون اليأس ويجتنبون آثاره المؤلمة.

كان الأحوص رجلا كغيره من الناس يطمع فيما يطمع فيه أمثاله. فلما رأى أن أبناء المهاجرين والأنصار قـد حرموا ثمرة جهاد آبائهم وعوملوا معامـلة الأسرى والمجرمين وانتفع غيرهم بهذا الدين الذى أقاموه وبهذا الملك الذى شيدوه، حقد فأنكر الناس، ثم انتهى الى إنكار الدين نفسه، ثم لها عن الناس ودينهم وشؤونهم المختلفة بهذه اللذات المنكرة التى كان يتهالك عليها تهالكا شديدا. وأنا أصدق أنه قال تلك الجملة المنكرة التى أخجل أن أرويها فى هذا الحديث والتى تمثل نفسا فاجرة حقا لا تحفل بأدب ولا مروءة ولا دين.

كان الأحوص فاجرا بأوسع ما تدل عليه هـذه الكلمة. كان يشرب ويسرف فى الشرب، وكان يحب النساء والغلمان، وكان يحب شيئا آخر غير هذا. وكان بنو أمية معذورين فى القسوة عليه وأخذه بما أخذوه به من شدة. فينبغى أن نلاحظ أنه ضرب وأهين ونفى أيام سليمان بن عبد الملك. فلما جاء عمر بن عبد العزيز وهو

رجل عدل منصف صالح أبى أن يسمع للأنصار وأمسكه فى نفيه حتى أطلقه يزيد ابن عبدالملك لأسباب سياسية ستراها بعد حين. ولكنى أروى لك قصتين: إحداهما تمثل حلم الوليد بن عبد الملك وتغاضيه عن زَلّات الأحوص، والأخرى تمثل رأى عمر بن عبد العزيز فيه .

تحدّثوا أن الأحوص وفد على الوليد بن عبد الملك فأكرمه وأعز مكانه وأنزله عنده، ولكن الأحوص كان يراود غلمان الوليد الخبازين عن أنفسهم، ثم أشفق أن يظهر ذلك فدسّ وكاد لضيف آخر من ضيوف الوليد — هو شعيب بن عبد الله ابن عمرو بن العاص — ثم ظهرت جلية الأمر للوليد فغضب على الأحوص وأقصاه ولكنه لم يضربه ولم يهنه كما فعل أخوه سليمان .

أما رأى عمر بن عبد العزيز فيه فأنقله لك حرفيا من الأغانى: « أتى رجال من الأنصار الى عمر بن عبد العزيز فكلموه فيه وسألوه أن يقدمه وقالوا له : قد عرفت نسبه وموضعه وقديمه، وقد أخرج الى أرض الشوك، فنطلب منك أن تردّه الى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودار قومه؛ فقال لهم عمر : فمن الذى يقول :

فما هو إلا أن أراها بِفُجَاءَةً * فأُبهتَ حتى ماأكاد أجيب

قالوا : الأحوص؛ فقال : من الذى يقول :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر * بأبياتكم ما درتُ حيث أدور

وما كنت زوّارا ولكنّ ذا الهوى * اذا لم يزر لابدّ أن سيزور

قالوا : الأحوص؛ قال : فمن الذى يقول :

كأنّ لُبْنَى صَبِيرُ غادية * أودمية زُيِّنَت بها البِيَعُ

الله بينى وبين قَيِّمها * يفـرّ منى بها وأتّبع

قالوا : الأحوص؛ قال : بل الله بين قيمها و بينه، فمن الذي يقول :

ستبقى لها فى مُضمر القلب والحشا * سريرةُ حبٍّ يوم تبـلى السرائر

قالوا : الأحوص ؛ قال : إن الفاسق عنها يومئذ لمشغول ، والله لا أردّه ما كان لى سلطان » .

ولعلك تريد أن تعلم فيم عذّب وفيم نفى ؟ وليس علم ذلك بالعسير . فقد كان أمره كأمر العرجى سواء بسواء ؛ كان العرجىّ عنيفا فاجرا كارها للحكومة هجّاء لعامل الخليفة على مكة ؛ وكان الأحوص فاسقا ماجنا مخنّثا كما سماه عبد الملك بن مروان ، وكان يهجو أشراف الأنصار وقريش ويتغزل بنسائهم ؛ وكان هذا هو السبب الحقيق فى أنه كان يكره ابن حزم عامل سليمان بن عبد الملك على المدينة ويهجوه هجاء صريحا قبيحا . فلست أشك فى أن هذا الوالى حرّض الناس على الأحوص فشكوه اليه وطلبوا منه أن يكتب فيه الى سليمان ففعل . وكان سليمان شديد الغيرة يكره الغزلين والمغنين ؛ وأمره مع ظرفاء المدينة مشهور ، فكتب الى عامله أن يضرب الأحوص ويشهّره ويقيمه للناس فى السوق ويصب على رأسه الزيت وينفيه الى دَهْلَك . وكان موقف الأحوص فى هذه المحنة كموقف العرجى جلدا وصبرا وعزة نفس . وانظر الى هذه الأبيات التى كان يصيح بها وهو يشهّر فى السوق :

ما من مصيبة نكبةٍ أُمْنَى بها ＊ إلا تعظّمنى وترفع شانى

وتزول حين تزول عن متخمّط ＊ تُخشى بوادره على الأقران

إنى اذا خفى اللئام رأيتنى ＊ كالشمس لا تخفى بكل مكان

وانظر الى هذا الشعر يهجو به الوالى :

أقول وأبصرت ابن حزم بن فرتنَى ＊ وُقوفًا له بالمأزمين القبائلُ

ترى فرتنى كانت بما بلغ ابنها ＊ مصدّقة لو قال ذلك قائل

وانظر الى هذا الشعر يقوله لسليمان بن عبد الملك فى غير تردّد ولا وجل :

سليمانُ اذ ولّاك ربك حكمنا ＊ وسلطاننا فاحكم اذا قلتَ واعدِلِ

يؤمّ حجيجَ المسلمين ابن فرتنى ＊ فهَبْ ذاك حجًّا ليس بالمتقبَّل

وهجاؤه لآبن حزم ونعيه على سليمان كثير . ولا تنس أنه كان ثقيلا على قومه يتخذ هجاءهم وسيلة الى اللهو والعبث ، و يتخذ نساءهم موضوعا للغزل يعف فيه حينا و يفحش فيه حينا آخر . فلما ولى الأمر يزيد بن عبد الملك عفا عنه وأ كرمه وأحسن صلته . ويقول الرواة إنه فعل ذلك لأبيات قالها الأحوص فيــه ودسها الى جاريته حبابة فغنته إياها ذات ليلة فطرب وأطلق الأحوص .

وليس من شــك فى أن الأحوص آستعطف عمر بن عبد العزيز، وآستعطف يزيد بن عبد الملك . ولكن سيرة يزيد فى أمر الأحوص كانت كسيرة الوليد بن يزيد فى أمر العرجى .

إنتقم الوليد للعرجى لا حبا فيه بل نكاية بآل هشام بن عبد الملك ، وآنتقم يزيد للأحوص لا حبا فيه بل نكاية بابن حزم وآنتقاما لنفسه .

حج يزيد بن عبــد الملك فى خلافة أخيه الوليد فتزوج فى حجه هذا فتاة هاشمية هى بنت عون بن محمد بن على بن أبى طالب ، وأمهـرها مالا كثيرا . و بلغ الأمر الوليد فغضب وكتب الى آبن حزم أن ينقض هذا الزواج و يسترد المــال من عون ؛ فان ردّه فــذاك و إلا فليضربه بالسياط حتى يؤدّى اليه هذا المــال ؛ وأنفذ الوالى أمر الخليفة بمحضر يزيد . فلمـا آلت الخلافة الى يزيد آنتقم لنفسه من آبن حزم هذا ونقض جميع أعماله ومنها نفى الأحوص . واذا صحت أخبار الرواة فان الأحوص لم ينتفع بهذه الفرصــة ، لأن الظرف أخطاه وملكه حب الآنتقام فأهان الخليفــة من حيث لا يريد .

قالوا : أمر يزيد أن يحمل اليه الأحوص وآبن حزم ؛ فلما بلغا دمشق أذن يزيد للأحوص وظل آبن حزم بالباب ، فلمادخل الأحوص على الخليفة قال : ياأمير المؤمنين هذا ابن حزم الذى سفّه رأيك وفسخ نكاحك ؛ فغضب يزيد وقال : كذبت عليك لعنة الله ، أ كسروا أنفه ؛ فأُخرج ذليلا .

و يظهر أن الأحوص أدركه الطمع فى آخر أيامه وأراد أن يكون مقربا من يزيد فوقف موقفا آخر لم يشرفه ولم يجن له إلا شرا .

لما قتل يزيد بن المهلّب أراد يزيد بن عبد الملك أن يقول الشعراء شعرا فى هجاء آل المهلب ، فاعتذر أكثر الشعراء لأنهم كانوا مدحوا آل المهلب فكرهوا أن يكذبوا أنفسهم بهجائهم أثناء المحنة — وكم أحب أن يقرأ هذا قوم — . أما الأحوص فأجاب وهجا آل المهلب ، ثم كانت منه رحلة الى فارس حيث العصبية لآل المهلب قوية ، فاحتاط الوالى حتى دس اليه نفرا دخلوا عليه ومعهم زق من الخمر فصبوه على رأسه ثم قادوه الى الوالى فأنفذ فيه الحد ، وجعل يقول الأحوص : ما هكذا تقام الحدود ، فيجيبه الوالى : نعم ولكن لما تعلم . ثم كتب الوالى الى يزيد ، معتذرا فاضطر يزيد الى أن يقبل العذر لقوته العصبية اليمانية فى فارس .

أظنك استطعت الآن أن تمثل شخصية الأحوص . وأظننا نستطيع أن نلخص هذه الشخصية فى أنه كان رجلا ساخطا اضطره السخط الى الإسراف فى اللهو والفجور والسفه ، حتى جعل للسلطان على نفسه سبيلا . كان معذورا فى إسرافه وكان السلطان معذورا فى معاقبته .

ولكنى لم أحدثك الى الآن عن شخصيته الشعرية ، وهى عظيمة جدا لم ينكرها عليه أحد ، حتى من أشد الناس بغضا له وسخطا عليه . لقد اضطر أبو الفرج الى أن يشيد بمكانته الشعرية مرتين ، ولقد أبى الفرزدق وجرير أن يهجواه مخافة لسانه ، ولقد كان أشراف الناس يتقونه بالملاطفة حينا وبالنذير العنيف حينا آخر ، ولقد أقسم بعض آل الزبير بمحرجات الأيمان ليقتلنه إن هجا زبيريا بشعر قليل أو كثير .

كان الأحوص غزلا ولكنه كان مفتنا فى ضروب الشعر كلها ، له الفخر الرائع والمدح البديع والهجاء المقذع . ذلك لأنه لم يكن متكلفا ولا محتشما ، وإنما كان يرسل نفسه على سجيتها ، وكانت نفسه خصبة غنية بضروب الخير والشر ، فكان يكفى أن يعكف على هذه النفس لحظة فيجد فيها كل ما يريد .

كان حلو اللفظ متينه ، قوى الأسلوب رصينه ، يبلغ الإجادة اللفظية فى غير تكلف ولا مشقة ، ولم يكن كغيره من الغزلين المكيين يعنى بالمعنى ويستخف بالألفاظ ، وإنما كان حريصا على التجويد فى لفظه ومعناه جميعا .

كان اذا أراد وفيًّا حسن الحـديث الى من يحب ، ولكنه كان عابثا أيضـا ، وكان يلهو بالغزل كما يلهو بالهجاء فكان يكذب على نساء الأنصار فيحرجهن ويحرج أزواجهن .

زعموا أنه أسرف فى ذكر أم جعفر وهى أنصارية عفيفة، فلما ضاق بها الأمر أقبلت ذات يوم متنكرة حتى وقفت عليه وهو فى جماعة من قومه، فقالت له : أقضنى ثمن الغنم التى آشتريتها منى؛ فأنكر ذلك، وألحت وصدّقها الناس، وأخذ هو يحلف ما رآها ولا يعرفها ؛ فكشفت عن وجهها وأصرّ هو على إنكاره وقد آجتمع حولهما الناس؛ فلما بالغ فى الإنكار قالت أم جعفر: صدقت يا عدوّ الله، والله ما أعرفك وما تعرفنى ولكنك تذكرنى فى شـعرك فتقول قالت لى أم جعفر وقلت لهـا ، ويشيع ذلك فى الناس؛ فآستخزى الأحوص .

ولست أريد أن أسرف فى الإطالة أكثر مما أسرفت، فلأرو لك هذه القصيدة من شعر الأحوص فهى تعطيك صورة من سهولة لفظه ومعناه فى جودة ومتانة :

ثنتانِ لا أدنو بوصلهما * عِرْسُ الخليل وجارة الجنب
أما الخليل فلست فاجعَـه * والجار أوصـانى به ربّى
عوجوا كذا نذكر لغانيـة * بعض الحديث مطيكم صحبى
ونقل لهـا فيم الصـدودُ ولم * نُذنب بلَ آنتِ بدأت بالذنب
إنْ تُقْبِلِى نُقبل وننزلكم * منـا بدار السهل والرحب
أو تدبرى تكدر معيشـتنا * وتصـدّعى متلائم الشعب

فانظر الى هذا المـاجن الفاجر كيف عفّ فى هذه الأبيات عن الجارة وعرس الخليل، وكيف أحسن الحديث الى صاحبته فى ظرف ورفق وصفاء طبع . وآنظر الى قوله «عوجوا كذا» والى موضع «كذا» من هذا البيت، فهو يختصر الظرف الحجازىّ كله . وأنا أوصيك بكل ما قال الأحوص فى أم جعفر فهو على قلته كثير الغنَاء .

—

*

الغـــزلون (1)

يزيد بن الطثرية

وكذلك لا أحدثك اليوم عن زعيم الغزلين من أهل الحجاز عمر بن أبى ربيعة ، لأنى أريد أن أستقصى الغزلين ما آستطعت الى هذا الاستقصاء سبيلا ، ليكون البحث عنهم تاما مستوفى . واذًا فلا بد من أن أحدثك عن رجلين ممتازين ، يمتاز أحدهما بأنه يشخص البيئة التى كان يعيش فيها تشخيصا صحيحا لذيذا ممتعا ، وهو يزيد بن الطثرية . ويمتاز الآخر بأنه كان غزلا متكلفا لا يعشق أحدا ولا يعشقه أحد ، وهو مع ذلك متقن للغزل بارع فيه وهو : كُثَيِّر .

وليكن يزيد بن الطثرية موضوع حديثنا اليوم . وإن لدى لشيئا كثيرا أريد أن أذكره عن يزيد بن الطثرية ، ولكنى سأكون فى هذا الحديث ناقلا أكثر منى كاتبا ؛ فنحن بإزاء قصة غرامية وان شئت فقل بإزاء سيرة غرامية بارعة رائعة فى لفظها وفى معناها وفى نتائجها ؛ والخير كل الخير ألا تشوه هذه القصة بالتلخيص والتحليل ، وأن نعرض منها عليك ما نستطيع عرضه ، فستجد فيها لذة ونفعا .

ولنلاحظ قبل كل شىء أننا لسنا بازاء شاعر من أشراف مكة أو المدينة من أولئك الذين لجأوا الى الغزل واللهو حين حالت السياسة بينهم وبين الجد والعمل . واذًا فلن نلتمس تفسير شعره وغزله فى الحياة السياسية والاجتماعية للسلمين أيام بنى أمية . ولسنا بازاء شاعر من أهل البادية الحجازية التى وصفنا حالها فى فصولنا الماضية وعرفنا أن غزلها لم يكن لهوا ولا عبثا ، وانما كان طموحا الى المثل الأعلى المعنوى مصدره اليأس من الحياة العاملة والزهد فيها .

---

(1) نشرت بجريدة « السياسة » فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٤

لسنا بإزاء شاعر من حاضرة الحجاز ولا من باديته ، وانما نحن بإزاء رجل آخر بعيد كل البعد عن السياسة وتأثيرها . بل نستطيع أن نقول إنه شديد الاتصال بالحياة البدوية الخالصة التى لم تكد تعرف من الاسلام إلا أنه دين يأخذ الناس بالصـلاة والزكاة و بواجبات أخرى مادية ثقيـلة على هؤلاء الناس الذين عاشوا أحرارا وكانوا يودون لو يعيشون أحرارا .

لم يتصل صاحبنا هـذا بالحجاز ولا الحجازيين ولم يعرف ما كان فيه الحجاز وأهله من لهو و يأس ، كما أنه لم يتصل بالشام ولا بمـا كان فيه من ضخامة السلطان الأموى ولا بما كان يحيط بهذا السلطان من كيد ودس ولا بما كان يصدر عن هذا السلطان من بأس وآنتقام ، كما أنه لم يتصل بالعراق وما كان فيه من هذه المذاهب السياسية والدينية المختلفة التى كانت تنشأ وتصطدم فى الكوفة والبصرة .

لم يتصل بشىء من هذا كله . ونستطيع أن نقول : إنه لم يعلم بشىء من هذا كله ولم يفترض له وجودا . و إذًا فهو لم يتأثر به فى شعره ولا فى حياته ، ولم يصدر فى هذه الحياة ولا فى ذلك الشعر إلا عن بداوته الخالصة وطبيعته الصريحة .

على أن هذه البداوة نفسها تأثرت بشيئين مختلفين : تأثرت بالإسلام فسهلت بعد شدّة ولانت بعد عنف وصفت بعد غلظة ، ثم تأثرت فى العصر الذى كان يعيش فيه صاحبنا بانتقاض الأمر على بنى أمية وآضطراب سلطانهم وضعف الحكومة المركزية عن أخذ أهل البادية بالطاعة والإذعان للنظام ، فعادوا الى ما كانوا فيه أو الى شىء يشبه ما كانوا فيه قبل الاسلام ، وظهرت بينهم الخصومات وألوان العداء ، فأخذوا فيما كانوا فيه أثناء العصر الجاهلى من غزو وغارة ، ومن حرب وجهاد متصل . ولا ينبغى أن ننسى أن صاحبنا قد قتل فى غزوة من هذه الغزوات أوّل عهد بنى العباس .

هو إذًا يمثل نوعا آخر من أنواع الغزلين ، يمثل هؤلاء الفتيان من أهل البادية المتعمقة فى بداوتهـا الذين كانوا يحيون حياة حرة طلقة لا تكاد تتأثر بشىء خارجى وإنمـا تصدر عن الطبيعة المطلقة المرسلة . وليس من شك فى أن هؤلاء الفتيان قد

كانوا كثيرين جدا، وفى أن حياتهم كانت خليقة بالبحث والدرس والعناية، لأنها تمثل لنا حياة البادية العربية الحرة فى العصر الاسلامى من جهة، وتعيننا على تصور العصر الجاهلى بوجه ما من جهة أخرى. ولكن الرواة شغلوا عن هؤلاء الفتيان بفحول الشعراء وزعمائهم فى العراق والشام والحجاز، ولم يكادوا يعنون بأهل البادية من هذه الناحية. وكل عنايتهم بالبادية انحصرت أو كادت تحصر فى أخذ اللغة عن أهلها و رواية شىء عنها من غريب الشعر والرجز. فأما حياة فتيانها وكهولها وفتياتها ونسائها فقد انصرف الرواة عنها انصرافا تاما.

وماذا كان يعنى الرواة من أمر هذه البادية وأهلها وهى بعيدة كل البعد عن أن تؤثر فى الحياة العامة بوجه من الوجوه، وهى منقطعة إلى حياتها البدوية منغمسة فيها لا تكاد تشعر بأن فى الوجود شيئا آخر غيرها. أضف الى هذا أن الرواة كانوا يؤثرون من غير شك أن يحيوا فى هذه البلاد السهلة الغنية التى يجدون فيها من اليسر واللين ما يسهل عليهم الحياة و يتيح لهم ما يطلبون من رواية الشعر وتدوين التاريخ.

فقليل جدا من هؤلاء الرواة من كان يجتنب الحجاز والعراق والشأم ليقذف بنفسه فى صحارى البلاد العربية ويخالط أحياء هذه الصحارى. ومن هنا ضاعت علينا حياة البادية العربية الإسلامية، وضاع علينا قسم عظيم جدا من الأدب العربى لعله لم يكن أقل ثروة ولا خصبا ولا روعة مما حفظنا.

على أن حياة هذا الفتى العربى البدوى الذى نتحدث عنه اليوم تعطينا صورة من هذا الأدب، إن لم تكن قوية مفصلة فهى واضحة بعض الوضوح صادقة أشد الصدق.

لم يكن يزيد ابن الطثرية غزلا ليس غير، وانما كان فتى من فتيان العرب بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، أى أنه كان يحيا حياة لهو وعبث ونخر وغزو وكرم وهجاء. كان يستمتع بقوته وشبابه وطبيعته الحرة الطلقة، فيأنس إلى الحياة ولذاتها فى غير تكلف ولا تصنع ولا استتار. وكان يستمتع بهذه الحياة استمتاعا طبيعيا ساذجا لم تفسده الحضارة ولم تكدر صفوه.

ومن هنا لم يكن فاحش اللفظ ولا منكر السيرة . ولست تجد فيما حفظ لنا من شـعره وسيرته شيئا تكرهه إلا حوارا واحدا وقع بينه وبين آمرأة من أهل البادية لم يخل من تصريح تمقته أذواقنا الخلقية، ولكنه يضحكنا ويلذنا من الوجهة الأدبيـة الخالصـــة .

كان يزيد بن الطثرية من بنى قُشَـيْر من قيس عيلان، وكان حيه يقيمون فى بادية اليمامة . ويقال إن الطثرية هى وان كانت يمانية من بنى جَرْم لكنها تنتهى الى طيئ . وإذًا فقد آجتمعت فى صاحبنا شدّة المضرية وسهولة اليمانية . وكان يزيد من أجمل الناس وجها وأحسنهم صـورة وأرقهم لفظا وأعذبهم حديثا ، وكان فتّانا للنساء مفتونا بهن . والغريب من أمره أنه كان يفتن النساء ويفتتن بهن، وأن الطبيعة أرادت أن تكون الصـلة بينه وبينهن أفلاطونية خالصة . ولم يمنعه ذلك من أن يعشق ومن ان يؤلمه العشق ويبرح به ويجشمه خطوبا وأهوالا .

على أن الذى يعنينا من أمر يزيد بن الطثرية ليس هو يزيد، وإنما هى الصلة بين رجال البـادية ونسائها ، هـذه الصلة التى يظهر أنها كانت تختلف آختـلافا شديدا باختلاف القبائل والأحياء . وقد قلت فى أول هذا الفصل : إنى سأكون ناقلا أكثر منى كاتبا فى هذا الحديث . فلأترك للرواة أن يحدّثوك بشىء من خبر يزيد . وأنا أحب أن تنظر إلى هذا الحديث نظر عناية وتدبر فى اللفظ والمعنى جميعا .

« محل الناس حتى ذهبت الدقيقة من المـال وتهتكت الجليلة ، فأقبل صِرْم من جَرْم ساقته السنة والجدب من بلاده الى بلاد بنى قشير، وكانت بينهم وبين بنى قشير حرب عظيمة ، فلم يجدوا بدا من رمى قشـير بأنفسهم لمـا قد ساقهـم من الجدب والمجاعة ودقة الأموال وما أشرفوا عليـه من الهلكة ، ووقع الربيع فى بلاد بنى قشير فانتجعها الناس وطلبوها فلم يعدُ أن لقيت جَرْم قشيرا ، فنصبت قشير لهم الحرب ، فقالت جرم : إنمـا جئنا مستجيرين غير محاربين؛ قالوا مماذا ؟ قالوا مِن السنة والجدب والهلكة التى لا باقية لها؛ فأجارتهم قشير وسالمتهم وأرعتهم طرفا من بلادها.

وكان فى جرم فتى يقال له ميّاد ، وكان غزلا حسن الوجه تامّ القامة آخذا بقلوب النساء . والغزل فى جرم جائز حسن ، وهو فى قشير نائرة . فلما نازلت جرم قشيرا وجاورتها أصبح مياد الجرمىّ فغدا الى القشيريات يطلب منهن الغزل والصبا والحديث وآستبراز الفتيات عند غيبة الرجال وآشتغالهم بالسقى والرعى وما أشبه ذلك ، فدفعنه عنهن وأسمعنه ما يكره ؛ وراحت رجالهن عليهن وهن مغضبات ، فقالت عجائز منهن : والله ما ندرى أرعيتم جرمًا المرعى أم أرعيتموهم نساءكم ؛ فاشتدّ ذلك عليهم فقالوا : وما أدراكنّه ؟ قلن : رجل منذ اليوم ظل محُجِرا لنا ما يطلع منا رأس واحدة ، يدور بين بيوتنا ؛ فقال بعضهم : بيّتوا جرما فآصطلموها ، وقال بعضهم : قبيح ، قوم قد سقيتموهم مياهكم وأرعيتموهم مراعيكم وخلطتموهم بأنفسكم وأجرتموهم من القحط والسنة تفتاتون عليهم هذا الافتيات ! لا تفعلوا ، ولكن تُصبحوا وتقدّموا الى هؤلاء القوم فى هذا الرجل فإنه سفيه من سفهائهم ، فليأخذوا على يديه ؛ فإن يفعلوا فأتموا لهم إحسانكم ، وإن يمتنعوا ويقروا ما كان منه يحلّ لكم البسط عليهم وتخرجوا من ذمتهم . فأجمعوا على ذلك . فلما أصبحوا غدا نفر منهم الى جرم فقالوا : ماهذه البدعة التى قد جاورتمونا بها؟ إن كانت هذه البدعة سجية لكم فليس لكم عندنا إرعاء ولا إسقاء ، فبرّزوا عنا أنفسكم وأذنوا بحرب ، وإن كان آفتياتا فغيّروا على من فعله ؛ وإنهم لم يعدوا أن قالوا لجرم ذلك ؛ فقام رجال من جرم وقالوا : ما هـذا الذى نالكم؟ قالوا : رجل منكم أمس ظل يجرّ أذياله بين أبياتنا ما ندرى علام كان أمره ؛ فقهقهت جرم من جفاء القشيريين وعجرفيّتها ، وقالوا : إنكم لتحسون من نسائكم ببلاء ؛ ألا فابعثوا الى بيوتنا رجلا ورجلا ؛ فقالوا : والله ما نحس من نسائنا ببلاء وما نعرف منهن إلا العفة والكرم ولكن فيكم الذى قلتم ؛ قالوا : فإنا نبعث رجلا إلى بيوتكم يا بنى قشير اذا غدت الرجال وأخلف النساء ، وتبعثون رجلا الى البيوت وتحالف أنه لا يتقدّم رجل منا إلى زوجة ولا أخت ولا بنت ولا يعلمها بشىء مما دار بين القوم ، فيظل كلاهما فى بيوت أصحابه حتى يردا علينا عشيًّا المساء ، وتخلى لهما البيوت ولا تبرز عليهما امرأة ولا نصادق منهما واحدا فيقبل منهما صرفا ولا عدلا إلا بموثق يأخذه

عليهـا وعلامة تكون معه منها؛ قالوا : اللهم نعم . فظلوا يومهم ذلك وباتوا ليلتهم؛ حتى إذا كان من الغد غدوا إلى المـاء وتحالفوا أنه لا يعود الى البيوت منهـم أحد دون الليل . وغدا مياد الجرمى الى القشيريات، وغدا يزيد بن الطثرية القشيرى الى الجرميات ؛ فظل عنـدهنّ بأكرم مظل لا يصـير إلى واحدة منهن إلا آفتتنت به وتابعتـه الى المودّة والإخاء ، وقبض منهـا رهنا وسألته ألا يدخل من بيوت جرم إلا بيتهـا ، فيقول لها : وأى شيء تخافين وقد أخذت منى المواثيق والعهود وليس لأحد من قلبي نصيب غيرك ؛ حتى صليت العصر . فانصرف يزيد بفتخ كثير و براقع وآنصرف مـدهونا مكحولا شبعان ر يان مرجّل اللمة . وظل مياد الجرمى يدور بين بيوت القشيريات مرجوما مقصيا لايتقرب الى بيت إلا آستقبلته الولائد بالعمد والجندل . فتهالك لهنّ ؛ وظن أنه آرتياد منهن له ، حتى أخذه ضرب كثير بالجنـدل، ورأى اليأس منهن وجهده العطش، فانصرف حتى جاء الى سمرة قريبا إلى نصف النهار فتوسّد يده ونام تحتها نويمة حتى أفرجت عنه الظهيرة وقاءه الإظلال، وسكن بعض ما به من ألم الضرب وبرد عطشه قليلا، ثم قرب الى المـاء حتى ورد على القوم قبل يزيد، فوجد أمة تذود غنما فى بعض الظعن، فاخذ برقعها وقال : هذا برقع واحدة من نسائكم، فطرحه بين يدى القوم، وجاءت الأمة تعدو فتعلقت ببرقعها فرد عليها، وخجل مياد خجلا شديدا . وجاء يزيد ممسيا وقد كاد القوم أن يتفرّقوا فنثر كمه بين أيديهم ملآن براقع وفتخا . وقد حلف القوم ألا يعرف رجل شـيئا إلا رفعه، فلما نثر ما معه آسودّت وجوه جرم وأمسكوا بأيديهم إمساكة؛ فقالت قشير : أنتم تعرفون ما كان بيننا أمس من العهود والمواثيق وتحرج الأموال والأهل، فمن شاء أن ينصرف إلى حرام فليمسك يده ؛ فبسـط كل رجل يده الى ما عرف فأخذه وتفرّقوا عن حرب، وقالوا : هذه مكيدة يا قشير . فقال فى ذلك يزيد بن الطثرية :

فإن شئت يا ميّاد زرنا وزرتمُ * ولم تنفس الدنيا على من يصيبها
أيذهب يا ميُّاد بالباب نسوتى * ونسوة ميّـادٍ صحيحٌ قلوبهـا

فقال ميّاد الجرْمى :

لعمرك إن جمع بنى قشير * لجـــرمٍ فى يزيد لظالمونا

أليس الظلم أن أباك منا * وأنك فى كتيبة آخرينـا

أحالفة عليـك بنو قشير * يمين الصبر أم متحرجونا

ليس لدى من الوقت ولا من المكان ما يمكننى من شرح هذه القصة والتعليق على ألفاظها وأسلوبهـا ومعانيها، فكل ذلك محتاج إلى شرح وكل ذلك محتاج إلى تفسير . ولكنى أسرع فأقول : إنى لا أقبل هذه القصة على علاّتها ولا أصدق ما فيها من تفسير . وأكاد أرجح أن فيها كذبا وآنتحالا مصدره العصبية المضرية .

ولكن هذه القصة فى جملتها تمثل شيئا خليقا بالعناية، وهو أن الصلة بين الرجال والنساء كانت سهلة ميسورة مستحبة فى اليمانية، وكانت عسيرة ممقوتة فى المضرية، كما أنها تثبت شيئا آخر وهو أن يزيد بن الطثرية قد كانت بينه و بين النساء الجرميات صـــلة ما .

على أننا لسنا فى حاجة إلى هذه القصة لنثبت أن يزيد كان على آتصال بالجرميات فان حياة يزيد وشعره يثبتان ذلك إثباتا لاشك فيه .

ليس من شك فى أن الجدب قد آضطر بنى جرم إلى جوار بنى قشير، وفى أن الصلة آشتدت بين يزيد و بين الجرميات أو بينه و بين امرأة بعينها من الجرميات يقال لهـا وحشية ، فكان بينهما حب ومودّة ، ونشأت عن هـذا الحب قصـة كالقصص التى نشأت عن حب جميـل و بثينة وعن حب قيس بن ذريح ولبنى ، تمتاز بكل ما تمتاز به هـذه القصص ، ففيها مرض العاشـق و إشرافه على الموت و يأس الأطباء منه، وفيها آحتيال هذا العاشق فى زيارات صاحبته واختلاسه هـذه الزيارات وتكلفه الأعاجيب ، بل فيها أن يزيد آحتال فى زيارة صاحبته مرة فراح عليها بين الغنم يمشى على أربع ،وقد آتخذ من اللباس ما يقرب الشبه بينه و بين الكباش .

وفيها هذه الخصلة الأخرى التى تمتاز بها هذه القصص ، وهى آستعداء الحكومة على العاشق وتدخّل السلطان فى هذه الأمور الغرامية الخالصة . ولكن الذى نستطيع أن نصدّقه من كل هذه القصة هو أن يزيد قد عشق وحشية وعشقته وحشية أيضا ، وكان بينهما تزاور، فغضب لذلك «قُدَيْك» الجرمى وهو زعيم أسرة وحشية هذه ، وأنذر نساء أسرته إنذارا شديدا وخوّفهن الموت فآستل سيفه وضرب به بين أيديهن غلاما له ترويعا لهن وتخويفا . ولكن وحشية لم تخف ولم يأخذها الروع، فاتصلت المواعيــد بينها وبين يزيد، وعرف ذلك فديك فاتخذ زبية وأضرم فيها نارا خفيفة وآنتظر حتى خرجت وحشية للقاء صاحبهــا ، فسقطت فى الزبية وآحترقت رجلها وأخذها غلمان فديك فردوها الى بيتها . ونشأ الهجاء بين فديك ويزيد فقال فديك :

شفى النفسَ من وحشيّة اليوم أنها * تهَـادَى وقد كانت سريعا عَنيقها
فإلا تدع خبطَ المـوارد فى الدجى * تكن قمنا من غشـية لا تُفيقها
دواء طبيب كان يعـلم أنه * يداوى المجانين المخَلَّى طــريقُها

فأجاب يزيد :

ستبرأ من بعــد الضّمانة رجلُها * وتأتى الذى تهوَى مُخَلًّى طـريقُها
علىّ هــدايا البُــدْن إن لم ألاقِها * وإن لم يكن إلا فُدَيْكٌ يسوقها
يحضّنهــا منى فـــديكٌ سـفاهةً * وقد ذهبت فيها الكِبَاس وحُوقُها
تذيقونها شيئا من النــار كلما * رأت من بنى كعب غلامًا يروقها

وقال يزيد أيضا :

يا سخنة العين للجَرْمى إذ جمعت * بينى وبين مزار وحشة الدار
خُبِّرْتُهم عذّبوا بالنار جارتهــم، * ومن يعــذب غير الله بالنــار

ويظهر أن الأمر آشتدّ بين يزيد وفديك فاستعدى عليه صاحب اليمامة . ولكن تدخل السلطان فى هذا الحب لم يكن كتدخّله فى حب جميل وقيس بن ذريح ، فلم يهدر دمه ولم ينفه من الأرض وإنمــا تقدّم إلى أخيه فى تأديبه وكان له أخ يسمى

ثورا — سنعرض له بعد حين — وكان ثور هذا رفيقا بيزيد محبا له، فلم يتجاوز في تأديبه أن حلق لِمته تشويها له وصرفا للنساء عنه ؛ فقال يزيد في ذلك :

أقول لثــور وهو يحـلق لمّتى * بحجناء مردود عليهـا نصابها
ترفّــقْ بهـا ياثور ليس ثوابها * بهذا ولكن غير هذا ثوابها
ألا ربمـا يا ثور قد غل وسطها * أناملُ رَخْصاتٌ حديثٌ خضابها
وتسلك مِدْرى العاج في مُدْلهمّة * إذا لم تفرّجْ مات غمًّا صُؤابها
فـراح بهـا ثور ترِفّ كأنها * سلاسل درع لينُها وانسكابها
منعّمة كالشّرية الفَــرْدِ جادها * نجـاء الثريا هطلها وذهابهـا
فأصبح رأسى كالصُّخَيْرة أشرفت * عليها عُقابٌ ثم طارت عقابها

على أن الخصومة بين يزيد وغيره من الناس لم تقف عند الحب، بل تجاوزته إلى شيء آخر . فقـد قلت : إن يزيد كان من فتيان العرب ينفق حياته في اللهو والحب ، وكان متلافا يسرف في الاستدانة ، وكان أخوه يبيح له ماله ويحمل عنه دينـه ، وكأنه أسرف في الدين فتقاضاه دائنـه وهو رجل يعرف بالبربرى وحبسه الحاكم عقبة بن شريك في هذا الدين . فقال في سجنه :

فــلو قلّ دين البربرىّ قضيته * ولكنّ ديـن البربرى كثير
وكنت اذا حلّت علىّ ديونهـم * أضمّ جَناحى منهــمُ فأطــير
علىّ لهــم في كل شهر أدية * ثمـانون واف نقـدُها وجزور
نحنّ إلى ثور فنيم رحيلنـا * وثور علينـا في الحيـاة صبور
أشــدّ على ثور وثور إذا رأى * بنـاخَـــلّةً جَزْلُ العطاء غفور
فذلك دأبى ما بقيت وما مشى * لثور على ظهر البــلاد بعــير

وقد طال عليه السجن وضاقت به الحال فاجتهد حتى خلص من سجنه وعمـد إلى نجيب لفيــه يقال له ابن الكميت، فركبه ومضى به الى اليمامة حتى وصـل الى

عقبة ، فلما عرفه عقبة أنكر ما فعل من الأمر ، ولكن يزيد مدحه بقصيدة من أجود ما قال أهل البادية ، فعفا عنـه عقبة وأبرأه من دينـه ، ووهب له النجيب وحكمه فى ماله . واليك بعض هذه القصيدة :

ومدلّه عنــد التبــدّل يفتــدى * منهـا الوشاح مخصّرًا أُمــلودا
نازعتها غنم الصبا إنّ الصبا * قــد كان منى للكواعب عيدا
يا لَلرجالِ و إنمــا يشــكو الفتى * مرّ الحوادث أو يكون جليدا
بكرت نوار تجدّ باقيــة القوى * يوم الفــراق وتخاف الموعودا
ولرب أمرٍ هوًى يكون ندامةً * وسبيل مكرهة يكون رشــيدا

ثم يقول :

لا أتقى حَسَكَ الضغائن بالرُّقَى * فعلَ الذليل و إن بقيتُ وحيدا
لكن أجرّد للضغائن مثلها * حتى تموت وللحُقــود حقــودا

ومما يتم تمثيل هذه الشخصية البدوية اللاهية العابثة فى مزح ورضاء ، هذه القصة التى كانت له مع أخيه ثور :

فقد زعموا أنه راح فى إبل أخيه فمرّ بنسوة حسان فطلبن إليه أن يطعمهن لحما فسألهن سِكّينا وعقر لهن ناقة وأقبل عليه أخوه يلومه و يضربه فقال :

ياثور لا تشتمنْ عرضى فداك أبى * فإنمــا الشتم للقـــوم العــواوير
ما عَقْــرُ نابٍ لأمثـال الدُّمَى خُرُدٍ * عِينٍ كرامٍ وأبكارٍ معاصــير
عطفن حولى يسائلنَ القِرَى أُصُلاً * وليس يرضَيْنَ منى بالمعـاذير
هبهن ضيفًا عراكم بعــد هجعتكم * فى قطقط من سواد الليل منشور
وليس قــربَكــمو شاءٌ ولا لبنٌ * أيرحل الضيف عنــكم غيرَ مجبور
ما خـــير وازدة للمــاء صــادرةٍ * لا تجلى عن عقيل الرحل منحور

ولقد أريد أن أفصل القول فى شعر يزيد وأبين مكانة هـذا الشعر من الجودة والمتانة والرقة التى يمتاز بها شعر أهل البادية فى هذا العصر الأموى خاصة ؛ ولكنى قد أطلت . فانظر الى هذه الأبيات ؛ فستجد فيها أحسن مثال لا أقول لغزل يزيد وحده بل أقول لنفسية هؤلاء الفتيان الذين كانوا يحيون حياته و يلهون لهوه :

ألا حبـذا عيناكِ يا أم شنبـل * اذا الكحلُ فى جفنيهما جال جائله

فداكِ من الخلان كلُّ ممـزج * تكون لأدنى من يلاق وسائـله

فـرحبا تلقانا به أم شنبـل * ضحيا وأبكتنا عشيا أصائـله

وكنت كأنى حين كان كلامها * وداعا وخلى موثق العهـد حامله

رهينا بنفس لم تفك كبوله * عن الساق حتى جرد السيف قاتله

فقال دعونى سجـدتين وأرعدت * حذار الردى أحشاؤه ومفاصـله

بنفسى من لو مر برد بنـانه * على كبدى كانت شـفاء أنامله

ومن هابنى فى كل شىء وهبتـه * فلا هو يعطينى ولا أنا سائـله

*

الغـــزلون[1]

كثير

وإنما أعدّه فى الغزلين لأخرجه منهم؛ فالناس يجمعون أو يكادون يجمعون على أنه أحد الغزلين الذين أتيحت لهم الإجادة وقسم لهم التفوق فى الغزل . وهم يقرنون آسمه باسم جميل فيقولون كثيّر عزة، كما يقولون جميل بثينة، وكما يقولون مجنون ليلى . وهم بهذا نفسه يقدّمونه على آبن ذريح ، ويقدّمونه على الأحوص والعرجىّ وغيرهما من أصحاب الغزل فى بادية الحجاز وحاضرته . والرواة لا يكتفون بهذا بل يقدّمونه على الشعراء عامة ويضعونه بين الفحول . فهو مقدّم على آبن أبى ربيعة، وهو فى مرتبة الفرزدق والأخطل وجرير والراعى . ولست أدرى أكان الرواة منصفين فى وضعه بين هؤلاء الفحول وتقديمه على عامة شعراء العصر الأموى . وليس من سبيل الى الفصل فى ذلك ؛ فقد ضاع شعر كثيّر كله ولم يبق منه إلا الشىء القليل جدا، لم يبق منه إلا أبيات ومقطوعات لا تبيح الحكم له ولا عليه. واذًا فقد يكون شاعرا فحلا، وقد يصح أن يقرن الى الفرزدق والى جرير. ولكن شيئا لا يقبل الشك هو أنه ليس من الغزلين المتقدّمين، ولا يصح أن يقرن الى جميل، ولا أن يقاس بابن أبى ربيعة، ولا أن يقدم على آبن ذريح .

ليس هو من هؤلاء كلهم فى شىء . واذا كان له أن يتقدّم أو أن يظفر بمكانة عالية بين الشعراء فلا ينبغى أن يكون ذلك لغزله ،وانما ينبغى أن يكون ذلك لشىء آخر قد يتاح لنا أن نعرفه بعد حين .

ستقول : واذا لم يكن من الغزلين فلم أضفته اليهم وحشرته فيهم ؟ وقد أجبتك على هذا السؤال فى أول هذا الحديث، فقلت : إنى أعده فى الغزلين لأخرجه منهم.

---

(١) نشرت بجريدة «السياسة» فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٤

وهل تظن أن الناس يقبلون بحثا تناول الغزلين جميعا وسكت عن كثيّر، وهم كما قلت لك مجمعون على أنه غزل مقدّم بارع فى الغزل؟ أليس من الحق على من يبحث عن الغزلين و يستقصيهم أن يزيل هذا الوهم و يمحو آثاره من نفوس الناس؟

كل شيء فى حياة كثيّر يدلنا على أنه لم يكن غزلا بطبعه، ولم يكن ماهرا ولا موفقا فى تكلف الغزل؛ فهو لم يكن صافى الطبع ولا رقيق الحس ولا دقيق الشعور ولا قوىّ العاطفة ولا ذكى الفؤاد، و إنما كان بريئا من هذا كله. وهو لم يكن على براءته من هذه الخصال حسن الخلق ولا مقبول الصورة، و إنما كان دميما قبيحا بشع المنظر مضحكا لمن يراه، مضحكا لمن يسمعه و يتحدّث اليه أيضا: كان قصيرا مسرفا فى القصر، حتى قال بعض الرواة: "لقد رأيته يطوف بالكعبة فمن حدّثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فقد كذب". وكان أحمق مسرفا فى الحمق ضعيف العقل الى حدّ غريب، كان الناس يتخذونه هزؤا وسخرية. والغريب من أمره أنه لم يكن يحس هذا الاستهزاء ولا يشعر بهذه السخرية، وانما كان يصدّق كل ما يلقى اليه، و يسمع المزاح فيجيب اليه جادًّا مقتنعا:

زعموا أن نفرا من قريش دخلوا عليه يعودونه وكان مريضا فسألهم: بم يتحدّث الناس؟ قالوا: يتحدّثون بأنك الدجّال؛ أجاب: أما اذ قلتم هذا فإنى لأجد فى عينى هذه ألما منذ أيام. والدجّال فى الأساطير أعور.

وأشدّ من هذا غرابة أن أمر كثير لم يكن مقصورا على الغفلة والحمق، و إنما كان يتجاوزهما الى التيه والخيلاء؛ فالرواة يحدّثوننا أنه كان من أشدّ الناس إعجابا بنفسه ومن أغلاهم فى الكبرياء، حتى لقد اتخذه معاصروه، ولا سيما أهل المدينة، سخرية فى هذا أيضا، فكانوا يتبعونه فى شوارع المدينة يشتمونه وينالون منه، لعله يلتفت اليهم فلا يفعل؛ و ربما غلوا فى ذلك فيمدّ الرجل منهم يده الى رداء كثيّر فينتزعه فلا يلتفت اليه كثير بل يمضى فى قميص. وكان الى هذا كله يرى فى نفسه الذكاء والفطنة، و ربما رأى فيها القوة والبأس أيضا. وقد حفظ الرواة لنا من هذا أخبارا مضحكة:

زعموا أنه لقى الشاعر المعروف بالحزين فكان بينهما مزاح بدأه كثير حين قال للحزين : لست شاعرا وإنما أنت نظّام ؛ فاستأذنه الحزين فى أن يهجوه فأذن له ساخرا منه مزدريا له ؛ فهجاه الحزين ببيت لا نستطيع أن نرويه ، فلم يكد يسمع هذا البيت حتى أخذته حفيظة منكرة ، فنهض الى الحزين فلكزه ؛ ولكن الحزين قال له : لست من هــذا فى شىء ، ثم مال اليه فرفعه فى يده فاذا هو فيها كالكرة حتى خلص بينهما من حضر .

ومع هذا كله فليس من شك فى أن كثيّرا قد كان شاعرا مجيدا ، بل عظيم الحظ جدّا من الإجادة . وما أظن أن محمد بن سلام الجمحى قرنه الى الفرزدق وجرير تحكما أو عبثا .

وقد حدّثنا الرواة أنهم كانوا يحفظون له شعرا كثيرا ويذكرون بنوع خاص ثلاثين لاميّة لم يبق لنا منها إلا أبيات تكاد أو لا تكاد تؤلف قصيدته المشهورة التى مطلعها :

خليلىَّ هــذا ربعُ عزَّةَ فاعقِلَا * قَلُوصَيكما ثم آبكيا حيث حلّت !!

وكان أبو عبيدة فيما ذكروا يملى شعر كثير بثلاثين دينارا . ولكننا سنرى أن إجادته ومنزلته بين الشعراء لم تأتياه من الغزل وإنما وفّق اليهما من سبيل السياسة والتقرب الى الملوك والخلفاء .

كان كثــير أصغر نفسا وأردأ طبعا وأشدّ حمقا وغفلة من أن يتأثر بتلك المؤثرات المختلفة التى فصّلناها فى الأحاديث المــاضية والتى كوّنت الغزلين من أهــل الحاضرة والبادية فى الحجاز . لم يكن كبير النفس ، ولم يكن له أمل فى الحياة السياسية العامة ولا طمع فيما كان يطمع فيه شباب الحجاز من رفعة وسلطان . بل ربما كان من الحق أن نسأل أنفسنا قبل كل شىء : مَنْ كثيِّر ؟ وإلى أى قبيلة من قبائل العرب ينتمى ؟ فقد يظهر أن كثيرا نفسه لم يكن يعرف من هذا شيئا ، أو لم يكن يريد أن يعرف من هــذا شيئا ، أو كان يريد أن يعرف منه أكثر مما ينبغى أن يعرفه صاحب النسب الصحيح

كان ينتسب فى اليمن خزاعيا، وكان ينتسب فى مضر كنانيا، وكان اليمانيون والمضريون ينفونه ويزدرونه ويسخرون منه . وإذن فكيف يطمع فى رفعة المنزلة وعلو المكانة ! وكيف يقرن بهذا الشباب الأرستقراطى الحجازى الذى عبث به الطمع واليأس فاضطراه الى اللهو والعبث واصطناع الغزل والغناء. ثم لم يكن كثير من هؤلاء البدو الذين وصفنا حياتهم غير مرة، والذين قلنا إن إهمال الدولة إياهم قد اضطرهم الى أن يعكفوا على أنفسهم ويفرغوا لحياتهم البدوية ، فنشأ عن ذلك ما كانوا فيه من حزن خالط نفوسهم وصرف شبابهم الى هذا الحب البرىء وهذا الغزل العفيف اللذين ليسا فى حقيقة الأمر إلا مرآة لما كانوا يطمعون فيه ويطمحون اليه من المثل الأعلى :

ليس كثير من أولئك ولا من هؤلاء ، ليس بدويا خالصا، وليس حضريا ذا مكانة فى الحضر، وإنما كان يتردد بين البادية والحاضرة، كان شديد الاتصال بقصر دمشق يمدح بنى أمية ويتملقهم ويأخذ جوائزهم ؛ وكان كاذبا أحسن الكذب فى هذا المدح والتملق، وكان بنو أمية يعلمون منه ذلك ويحتملونه له لأنه كان يحسن مدحهم والنضال عنهم . فإذا ترك دمشق فقد كان يتردد بين مكة والمدينة يعاشر أشرافهما ويأخذ منهم ما أتيح له من جائزة أو عطاء .

كان ذا مذهب سياسى، أو قل كان له مذهبان متناقضان أشد التناقض يرجعان آخر الأمر الى مذهب واحد معروف فى ذلك الوقت هو النفاق السياسى . كان فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين الله متشيعا غاليا فى التشيع، يرى مذهب الكيسانية ويقدم محمد بن الحنفية ويؤمن بالرجعة. وله فى ذلك أعاجيب وشعر جيد. وكان فيما بينه وبين الناس نصيرا لبنى أمية يمدحهم ويغلو فى مدحهم ويعاشرهم ويفاخر بعشرتهم .

ولم يكن التوفيق بين هذين المذهبين المتناقضين عليه شاقا ولا عسيرا ؛ فهو حين كان يمدح بنى هاشم وبنى أمية إنما كان يخاصم الزبيريين الذين كانوا أعداء للأمويين والهاشميين معا: ولعلك تذكر أنى حدثتك فى الصيف الماضى عن شاعر

عباسيّ مسرف فى التشيع، كان يذهب مذهب كثير نفسه، كان كيسانيا يقــدّم ابن الحنفيــة ويؤمن بالرجعة، وكان مع ذلك يمدح بنى العباس ويأخذ جوائزهم، وكان بنوالعباس يُغضون له عن تشيّعه للعلويين، كما كان بنو أمية يغضون لكثير عن تشيعه للعلويين أيضا. هذا الشاعر هو السيّد الحِمْيَرىّ الذى كان ككثيّر يتقرب ببنى هاشم الى الله ويرضى بمدحهم عاطفته الدينيــة، ويتقرب ببنى العباس الى الدنيا ويرضى بهم حاجته الى اللذة والثروة.

وكما أن كثيرا كان يتخذ ابن الزبير وسيلة الى إرضاء الهــاشميين والأمويين لأنه كان خصما مشتركا للحزبين، فقد كان السيد الحميرى يتخذ بنى أمية وسيلة لإرضاء بنى على وبنى العباس، وكما أن كثيرا كان أحمق مغفلا مسرفا فى الإيمــان بالسخف والاطمئنان اليه، فلم يكن حظ السيد الحميرى من الحمق والغفلة وضعف العقل قليلا، حتى إن الرواة ليضيفون الى كثيّر شعر الســيد، كما يضيفون الى السيد شعر كثير.! بل هما يشتركان فى شىء آخر: كلاهما كان سيىء الصلة بأبويه؛ فقــد يحدّثنا الرواة أن السيد ولد لأبوين من الخوارج الغلاة فى مذهب الخوارج، فكان كارها لهما مسيئا اليهما. وهم يحدّثوننا أيضا أن كثيرا كان يعقّ أباه ويسىء اليه.

وهما يكادان يشتركان فى خصلة أخرى؛ لكنها أقوى عند كثيّر منها عند السيد: كلاهما كان منفرا صارفا للنساء. أما كثير فلقبحه ودمامتــه وقصره؛ وأما الســيد فلنتن إبطيه.

ولعلك تذكر ما رويت لك من شعر السيد الحميرى فى الرجعة، وأنا أروى لك الآن شيئا من شعر كثير فيها. فانظر إلى هذه الأبيات الجيدة التى يتعجل بها عودة ابن الحنفية إلى الأرض ليرفع فيها لواء بنى هاشم:

ألا قل للوصيّ فدتك نفسى * أطلت بذلك الجبل المُقاما
أضرّ بمعشر والوك منــا * وسمّــوك الخليفة والإماما

وعادوْافيك أهل الأرض طرًّا * مقامك عنهمو ستين عاما

وماذاق ابن خَوْلة طعمَ موتٍ * ولا وارت له أرضٌ عظاما

لقد أوفى بمورق شعب رَضْوى * تراجعه الملائكة الكلاما

و إن له به لمقيلَ صدقٍ * وأنديةً تحدثه كراما

هدانا الله اذ جرتم لأمر * به ولديه نلتمس التماما

تمام مودة المهدى حتى * تروا راياتنا تترى نظاما

ولعلك تلاحظ معى أن غياب محمد بن الحنفية إن كان قد أضرّ بقوم فليس « كثيّر » من هؤلاء القوم ، فهو لم يعاد فيه أهل الأرض طرا كما يقول ، و إنما عادى فيه عبد الله بن الزبير وحزبه ليس غير .

وانظر الى هذه الأبيات التى يدفع فيها عن محمد بن الحنفية حين حبسه ابن الزبير وأراد تحريق بنى هاشم ، وهى من جيد الشعر السياسى :

من يرهذا الشيخ بالخيف من مِنًى * من الناس يعلمْ أنه غير ظالم

سمىّ النبى المصطفى وابن عمه * وفكّاك أغلال ونفّاع غارم

أَبَى فهو لا يشرى هدًى بضلالة * ولا يتقى فى الله لومةَ لائم

ونحن بحمد الله نتلو كتابه * حلولًا بهذا الخَيْف خيف المحارم

بحيث الحمامُ آمن الروع ساكن * وحيث العدو كالصديق المسالم

فما فرحُ الدنيا بباق لأهله * ولا شدةُ البلوى بضربة لازم

تخبّر من لاقيتَ أنك عائذ * بل العائذ المظلوم فى سجن عارم

وكان ابن الزبير يسمى العائذ ، ويزعم أنه يعوذ بالبيت وحرمه .

وانظر الى هذه الأبيات التى اختلف الرواة فيها فأضافها بعضهم الى السيد ، وأضافها بعضهم الآخر الى كثير ، وهى أبيات مشهورة تخص مذهب الكيسانية فى الإمامة :

ألا إن الأئمــة من قريش * وُلاة الحق أربعة ســـواء
عليٌّ والثـــلاثة من بنيـــه * هم الأسباط ليس لهم خفاء
فسِبْطٌ سبط إيمانٍ وبِرٍّ * وسبط غيّبتــه كَرْبلاء
وسبط لاتراه العين حتى * يقود الخيــل يتبعها اللواء
تغيّب لا يُرَى عنهــم زمانًا * برَضْوَى عنـده عسل وماء

وآنظر الى هذه الأبيات يفخر بها بتلطف آبن الحنفية به وعطفه عليه وسؤاله عنـــه :

أقـــرّ الله عيــنى إذ دعانى * أمينُ الله يلطف فى السـؤال
وأثنى فى هواى علىّ خـــيرا * ويسأل عن بنىّ وكيف حالى
وكيف ذكرت حال أبى خُبَيْب * وزلّة فعـله عنـــد السؤال
هو المهـــدىّ خَبَّرْناه كعبٌ * أخو الأحبار فى الحِقَب الخوالى

وأبو خبيب هذا هو عبد الله بن الزبير . وليس من شك فى أن محمد بن الحنفية كان يحمد لكثيرٍ نضاله عنه وهجاءه لآبن الزبير . ولكن البيت الأخير من هذه المقطوعة يلفتنا بنوع خاص ؛ لأنه يمثل عقلية كثير وأمثاله من غلاة الشيعة الذين كانوا صادقين فى غلوهم يستبيحون فيه الكذب و يعتقدون مع ذلك أنهم لا يكذبون ؛ ذلك أن كثيرا لم يلق كعب الأحبار ، ولا يمكن أن يكون كعب قد خبّره بما ذكر من أن آبن الحنفية هو المهدى . وقد سأله بعض معاصريه : أأخبرك كعب حقا ؟ قال : لا ، قال محدثه : وإذًا فكيف قلت ما قلت ، أجاب : بالتوهم . وكذلك كان السيد الحميرى يتلمس الفرص و ينتحلها اذا لم يجدها ، ليذيع فضل بنى هاشم و يثبت حقهم فى الإمامة .

على أن شيئا واحدا يعنينا من أمر كثير مع بنى هاشم ، وهو أنه كان صادقا فى حبهم ، وكان ساذجا فى هذا الحب أيضا ؛ وكان هـــذا الحب الصادق الساذج ينتهى به أحيانا إلى شىء من الحنان مؤثر شديد التأثير، وينتهى به أحيانا إلى شىء من الغفلة مضحك شـــديد الإضحاك : كان شديد العطف على أطفال بنى هاشم يسميهم

الأنبياء الصغار، ويقول كلما رآهم : بنفسى الأنبياء الصغار . وكان يأخذ عطاءه فيمر بالكتّاب حيث كان أطفال بنى هاشم فيهب لهم الدراهم .

قال الرواة : وكان مع هؤلاء الأطفال صبىٌّ من ولد عثمان وكان أخا هؤلاء الأطفال الهاشميين لأمهم ، وكان يختلف معهم إلى الكتاب ، وكان إذا رأى كثيرًا يفرق الدراهم على إخوته تعلّق به وقال ياعم : هب لى ، فيجيبه : لا ، لست من الشجرة .

قلت : إن هذا الحب الصادق الساذج لبنى هاشم كان ينتهى بكثير الى الغفلة أحيانا . وكان بنو هاشم يعلمون من كثير وغيره من شيعتهم صدق هذا الحب وسذاجته فلا يحجمون عن آستغلاله والانتفاع به .

ويحدّثنا الرواة أن أبا هاشم عبد الله بن محمد آبن الحنفية كان يعلم من كثير هذه السذاجة ويريد أن يمسكه فيها ويحتفظ بسلطانه عليه ، فكان يكلف أرصادا من أصحابه أن يرقبوا كثيرا وينقلوا اليه مختلف أمره ، فإذا حضر كثير مجلسهم قال له : قلت كذا وكذا وفعلت كيت وكيت فيبهر كثير ، حتى قال له ذات يوم : أشهد أنك رسول الله .

كان بنو هاشم يستغلّون حب كثيّر ويقبلون منه نفاقه ومدحه لبنى أمية . ولم لا ! ألم يك بنو هاشم أنفسهم يدارون بنى أمية ويسالمونهم ما عجزوا عن مناوأتهم وإشهار الحرب عليهم . ثم أى الأحزاب السياسية يستطيع أن يستغنى فى أى عصر من العصور عن هؤلاء المنافقين السياسيين الذين أتيحت لهم ألسنة طوال وأخلاق مرنة ، فهم ينتفعون وينفعون .

ولهذا كان بنو أمية يصنعون مع كثير صنيع بنى هاشم ، فيقبلون منه نفاقه السياسى ويقرونه عليه ، وكانوا يعلمون حق العلم أنه ليس صادقا فى مدحهم ولا مخلصا فى الدفاع عنهم ، وكانوا مع ذلك يجيزونه ويقربونه ويستزيدون مدحه ويذيعون هذا المدح فى القصر وفى دمشق وفى العراق حيث كان خصومهم السياسيون بنوع خاص .

وهـذه الحادثة تعطيك صورة من المداراة السياسية وحرص الزعماء السياسيين المهرة على آستغلال النفاق السياسى :

قالوا : لمـا خرج عبد الملك لحرب مصعَب بن الزبير لحظ فى عسكره «كثيّرا» يمشى مطرقا وكأنه حزين، فدعاه فسأله أتصدقنى إن انبأتك بمـا فى نفسك؛ قال : نعم؛ قال : فاحلف بأبى تراب، فحلف كثير بالله ليصدقنه؛ قال عبد الملك : لابد من أن تحلف بأبى تراب، فحلف له بأبى تراب؛ قال عبد الملك : تقول فى نفسك رجلان من قريش يلق أحدهما الآخر لحربه فيقتله والقاتل والمقتول فى النار، وماآمن أن يصيبنى سهم فيقتلنى فأكون معهما؛ قال كثير : ماأخطأت يا أمير المؤمنين، قال عبد الملك : فعد من قريب وأمر له بجائزة . وكان عبد الملك إذا أراد الصدق من كثير فى أمر من الأمور لايرضى منه إلا أن يحلف بأبى تراب .

إذًا فقد كان كثير لا يخفى على بنى أمية تشيعه للهاشميين، وكان مع ذلك يمدحهم ويأخذ جوائزهم، أى إنه كان يأجر نفسه من خصومه السياسيين ، وكان خصومه السياسيون يقبلون منه هذا فرحين به مبتهجين له . ومن ذا الذى لا يبتهج بأن يرى خصمه السياسى يهين نفســه ويذلها فيمدحه ويقدّمه رغبة فى المـال ! وكذلك كانت صلة السيد الحميرىّ بالعباسيين .

أظنك الآن قد استطعت أن تمثل شخصية كثيّر . وما هى بالشخصية الجذابة ولا التى تستهوى النفوس وتستثير العطف .

واذا كان كثير بغيضا الى هذا الحد فليس من السهل ولا من اليسير أن يستهوى النساء ويستصبيهن وقد برأه الله من جمال الصورة كما برأه من جمال الأخلاق . ومن هنا لا أميل الى تصــديق ما يرويه الرواة من ان نساء المدينــة آحتفلن بكثير يوم مات . فان كنّ قد فعلن شيئا من هــذا فما أظن مصدر ذلك إلا أن كثيرا كان شاعرا ممتازا وكان يذكر النساء فيحسن ذكرهن . وأظن أن قد آن لنا أن نذكر شيئا عن حب كثير .

فأول شيء نذكره أن كثيرا كان كاذبا فى حبه ، كما أنه كان كاذبا فى نسبه ، وكما أنه كان كاذبا فى موقفه السياسى . وأنا أعتقد أن كثيرا رأى شعر الغزلين وكلف الناس به فتعاطى هـذا الفن كما تعاطاه الغزلون تمرينا لقوته الشعرية . وقلنا كان كثيّر مغرورا تياها : كان — كما يقول الجاحظ — قصـيرا ويزعم أنه طويل دميما ويرى أنه جميـل . وقد رأى البدع فى أيامه عنـد أهل الحجاز أن تكون لكل شاعر خليلة يذكرها ويهيم بحبها فأراد أن تكون له كغيره من الشعراء خليلة ، فذكر عزّة ، وأكثر من الهيام بهـا . والرواة أنفسهـم يقولون : إن كثيرا كان مدعيا للعشـق لا عاشقا ، ويروون فى ذلك أحاديث تجدها فى الأغانى . ولست أستطيع أن أقول إن هـذه الأحاديث صحيحة أو غير صحيحة ، ولكنى اتخذها دليلا على أن حب كثير لم يخدع الناس قديما فلا ينبغى أن يخدعنا الآن .

ليس من الحق إذًا أن نقـرنه الى جميل ولا الى ابن ذريح ، ولا أن نقـدمه على أحد من هؤلاء الغزلين . بل ليس من الحق أن نعده غزلا ، وإنمـا هو شاعر أراد أن يكون غزلا فعالج الغزل معالجـة فنية خالصة ، ولعله إن لم يوفق فى تكلف الحب وفّق فى تكلف الغزل ، ولكننا لا نستطيع أن نقبل ذلك ولا أن نرفضـه ، لأن ما لدينا من غزل « كثيّر » أقل من أن يبيح لنا ذلك . ومع هذا فإنى أختم هذا الحديث بهذه الأبيات التى تكاد تكون وحدها كل ما بقى من غزل كثير ، وأنا أرى أن فيها من جودة اللفظ ورصانة الأسلوب شيئا كثيرا ولكنها خاليـة خلوّا تاما من صدق اللهجة وحرارة العاطفة :

خليلىّ هـذا رسمُ عزّةَ فاعقِلا * قَلُوصيكما ثم أبكيا حيث حلَّتِ
وما كنتُ أدرى قبل عزّة ما البكا * ولا موجعاتِ القلب حتى تولّت
فليت قَلوصى عند عزّة قُيِّدت * بحبـل ضعيف بان منها فضلّت
وأصبح فى القوم المقيمين رحلها * وكان لها باغ سواى فبلّت
فقلت لهـا ياعزّ كل مصـيبة * إذا وُطِّنت يوما لها النفس ذلّت

أسيئي بنـا أو أحسنى لاملومةً * لدينـا ولا مقليّــةً إن تقلت
يكلّفها الغيْران شمى وما بها * هوانى ولكن للمليك آستذلّت
هنيئا مريئـا غـيرَ داء مخامر * لعزة من أعراضنا ما آستحلت
تمنيتهـا حـتى إذا مارأيتهـا * رأيت المنايا شرّعا قـد أظلت
كأنى أنادى صخرةً حين أعرضت * من الصمّ لو تمشى بها العُصْم زلّت
صـفوحا فـا تلقاك إلا بخيـلة * فمن ملّ منها ذلك الوصل ملت
وإنى وتهيـامى بعـزة بعـد ما * تخلّيتُ ممـا بيننـا وتخلّت
لكالمرتجى ظـلَّ الغمامة كلما * تبـوأ منها للمقيـل آضمحلت

*

زعيم الغزلين (1)

عمـــر بن أبى ربيعـــة

تمهيـــــد

نعم ! هو زعيم الغزلين من أهل الحضر فى عصره، لا يختلف فى ذلك الناس. وقد تحس فيما تقرؤه من أخبار هؤلاء الغزلين أن الرواة كانوا يضعون عمر من أهل الحضر بإزاء جميل من أهل البادية ، فكأن عمر كان زعيم الغزل الحضرى حينما كان جميل زعيم الغزل البدوى . ولكن شعر جميل قد ضاع ولم يبق لنا منه إلا شىء قليل جدا، فلم يبق سبيل الى المقارنة بينه وبين عمر الذى حفظ الدهر لنا شعره كله أو أكثره، والذى استقامت لنا أخباره وصحت لنا طائفة من الحوادث المتصلة بحياته، فأصبح من اليسير أن ندرسه ونعان فيه رأيا صحيحا أو مقاربا .

ومهما تكن مكانة جميل من شعراء البادية والحاضرة، فليس من شك فى أن عمر ابن أبى ربيعة كان مقدما عليه عند أهل عصره . ويجب أن يظل مقدما عليه من الوجهة الفنية، لأنا لا نعرف شاعرا عربيا أمويا آفتن فى الغزل افتنان عمر . فعمر اذن زعيم الغزلين الأمويين جميعا لا نستثنى منهم أحدا ولا نفرق فيهم بين أهل البادية وأهل الحاضرة. بل نحن نذهب الى أبعد من هذا، فنزعم أن عمر بن أبى ربيعة زعيم الغزلين فى الأدب العـربى كله على اختلاف ظروفه وتباين أطواره منذ كان الشعر العربى الى الآن .

وليس هذا بالشىء الذى يحتاج إثباته الى عسر ومشقة، فإن الغزل العربى الخالص لم يوجد مرتين وإنما وجد مرة واحدة فى أيام بنى أمية ، ولم يكن له قبل الإسلام

(1) نشرت بجريدة « السياسة » فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢٤ م .

وجود مستقل ، ولم يكن الشعراء الجاهليون يعنون به إلا على أنه وسيلة شعرية الى ما كانوا يذهبون فيه من مذاهبهـم الشعرية المختلفة . ولا نكاد نعرف بين الجاهليين شاعرا قصر حياته الشعرية على الغزل ؛ بل قليل جدا عدد القصائد الجاهلية التى لم يتناول فيها أصحابها إلا الغزل وحده .

أما عصر بنى العباس فلم توجد فيه مدرسة غزلية، إن صح هذا التعبير الحديث . ولسنا نجهل أن الشعراء العباسيين قد تغزلوا ونسبوا وأتقنوا الغزل والنسيب . ولكنا نزعم أنهم لم ينقطعوا للغزل ولم يسلكوا فيه سبيل أصحابنا هؤلاء الذين ندرسهم فى هذه الأحاديث، وإنمـا كانوا كالجاهليين يتخذون الغزل وسيلة شعرية ، أو يتعاطونه كما يتعاطون غيره من الفنون .

واذا كان الشعراء العباسيون قد ٱستحدثوا فى الأدب العربى شيئا ، فهم لم يستحدثوا الغزل . وأكاد أقول إنهم ٱنصرفوا عنه الى شىء آخر، أو أكاد أقول إنهم حوّلوا الى شىء آخر، هو العبث والمجون .

أعلم أنك ستذكر العباس بن الأحنف ، وقد ذكرته أنا أيضا ؛ ولكنه استثناء يثبت القاعدة . ويكفى أن تقرأ شعر العباس لتعلم أنه كان غريبا فى عصره، وأنه «سقط بين كرسيين» كما يقول الفرنسيون؛ فلم يبلغ إتقان الغزلين من شعراء بنى أمية، ولم يبلغ إجادة العابثين من شعراء بنى العباس؛ وإنمـا جاء فاترا قلما يترك فى النفس أثرا قويا؛ لأن الفن الذى أراد أن يختص به كان قد ٱنقضى عصره وٱنتهت الأسباب التى أوجدته ومكنت الناس من إتقانه والإجادة فيه .

واذا كان العصر العباسى قد خلا من مدرسة غزلية خالصة، فما أحسبك تريد أن تعرض للعصور الأخرى التى جاءت بعده، فهى فيما أعتقد لا تستحق عنايتنا الآن .

لم يوجد الغزل فى الأدب العربى مرتين كما قلت (واذا كان عمر بن أبى ربيعة هو زعيم الغزلين فى العصر الأموى، فيجب أن يكون زعيم الغزل فى الأدب العربى كله)؛ على أن هناك وجوها أخرى تحملنا على أن نؤكد أن الغزل لم يوجد مرتين .

ولست أذكر منها إلا هذا الوجه الفنى (فأنت مهما تقرأ من الغزل العربى، فلن تجد فى هذا الغزل ما تجده فى الغزل الأموى من صدق اللهجة وصفاء الطبع، ومن التمثيل الصادق الصحيح لنفس الشاعر، بل لنفس الجماعة التى يعيش فيها، ومن إظهار هذه النفس على ما كانت عليه من سذاجة جذابة وسهولة محببة الى القلوب . لن تجد شيئا من هذا كله فى غزل العباسيين وأهل الأندلس وغيرهم من شعراء البلاد العربية المختلفة) وانما أنت فى هذا الغزل بإزاء فن شعرى ظهر فيه التكلف اللفظى والمعنوى، وعظم فيه أثر الصنعة، واصطبغ بهذه الصبغة الحضرية التى تحملك دائما على أن تقرأ الشىء وأنت تقدر أن صاحبه ليس صادقا فيه وأنه يتكلف ويتصنع ليلائم عصره وبيئته، وليرضى الناس أو يفتنهم .

أما الغزل الأموى فقد كان شيئا غير هذا كله . ولا تحسبنى قد فتنت بهذا الغزل فأنا أسرف فى مدحه والثناء عليه وأتجاوز الحد فى تقديمه على غيره من ألوان الغزل العربى . فأنا بعيد كل البعد عن هذه الفتنة؛ وأنا مجتهد كل الاجتهاد فى أن يكون رأيى صادقا بريئا من الهوى (وأنا أجد فى هذا الغزل الأموى شيئا هو الذى يحببه إلىّ ويحملنى على تقديمه، وهو أنه لم يخلص من السذاجة البدوية ولم يبرأ من تأثير الحضارة الجديدة : ففيه من البداوة سذاجة تستخفك وتستصبيك، وفيه من الحضارة طلاء يبعث فى نفسك الميل الى الاستقصاء والاستطلاع . وأنت تجد بعد هذا كله عذوبة ولذة فى هذا المزاج الذى يتألف منه الغزل الأموى، والذى يمثل لك هذا الشعب العربى البادى وقد أخذ يحضر ويترف ويحس على بداوته كما يحس الحاضرون المترفون).

قلت : إن هذا الغزل الأموى يمثل نفس الشاعر والجماعة التى كان يعيش فيها تمثيلا صادقا صحيحا . (ومن هذه الناحية أرى أن عمر بن أبى ربيعة هو زعيم الغزليين الأمويين حقا،) وأن الأدباء والمؤرخين لن يستطيعوا أن يقدروا هذه النعمة التى أتيحت لهم حين حفظ الدهر لهم شعر عمر بن ربيعة كله أو أكثره. (فلست أعرف

شاعرا إسلاميا استطاع ان يمثل العصر الذى كان يعيش فيه والبيئة التى كان يحيا فيها كهذين الرجلين اللذين نستطيع أن نتخذهما مرجعا فى درس الجماعة التى كانت تحيط بهما. تريد أن تدرس العراق فى صدر الدولة العباسية ، وأن تدرس مدينة بغداد أيام الرشيد والأمين خاصة، فارجع الى أبى نواس . تريد أن تدرس حياة الحجاز فى صدر الدولة الأموية، فارجع الى ابن أبى ربيعة. وليس من شك فى أنك ستجد شيئا كثيرا نافعا فى درس مسلم بن الوليد، وفى درس الحسين بن الضحاك، وأبى العتاهية، كما أنك ستجد شيئا كثيرا نافعا فى درس العرجى، والأحوص، وابن ذريح . ولكنك لن تجد عند واحد من هؤلاء، بل لن تجد عند هؤلاء مجتمعين ما ستجده عند أبى نواس من تمثيل الحياة البغدادية على وجهها، ولا ما ستجده عند عمر بن أبى ربيعة من تصوير الحياة الحجازية على حقيقتها . تلك نعمة يتيحها الدهر من حين الى حين للباحثين عن التاريخ الأدبى حين يظهر لهم شاعرا أو كاتبا قد انتهت اليه كل الخلال كما ظهرت فيه كل النقائص التى كانت تمتاز بها بيئته والتى كانت بعيدة الأثر فى عصره . وإنما يظهر هؤلاء الشعراء والكتاب فى العصور التى تقوى فيها الحياة الأدبية قوة خاصة ممتازة، كذلك العصر الأموى فى الحجاز، وكذلك العصر العباسى فى بغداد .

تريد أن تشخص الحياة العباسية أيام الرشيد والأمين ، فلن تجد لها تشخيصا أقوى ولا أظهر ولا أصدق من أبى نواس . فإذا أردت أن تشخص حياة القرن الثالث فلن تجد ذلك عند البحترى ولا عند أبى تمام ولا عند شاعر من الشعراء، وانما أنت واجد ذلك عند الجاحظ؛ لأنه الكاتب الوحيد الذى انتهت اليه كل الخلال كما ظهرت فيه كل النقائص التى كان يتأثر بها العقل البغدادى فى ذلك العصر، والتى جاءته من قوة الحياة الأدبية والفلسفية معا .

ولكنى بعدثت بك بعض الشىء عن عمر بن أبى ربيعة. وما بعدت بك عنه إلا لأدنيك اليه (فأنا أقول إنه أصدق مثال للعصر والبيئة اللذين كان يعيش فيهما. وإن المؤرخ الذى يريد أن يدرس حياة الأرستقراطية القرشية فى الحجاز أثناء القرن الأول

للهجرة يجب أن يلتمس هـذه الحياة فى شعر عمر بن أبى ربيعة قبـل أن يلتمسها فى أخبار التاريخ وحوادثه المختلفة . فسيجد فى هـذا الشعر كيف كان سراة قريش والحجاز يقضون حياتهم الهادئة الفارغة ، بل سيجد فى الشعر ألوان الصلات المختلفة الحلوة المبتسمة التى كانت تصل بين هؤلاء السراة .

﴿ والمؤرخ الذى يريد أن يدرس حياة المرأة العربية المترفة فى هذا القرن الأول يجب أن يلتمس هذه الحياة فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، فلن يظفر فى مصدر آخر من مصادر الأدب والتاريخ بمثل ما يظفر به فى هذا الشعر : فيه ترى المرأة العربية المترفة واضحة جلية الصورة تنفق حياتها فى هذه الدعة والنعمة اللتين على عفتهما وطهارتهما لا تخلوان من لهو ودعابة ، ولا من عبث وفكاهة . والمؤرخ الذى يريد أن يدرس الصـلة بين الرجال والنساء فى هذا العصر يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبى ربيعة ، فسيجد منه فى شعر هذا الشاعر كل ما أراد ﴾

﴿ لا تلتمس فى شعر عمر بن أبى ربيعة وصفا للحياة السياسية الأموية ، فلن تكاد تظفر من هذا بشىء صريح . ذلك لأن صاحبنا هذا قد اجتنب السياسة فى حياته اجتنابا تاما ، وانقطع للحب شطرا من حياته ، وللنسك الهادئ شطرا آخر ، فلم يغضب حزبا من الأحزاب ولم يوال حزبا آخر ، وإنما كان رجلا مترفا من قريش ترك السياسة لأصحابها وانصرف الى الحياة يأخذ منها كل ما كانت تستطيع أن تمنحه من لذة ونعمة ، حتى اذا استوفى من ذلك حظه وأحس أن الوقار خليق به ، انصرف عن الاضطراب والعبث إلى حياة هادئة مبتسمة تزينها الذكرى ، حتى فارق هذه الحياة راضيا كما عاش فيها راضيا ﴾.

وكان انقطاعه عن السياسة مصدر خير للمؤرخ الذى يريد أن يدرس الحياة الأدبية والاجتماعية فى الحجاز ، لأنه لن يجد فى شعره هذه الأهواء السياسية التى تلبس الحق بالباطل أحيانا وتظهر الخطأ مظهر الصواب أحيانا أخرى . ومع هذا فنحن مدينون للسياسة الأموية بشعر عمر بن أبى ربيعة وما فيه من آيات أدبية خالصة من كدر السياسة . نحن مدينون بهذا الشـعر لهذه السياسة الأموية . فلولا أنها وقفت من

شباب قريش ومترفى الحجاز هـذا الموقف الذى وصفناه لك غير مرة فحالت بينهـم وبين الحياة العاملة وقصرتهم فى الحجاز على اللهو والترف ، وأوجدت منهـم فى مكة والمدينة هذه الجماعات التى جمعت بين ذكاء القلب وحدّة الشعور ورقة الحس وشرف المكانة وضخامة الثروة . لما ظهر شاعر كعمر بن أبى ربيعة (ليس شعره فى حقيقة الأمر إلا خلاصة صادقة لحياة هـذه الجماعات الحجازية المترفة) وكذلك تنتفع الحياة الأدبية أحيانا بما لا تجد منه الحياة السياسية إلا شرا ونكرا . فهذا الذكاء القـرشى الذى حرمت السياسة العربية منافعه حينا ، والذى كان من الممكن أن يغير الوجهة السياسية لحياة المسلمين لو لم يكره على الانصراف الى اللهو — هذا الذكاء انصرف إلى ما أريد أن ينصرف اليه ، فأنتج لنا هذه الحياة الأدبية الباهرة .

كان عمر بن أبى ربيعة من أسرة قرشية عظيمة الحظ من الشرف والمجد ، بعيدة الصوت فى آخر العصر الجاهلى ، ضخمة الثروة جدا ، قد أفادت ثروتها الضخمة من التجارة بين الحجاز واليمن . وكان لهـذه الأسرة رقيق كثير يذكرنا بما نقرأ فى أخبار الاغنياء من اليونان والرومان ، حتى إن من المسـلمين من عرض على النبى (صلعم) أن يستعين فى بعض غزواته بأحباش ابن أبى ربيعة . وكان عبد الله بن أبى ربيعة أبو شاعرنا من وجوه قريش وأهل الذكاء فيهم ، يقال إنه عمل فى ولايات النبى (صلعم) وأبى بكر وعمر وعثمان ؛ ولكن ابنيه الحارث وعمر أقصيا عن السياسة الأموية إقصاء .

أما الحارث فقد استعمله عبد الله بن الزبير حين كان الأمر اليه على البصرة . ويقال إن عبد الملك بن مروان أكثر الثناء عليه حين علم باستعمال عبد الله بن الزبير إياه . وكأن عمله لابن الزبير قد صرف عنه الأمويين ، فلم يسمع له ذكر فى الحياة العامة بعد أن تم النصر لبنى أمية . على أنه لم يعجب أهل البصرة ، ونحن نجد فى الأغانى شعرا يطلب من ابن الزبير إعفاء البصريين منه

أما عمر فلم تعرض له السياسة ولم يعرض لها، وإنما شب في الشعر ومضى في حياة المترفين دون أن يتصل بحزب ودون أن يتخذ شعره وسيلة إلى الخصومة السياسية، كما فعل قرشي آخر هو ابن قيس الرقيات . وكان يتغزل بالقرشيات جميعا، كما كان يتغزل بغير القرشيات، لا تعنيه صلاتهن الحزبية بل لا يعنيه منهن إلا شيء واحد هو الجمال .

لعلك تذكر براعة ابن قيس الرقيات تلك التي أشرت اليها حين حدثتك عنه، والتي أتاحت له أن يتخذ الغزل وسيلة من وسائل الخصومة السياسية، فاخترع ما سميته الغزل الهجائي، وكان في هذا الغزل عفيفا حلو اللسان مؤدبا حسن الثناء لا يريد إلا أن يغيظ خصومه السياسيين بذكر نسائهم والتحبب اليهن . أما عمر بن أبي ربيعة فلم يصطنع من هذا كله شيئا، وإنما كان صادق اللهجة في غزله كله، لا يريد بالغزل إلا الغزل، ولا يذكر النساء إلا لأنه يحب النساء .

وهناك مسألة عني القدماء بها عناية شديدة، ولا بد من الاشارة اليها والقول فيها : أكان عمر بن أبي ربيعة صاحب لهو وعبث وفتك، أم كان شاعرا لا أكثر ولا أقل ؟ وبعبارة أخرى : أكان عمر بن أبي ربيعة كالعرجي، أم كان كجميل؟ .

أما القدماء فيختلفون اختلافا شديدا، ويرون فيه رأيين متناقضين يضيفونهما إلى عمر نفسه: فمنهم من يقول إن عمر كان صاحب عبث وفجور، ثم يزعم أن سائلا سأله : أكل ما قلته في شعرك فعلته ؟ فأجاب: نعم، وأستغفر الله . ومنهم من يزعم أنه كان صاحب عفة وطهر، وأنه كغيره من الشعراء، كان يقول ما لا يفعل، ويزعمون أنه أقسم الأيمان المحرجة ما أقدم في حياته على حرام، ثم يزعمون أنه عند ما أشرف على الموت رأى أخاه الحارث جزعا مشفقا فقال له كلاما هدأ روعه وأكد له أنه لم يأت مما قال شيئا .

(وليس بين هذين الرأيين المسرفين فيما نعتقد رأي وسط. فلنكن نحن أصحاب هذا الرأي . لا أستطيع ان أصدق مهما يقسم عمر ومهما يقل الرواة أن هذا الشاعر

المترف الذى قضى شبابه فى غير نسك ولا زهد ولا تدين، والذى كان كل شىء يتيح له اللهو والعبث، فكانت له الثروة وكان له الجمال وكانت البيئة كلها بيئة لهو وترف، لا أستطيع أن أصدّق أن هـذا الرجل قضى حياته طاهرا بريئا من كل مجون . ثم لاأستطيع أن أصدّق مهما يقل الرواة ومهما يقل عمر نفسه أن هذا القرشى الشريف ذا المكانة العالية والحسب الرفيع والذى كان متأثرا كغيره من الأشراف بطائفة من النظم والعادات الخاصة ، والذى كان يعيش فى ظل سلطان دينى قوى من الوجهة السياسية، إن لم يكن قويا من الوجهة الخلقية، لا أستطيع أن أصـدقك أنه أنفق حياته كلها فى عبث ولهو وفى فجور ومجون، وانه فعل كل ما قال .

ولنلاحظ قبل كل شىء أن الحجاز لم يخل فى هذا العصر من شعراء عبثوا ولهوا وأسرفوا فى العبث واللهو مضطرين أو مختارين . ولكن لنلاحظ أن هؤلاء الشعراء لم يعيشوا وادعين كما عاش عمر بن أبى ربيعة ولم يظفروا بإجماع الناس على إكبارهم وإجلالهم كما ظفر عمر بن ربيعة .

ومهما تكن الأسباب التى اقتضت محنة العرجى والأحوص فقد محنا وساء بهما ظن فريق من الناس عظيم، وكان أشدّ النـاس بهما حسن ظن لا يرى فيهما من الوجهه الخلقية خيرا .

أما ابن أبى ربيعة فلم ينـله سلطان ابن الزبير ولا سلطان بنى أمية بمكروه، ولم يرو لنا التاريخ أن الناس غلوا فى لومه أو تشددوا فى النعى عليه .

وقد يشير بعض الرواة الى أن أخاه أو غير أخيه لامه وألح عليه، وإلى أنه سافر الى اليمن اجتنابا لمكة وتأديبا لنفسه، فحنّ الى مكة وعاد اليها . ولكن التكلف فى هذه الأخبار ظاهر . وكل ما نستطيع أن نستيقنه منها هو أن ناسا لاموا عمر من جهة، وأن عمر قد سافر الى اليمن كما سافر الى العراق وكما كان يسافر الى المدينة لبعض شؤونه من جهة أخرى

إذًا لم يجد السلطان السياسى سبيلا على عمر كما وجد سبيلا على الأحوص وعلى العرجى . ومع هذا فقد كان أصحاب التقى والمروءة يدعونه الفاسق مازحين مرة وجادين مرة أخرى، وكان النساء يداعبنه بهذه الصفة، وربما وصفنه بها جادات أيضا . وكان أشراف قريش ربما تحرجوا من شعره وآحتاطوا فى حماية نسائهم من روايته والظهور عليه . .

كان هذا كله . ولكن كان من جهة أخرى أن عمر آبن أبى ربيعة لم يكد يترك امرأة شريفة من نساء قريش إلا ذكرها وأسرف فى ذكرها ؛ فقد تغزل بأخت عبد الملك وبنته، وآمرأة سهيل بن عبدالعزيز بن مروان، وتغزل بعائشة بنت طلحة، وتغزل بسكينة بنت الحسين، وتغزل بلبابة بنت عبدالله بن عباس، وتغزل بزينب بنت موسى الجمحى وهند بنت الحارث المرى، وتغزل بإحدى بنات محمد بن الأشعث الكندى من أهل العراق، ونساء غير هؤلاء كثيرات من اشراف مكة والمدينة والشأم والعراق. وكان يتغزل بهن جهرة فى غير تكتم ولا آستخفاء، إلا ما يروى من أنه تحفظ بعض التحفظ فى أمر فاطمة بنت عبد الملك .

والغريب أنه لم يكن يكتفى بإعلان غزله، بل كان يستعين عليه نفرا من أشراف قريش فيعينونه ويجدون فى هذه المعونة لذة وغبطة .

وسنذكر لك مكان آبن أبى عتيق من غزل عمر بن أبى ربيعة، سنذكر لك مكان هذا الرجل الشريف من قريش من غزل عمر، لا أقول من لفظه، بل أقول من حياته الغزلية، وكيف كان يحرص على التوسط بينه وبين صاحبته الثريا .

ألست ترى أن هذا كله خليق بالتفكير وأننا مضطرون الى أن نتوسط بين الذين زعموا أن عمرا كان مسرفا فى الفجور، والذين زعموا أنه كان مسرفا فى العفة، فنرى أنه لم يكن مسرفا فى اللهو كما أنه لم يكن مسرفا فى حسن السيرة ؛ ونرى أنه صادق كل الصدق حين يؤكد أنه لم يقدم على حرام، ولكن صدقه هذا مقصور على طائفة من شريفات قريش وغير قريش . فليس من شك فى أن صلته

بأخت عبد الملك وبنتـه وبسكينة بنت الحسـين ولبابة بنت عبـد الله بن عباس وعائشة بنت طلحة كانت طاهرة كل الطهر بريئة كل البراءة من الإثم، كانت لفظية ليس غير .

بل لست أدرى : أحق ما يروى من أن فاطمة بنت عبـد الملك حرصت على أن تراه واحتالت فى ذلك الى آخر ما سنذكره ؟ وأكبر ظنى أنه لم يتجاوز أن احتال فى رؤيتها ثم تغزل بها ،وأن هذا الغزل وقع من فاطمة موقعا حسنا ،ولعلها كانت تطمع فيه ، وإذًا فهو لم يقدم على غرامٍ مع هذه الطبقة من النساء .

ولكن أنستطيع أن نقول إن سيرة عمر مع النساء جميعا كانت كسيرته مع هؤلاء الشريفات ؟ أنستطيع أن نقول : إن هـذا الرجل الذى لم يعرف الأدب العربى الإسلامى إلى عصره شاعرا وصف اللهو بالنساء كما وصفه قد أنفق حياته (كما قال بعض الرواة — يصف ولا يقصف ويحوم ولا يرد ؟ كلا ! كان عمر بن أبى ربيعة مسرفا فى وصف اللهو، مقتصدا فى اللهو نفسـه . ومن زعم أنه صادق حقا حين يقسم ما أقدم على حرام فهو مخـدوع . ومن زعم أنه صادق حقا فى أنه فعـل كل ما قال فهو مخدوع أيضا)

« إنما كان عمر يعيش عيشة الرجل المترف الذى أتيحت له أسباب اللهو ووسائله ؛ ولكنه مع ذلك مقيد بشرفه ومكانته وما ألف الناس من الأوضاع الاجتماعية، فهو يلهو ولكن بمقدار، وهو يصف ولكن بمقدار أيضا .»

ومن هنا كان من الحق أن يكون عمر بن أبى ربيعة بإزاء جميل،أى أنه كان رئيس مذهب فى الغزل الإباحى كما سميناه غير مرة؛ لأنه لم يكن يتغزل فى الهواء ولا يطمح إلى المثل المعنوى الأعلى ليس غير، وإنما كان يعيش فى الأرض ويستبيح لنفسه من اللذات ما أباح له الدينُ وما لم يبح ، بينما كان جميل زعيم هذا الغزل العذرى العفيف

الذى لم يكن يطمح إلا إلى المثل الأعلى والى الجمال من حيث هو ، ولا يبتغى لذة ولا يستبيح شيئا لم يبحه الدين ولم ترض عنه الأخلاق .

على أنى لم أحدثك إلى الآن إلا بأشياء عامة ولم أعرض بعدُ لدرس مفصّل دقيق لشعر عمر بن أبى ربيعة . وأنا مضطر الى ذلك ، فليس عمر بن أبى ربيعة بالذى يستطيع الباحث أن يدرسه فى حديث واحد . ولا بد لى أن أحدثك عنه حديثا آخر، وقد أحتاج إلى غير حديث .

أما اليوم فأنا أختم هـذا الفصل بشىء أنقله لك عن القدماء يختصر رأيهم فيه اختصارا حسنا ،وهو رأى مصعب بن عبد الله الزبيرى ، وقد تناقله عنه رواة العصر العباسى ، وحرصوا عليه فكأنهم يقرونه ، بل قل : إنهم يقرونه عليه . و إذًا فهذا الرأى تستطيع أن تأخذه على أنه رأى القدماء جملة فى شعر عمر . ولست أنقل لك كل ما يروى القدماء عن مصعب ، فذلك يقصر عنه هذا الحديث ، و إنما أروى لك منه جملة صالحة . فإذا كان الفصل الآتى فسأجتهد فى أن أفصل بعض التفصيل رأيى فى شعر عمر .

قال مصعب : راق عمر بن أبى ربيعة الناس وفاق نظراءه و برعهم بسهولة الشعر ، وشدّة الأسْر ، وحسن الوصف ، ودقة المعنى ، وصواب المصدر ، والقصد للحاجة ، واستنطاق الربع ، و إنطاق القلب ، وحسن العزاء ، ومخاطبة النساء ، وعفة المقال ، وقلة الانتقال ، و إثبات الحجة ، وترجيح الشك فى موضع اليقين ، وطلاوة الاعتذار ، وفتح الغزل ، ونهج العلل ، وعطف المساءة على العذال ، وأحسن التفجع ، وبخّل المنازل ، واختصر الخبر وصدق الصفاء ، إن قدح أورى ، و إن اعتذر أبرى ، و إن تشكّى أشجى ، وأقدم عن خبرة ولم يعتذر بغرّة ، وأسر النوم ، وغم الطير ، وأغذّ السير ، وحيّر ماء الشباب ،

وسهّل وقوّل، وقاس الهوى فأربى، وعصى وأخلى وحالف بسمعه وطرفه، وأبرم نعت الرسل وحذّر، وأعلن الحب وأسرّ، وبطن به وأظهره، وألح وأسفّ، وأنكح النوم، وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه، وأذلّ صعبه، وقنع بالرجاء من الوفاء، وأعلى قاتله، واستبكى عاذله، ونقّض النوم، وأغلق رهن مِنًى، وأهدر قتلاه، وكان بعد هذا كله فصيحا .

فمن سهولة شعره وشدّة أَسْره قوله :

فلما توافَيْنا وسلّمت أشرقت * وجوه زهاها الحسنُ أن تتقنّعا

تَبَالَهْنَ بالعِرفان لما رأينني * وقلن امرؤ باغ أكَلَّ وأوضعا

ومن حسن وصفه قوله :

لها من الريم عيناه وسُنّته * وعزة السابق المختال إذ صهلا

ومن دقة معناه وصواب مصدره قوله :

عوجَا نحيِّ الطلل المحوِلا * والربعَ من أسماء والمنزلا

بسابغ البَوْباةِ لم يعدُهُ * تقادمُ العهد بأن يُؤْهلا

ومن قصده للحاجة قوله :

أيها المنكح الثريّا سُهَيْلًا * عمرَكَ الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلَّتْ * وسهيلٌ اذا استقل يمان

ومن استنطاقه الربع قوله :

سائلا الربع بالبُلَيِّ وقولا * هجتَ شوقاً لى الغداة طويلا

أين حيّ حلّوك إذ أنت محفو * ف بهم آهل أراك جميلا

قال ساروا فأمعنوا واستقلّوا * وبكرهي ولو وجدت سبيلا

سئمونا وما سئمنا جِوارا * وأحبوا دماثة وسُهولا

ومن إنطاقه القلب قوله :

قال لى فيها عَتِيــقٌ مقالا * فجرتْ مما يقول الدموعُ

قال لى ودع سليمى ودعها * فأجاب القلب لا أسـتطيع

ثم يمضى مصعب فى الاستدلال بالأبيات من شعر عمر على ما قدم من وصفه فيما رويت لك ، وذلك أطول من أن أتم روايته؛ فاقرأه فى الجزء الأول من الأغانى إن شئت. بل أنا أشير عليك أن تقرأه لتتمثل رأى القدماء فى عمر ووجهتهم فى نقده قبل أن نأخذ نحن فى درسه منذ الأسبوع الآتى .

خاتمـــة القول فى الغزلين[1]

الحب فى شعر ابن أبى ربيعة

أظنك لم تنس حديثنا الماضى عن عمر بن أبى ربيعة. وأظنك تذكر ذلك الرأى الذى ختمت به ذلك الحديث، وقلت: إنه يمثل رأى القدماء فى زعيم الغزلين، وهو رأى مصعب بن عبد الله الزبيرى الذى تناقله الرواة على اختلافهم وتباين أهوائهم وأعجبوا به، وحفظه لنا صاحب الأغانى. فكان هذا كله مرآة لرأى هذه الطبقات فى عمر بن أبى ربيعة، بحيث نستطيع أن نقول: إنه يمثل رأى القرن الثانى والثالث فى هذا الشاعر.

أعترف بأنى قرأت حديث مصعب بن عبد الله هذا مع شىء من اللذة كثير، وأحسست شيئا عظيما من الغبطة، لأن صاحب الأغانى استطاع أن يرويه فى جملته حتى يخيل اليك وأنت تقرؤه أنه فصل كامل من كتاب، أو أنه نص كامل لمحاضرة ألقاها هذا الأديب. ومن ذا الذى لا يغتبط حين يظفر بشىء كهذا! ولست أريد أن أنقد هذا الرأى ولا أن أناقشه. وإنما نقلته لك لترى كيف كان القدماء من أصحاب اللغة والأدب ينظرون فى الشعر ويحكمون عليه. وكيف كانوا يقدرون عمر ابن أبى ربيعة ويعجبون به الى غير حدّ.

وأنا أعلم حق العلم أن طريقة القدماء فى فهم الشعر والحكم عليه لا ترضينا ولا تقنعنا ولا تلائم ذوقنا الحديث وأطماعنا العلمية الواسعة. فهم كانوا يتعجلون الحكم تعجلا، ويجتزئونه اجتزاء، ويعممون فى غير موضع للتعميم. وهم كانوا

(1) نشرت بجريدة « السياسة » فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٤ م.

لا يستطيعون أن يتصوروا أن لشعر الشاعر وحدة يجب أن تدرس ، ويجب أن يتبين فيها الناقد شخصية الشاعر وقوته . وهم كانوا يجهلون أو يكادون يجهلون هذه الشخصية وينظرون لا الى القصيدة ولا الى المقطوعة بل الى البيت أو البيتين ، فيحكمون بأن الشاعر أشعر الناس فى هذا المعنى . وربما حكموا بأنه أشعر الناس فى كل شئ ؛ لأنه قال بيتا راقهم أو شطرا وقع منهم موقعا حسنا . وهم كانوا الى هذا كله يغمضون فى ألفاظهم ويعمدون الى معانى مبهمة بحيث لا تستطيع أن تتبين آراءهم كما هى ؛ فهم يذكرون الديباجة ، والحاشية ، والأديم ، وما الى ذلك من ألفاظ مستعارة يعجبك وقعها ويخطئك معناها الدقيق .

أعلم هذا كله ولكنى مع ذلك أحب هؤلاء القدماء ، وأحب آراءهم ، وأجد فى قراءتها لذة وبهجة ، والى تفهمها راحة واطمئنانا . واذا أخطأنى رأيهم الدقيق فى الشعر أو حكمهم الصحيح عليه ، فإنى أجد نقدهم مرآة صادقة لنفس جذابة حلوة أحب أن أخلو اليها من حين الى حين .

نعم ! إن رأى مصعب بن عبد الله الزبيرى لا يعطى صورة واضحة من عمر ابن أبى ربيعة ولا من شعره ؛ ولكنه يعطى صورة واضحة من مصعب نفسه ومن أصحابه الذين استمعوا له وحفظوا عنه ، ومن الرواة الذين تناقلوا هذا الحديث وخلدوه . وليس هذا بالشيء القليل . ثم من الذى يستطيع أن يزعم لك أن الأجيال المختلفة تستطيع أن تفهم الأدب على وجه واحد ، وتصدر فى الحكم عليه عن مصدر واحد ! وكيف السبيل الى ذلك وأنت لا تستطيع أن تضمن تشابه أطوار الحياة وظروفها فى الأجيال والبيئات المختلفة ؟ واذن فلا تستطيع أن تضمن تشابه الذوق . واذن فلن تستطيع أن تضمن تشابه النقد . واذن فلن ينبغى لك أن تطلب الى القدماء ما تطلبه الى المحدثين . ولئن عجبت لشيء فانما أعجب لهذه الميول والأهواء التى قد يشترك فيها القدماء والمحدثون على تباين الأطوار واختلاف الظروف وتبدل أحوال الحياة . أقول هذا كله بعد أن فرغت من قراءة رسالة صغيرة ، ولكنها

ممتعة قيمة للدكتور « زكى مبارك » خرِّيج الجامعـة المصرية ، تناول فيهـا شعر عمر بن أبى ربيعة فدرسه من بعض نواحيه درسا حسنا يسرنى أن أهنئه به ، ويسرنى أيضا أن أنتهز هذه الفرصة لتسجيل ما للجامعة المصرية من فضل على عقول الشباب . ولكن الدكتور « زكى مبارك » ، وهو شاب حادّ الشباب عنيفه ، قد أسرف فى نقد مصعب بن عبد الله إسرافا جعله الى الظلم أقرب منه الى الإنصاف . وليس مصدر هذا الإسراف الا أنه لم يقدر كما ينبغى اختلاف المُثُل الأدبية باختلاف العصور والاجيال . وما أحسب الا أنه عائد الى هذا النقد فلطف مافيه من حدّة ومزيل ما فيه من جور .

(كان القدماء مجمعين أو كالمجمعين على إكبار عمر بن أبى ربيعة وتقديمه ، يستوى فى ذلك خصومه وأنصاره . فقد كان ضربا من الإكبار والتقديم هذا التحرّج من رواية شـعر عمر ، وهذا الإشفاق من أثره فى الفتيان والفتيات . فلم يكن لهـذا التحرّج والإشفاق مصدر إلا الاعتراف بأن هذا الشعر قوى خلاب ساحر للنفوس .

ولكن من أى ناحيـة نستطيع أن ندرس شعر عمر بن أبى ربيعـة ؟ أندرسه من حيث هو مرآة للحيـاة الاجتماعية الحجازية فى القرن الأوّل للهجرة ، أم ندرسـه من حيث هو مظهر من مظاهر الحيـاة الأدبيـة فى ذلك العصر ، أم ندرسـه من حيث هو مرآة لنفس المرأة الحجازية وحياتهـا بوجه عام ، أم ندرسـه من حيث قيمته الفنيـة فى لفظه وأسلوبه ومعناه ، أم ندرسه من حيث عبث الرواة به وإضافتهم اليه ، أم ندرسه من حيث تطوره ، فقد تطور شعر عمر بن أبى ربيعـة كما تطور بن أبى ربيعة نفسه ؟ ولعل أصدق دليل على أن القدماء أنفسهم أحسوا هذا التطور قول جرير : " ما زال هذا القرشى يهذى حتى قال الشعر " .

أما أن ندرسـه من حيث هو مرآة لنفس عمر ومظهر لشخصيته ومثال لقوّة حسـه ودقة شعوره ، فكل هـذه النواحى خليقـة بالدرس . . وأنا زعيم لك بأنك ستظفر إن درستها بنتائج أدبية وتاريخيـة قيمة جدا . ولكنك تعلم حق العلم أنى

لا أستطيع أن أعرض لهـذا كله فى هذه الأحاديث ، فليست هى مما يسع هـذا البحث العلمى الدقيق . ولو أنى عرضت لها لقضيت فيها سنة أو أكثر من سنة . وقد طلب الىّ بعض أصدقائى منذ حين أن أنصرف عن الغزلين الى غيرهم ، فأجبته الى ما أراد . وأنا أريد أن يكون هـذا الحديث خاتمة القول فى الغزلين . و يسرنى جدا أن يعنى غير واحد من رجال الأدب بالبحث عن كل هـذه النواحى التى أرى أنها خليقة بالدرس من شعر عمر بن أبى ربيعة .

أما أنا فلست أدرس فى هذا الحديث الا ناحية واحدة أو جزءا من ناحية واحدة إن صح هذا التعبير . ولكنى ألفتك اليه ، وأود لو استطاع الباحثون أن يتموه ، فلن أزيد عن الإشارة الموجزة اليه . أريد أن أبحث عن حب عمر بن أبى ربيعة ما هو ؟ وما سبيله ؟ وما أثره فى البيئة التى ظهر فيها ؟

وقد رأينا فى الحديث الماضى أن عمر لم يكن عذريا ولم يكن يريد أن يذهب مذهب العذريين ، وإنما كان عمليا محققا يلتمس الحب فى الأرض لا فى السماء . ورأينا كذلك أنه لم يكن يذهب فى حبه مذهب أصحاب المجون من شعراء العصر العباسى ؛ فلم يكن يسرف فى العبث ، وانما كان يقتصد اقتصادا و يتوسط فى حبه توسطا ، فيعف كثيرا و يعبث قليلا . وكانت ظروف حياته نفسها تكرهه على هـذه العفة ؛ لأنه لم يكد يدع امرأة شريفـة من قريش إلا شبب بهـا ؛ وما كان له أن يتجاوز العفة فى هـذا التشبيب . إنما الذى نريد أن نتبينه هو طبيعة هذا الحب . فنلاحظ قبل كل شئ أن عمر لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه ، وانما كان يحب بحسه ، و بحسـه ليس غير . كان موكلا بالجمال يتبعه . وله فى ذلك أحاديث أذكر منها قصته مع عروة بن الزبير ، فقـد سايره ذات يوم وأخذا يتحادثان ، فإذا عمر يسأله عن ابنـه محمد ، فأجابه عروة : لقد تقـدّمنا ؛ فأظهر عمر الرغبة فى أن يلحقـه و يسايره ، وأنكر عروة ذلك ، فقال عمر : أنا موكل بالجمال أتبعـه . وكان محمد بن عروة جميـلا رائع الطلعـة ؛ وقد أذن عروة لعمر فلحق بالفتى وسايره .

وله أحاديث أخرى مع الشبان فى البيت الحرامْ وخارج البيت الحرام. وتستطيع أن تقرأ ديوان عمر بن أبى ربيعة كله فلن تجد فيه من وصف بنفس المرأة وجمالها المعنوى الا قليلا جدا . فأما الذى تجده فى هذا الديوان فوصف جمالها المـادى من جهة، ووصف ميولهـا وأهوائها من جهة أخرى . ولم يخطئ نُصَيْب حين قال : ((”عمر ابن أبى ربيعة أوصفنا لربات الحجال“ . فلم يعرف العصر الأموى كله شاعرا وصـف المرأة جملة وتفصيلا بمثل ما وصـفها به عمر بن أبى ربيعة جودة وكثرة ودقة بنوع خاص .))

((كانت الصلة الجنسية أساس الحياة الأدبية وغايتها بالقياس الى عمر بن أبى ربيعة . فهو لم يكن يتصور المرأة إلا على أنها مكملة للرجل ، لايستطيع أن يعيش بدونها كما أنها لا تستطيع أن تعيش بدونه ، ولم يكن عمر يقصر هذه الصلة الجنسية على معناها المـادى وحده ، وانما كان يريدها واسعة متناولة جميع أطراف الحياة . ولست أشك فى أن عمر بن أبى ربيعة كان صـديقا للمرأة بالمعنى الحديث الذى نفهمه لصـداقة المرأة ، كان يريد لهـا من الحرية مثل مايريده للرجل ، وكان يريد أن تكون صـلة الغزل بين الرجل والمرأة صـلة ظاهرة لاحرج فيها ولا جناح ، وكان يريد أن تظهر المرأة فخرها بجمالهـا وروعتها كما يظهر الرجل فخره بشجاعته وبأسه ، وكان يريد أن تستفيد الجماعة الإنسانية من خلال المرأة ، كما تستفيد من خلال الرجل ، كان يريد أن تزول الفروق بين الجنسين وألا يكون بينهما حجاب . وسواء علينا أشعر بذلك أم لم يشعر ، أكوّن فيـه رأيا صريحا أم لم يكون ، فهناك شىء لاشك فيـه وهو أن شعر ابن أبى ربيعة كله ليس الا تغنيا بجمال المـرأة وتأثيرها فى حياة الرجل ومكانها من نفسه . (وكان كل شىء فى حياة عمر وسيلة الى الاتصال بالمرأة وذكرها والتحدث اليها ولا سيما الحج ، فلم يكن ابن أبى ربيعة يفهم من موسم الحج الا أنه معرض إسلامى للجمال ، وكان اذا قرب الموسم اتخـذ أجمل ما كان يستطيع من زينة وظهر فى مظهر الفتوة والقوة وفارق مكة فتعرض للحجيج فى طريق المدينة والشأم والعراق يتلمس نساءهم ويتبينْ هوادجهن ويعرض منها لمـا تظهر عليها آثار النعمة والترف ،

فإذا وافى الحجيج مكة وغيرها من مواضع المناسك، كان عمر قد أحصى النساء اللاتى يجب أن يكون بينه و بينهم لقاء أو حديث أو مكاتبة، وكانت له رسل تعمل فى ذلك فتأتيه المواعيد فى مكة حينا وفى منى حينا آخر، وكانت أحب ساعات الدهر اليه أوائل الليل من أيام الموسم حين يتنهز النساء فرصة الليل فيخرجن للطواف . هنالك كان عمر بن أبى ربيعة يترصدهن ، ومنهن من كانت ترصده . وهنالك كانت تبتدأ الأحاديث لتتم بعيدا عن البيت ، حتى اذا انتهى الموسم وأزمع الحجيج العودة الى بلادهم ، رأيت عمر مقسما بين نساء المدينة ونساء الشام ونساء العراق، يشيع هذه ثم يعود فيشيع تلك ثم يترك هاتين ليشيع امرأة أخرى . وهو لا يفرغ من تشييع امرأة إلا قال فيها الشعر الجيد يسبقها الى موطنها، ولا يلبث أن يسقط بين أيدى المغنين فإذا هو مصدر للهو والطرب لهذه الأرستقراطية المترفة من أبناء قريش والأنصار . فكان موسم الحج موسم شعر وغناء فى الحجاز

وقد ذهب الشعراء مذهب عمر بن أبى ربيعة . وتأثر النساء تأثرا شديدا بهذه الحركة الغزلية فأحببنها وحرصن عليها واجتهدن فى تقويتها وتذكية نارها. واستبقن الى إرضاء الشعراء وتحريضهم على قول الشعر و إغرائهم بالغزل فيه .

أظنك تستطيع الآن أن تفهم السبب فى افتتان النساء بعمر وتنافسهن فيه واستباقهن الى مودته. وأظنك تشاركنى فى الحكم بأن عمر لم يكن مغرورا ولا مفتونا ولا تياها كما كان يظن به بعض القدماء وكما يظن به بعض المحدثين أيضا. كان عمر يصف نفسه كثيرا، وكان يسرف فى هذا الوصف أحيانا حتى قال له ابن أبى عتيق ذات يوم : لم تشبب بها و إنما شببت بنفسك. ولكن مصدر هذا لم يكن غرورا ولا فتنة ولا تيها، وإنما كان حب النساء إياه حقا وتهالكهن عليه حقا . وليس من المنكر أن يكون هذا قد اضطره الى شئ من الغرور والتيه . ولكنى لست أحسب

أن الغرور والتيه وحدهما هما اللذان أنطقاه بهـذا الشعر الكثير الذى آتخذ نفسه موضوعا له .

لم يكن عمر مغرورا ولا تياها كما أنه لم يكن كاذب الحب ولا متكلفه ، وإنما كان صادق الحب حقا قويه أيضا . ستقول : فكيف يلائم ذلك مازعمت من أنه لم يكن عذريا ولم يكن يذهب مذهب جميل ؟ بل كيف يلائم ذلك ما ذكرت من أنه كان يتبع النساء جميعا بحبه لايكاد يدع آمرأة إلا ليعرض لأخرى ، وربما آشتغلت نفسه فى وقت واحد بغير آمرأة ؟ كان هذا كله حقا ، وكان عمر بن أبى ربيعة مع ذلك صادق الحب قويه أيضـا . ذلك لأنه لم يكن عذريا : لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه كما قلت آنفا ، وإنما كان يحب بحسـه وبحسه ليس غير . لم يكن حسـه يطيع قلبه فيرى الجمال فى عشيقته ويميل اليها وإنمـا كان قلبه طوع حسه ، فكان يكفى أن يرى بجمال المرأة ليخلع عليها ما شاء له الشعر من الصور الرائعـة الخلابة ، وليجد بها ما شاء له الحب من وجد لاحدّ له . كان عمر يرى كلما أحب امرأة أنه لم يحب أبدا امرأة كما أحبها ، وأنه لن يسـلو عنها مهما تبـدل الأحوال وتختلف صروف الحياة ؛ وكان صادقا فى هـذا كله ، ولكنه لم يكن يلبث أن يقول هـذا الشـعر حتى يحب آمرأة جديدة حبا ليس له بمثله عهد ولن يكون له بمثله عهـد ، ولن يجد سبيلا الى الإنصراف عنه . ومصدر هذا أن قلبه كان كما قلت تبع حسه ، وأن النساء كن مفتونات به ، فكان لايكاد يقف عنـد مظهر من مظاهر الجمال حتى يخلبـه مظهر آخر ، وكان لا يكاد يسـمع ثناء امرأة حتى يستهويه ثناء امرأة أخرى ، فكان طمعه متصلا وأمله لاحدّ له .

ليس عمر بن أبى ربيعة بدعا من الشـعراء ولا من العشاق ، فأنت تجد فى كل عصر من العصور وفى كل بيئة من البيئات عشاقا أفلاطونيين وعشاقا آخرين يحبون بالحس . ولكنى أريد أن التمس لعمر بن أبى ربيعة شبيها من أهل الأدب الحديث ، وأعتقد أن هذا الشبيه سيفسر عمر حق التفسير ويوضح نفسه وحبه أحسن توضيح .

منذ سنين كتب صديق الأستاذ ضيف رسالة باللغة الفرنسية قدمها الى السربون وقارن فيها بين عمر بن أبى ربيعة وبين الشاعر الفرنسى (ألفرِدْ دى موسيه) . وقد تكون هذه المقارنة خلابة فى ظاهر الأمر؛ فعمر بن أبى ربيعة أظهر عشاق العرب، و « الفرد دى موسيه » أظهر الغزلين من شعراء فرنسا فى القرن الماضى ، وكلاهما وقف حياته على المرأة وحبها، وكلاهما وقف شعره على جمال المرأة والتغنى به . ولكن الفرق عظيم جدا بين الشاعرين، عظيم الى حدّ أن المقارنة بينهما مستحيلة، فليس بين نفسيهما شبه ما .

أنت محزون حين تقرأ «الفرد دى موسيه» ، يتفطر قلبك لوعة وأسى ، ويأخذك شىء من اليأس والسخط على الحياة والزهد فيها حين تنظر الى هذا الحب القوى المتين فترى أنه على قوّته وصدقه ومتانته جريح يدمى .

ولكنك مبتهج راض مبتسم للحياة حين تقرأ شعر ابن أبى ربيعة؛ فلم يكن قلبه جريحا ولم تكن نفسه كئيبة، ولم يكن يرى فى الحياة إلا لهوا أو سبيلا الى اللهو . وأنت حين تقرأ ما يظهر ابن أبى ربيعة فيه الحزن والأسى مطمئن راض بل مبتسم؛ لأنك تعلم أن هذا الحزن إنما هو وسيلة الى السرور ومذهب من مذاهب الاستعطاف وسبيل من سبل اللذة .

لا أقرن ابن أبى ربيعة الى « الفرد دى موسيه » وإنما أقرنه الى رجل فرنسى آخر هو أخوه حقا ، هو صورته الصادقة لولا ما بينهما من فروق البيئة والجيل ، ولكن نفسيهما نفس واحدة، ولكن حسيهما حس واحد، ولكن مذهبيهما فى الحب وإعلانه مذهب واحد ، ولكن ميليهما فى الحياة يوشكان أن يكونا ميلا واحدا : كلاهما أحب بحسه وأخضع قلبه لحسه، وكلاهما فتن النساء، وكلاهما تحدث بفتنته للنساء حديثا حلوا خلابا، وكلاهما تعمق فى الحب الحسى حتى وصل الى قراراته، وكلاهما أحب حتى كره الحب ، ولذّ حتى زهد فى اللذة ، وكلاهما لم يعرف لحبه موضوعا يقصره عليه ، فكان يترك هذه ليحب تلك ، ويخلص من هذه ليقع فى شراك تلك

ستسألني عن هذا الفرنسي الذي يشبه عمر بن أبي ربيعــة هذا الشبه القوي الغريب ليس شاعرا ولكنه ناثر كالشاعر، أنت تعرفه حق المعرفة لأن بينك وبينه صلة قوية لأنه صديق الشرق عاما وصديق مصر خاصة : « بيير لوتي » .

أقرأت شيئا من حب هذا الكاتب؟ أقرأت كتبه عن فتيات قسطنطينية بنوع خاص ؟ إني أحب أن تقرأ هذه الكتب وأنا واثق كل الثقة بأنك لن تشك بعــد قراءتهــا وقراءة ابن أبي ربيعة في أن هذين الرجلين يصدران عن مصدر واحد. ولو أن لي أن أومن بالتناسخ لقلت : إن نفس ابن أبي ربيعة قد مرت بها أطوار الحياة المختلفــة فهذبتها تهذيبا وصفّتها تصفية ، ثم تمثلت في هذا العصر الحديث في شخص « بييرلوتي » فكتبت ما كتب « بييرلوتي » .

مكان هذا الكاتب الفرنسي من النساء عامة ومن فتيات القسطنطينية خاصة، كمكان عمر بن أبي ربيعة من المرأة عامة والمكّيات خاصة .

أحب أن تقرأ هــذه المذكرات الخاصة التي تنشرها « الالوستراسيون » منــذ أسبوع والتي تركها « بييرلوتي » ، فسترى في هذه المذكرات والكتب نصوصا لاتدع في نفسك موضعا للشــك فيما أقول . وقد أتخذ هــذه المذكرات موضعا لحــديث من أحاديث الأحد .

في هذه المذكرات ينبئنا « بييرلوتي » في ألفاظ أشبه بالنار منها بالكلام أنه أحب امرأة حبا حسيا خالصا لم يعرفه من قبل ولن يعرفه بعد، أنساه كل شيء وكل إنسان وكل واجب ، وأن هذه المرأة تحبه حبا حسيا أيضا ، ولكنها في الوقت نفسه تحب رجلا آخر وهي صادقة في الحبين . ثم ينبئنا أنه شديد الألم لأنه لايقف عند امرأة ولايستطيع أن يقصر حياته على حب واحد . ومن غريب الأمر أنك تجد في هــذه المذكرات صديقا « لبيير لوتي » ينصح له ويشير عليه ، فلا تستطيع أن تمنع نفسك من التفكير في عمر بن أبي ربيعة وصديقه ابن أبي عتيق . ثم تجد في هــذه المذكرات فصولا تصف لنا تنكر « بيير لوتي » وإخفاءه نفسه كما تجد ذلك أيضا في قصة « اليائسات »

فلا تستطيع أن تمنع نفسك من التفكير فى آبن أبى ربيعة وما كان يسلك من سبل وحيل للوصول الى النساء . فاذا وصل « بيير لوتى » الى صاحبته فالأمر بينهما كالأمر بين آبن أبى ربيعة وصاحبته : لهو حينا، وعفة حينا آخر؛ والمرأة فى كلتا الحالين تعلم حق العلم أن عاشقها لعوب مخلاف لا يكاد يقف عند المرأة إلا حينا كالنحل تنتقل بين الزهر .

اِسمع الى «بيير لوتى» وقد قضى مع صاحبته ساعات يراها أسعد ساعات حياته وهو يقول لها : إنى أحبك، فتجيبه : هذا شيء تقوله .

ثم اقرأ ما شئت من شعر عمر آبن أبى ربيعة وعتب النساء عليه وكلفهن به مع هذا العتب . و إن بين يدى الآن لصحفا من كتاب اليائسات كنت أريد أن أترجمها لك وأروى معها شيئا من شعر آبن أبى ربيعة، لتلمس تشابه النفسين لمسا؛ ولكن من لى بالمكان الذى يسمح لى بالترجمة والرواية ؛ فحسبى أن أترجم لك هذه القطعة الموجزة من كتاب «اليائسات» لترى كيف كانت الفتيات تتحدث الى «بيير لوتى» ولتعلم أن «بييرلوتى» لم يكن أقل إيمانا بسلطانه على النساء من صاحبه العربى القديم. وهى من كتاب كتبته اليه إحدى عاشقاته وقد شربت السم وهى تموت :

« ... ... أيها الحبيب العزيز أسرع الىّ فأنا أريد أن أنبئك نبئى ... ألم تكن تعلم أنى كنت أحبك من أعماق نفسى؟ يستطيع من مات أن يعترف بكل شيء ... فهو لا يذعن لسلطان ما ... ومالى لا أعترف لك وأنا مفارقة هذه الحياة بأنى كنت أحبك ! ... أى أندريه ! فى ذلك اليوم الذى جلست فيه الى هذا المكتب حيث أكتب اليك هذا الوداع أرادت المصادفة أن أميل فألمسك ... حينئذ أغمضت عينى، ومن دون هاتين العينين المغمضتين مرت أحلام ما أجملها ! ... وكانت ذراعاك تضمانى إلى قلبك، وكانت يداى اللتان يملؤهما الحب تمسّان عينك فى لطف وتذودان عنهما الحزن ... آه لقد كان يستطيع الموت أن يأتى حينئذ، ولقد كان يصادف لو أتى مللك وسآمتك ! ولكن ما كان أحلاه وما كان أملأ هذه النفس التى يجملها بالغبطة

والشكر... آه ! كل شيء يختلط ويحتجب ... زعموا لى أنني سأنام ولكني لا أحس النوم بعد! ولكن كل شيء يضطرب ويتضاعف وكل شيء يرقص ... وإن شمعاتى لكالشموس ... وأرى زهراتى يعظمن، يعظمن حتى لكأنى فى غابة من زهر شائق! تعال أندريه ... أُدنُ منى . . ماذا تصنع بين الورد ؟ ... أُدن منى حينما أكتب ... أريد أن تطوقنى بذراعك وأريد أن تقبل شفتاى عينيك الغاليتين ... هنا أيها الحبّ فهكذا أريد أن أنام قريبا منك وأن أقول لك إنى أحبك ... أُدن منى عينيك، فإن الموتى مثلى يستطيعون أن يقرءوا النفوس من طريق العيون ... » .

لست أزعم أن إحدى صاحبات عمر تحدّثت اليه بشيء يشبه هذا أو يقاربه . وما كان لقرشية أن تحدث فى القرن الأول للهجرة بمثل ما تحدث به هذه التركية المترفة فى القرن الماضى . ولكن هـذه التركية تشبه تلك القرشية شبها قويا جدا، فهى تحب صاحبها وتعلن اليه حبها فى قوة وعنف وفى غير تحرّج ولا تحفظ، أو قل إن « بييرلوتى » يشـبه عمر بن أبى ربيعة فهو يُنطق هـذه التركية بحبها إياه كما كان يُنطق بن أبى ربيعة القرشيات بحبهن .

ولنختصر حكمنا فى عمر بن أبى ربيعة (كان هذا الحب حسيا صادقا متنقلا بطبعه شديد التأثير فى النساء إلى حد الفتنة . وقد فتن عمر النساء وتيمهن فأخذن يطربنه ويتهالكن عليه حتى فتن بنفسه، فلم يتغن بحبه إياهن كما تغنى بحبهن إياه . هو فى هذا كله مشبه كل الشبه «لبييرلوتى» لافرق بينهما الا ماينشأ من آختلاف أطوار الحياة. ولكنى لم أثبت شيئا مما قلت عن عمر بشيء من شعره . ولم أروى لك شعر عمر، وأنا لن أروى لك منه الكفاية؟ وأنت تستطيع أن ترجع اليه، فديوانه شائع منشور، وأنا واثق أنك ستنتفع بقراءته آنتفاعا جديدا إذا لاحظت ماقدمت لك من أمر حبه .

وأحسب أن قد آن لنا أن ندع الغزلين بعد أن ألممنا بما ألممنا به من حياتهم وفنونهم وشخصياتهم وأهوائهم المختلفة . فلندعهم؛ ولكن الى من؟ ذلك شيء لا أعرفه الآن وقد أعرفه فى الأسبوع المقبل .